

الفكر التربوي الإسلامي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق

تأليف
دكتورة نيكو ديامه



شركة أبناء شريف الانصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

المكتبة العصرية

الخندق العميق - ص.ب: 11/8355

تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875

بيروت - لبنان

الكتاب النوراني

بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221

تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261

صيدا - لبنان

المطبعة العصرية

كفر جرة - طريق عام صيدا جزين

00961 7 230841 - 07 230195

تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875

صيدا - لبنان

الطبعة الأولى

هـ 1437 - 2016

Copyright© all rights reserved

جميع الحقوق محفوظة للناس

يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان
ادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو
أي طريقة، سواء كانت الكترونية، أو بالتصوير،
أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من
الناشر مقدما.

alassrya@terra.net.lb

E. Mail alassrya@cyberia.net.lb

info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت

www.alassrya.com

الإهداء

إلى المربي الأول والناصح الأكمل والأب الأمثل

سيدنا محمد رسول الله ﷺ

وإلى مُحيي سنته الشريفة

باعث الروح والعلم والأخلاق في الأجيال

ومجدّد النهضة الفكرية والثقافية في الإسلام

إلى الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق

أيها الإمام العظيم، أيها المفكر الجليل، أيها المربي الشفيق،

ترى هل وفيتك حقك وأنا أقفو خطاك في هذا البحث المتواضع؟

لكن يا ابن رسول الله إنّ الهدية على قدر مهديها.

عشت معك ساعات وأياماً وشهوراً وأعواماً وأنا أتنقل بين

روائع عطايك في المراجع والمصادر بذكرك، فوجدتك في جميعها

عظيماً ومনিراً ومعلماً كبيراً. أنعم الله عليك فأجزلت بنعمه على كل

إنسان جمعت العلم من مكامنه العميقة ورصعته بالنور بجهودك

النشيطة وقدمته للأمة لتفجر به طاقاتها الكريمة.

تقديم

أ.د. محمد منير سعد الدين

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبعد... إن الكتاب الذي بين يدي القارئ هو في الأصل أطروحة دكتوراه عنوانها: «الفكر التربوي عند الإمام جعفر الصادق»، تقدمت بها الطالبة لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية حيث كلفت من المجلس العلمي بالإشراف عليها.

هنا أشير أنه عندما جاءني الطالبة الباحثة بعد تكليفي بالإشراف عليها شعرت بالعبء الكبير الملقى على عاتقها، والجهد الذي عليها أن تبذله، بخاصة وهي تخوض في الفكر التربوي للإمام جعفر الصادق، لأن الباحث في الفكر التربوي الإسلامي عامة أشبه بمن يجمع ذرات من التراب فهو يقرأ كتباً ضخمة متعددة الأجزاء فيخرج منها بمحصول ضئيل أو بلا شيء، وأيضاً ظاهرة عدم تركيز علماء المسلمين في أعمالهم على النشاط التربوي في كتب خاصة، والأمر نفسه بالنسبة للإمام جعفر الصادق فهو إنسان ترك تراثاً موسوعياً كبيراً. ولكنه لم يترك كتباً تربوية مستقلة. كذلك لم يترك المعاصرون ممن سبقوا الباحثة كتابات تربوية بهذه الإفاضة العلمية والإمام بالجانب التربوي كما قدمته. وما زاد شفتي أيضاً أنها من أصول فارسية وهي بحاجة إلى تمكن في اللغة العربية. وأيضاً رغم ممارستها التعليم فهي لم تكن مختصة بالتربية. ومع كل هذا استطاعت أن تذلل صعوبات كثيرة واجهتها بالصبر، وطول النفس، والقدرة الفائقة على التعلم.

ولا بد من وقفة عند الإمام جعفر بن محمد بن علي الملقب بالصادق، والذي عاش في نهاية الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية، وفي عهد تبادل أفكار وتفاعل مع الأمم والحضارات، حيث تمخضت الحركة الفكرية عن مذاهب فلسفية وفقهية مختلفة، ومدارس كلامية، وأشاعرة، ومعتزلة، وقدرية، وجبرية، وخوارج، ومتصوفة، وزنادقة، وملاحدة وغيرها.

لقد ملأ جعفر الصادق الدنيا بعلمه (كما يقول الجاحظ)، وعمل على إعداد قيادات واعية، ومعلمين عاملين على نشر الإسلام، وتركزت جهوده العلمية في مختلف الاختصاصات من الفلسفة وعلم الكلام والطب والرياضيات والكيمياء، إضافة إلى القواعد والأصول الاجتماعية والفقهية كركيزة متينة للتشريع الإسلامي تضمن بقاءه واستمراره. وواجه أخطار الزنادقة والملاحدة بأسلوب مرن وهدوء ورصانة ناقداً وداحضاً آراءهم وحججهم.

أما الحديث عن علمه ومدرسته والأجيال التي تخرجت على يديه حيث يقال إنه قد يلقي عدد طلابه أربعة آلاف طالب .

ولقد اشتهر من طلابه: مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وأبو حنيفة بن النعمان، وسفيان الثوري، وجابر بن حيان، وهشام بن الحكم وغيرهم كثير .
ونقل عنه كثير من العلماء أمثال: مالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وإبراهيم بن أدهم، ومالك بن دينار وغيرهم .

يقول عنه مالك بن أنس: «ما رأيت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وورعاً وعبادة» .

ويقول عنه كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي: «عبد الله أبو جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)، هو من عظماء أهل البيت وسادتهم (عليهم السلام)، ذو علوم جمّة، وعبادة موفورة، وأوراد متواصلة، وزهادة بينة، وتلاوة كثيرة، يتبع معاني القرآن الكريم، ويستخرج من بحره جواهره، ويستفتح عجائبه، ويقسم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكر بالآخرة، واستماع كلامه يزهّد في الدنيا، والاقتداء به يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبوة، وطهارة أفعاله تصدع بأنه من ذرية الرسالة» .

ذلك هو الإمام جعفر الصادق والذي طرقت الباحثة بابه لتعرف من بحر علمه، وبالذات من فكره التربوي، ولتقدم الأطروحة في صورتها كما هو واضح من فصولها في هذا الكتاب:

الإطار العام للدراسة: يتضمن المنهجية العلمية للدراسة .

الفصل التمهيدي: التربية من المنظور الإسلامي .

الفصل الأول: دراسة شخصية الإمام الصادق .

الفصل الثاني: التربية العقديّة والعبادية .

الفصل الثالث: التربية العلمية والعقلية .

الفصل الرابع: التربية الخلقية والاجتماعية .

الفصل الخامس: التربية الاقتصادية والمهنية .

الخاتمة:

بعد هذا العرض لجهد مشكور، من باحثة جادة، خاضت عملاً صعباً، ولكنها استطاعت أن تشق طريقها بنجاح، يسرني أن يكون هذا الكتاب لبنة من اللبنة التي قامت عليها سلسلة الكتاب التربوي الإسلامي .

والله ولي التوفيق .

شكر وتقدير

لقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ﴾^(١)، والشكر كما يقول الإمام جعفر الصادق: «زيادة في النعم وأمان من الغير».

أما وإني قد انتهيت من إعداد هذه الأطروحة فلا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر والامتنان للعلي القدير على ما وفقني إليه.

ويجدر بي في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى فضيلة الأستاذ الدكتور محمد منير سعد الدين (حفظه الله) الذي أشرف على هذه الدراسة وما قدمه لي من نصح وتوجيه وإرشاد لإغناء البحث وإثرائه، فجزاه الله خيراً لخدمة العلم.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى الأستاذ الفاضل الدكتور نايف معروف على مراجعته للبحث وملاحظاته القيمة.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى كلية الإمام الأوزاعي - عمادة وأساتذة وعاملين - والتي أتاح لنا هذه الفرصة الذهبية في العودة إلى التربية السليمة وفق منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ولا بدّ من توجيه الشكر إلى المكتبات والعاملين فيها ببلبنان وإيران.

ثم أتوجه بشكري وتقديري للجنة المناقشة التي ستكون ملاحظاتها إنارة لطريقي في هذا البحث واعتناء وإثراء له.

كما أوجه الشكر إلى كلّ من مدّ يد العون والمساعدة في إعداد هذه الدراسة العلمية.

ومن الحري أن أذكر في هذا المقام أخي الشهيد الذي كان أول من عرّفني على مدرسة الإمام الصادق وربّاني على حبّ النبي ﷺ وأهل بيته.

وكذلك والدي المرحوم العزيز الذي بدأت هذا السبيل مشيئة بدعوته الخيرة، غير أنّ القدر الإلهي لم يمهل لي شهادته اكتمال هذا المسعى فمضى إلى ربّه.

وأقدم خالص شكري إلى أمي الحنون التي شاهدت منها العزيمة الثابتة على

(١) سورة الزمر، الآية ٧٤.

الأخلاق والتحلي بجميل الآداب ومعدرةً من القلب لأنني انصرفت عنها وقضيت من الأوقات بين جنبات الكتب أكثر ممّا قضيت معها، أسأل الله لها العافية والدرجات العالية.

ويطيب لي أن أسجل عميق شكري لرفيقة دربي وشريكة أملتي، أختي الوحيدة، والتي كانت لي خير معين ومساعد لإنجاز هذا الجهد، كما كانت لي بمنزلة نعم العون في طاعة الله طيلة حياتي. وكذلك أشكر عائلتها جميعاً (زوجها وأولادها) على دعمهم وتشجيعهم وموافقهم الطيبة، فلهم مني جميل الشناء واستمرارية الدعاء.

وأسأل الله أن يجعل جهدنا جميعاً فيه خالصاً لوجهه تعالى فيما يحب ويرضى من خير للإسلام والمسلمين إنه سميع مجيب.

الإطار العام للدراسة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا الأمين وعلى آله وصحبه الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه .

وبعد . . .

لا يخفى على أحد من المختصين أهمية التربية في حياة الإنسان . فهي ضرورة من ضروريات الحياة وشأن أصيل من شؤون الإنسان لأن قيمة المجتمع لا تتمثل في معادنه وثرواته وإنما قيمته مرهونة بالعقول الناضجة والأفراد المهذبين ، الذين يعيشون فيه .

وبما أن التربية الإسلامية تربّي الفرد الصالح ، والأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح ، وعن طريقها تتقدم الحضارات وتصنع الأجيال وتنمو المفاهيم الإنسانية الخيرة بين البشر ، من هنا تتضح الحاجة إلى معرفة نظرة التربية الإسلامية للإنسان مستلهمين أصالتنا التربوية وفكرنا الإسلامي القائم على الكتاب والسنة .

إن البشرية تعاني اليوم من أزمات حادة ومعضلات صعبة ، رغم التطور العلمي والتقني ، ولا تعود هذه الأزمات إلى طبيعة النظام العالمي والنظم الاقتصادية ، بل تعود إلى فشل المدارس الفكرية والتربوية في بناء الإنسان المتوازن بين قابلياته المعنوية وميوله النفسية .

ومع الأسف نرى أن التربية السائدة في النظم التعليمية المعاصرة في عالمنا الإسلامي متأثرة إلى حد كبير بأنظمة التعليم وأفكار التربية الغربية دون تدقيق في محتوى ومضمون هذه التربية أو في الظروف الغربية الخاصة التي أدت إلى ولادة هذه التربية ومفاهيمها .

وليست التربية في بلادنا اليوم تربية إسلامية خالصة ، ولا تعبر عن أوضاعنا وطموحاتنا وأهدافنا . ونحن في الوقت الحالي في أمس الحاجة إلى النظام التربوي الإسلامي الذي يتناسب مع واقعنا وعقيدتنا . وهذا يقتضي منا بشكل ملحّ على العودة إلى تراثنا الإسلامي الزاخر بآراء وأفكار تربوية متميزة من خلال ما خلفها السلف الصالح والتي جاءت أمينة وصادقة .

من ثم اهتم كثير من الباحثين وبعض المنظّمات بدراسة العديد من الشخصيات الإسلامية البارزة لإظهار فكرهم التربوي للإفادة منه في بناء نظرية تربوية إسلامية معاصرة التي تصلح لحاضرنا ومستقبلنا .

ومن الشخصيات الإسلامية التي كان لها دور بارز في النظام التربوي الإسلامي الإمام جعفر بن محمد الصادق ، حفيد رسول الله ﷺ ، الذي أسهم إسهاماً فاعلاً في دفع عجلة التربية إلى الأمام ، فهو مربّ قدير تتلمذ على يديه عدد من العلماء البارزين ، وقد خلف من بعده من إرشادات وتعاليم ، وتراث موسوعيّ يفتح على كل قضايا الإنسان في حياته الفردية

والاجتماعية والذي يتّضح من دراسته مدى قيمته اتفاهه مع الكتاب والسنة. كما قال الإمام جعفر بن محمد نفسه :

«حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين علي، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله قول الله تعالى»^(١).

من أجل هذا، أردت الإسهام في هذا الموضوع، والهدف منه لا يقف عند إبراز دور هذا المفكر في الحضارة الإنسانية، إنّما يتعدّى ذلك إلى تبين فكره وتوظيفه في التربية المعاصرة، خصوصاً أنّ عصره كان عصر ثقافات أجنبية متعددة وأيضاً ديانات مختلفة، ومن ثمّ فقد عاش في عصرٍ أقرب إلى عصرنا هذا الذي نعيش فيه.

ولقد حاولت - قدر استطاعتي - إعطاء صورة واقعية لقضايا التربية عند الإمام، ولا أظن أنني بهذه الأطروحة قد أتيت على كل آراء الإمام جعفر الصادق التربوية، وربما فاني الكثير منها، وهذه الدراسة لا تمثل كل النظام التربوي لديه، بل تمثل جزءاً من آرائه في التربية، وهناك دراسات كثيرة يجب الكشف عنها وإخضاعها للبحث والدراسة، لعلّها تكشف عن أصالة الفكر التربوي في الإسلام.

أسباب اختيار الدراسة :

ثمة دوافع دفعتني إلى اختيار هذه الدراسة جملة منها :

أولاً: التربية الإسلامية تختلف عن غيرها من النظم التربوية في إعداد الإنسان للحياة الدنيا والآخرة، ومما لا شك فيه أن استقرار مناهج هذه التربية عند المفكرين الإسلاميين يضعنا في خندق المواجهة مع أزمة التربية الإسلامية اليوم، والسعي لإيجاد النظام التربوي الإسلامي الذي يعيد إلينا كرامتنا ويعود بنا إلى الإسلام.

ثانياً: كشف الفكر التربوي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق المفكر، العالم، الذي كان له مدرسة نموذجية في تربية الإنسان والأخذ بمنهجه للسعي باتجاه وضع الماضي في خدمة الحاضر والمستقبل.

ثالثاً: عندما بحثت في المكتبات الإسلامية وجدت على الرغم من قيام عدد من الدارسين بالدراسة في شخصية الإمام الصادق ومنهجه في المواضيع المختلفة كالمناهج الفقهي والسياسي لم يتعرضوا إلى أفكاره التربوية، الذي اهتم بها اهتماماً بالغاً في حياته كلها. وقد رمت إلى تبين هذه الفكرة من خلال هذه المحاولة المتواضعة مع الالتزام بقواعد المنهج العلمي.

إشكالية الدراسة :

أمل أن أتمكن من خلال هذه الأطروحة من الإجابة عن هذا التساؤل الرئيسي :

(١) أحمد بن علي النجاشي، رجال، دار الأضواء، بيروت ١٤٠٨، ص ١٣٩، ح ٧٩.

ما النظام التربوي الإسلامي في مدرسة الإمام الصادق؟ ومن الذي يمثل الشخصية الصالحة عند الإمام، وكيف يمكن تربيته؟

ويترتب على ذلك طرح تساؤلات فرعية مثل :

- ما الأسس التي تقوم عليها التربية في فكر الإمام الصادق؟

- ما الميادين التي تقوم فيها التربية عند الإمام؟

- ما أهم المبادئ والأساليب التربوية في مدرسة الإمام؟

صعوبات الدراسة :

قد تعرضت لصعوبات كثيرة في هذه الدراسة ومنها :

- كثرة تراث الإمام جعفر من أقواله ورسائله وخطبه وحكمه، لأنه ليس شخصية عادية، محدودة الأبعاد، والفكر، ومحدودة الآراء، فيصعب الإلمام بأطرافه .

- إن الإمام الصادق رغم كثرة تعاليمه لم يترك لنا كتابات تربوية مستقلة كسائر التربويين ومع ذلك في كل ما قاله الإمام، تربية .

- صعوبة استخراج وتنسيق آراء الإمام التربوية وتبويبها، نظراً لأنها متناثرة في مجالات مختلفة والتي تؤدي إلى البحث في هذه المجالات العديدة كلها .

- عدم وجود أبحاث سابقة في هذا الموضوع .

منهج الدراسة وحدودها :

اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي - الاستردادي - باعتباره المنهج الذي يرجع إليه في تحليل الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية في ذلك العصر، إضافة إلى المنهج الوصفي - التحليلي عند تتبع آراء الإمام جعفر لاستنباط أفكاره التربوية .

لا بد لاستقصاء أقوال الإمام في هذه الدراسة من العودة إلى كافة المصادر المقبولة عند المسلمين، وهذا لا يعني أنني وثقت بكل ما روي عن الإمام الصادق، لأن وجود الكذابين والوضاعين بين الرواة حقيقة، أشار إليها الإمام نفسه، حيث قال :

«إنَّ الناس قد أولعوا بالكذب علينا وإني أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير وجهه وذلك أنهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله وإنما يطلبون الدنيا وكل يحب أن يدعي رأساً»^(١) .

من أجل ذلك فقد سلكت في هذا الطريق ذلك الأسلوب الذي أشار إليه الاستاذ محمد أبو زهرة في دراسته عن الإمام الصادق بقوله :

«نتلقى منه ما لا يعارض كتاباً أو سنة بل نجد فيها تأثيراً لأحكامها وما اشتملا عليه من عقائد وتتفق مع ما عرف عن الصادق رضي الله عنه»^(٢) .

(١) محمد بن الحسن الطوسي، اختبار معرفة الرجال، مؤسسة آل البيت، قم، ج ١، ص ٢٤٧.

(٢) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق حياته وعصره، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٧٦ (بتصرف).

وهذا هو المعيار ذاته الذي قرره الإمام جعفر نفسه لطلاب الحقيقة، حيث يقول: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق الكتاب والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة»^(١).

أما الحدود الزمنية للبحث فإنها تقتصر على الفترة ما بين سنة ٨٠ حتى سنة ١٤٨ هـ: ق، حياة الإمام جعفر، رغم أنني أشرت إلى فترة سابقة، لأن فكره له ارتباط بذلك.

الدراسات السابقة:

لا جرم أن بحوثاً ودراسات قيمة كثيرة قد أنجزت لحد الآن حول شخصية الإمام الصادق، ووضعت العديد من الكتب في هذا المضمار.

وقد ركزت هذه الدراسات غالباً على شخصية الإمام من زوايا عقدية وسياسية ودعوية مختلفة، وسلطت الضوء قبل كل شيء على آرائه الفقهية باعتباره زعيم أحد المذاهب الإسلامية.

من بين أهم هذه الكتب يمكن الإشارة إلى:

كتاب الأستاذ أبو زهرة بعنوان: «الإمام جعفر بن محمد، حياته وآراؤه، عصره وفقهه» وكتاب «الإمام الصادق رائد السنة والشيعة» من تأليف الدكتور عبد القادر محمود. إلا أن أياً من هذه المؤلفات لم تتجه اتجاهاً تربوياً، ولم تكتب بغية استخلاص الآراء والأساليب التربوية لهذا المعلم المبرز في تاريخ المسلمين.

ومع أن كثيراً من الآراء والأفكار التربوية لهذا المفكر ممكنة الرصد في ثنايا هذه الكتب، وكذلك الكتب المؤلفة حول الأفكار التربوية لمذهب الإمامية ككتاب: «الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية» تأليف أمير علاء الدين قزويني، وكتاب «تاريخ التربية عند الإمامية» لعبد الله فياض، بيد أن أياً من هذه الدراسات لم تعن بالجانب التربوي لفكر الإمام الصادق. وعلى الرغم من أهمية هذا الجانب وضرورته إلا أن دراسة علمية مستقلة لم تظهر في هذا الميدان (في حدود علمي).

من هنا فقد حاولت في هذه الأطروحة التركيز على هذا البعد المنسي وكشف النقاب عن الأفكار والأساليب والآليات التربوية لدى الإمام بقصد اكتشاف النظام التربوي العام عند هذا المعلم والمربي الكبير.

خطوات الدراسة:

تتكون الدراسة من فصل تمهيدي وخمسة فصول:

فصل تمهيدي: التربية من المنظور الإسلامي

في مستهل هذا الفصل تم تعريف التربية لغوياً واصطلاحياً، وجرى الحديث عن

(١) - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣، ج ٢، ص ٢٤٩.

أهمية التربية الإسلامية ومكانتها. ثم أُشير إلى العوامل المؤثرة في التربية الإسلامية، ولا يفوتني أن أسلط الضوء بعد ذلك على مصادر وخصائص التربية الإسلامية التي تميزها عن التربية البشرية. وفي الخاتمة تمت الإشارة إلى أهداف التربية الإسلامية وبعض أبرز أساليبها.

الفصل الأول: «دراسة شخصية الإمام جعفر بن محمد»

يشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث. وقد حاولت في المبحث الأول أن أقدم صورة للخصائص البارزة في عصر الإمام الصادق. وعنيت في المبحث الثاني بمراجعة عاجلة لحياة الإمام مسلطة الضوء على المنزلة العلمية للإمام وتصورات العلماء والشخصيات الإسلامية حوله، وسمات مدرسته الفكرية والتلامذة الذين تخرجوا منها.

المبحث الثالث يحمل عنوان «إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق» ويعالج الإطار العام للعملية التربوية من منظور الإمام، ومن ذلك الرؤى الأساسية في المقولات الثلاث (الله - الكون - الإنسان)، والعوامل المؤثرة في التربية من وجهة نظر الإمام، وكذلك طرائق التربية والتعليم. ولا يفوتني أن أُشير في هذا البحث كذلك إلى التربية الجسمية والروحية التي عُني بها الإمام في مدرسته عناية بالغة، كما تم التطرق باختصار إلى مكانة وأهمية تربية الأطفال في فكر الإمام الصادق.

في الفصل الثاني فما بعد تناولت بالتفصيل في كل واحد من الفصول أبعاداً تتعلق بمجالات مختلفة في تربية الإمام وقدمت أهم النقاط ذات الصلة بهذه الأبعاد. فكانت مضامين الفصول كما يلي:

أما الفصل الثاني فإنه يختص «بالتربية العقيدية والتعبدية» في مدرسة الإمام، ويشتمل على مبحثين: في المبحث الأول عمدت ابتداءً إلى تعريف العقيدة وبيان أهميتها في الإسلام وتصورات الإمام الصادق، ثم انتقلت إلى عرض منهج الإمام في خلق وتكريس العقيدة الإسلامية على أساس محورين، الأول: تكوين العقيدة الصحيحة، والمشمول على أساليب الإمام في تحكيم الأركان العقيدية الستة. والثاني: تحصين الأمة عن التيارات المنحرفة والخاطئة، حيث تم التطرق لأساليب الإمام في صيانة الأمة الإسلامية من الشبهات والفتن الفكرية الوافدة من خارج الإسلام كالإلحاد والزندقة، وكذلك الانحرافات داخل الإسلام من قبيل الأفكار المغالية والمتطرفة.

أما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد خُصص لتربية روح العبادة لدى أفراد المجتمع. وقد تناولت فيه مفهوم العبادة وأهميتها في مدرسة الصادق، وكيفية تعليم فقه العبادات من قبل الإمام، والتربية الروحية عن طريق مظاهر العبادة كالصلاة والحج و... الخ.

وذكرت في هذا المبحث أيضاً «الالتزام بالنظرية والتطبيق» و «التركيز على الاعتدال» هما السمتان الرئيستان لمنهج الإمام.

الفصل الثالث خصصته لمنحى الإمام في «التربية العلمية والعقلية» لتلاميذه، ويضم

مبحثين: المبحث الأول يختص بأهمية العلم وصفات المعلم والمتعلم من وجهة نظر الإمام. وأخيراً تم بحث ودراسة أبرز الأساليب التعليمية عند الإمام.

أما أهم عناوين المبحث الثاني في هذا الفصل فهي: مكانة العقل في مدرسة الإمام، علاقة العقل بالدين والأخلاق، أساليب تنمية العقل وطريقة التفكير المنطقي والعلمي. ويختص الفصل الرابع بأبرز منحى للإمام في التربية ألا وهو «التربية الأخلاقية والاجتماعية»، ويحتوي مبحثين اثنين: في المبحث الأول الخاص ببنية السلوك الفردي لدى الإنسان الصالح من وجهة نظر الإمام الصادق، تطرقت إلى ماهية الأخلاق ومكانتها في الأفكار التربوية للإمام، وكذلك أهداف وأساليب هذا المربي الكبير في المضممار المذكور.

خلق رصيد معرفي للسلوكيات، إلى جانب إيجاد حالة الحب والإقبال على الفضائل الأخلاقية، بالإضافة إلى آليات تعزيز الإرادة الفردية من جملة أصول ومبادئ التربية الأخلاقية عند الإمام التي تناولناها بالبحث والدراسة.

المبحث الثاني في هذا الفصل مخصص لاتجاهات الإمام في التربية الاجتماعية، وكيفية تنمية الشعور بالمسؤولية لدى الفرد تجاه الآخرين - سواء كانوا أفراد عائلته أم أقرباءه أم اصدقاءه أم جيرانه أم سواهم - وفي النهاية جرى الحديث عن أهم المبادئ التربوية للإمام في إيجاد السلوك الاجتماعي المناسب لدى الإنسان الصالح، ومنها: الأخوة، والتكافل، والصدق، والأمانة، والإصلاح الاجتماعي.

أما الفصل الخامس وهو آخر فصول هذه الأطروحة فيحمل عنوان «التربية الاقتصادية والمهنية» ويشتمل أيضاً على مبحثين:

درست في المبحث الأول مناهج التربية الاقتصادية عند الإمام ضمن محورين، الأول في المجال النظري حيث بينت جهاد الإمام من أجل صياغة رؤية صائبة (مستخلصة من الإسلام) بخصوص المال والملكية والكسب والربح. والثاني في المجال العملي حيث أوضحت كيفية تربية الإنسان المسلم على أساس نموذج صحيح للإنتاج والاستهلاك في مدرسة هذا المعلم الكبير.

في المبحث الثاني من الفصل الأخير تطرقت إلى أهمية الشغل والمهنة من وجهة نظر الإمام إلى جانب ضوابط وأخلاقيات المهنة عند الإنسان الصالح.

وهكذا نصل إلى نهاية دراستنا بخصوص الفكر التربوي للإمام جعفر الصادق. وفي خاتمة الدراسة قد تناولت باختصار بعض السمات المميزة للمنهج التربوي للإمام جعفر بن الصادق.

أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في معالجة هذا الموضوع.

فصل تمهيدي

التربية من المنظور الإسلامي

- مفهوم التربية الإسلامية وأهميتها :
- العوامل المؤثرة في التربية الإسلامية :
- مصادر التربية الإسلامية وسماتها :
- أهداف التربية الإسلامية وأساليبها :

فصل تمهيدي

التربية من المنظور الإسلامي

لم يعد خافياً على أحد ما للتربية، بمفهومها الواسع ومضامينها العريضة، من أثر وأهمية في حياة الأفراد والمجتمعات وتجددتها.

إن التربية إنما تكون قاعدة أساسية لتطور الإنسان وارتقائه فكرياً فيما إذا استهدفت الازدهار التام لشخصيته وعُنيت بغرس النزعات الخيرة في نفسه، وإذا لم تعن بذلك فإن الإنسان يفقد أصالته وذاته.

فهي عملية اجتماعية تختلف من مجتمع إلى آخر حسب طبيعة المجتمع والقوى المؤثرة فيه والقيم التي اختارها، ليسيير عليها في حياته.

فالتربية بهذا المعنى وسيلة وهدف، طريقة وغاية، تبدأ من بدء الحياة، ولا تنتهي برغم نهاية حياة الأفراد؛ لأنها عملية اجتماعية تخص المجتمع، كما تخص كل فرد فيه.

والحديث عن التربية الإسلامية يستند إلى الحديث عن الإسلام نفسه؛ لأن الإسلام دين للبشر كافة، ولأنه نظام يتضمن كل ما يتصل بحياة الإنسان من جوانبها المختلفة ككلٍّ «وهو منهج ربّاني للحياة البشرية، ينظم شؤونها في الدنيا في كافة المجالات للفرد والأسرة والمجتمع، فيضمن للإنسان الفرد، والإنسان الأمة، والإنسانية جمعاء إذا ما اتقوا ربهم في القول والعمل، السعادة في الدارين»^(١).

فالتربية الإسلامية هي تلك التربية التي تجمع بين «تأديب النفس، وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم فهي تعنى بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية دون تضحية بأي نوع منها على حساب الآخر»^(٢).

(١) - إسحاق أحمد فرحان وآخرون، نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٣٩٩ هـ، ص ١٠، (بتصرف).

(٢) أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٩.

- مفهوم التربية الإسلامية وأهميتها :

أ - التربية لغة :

إذا تتبعنا معنى مصطلح التربية من الناحية اللغوية فإننا نجد أنه يعود إلى أصول لغوية ثلاثة وهي :

الأصل الأول: ربا، يربو بمعنى: نما، ينمو وزاد، يزيد

وفي هذا المعنى نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِندَ اللَّهِ﴾^(١).

وقال الراغب الأصفهاني^(٢): الربّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام^(٣).

كما يقول البيضاوي^(٤) في تفسيره: فرباه بمعنى نمّاه، والتربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم خرجت الكلمة إلى وصف الله تعالى على سبيل المبالغة^(٥). ويقول الفيروز آبادي^(٦) في القاموس المحيط: ربّ جمع وزاد^(٧).

والأصل الثاني: رَبَّى، يربّي بمعنى نشأ وترعرع.

(١) سورة الروم جزء من الآية ٣٩.

(٢) هو الحسين بن محمد بن المفضل، (ت ٥٠٢ هـ) المعروف بالراغب الأصفهاني، من علماء التفسير واللغة، من كتبه: تحقيق البيان في تأويل القرآن، مفردات ألفاظ القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة (عادل نويهض، معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسس نويهض الثقافية، بيروت، ١٩٨٨، ج ١، ص ١٥٨ و ١٥٩).

(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، كتاب الرءاء، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٣٦.

(٤) عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد أو أبو الخير ناصر الدين البيضاوي (م ٦٨٥ هـ) قاض، مفسر، علامة، ولد في المدينة البيضاء (قرب شيراز) وتوفي في تبريز. من تصانيفه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» في التفسير و «لب اللباب» في علم الإعراب و «طوالع الأنوار» في التوحيد. (الزركلي: الأعلام، ١١٠ / ٤)

(٥) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٦٨، ج ١ ص ٧.

(٦) محمد بن يعقوب بن الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ) ولد في شيراز، وتوفي في زبيد باليمن، من أئمة اللغة والأدب، من كتبه القاموس المحيط وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. (الزركلي: الأعلام، ١٤٦ / ٧)

(٧) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧، ماده ربّ.

وعليه قول ابن الأعرابي^(١):

فمن يك سائلاً عني فإني بمكة منزلي وبها ربيت
والأصل الثالث: ربّ يربّ بمعنى: أصلح، وساس، ورعا، وتولى. ومن هذا
المعنى قول حسان بن ثابت^(٢) كما أورده ابن منظور^(٣) في لسان العرب:

ولأنت أحسن إذ برزت لنا يوم الخروج بساحة القصر
من درة بيضاء صافية مما ترّبّ حائر البحر
وقال: يعني الدرة التي يربّيها في الصّدف في قعر الماء، ويبيّن بأن معنى:
ترّبب حائر البحر: أي مما ربّبه وترّبه أي رباه مجتمع الماء في البحر.
قال: ورببت الأمر أرّبه ربّاً ورباباً: أصلحته ومثّنته.

وقال: ربّ ولده والصبي يربّه ربّاً... وليّه حتى يفارق الطفولية.^(٤)

ويمكن استنباط مجموعة من العناصر من خلال هذه الأصول اللغوية:
«أولها: المحافظة على فطرة الناشئ ورعايتها.

ثانيها: تنمية مواهبه واستعداداته كلها، وهي كثيرة متنوعة.

ثالثها: توجيه هذه الفطرة وهذه المواهب كلها نحو صلاحها وكمالها اللائق
بها.

رابعها: التدرج في هذه العملية، وهو ما يشير إليه البيضاوي بقوله: (...).
شيئاً فشيئاً) والراغب بقوله: (حالاً فحالاً...))^(٥).

(١) محمد بن زياد (١٥٠ - ٢٣١ هـ) المعروف بابن الأعرابي، أبو عبد الله، رواية، ناسب علامة باللغة، من أهل الكوفة، ومات بسامراء له تصانيف كثيرة منها «تاريخ القبائل» و«النوادر» و«تفسير الأمثال» و«معاني الشعر». (الزركلي: الأعلام، ٦/ ١٣١).

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد (م ٥٤ هـ) الصحابي، شاعر النبي ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، كان من سكان المدينة، كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة وشاعر العُمانيين في الإسلام. وعمي قبل وفاته. (الزركلي، الأعلام ٢/ ١٧٥).

(٣) محمد بن مكرم بن علي بن منظور (ت ٧١١ هـ)، ولد وتوفي في مصر، من أئمة اللغة والأدب، من كتبه معجم لسان العرب. (الزركلي، الأعلام ٧/ ١٠٨).

(٤) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج ١، مادة رب، ص ٤٠١.

(٥) عبد الرحمن الباني، مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٠، ص ٢٠.

ب - التربية اصطلاحاً:

للتربية في الاصطلاح تعريفات كثيرة، تتلافى أو تتقارب في مضمونها، ولعل أكثرها وضوحاً التعريفات الثلاثة الآتية:

«التربية عملية قصدية، يتم عن طريقها، توجيه الأفراد الإنسانيين، لنموهم»^(١).

وجاء في تعريف آخر للتربية بأنها «العملية المقصودة أو غير المقصودة، التي اصطنعها المجتمع، لتنشئة الأجيال الجديدة، بما يسمح بتنمية طاقاتهم وإمكانياتهم إلى أقصى درجة ممكنة، ضمن إطار ثقافي معين، قوامه: المناهج، والأفكار، والنظم التي يحددها المجتمع»^(٢).

ومن أشمل التعريفات الواضحة التي تراعي التكامل بين الجانبين الفردي والاجتماعي للشخصية الإنسانية، هو التعريف التالي: «التربية عملية تشكيل الشخصية السوية المتكاملة في جميع جوانبها روحياً وعقلياً ووجدانياً وخلقياً واجتماعياً وجسمياً والقادرة على التكيف مع البيئة الاجتماعية والطبيعية التي تعيش فيها»^(٣).

والمقصود من التربية الإسلامية أنها: «تنشئة وتكوين إنسان مسلم متكامل من جميع نواحيه المختلفة من الناحية الصحية، والعقلية، والاعتقادية، والروحية، والأخلاقية، والإدارية، والإبداعية في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام، وفي ضوء أساليب التربية التي بينها»^(٤).

هذه التربية عملية مستمرة تمتد منذ طفولة الإنسان، وتستمر حتى وفاته.

وما دام الدين هو الحياة، فالتربية الإسلامية هي الحياة إذن، فهي لا تعني فقط الأخلاق أو العقائد أو العبادات، بل إنها تعني ما هو أعظم من هذا وأكبر،

(١) فيليب هـ فينكس، فلسفة التربية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٨ (بتصرف).

(٢) سيف الدين فهمي، وسليمان نسيم، مبادئ التربية الصناعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٤.

(٣) عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٣، ص ٢٥.

(٤) مقداد يالجن، جوانب التربية الإسلامية، مطابع القصيم، الرياض، ١٩٨٥، ص ٢٩.

بحيث يمكن القول «إن التربية الإسلامية تعني منهجاً كاملاً للحياة، وللنظام التعليمي بكامله، ومكوناته»^(١).

ج - أهمية التربية الإسلامية:

تبرز أهمية التربية الإسلامية في الارتقاء بالإنسان نحو الكمال، «وهوية الأجيال المسلمة لا تشكّل إلّا بهذه التربية عن طريق المفاهيم الإسلامية والقيم الأصيلة والأفكار العملية الناضجة والاتجاهات البناءة الصادقة بعد تجسيدها إلى سلوكيات وأعمال مفيدة»^(٢). فإننا بالتربية الإسلامية نحرر الإنسان من أن يكون عبداً لحاجاته ودوافعه ورغباته، ونربي فيه المعالي والهمم التي تجعله متطلعاً للغايات الكبرى والأهداف النبيلة، يحمل الخير ويسعى للخيرية، يحب الفضيلة ويتحلى بالفضائل، يتطهر من الرذيلة وينفر من الرذائل، يسهم في تلبية حاجات الإنسانية في التهذيب والسلوك السوي، وكذلك بالتربية الصالحة نحمل أمتنا من أن تتربى على الفساد بكل أشكاله والتبعية بكل صورها، ونحميها من أن ينشأ فيها جيل ينتمي لغير أمته فكراً وسلوكاً، ولا ينسجم مع البيئة الإسلامية التي نشأ فيها وتربى على أرضها.

- العوامل المؤثرة في التربية:

مما لا شك فيه أن البشر متفاوتون متميزون بعضهم من بعض، بحيث لا يتطابق اثنان منهم تطابقاً كاملاً.

ومن المعلوم أن العلماء والمفكرين اتفقوا على أن الشخصية الإنسانية تتأثر في تكوينها وتفاعلاتها المختلفة، بعاملين رئيسيين هما: العامل الداخلي أو الذاتي الذي يعرف بعامل الوراثة، والعامل الخارجي أو المكتسب الذي يعرف بعامل البيئة. «ويتضافر هذان العاملان، منذ اللحظة الأولى في حياة الفرد وحتى موته في تكوين شخصيته»^(٣).

(١) علي خليل مصطفى أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مكتبة إبراهيم حليبي، المدينة المنورة، ١٩٨٠، ص ١٣٣.

(٢) علي خميس الغامدي، الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، دار الطيبة، مكة المكرمة، ٢٠٠٣، ص ١١.

(٣) عبد العزيز القوصي، أسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٥، (بتصرف).

أ - عامل الوراثة :

عرف البشر تأثير الوراثة في النبات والحيوان منذ زمن طويل، إذ اكتشفوا أن البذرة الجيدة الصفات تنتج نبتة قوية ترث عنها صفاتها العامة وخصائصها البيولوجية، وتعطي ثماراً صحيحة جيدة كذلك، وأن النبتة المريضة أو المصابة أو الضعيفة تنتج ما يتوافق مع صفاتها.

والإنسان مثل بقية المخلوقات، يتأثر بالوراثة، إذن «لم تكن البشرية تجهل قانون الوراثة تماماً فيما مضى، بل كانوا يجهلون خصوصياتها. إن علماء الماضي كانوا يعلمون أن في بذرة الزهرة ونواة الشجرة ونطفة الإنسان والحيوان ذخائر تنقل صفات الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة»^(١).

وقد أقر الإسلام مبدأ الوراثة في خصائص الأفراد، فمسألة اختيار الزوج التي لفت إلى أهميتها تقوم على مبدأ الوراثة، على نحو ما بينه النبي ﷺ في حديثه الشريف: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»^(٢).

والحديث يشير إلى أن أخلاق الآباء تنتقل إلى الأبناء بمعنى أنه في حال توافرت في الآباء صفات الصلاح والفلاح والأخلاق الفاضلة، والنزعات الكريمة والميول الحسنة والنوايا الطيبة لا بد وأن يكون للطفل نصيب منها وهو في بطن أمه. وسيكون على عكس ذلك فيما لو طغت نزعات الشقاء على والديه.

ب - عامل البيئة :

أكد الباحثون المتخصصون على أهمية تأثير عامل البيئة في العملية التربوية، وتكوين شخصية الناشئين منذ فجر حياتهم الأولى.

إن الإنسان لا يخضع في سلوكه لتكوينه الداخلي فحسب، وإنما يخضع للعوامل الخارجية التي تتفاعل معه، وتؤثر فيه. وبذلك تطبع البيئة آثارها في دوائر النفس، وتكسبها الخلق والعادات.

البيئة الأولى للإنسان وهي رحم الأم، التي يحصل منها الجنين على مقومات بقاءه. ولذا طلب الشارع من النساء تناول الغذاء الذي تتوافر فيه العناصر اللازمة

(١) محمد تقي فلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٧، ج ١، ص ٦٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، ح ٤٦، يدسه، دساً، إذا أدخله في الشيء بقهر وقوة. (ابن منظور، لسان العرب، مادة دسس).

لتكوين الجنين وحمايته واكتمال نموه. كما طلب من الأم أن تبقى بحالة نفسية هادئة، لأن «حالة الأم النفسية تؤثر على صحة الجنين كما تؤثر في نفسيته مستقبلاً»^(١).

ويتعرض الإنسان بعد ولادته للعديد من المؤثرات البيئية المختلفة، وهذه البيئة إما أن تكون طبيعية وإما اجتماعية:

فالبيئة الطبيعية ويقصد بها كل ما يحيط بالإنسان من الأمور المادية، تتمثل في المناخ وما يشتمل عليه، الأرض ظاهرها وباطنها وموقع البلد و...، تؤثر في ألوان الناس وأجسامهم وعقولهم وأخلاقهم وعاداتهم، أما المجتمع البشري الذي يحيط بالإنسان وما يربط بين أفراد هذا المجتمع من صفات مشتركة وعلاقات متبادلة وعادات وتقاليد ونظم متبعة، كل ذلك يشكل البيئة الاجتماعية. فهي «تكون الميول العقلية والعاطفية في سلوك الأفراد إذ تدفعهم إلى ألوان من الأعمال تذكى فيهم ضروباً من البواعث»^(٢).

ولذلك حينما نتكلم عن البيئة الاجتماعية للطفل نقصد بها الأجواء الاجتماعية التي تحتضنه، وتؤثر في أدوار نموه وتكامله، كالعقائد والأعراف والتقاليد وطريقة التفكير.

والإنسان يمر ببيئات تربوية متعددة، ابتداء بالأسرة ومروراً بغيرها من الجماعات كجماعة اللعب والجوار والمدرسة والعمل وغيرها، وفي كل هذه المراحل يكون عرضة للمؤثرات المختلفة التي تشكل شخصيته وفق العادات والتقاليد التي تنسجم مع نظرة هذه الجماعات إلى الحياة. ويمكن تلخيص البيئة الاجتماعية بالمجالات الآتية:

– الأسرة.

– المدرسة.

– المجتمع.

(١) سليمان أحمد عبيدات، الطفولة في الإسلام، جمعية المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨٩، ص ٣٩.

(٢) محمد ناصر، قراءات في الفكر التربوي، وكالة المطبوعات للنشر، ١٩٧٧، ج ١، ص ٤٥٩.

* الأسرة

فالأُسرة تمثّل المدرسة الأولى لتشكيل وتوجيه سلوك الفرد وعاداته وطبائعه. «ويعتبر الأب والأم القدوة المثلى للأبناء، يرون فيهما صورة الكمال ويقلدونهما ويحاكونهما في سلوكيهما وتصرفاتهما، ويكتسبون بطريقة لا شعورية، كثيراً من القيم والمبادئ والمثل والفضائل الأخلاقية، وما يفتقر إليه الأبوان من السمات والصفات الصالحة ينعكس في مفهوم الأبناء الأخلاقي»^(١).

ولذلك قد أوصى الرسول ﷺ باختيار الزوجة الصالحة ذات الدين حتى تنشأ أولادها تنشئة صالحة، وتغرس في نفوسهم التمسك بالدين ومكارم الأخلاق. قال الرسول ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولجسمها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٢). وكذلك أوصى الرسول باختيار الزوج الصالح ذي الدين والخلق الطيب فقال: «إذا خطب إليكم من توفون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(٣).

إن اهتمام الرسول ﷺ بتوجيه أصحابه إلى اختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة إنما يدل على اهتمامه بتهيئة الجو الأسري الصالح للطفل لكي ينشأ نشأة سليمة صالحة، يتربى فيها تربية حسنة، ويتعلم فيها من والديه التعاليم الإسلامية الصحيحة، والعادات الحسنة، والأخلاق الحميدة.

وبما أن الفرد «في هذه البيئة الاجتماعية الصغيرة يتلقّى أول إحساس بما يجب وما لا يجب القيام به»^(٤)، فقد جعل الإسلام لها قيمة اجتماعية مفروضة، وشرع لها قوانين تضبطها ودعا إلى إنزال أشد العقوبات على من يتعدّى عليها، وينتهك حرمتها.

* المدرسة

إنّ المدرسة تتمم دور الأسرة في تربية الطفل، «فهو المكان الذي يمكن أن يساعد فيه الأطفال على تنمية عقولهم وحواسهم بطريقة منظمة ومخططة ومنسقة، وذلك بتهيئة الجو المناسب لهم من حيث حرية السؤال والتعبير عن الآراء

(١) عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٢) أخرجه أبوداود في سننه، ح ٢٠٤٧.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، ج ٤، ص ٣٠٥.

(٤) محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٨، ص ٦٧.

والمناقشة والإفصاح عن آرائهم بما يتناسب مع مستواهم العقلي»^(١).

والمعلمون في المدارس ممثلون للقيم، وإن كانوا يختلفون فيما بينهم، إلا أنهم يتشابهون فيما يُجلّون من بعض قيم كقيمة النظام والمعرفة واحترام الكبير، من هنا فإن المعلم يحظى بالاحترام والتقدير في كثير من المجتمعات، نظراً للدور العظيم الذي يقوم به في تربية الناشئة.

ولذلك تؤدّي المدرسة دوراً مهماً في التربية، فالبيئة الاجتماعية فيها أوسع من بيئة المنزل وأكثر تنوعاً وأكثر ثراءً فيما تقدّمه من خيارات في المجال التربوي.

* المجتمع

المجتمع هو الدائرة الأوسع التي يعيش فيها الإنسان، يتأثر بما يسود فيها من قيم، ويؤثر فيها، يأخذ منها ويعطيها، يلهمها ويستلهم منها، نتيجة التفاعل الذي يحدث بينه وبين أفراد المجتمع.

ففيه تنشأ العلاقات بين الأفراد أو الجماعات، ويستطيع المجتمع بما يحمله من قيم ومبادئ أن يعطي الفرد القدرة على حسن التعامل مع الآخرين، والمشاركة في التفاعل الاجتماعي، وإحراز مكانة في الجماعة الذي ينتمي إليهم.

فإن المجتمع بهيئاته المختلفة: كالمؤسسات التعليمية والثقافية، والروابط الاجتماعية والمهنية والسياسية وغيرها ذو أثر كبير في سلوك الفرد وقيمه واتجاهاته.

وقد غُني الإسلام بصورة بالغة في أمر البيئة الخاصة، فلاحظ أهم جوانبها المؤثرة في انفعال الفرد وإكسابه العادات والأخلاق، ومنها «الصدقة»، فإنها من أقوى العوامل التربوية التي تنقل خلق كل واحد واتجاهاته وميوله إلى الآخر.

قال النبي ﷺ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(٢).

وقد حث الإسلام بإصرار بالغ على مصاحبة الأخيار، والملتزمين بدينهم، ومصاحبة ذوي الشرف والنبيل والاستقامة حتى يكتسب منهم حسن السلوك ومكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال.

وحذّر من مصاحبة الأشخاص المصابين ببعض الأمراض النفسية والعاهات الأخلاقية.

وقال النبي ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك

(١) سيف الإسلام علي مطر، التغيير الاجتماعي دراسة تحليلية من منظور التربية الإسلامية، دار الوفاء، القاهرة ١٩٨٦، ص ٦٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، ح ٤٨٣٣.

ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه رائحة طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد فيه ريحاً خبيثة»^(١).

ولذلك أجمع المعنيون في البحوث التربوية أن «المجتمع من أهم العوامل التي تعتمد عليه التربية وتستغله في تشكيل الشخصية الإنسانية وتحقيق رغبات الأفراد والطبقات داخل النطاق الحضاري العام، كما تعمل على تحقيق درجة عالية من التكامل الاجتماعي، كما أنها في الوقت نفسه، تقلل من ظهور التوترات، ومظاهر السلوك المنحرف»^(٢).

- مصادر التربية الإسلامية وسماتها :

إن التربية في الإسلام تعنى بإيصال الإنسان إلى أرقى صور الكمال الإنساني، لذا عرفت هذه التربية بأنها عملية مقصودة تهدف إلى تنشئة الإنسان الكامل. ويزداد الكمال الإنساني كلما ازدادت طاعته لله سبحانه وتعالى، لذا فإن الهدف العام للتربية الإسلامية هو الإقرار بالعبودية لله سبحانه وتعالى. وليس أدل على ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾^(٣).

وهذا الهدف يتطلب تربية الإنسان على النحو الذي يمكنه تحقيق ذلك. «فإن التربية الإسلامية جزء لا يتجزأ من الإسلام نفسه، بل إن التربية الإسلامية يجب أن تكون انعكاساً وصورة واضحة للإسلام»^(٤) وهذا يعني بالضرورة أن تكون مصادر الإسلام هي مصادر التربية الإسلامية نفسها، ولها سمات خاصة تميزها من سائر المناهج الوضعية. كما يلي :

أ - مصادر التربية الإسلامية :

لكل تربية مصادر تستقي منها النهج الذي تسير عليه في تصوراتها، ونقصد بالمصادر تلك الينابيع والأصول التي تستند إليها التربية في محتواها وأهدافها وخصائصها، «وما دمننا نقول تربية إسلامية، معنى ذلك أن مصدرها الإسلام الذي دستوره القرآن الكريم، وهو المصدر الأول، والمصدر الثاني هو السنة النبوية الشريفة الشارحة للقرآن، المبيّنة لمقاصده والمفصلة لأهدافه»^(٥).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، ح ٢٦٢٨.

(٢) باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٢٠.

(٣) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٤) يعقوب حسين نشوان، المنهج التربوي من منظور إسلامي، دار الفرقان، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٥٧.

(٥) محمد منير سعد الدين، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، دار المحروسة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٣.

وللقرآن الكريم وقع عظيم وأثر تربوي بالغ في نفوس المسلمين، والسر في ذلك أن له أسلوباً رائعاً ومزايا فريدة في تربية الإنسان على الإيمان بوحداية الله وباليوم الآخر.

وهكذا السُّنة المطهّرة، لأن الرسول ﷺ كان نموذجاً تربوياً كاملاً للإنسان، فهو مربّ عظيم ذو أسلوب تربوي فذّ يسمو بالفرد وينهض بالمجتمع. على هذا فإن القرآن الكريم والسُّنة النبويّة ينطويان على أصول تربوية تشكل أسس التصور الإسلامي للتربية كما يلي:

* القرآن الكريم

إن أعظم وأهم مصدر تربوي في حياة المسلم هو القرآن الكريم، ولا غرو في ذلك، فهو كلام الخالق - سبحانه وتعالى - إلى خلقه، وهو الأدرى والأعلم بهذا الخلق، وبما يحتاج إليه، وبما يفيد أو يضرّه؛ لقوله تعالى:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١).

وممّا يدعو إلى الدهشة أن أول ما نزل من القرآن الكريم آيات تربوية حيث قال جل من قائل:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٢).

كما أقسم - تعالى - أحد عشر قسماً أن النفس الإنسانية قابلة للتربية^(٣) والتزكية والتسامي.

فإن آيات القرآن هي المتكفلة بهداية البشر وتربيتهم في جميع شؤونهم وأطوارهم، في أجيالهم وأدوارهم، وإذا ما نظرنا إلى الأسلوب القرآني من الوجهة التربوية، نجد ثمة المنهج التربوي القرآني الأصلح في مناهج التربية التي عرفتھا البشرية، والتي تحقق انسانية الإنسان، لما له من أثر عظيم في إصلاح الفرد والجماعة، وتربية الناشئة على القيم والأخلاق.

* السُّنة النبوية المطهرة

السُّنة بالإجماع هي «ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف

(١) سورة الملك، الآية ١٤.

(٢) سورة العلق، الآية ١ - ٥.

(٣) سورة الشمس من قوله تعالى (والشمس وضحاها...) إلى قوله: (قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها) الآية (١، ١٠).

خالقي أو خلقي^(١). وقد أمر الله تعالى في كتابه العزيز بإطاعة الرسول ﷺ في كل أمور الحياة بقوله تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا﴾^(٢).

فالسنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وهي تمثل - في الوقت نفسه - مصدراً رئيساً من مصادر التربية الإسلامية، ولما كان القرآن الكريم دستوراً يعالج كل أمور الحياة وقضايا الإنسان، ويتناول أصول التشريع فقد وكل الله عز وجل إلى رسوله ﷺ مهمة إيضاح هذه الأصول، من بيان حكمة التنزيل في كل أمر من الأمور، وتفصيل الأوامر والنواهي التي جاءت عامة في القرآن الكريم، كما ورد في قوله - تعالى -:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾^(٣).

وكذلك تتناول السنة بيان تشريعات وآداب أخرى كما ورد في قول الرسول ﷺ:

«ألا وإنني أوتيت الكتاب ومثله معه»^(٤). فكل ما جاء به الرسول ﷺ من أمور الدين ليس من لدنه وإنما هو بوحى من الله تعالى:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٥).

ولذلك يعتبر تطبيقاً عملياً لبناء مجتمع إسلامي متكامل، وفق التربية الربانية، وتحديداً للمثل الإسلامي الأعلى للحياة الذي يستهدفه، وما يجب أن يسود فيه علاقات، وأساليب التعامل التي ترتقي به.

وقد بذل رسولنا الكريم ﷺ جهداً كبيراً في بناء النفس البشرية، ويمثل الجانب التربوي محوراً من أهم المحاور في رسالته، ومن يدرس شخصيته ﷺ فسوف يجده مربياً عظيماً ذا أسلوب تربوي فريد.

ولذلك كان «السنة النبوية في المجال التربوي فائدتان عظيمتان:

أ - إيضاح المنهج التربوي الإسلامي المتكامل الوارد في القرآن الكريم وبيان التفاصيل التي لم ترد في القرآن الكريم.

ب - استنباط أسلوب تربوي من حياة الرسول ﷺ مع أصحابه، ومعاملته الأولاد، وغرسه الإيمان في النفوس»^(٦).

(١) نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢١٢.

(٢) سورة الحشر، جزء من الآية ٧. (٣) سورة النحل، جزء من الآية ٤٤.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، باب لزوم السنة، ح ٤٦٠٤ وأحمد في مسنده ح ١٧١٧٢.

(٥) سورة النجم، الآية ٣ - ٤.

(٦) عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر المعاصر، بيروت،

١٤٢٣، ط ٢، ص ٢٥.

جدير بالذكر إن الأمر الذي يجب أن لا تغفل عنه أن التراث التربوي الإسلامي زاهر بآراء وأفكار تربوية التي خلفها علماؤنا السلف بجهودهم على امتداد قرون فعلينا الرجوع إلى هذا التراث لكونه إحدى المصادر في بيان معالم النظرية التربوية الإسلامية .

ب - سمات التربية الإسلامية :

إن التصور الإسلامي للكون والإنسان والمجتمع ينعكس بوضوح على التربية الإسلامية ولذلك تشتمل هذه التربية جملة من الخصائص ، والمميزات ، والسمات التي تختص بها عملية التربية في الإسلام دون سواها . لأن «طريقة الإسلام في التربية فهي معالجة للكائن البشري كله ، معالجة شاملة لا تترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء»^(١) . فهي تربية صالحة لكل إنسان في كل مجتمع إنساني ، وفي كل زمان ومكان . إنها تتصف بالرفعة والسمو وتمشّي مع فطرة الإنسان ، «التي خلقه الله عليها لا تغفل شيئاً من هذه الفطرة ، ولا تفرض عليها شيئاً ليس في تركيبها الأصيل»^(٢) .

وفيما يلي نستعرض أهم تلك الخصائص والمميزات التي تنفرد بها التربية الإسلامية عما عداها :

* ربانية :

التربية الإسلامية تربية إلهية تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وهما مصدران موحى بهما من عند الله تعالى ، فهي تربية ربانية ، كونها من عند رب العالمين .

والوصف بالإلهية يقابله الوضعية التي يضعها البشر من عند أنفسهم ، وهو الواقع الذي ينطبق على كافة الأنماط التربوية خلا التربية الإسلامية ، وشتان بين تربية وضعها البشر ، وتربية وضعها رب العالمين الذي خلقهم ، وهو أعلم بهم من أنفسهم .

والتربية الإسلامية تركز على غائية الخلق والوجود والمصير الإنساني ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ومهما طالت الحياة بالإنسان ، فإن مصيره الموت ، من هنا فإن «التربية القرآنية تجعل غايتها الخيرة ، وهدفها البعيد ، حسن الصلة بالله تبارك وتعالى والحصول على مرضاته ، فهذه هي غاية القرآن ، وهي غاية الإنسان المسلم»^(٣) .

* تكاملية شاملة :

التربية الإسلامية تنظر إلى الإنسان نظرة متكاملة تشمل كل جوانب الشخصية ، فهي تربية للجسم والروح والعقل معاً .

(١) محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٢) المصدر نفسه والمكان نفسه .

(٣) علي خليل أبو العينين ، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص ٢٩٣ .

وكل هذه الجوانب تؤثر سلباً أو إيجاباً في الجانب الآخر، وتتأثر به. فالرسول الكريم ﷺ يقول: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

وأكد الرسول ﷺ على أهمية الجسم في التربية الإسلامية فقال: «إن لبدنك عليك حقاً... فاعط كل ذي حق حقه»^(٢).

والتربية الإسلامية تُعنى بالعقل عنايتها بالجسم والروح، ولذا «تخاطب العقل، وتحثكم إليه، والإسلام دين العقل والنظر والتفكير والتأمل ويحتل العقل فيه مكاناً هاماً... فهو أساس التكليف والاختيار والحساب»^(٣).

وهكذا التربية الإسلامية ترقّي الروح بالإيمان والعبادة، وتنمّي العقل بالتعلّم والكسب المتواصل للمعارف والتدبر في آيات الله في الكون، وتقويّ البدن بتلبية مطالبه المادية المشروعة، على أساس من التوازن.

* متوازنة :

تعمل التربية الإسلامية على تحقيق المتطلبات المتوازنة بين الأطراف المتضادة في حياة الإنسان، فلا ينفرد أحدها بالتأثير، ويطرّد الطرف المقابل، ومعنى هذا أنها تعطي كل شيء حجمه المناسب «فالتوازن في نظر الإسلام، شامل يشمل كل نشاط الإنسان، فهو توازن بين طاقة الجسم، وطاقة العقل، وطاقة الروح. توازن بين ماديّات الإنسان ومعنويّاته، توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية... توازن في كل شيء في الحياة»^(٤).

وهذه الخاصية ملازمة لخاصية التكامل والشمول، وهو في التصور الإسلامي متوازن أيضاً «وقد صانته هذه الخاصية الفريدة من الاندفاعات هنا وهناك والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك، لأنّ هذه الآفات لم يسلم منها أي تصور آخر»^(٥).

فالتربية الإسلامية تستهدف الجمع بين حسنتي الدنيا والآخرة للإنسان، وهي لا ترى هناك تعارضاً أو تناقضاً بين الدين والدنيا إذا فهم الإنسان الصلة الوثيقة بينهما على الوجه السليم، قال جل جلاله :

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، ح ٣١.

(٢) المصدر نفسه، كتاب الأدب، ح ٨٦.

(٣) محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٦٤.

(٤) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧.

(٥) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٢، ص ١١٤.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(١).

قال رسول الله ﷺ: «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، حتى يصيب منهما جميعاً، فإن الدنيا بلاغ للآخرة»^(٢).

على هذا فإن التربية الإسلامية ليست مادية بحتة، ولا روحانية خالصة، تخالف الطبع وتقطع عن العمل.

فهي تهذب الفرد تهديباً ذاتياً، كما تهذبه تهديباً اجتماعياً تجعله يشعر بانتمائه إلى المجتمع الذي يعيش فيه، وبقيمة أخيه المسلم؛ فقال رسول الله ﷺ: «فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره»^(٣).

كما قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٤).

* وسطية:

التربية الإسلامية تربية وسطية تنظر إلى الأمور نظرة وسطية، وتحافظ على مبدأ الاعتدال في الشخصية الإسلامية، حتى في الأمر الواحد؛ فعلى سبيل المثال: قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْرُؤُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٥) وقال عز وجل:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(٦).

هذه هي أبرز سمات التربية الإسلامية المتوازنة التي تضع لكل شيء حده، وتحسب لكل أمر قدره حتى لا تختل الموازين وتضطرب أمور الحياة.

فإن خاصية «الاعتدال» تجعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً إنسانياً «وسطاً»، لا يسرف في أموره، ولا يفرط فيها، قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٧).

ولا جرم أن مبدأ الوسطية هو الذي جعل الأمة الإسلامية تمتاز عن غيرها من الأمم، وما أصابها من تردّد ونكوص على الأعقاب إنما أصابها بسبب اتباع أبنائها سبيل الإفراط والتفريط، فضلاً عن بعض العوامل الأخرى التي ليس ههنا محل لمناقشتها.

(١) سورة القصص، جزء من الآية ٧٧.

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٠، ج ١، ص ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، ح ٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، باب خصال الإيمان، ص ٣٨.

(٥) سورة الفرقان، الآية ٦٧.

(٦) سورة الإسراء، الآية ٢٩.

(٧) سورة البقرة، جزء من الآية ١٤٣.

* سلوكية عملية :

خاصية التطبيق من أهم خصائص التربية الإسلامية لأن هذه التربية لا تقتصر على النصح والموعظة والتوجيه والإرشاد النظري، بل تهتم بتطبيق التعاليم والتوجيهات الدينية والمبادئ والقيم الخلقية، في الحياة الإنسانية، وتجسدها في الواقع، ولذا تربط بشكل متكامل بين الإيمان والعمل، والعقيدة والسلوك، والنية والتنفيذ، والقول والفعل، والنظرية والتطبيق. «وإذا نظرنا إلى الأركان الرئيسة الخمسة التي بُني عليها الإسلام نجد أنها تتطلب سلوكاً عملياً؛ فالشهادة بوحداية الله ونبوة رسوله محمد ﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم شهر رمضان كلها تتطلب سلوكاً عملياً»^(١).

وبمعنى آخر فإنها ترى «أن الإيمان إذا لم ينعكس في العمل فهو إيمان عليل ناقص، وأن العمل إذا لم يتجسد ويستهد بالإيمان فهو عمل مادي زائف، وأن مبادئ الأخلاق إذا لم تنعكس في السلوك فهي شعارات جوفاء. وأن السلوك إذا لم يجسد القيم والفضائل فهو سلوك أعمى غاشم»^(٢).

ولذلك نجد في كتاب الله تعالى الكثير من الآيات التي تربط الإيمان والعقيدة بالعمل والسلوك.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٣).

«فالإسلام ينظر إلى الإيمان على أنه ما قرّ في القلب ونطق به اللسان وصدقه العمل، فالعمل إذن ثمرة المعرفة والعلم، ولا قيمة لمعرفة أو علم لا يستفاد منه بالعمل، ومن تمام كمال الإنسان المسلم أن تتطابق أقواله مع أفعاله»^(٤).

قال جل جلاله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٥).

- (١) محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد، مرجع سابق، ص ٦٧.
- (٢) عبد الحميد الزنتاني، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة، الدار العربية للكتاب، الجماهير العربية الليبية، ١٩٩٣، ص ٤٦٢.
- (٣) سورة البقرة، الآية ١٧٧.
- (٤) محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها، مرجع سابق، ص ٦٨.
- (٥) سورة الصف، الآية ٢ - ٣.

أما بالنسبة للسُّنة النبوية المطهرة، فهي في جوهرها وحقيقتها ربط حي فعال للعقيدة بالعمل، وللدين بالأخلاق، وللتعاليم النظرية بالتطبيقات الواقعية المعاشة في الحياة الإنسانية. قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سَلِمَ الناس من لسانه ويده. والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(١).

على صعيد آخر «تشمل التربية العملية التربية المهنية التي تمثل قيمة العمل النافع في الحياة، والذي يتضمن المعرفة على تسخير ظواهر الكون والاستفادة من الأرض الطيبة المعطاء، وتصنيع مواردها وثرواتها وخاماتها فيما ينفع الفرد والمجتمع والإنسانية جمعاء»^(٢).

فالإسلام يفترض في كل فرد أن تكون له مهنة يعتاش منها، ويحث الرسول الكريم على احترام العمل والسعي إليه، فيقول: «ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده»^(٣). ولذلك تحرص التربية الإسلامية على توجيه الفرد إلى الاهتمام بوقته، وعدم تضييعه سدى في اللهو والعبث، بل يجب عليه أن يستغلّه في تنمية مواهبه وميوله وهواياته بما يعود عليه وعلى مجتمعه بالفائدة المرجوة.

* مستمرة:

إنّ التربية الإسلامية لا تنتهي عند مرحلة معينة، إنّما تمتدّ على طول حياة الإنسان كلها.

فهي «كعملية تنشئة وتكوين للأجيال الصاعدة تتميز عن سواها، بخاصية - الاستمرار - والثبات المستمدة من ثبات شرع الله تعالى واستمراره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولا شك أن قواعد الإيمان والعبادة والأخلاق والسلوك هي قواعد ثابتة مستمرة خالدة لارتباطها بالمنهج الرباني الذي لا يداخله ضلال، ولا يلبسه ريب»^(٤).

على هذا تتصف التربية في الإسلام بالدوام والاستمرار، حيث تبدأ من المهد، فما أن يخرج المولود إلى الدنيا حتى يحنّك ويؤدّن في أذنه اليمنى، وتقام الصلاة في أذنه اليسرى، إلى غير ذلك مما ينبغي الشروع فيه من الأحكام الخاصة بالمولود،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، ح ١٠.

(٢) إسحاق أحمد فرحان، التربية بين الأصالة والمعاصرة، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٩٨٣، ص ٥٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، ح ١٩٦٦.

(٤) الزنتاني، فلسفة التربية الإسلامية من القرآن والسُّنة، مرجع سابق، ص ٤٦٥.

وتستمر التربية بحسب الأحكام الشرعية المتعلقة بالرضيع والصبي واليافع الشاب، والراشد والرجل والكهل والعجوز بحيث لا تنتهي إجراءات التربية الإسلامية وأحكامها الشرعية إلا عندما يصير الإنسان إلى اللحد.

فالفرائض والعبادات إن هي في حقيقتها إلا تربية مستمرة متصلة بالإنسان، طيلة حياته، تزكي روحه، وترقي نفسه، وتقوّم خلقه، وتهذب سلوكه، على مدار الأيام والأسابيع والأشهر والأعوام، بلا انقطاع؛ وذلك لأن الإنسان يمر بتربية يومية بالصلوات الخمس، وتربية أسبوعية بصلاة الجمعة، وتربية شهرية بصوم النوافل، وتربية سنوية بصوم شهر رمضان، وصالاة العيدين.

ولكن لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الذي يتولى مراقبة السلوك وتقويمه بعد البلوغ عند الفرد إنما هو الفرد نفسه، قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(١)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(٢)، والنفوس اللوامة نفس حميدة تلوم صاحبها على فعل الذميمة من السلوك، وهذا مفهوم المراقبة وتقويم الذات، وهو من أبرز عناصر التربية المستدامة في التربية الإسلامية، ومن هنا تتراءى أهمية التقوى في حياة الفرد المسلم، حيث يظل على أساس هذا المعيار في مراقبة مستمرة لسلوكه وحركاته وسكناته، حتى إذا ما شعر بأنه قد انحرف عاد إلى الجادة من جديد.

* سهولة ومرونة:

مما لا شك فيه أنّ خاصية «التيسير» من أهم خصائص التربية الإسلامية المتمشية مع الفطرة البشرية والقدرة الإنسانية، بحيث لا يكلف الإنسان إلا بما يدخل في نطاق استطاعته وقدرته واحتماله: من تكاليف دينية أو واجبات دينية، على حدّ سواء.

وبهذه الخاصية الإيجابية تجنّب التربية الإسلامية الإنسان المشقة والعنت، والضيق والحرّج، ولا تحمله من الأمور إلا بما يكون في وسعه، واستطاعته. وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٣).

وعن أنس بن مالك، قال: قال النبي ﷺ: «يسرّوا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا»^(٤).

وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط، إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه»^(٥).

(٢) سورة القيامة، الآية ٢.

(١) سورة القيامة، الآية ١٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، ح ١٧٣٤.

(٣) سورة البقرة، جزء من الآية ١٨٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، ح ٥٧٧٥.

ومن الجدير بالذكر أنّ «خاصية التيسير في التربية الإسلامية، لا تعني أنها تربية تتساهل في أمور الإيمان والعقيدة، والعبادة والأخلاق، فهي لا تسمح بالتعدي على حدود الله تعالى وانتهاك حرمت الدين، ولا العبث بمبادئ الأخلاق وفضائل الآداب. وهي - وإن كانت ترفع الحرج في الضرورات والمشقات - فإنها تسد الذرائع، وتقطع السبل في وجه انتشار الضلال الديني والفساد الخلقي والتحلل الاجتماعي، وتؤكد على ضرورة اتقاء الشبهات وترك ما يريب إلى ما لا يريب»^(١).

* عالمية وخالدة:

تعتبر التربية الإسلامية تربية عالمية؛ قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢). وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْنُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٣)، فإنّ الإسلام رسالة عالمية جاءت للناس كافة، وغاية الرسالة لا تتحقق إلا بتغيير معتقدات الناس وسلوكهم إلى معتقدات وأنماط سلوك إسلامية، وهذا لا يمكن الوصول إليه إلا بالتربية، وعالمية الرسالة الإسلامية تعني أيضاً عالمية التربية الإسلامية، وهي موجهة إلى الناس جميعاً، وليست مختصة بقوم دون قوم، أو جنس دون جنس، أو لون دون لون، أو فئة دون فئة، فلا تلمح فيها أثراً قومياً، أو عنصرياً، أو نحوهما البتة، لذلك قال رسول الله ﷺ: «كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»^(٤).

فهي تربية يتساوى فيها الجميع، والتفاضل بينهم يكون بالتقوى والإيمان لا بالحسب والنسب والجاه.

ومن جانب آخر فإن التربية القائمة على هذا الدين الحنيف تربية خالدة، تصلح لكل زمان ومكان؛ لأنها تنبثق من قواعد وقيم شرعية تعالج الإنسان بوصفه إنساناً، لا تتغير، ولا تختلف من زمن، إلى زمن، أو من مكان إلى مكان، كما أن «قيم الإسلام قواعد ثابتة، فالصدق قيمة خلقية سامية لا يمكن أن يتطور ليصبح خلقاً ذمياً، وكذلك الأمانة والاستقامة، والعدل، والتواضع هي قيم أخلاقية، يسعى الإسلام إلى تحقيقها لدى أبنائه بالتربية الإسلامية، كما لا يمكن أن يصبح الكذب قيمة خلقية سامية، ولا الزنا، ولا القمار والغيبة، ولا شيء من ذلك، وهذه بجملتها ترتكز على قواعد شرعية ثابتة، تعالج كافة المتغيرات، وتعطي حلولاً لكل البدائل المحتملة»^(٥)، لأن الإسلام

(١) عبد الحميد الصيد الزنتاني، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ٤٥٣.

(٢) سورة سبأ، الآية ٢٨. (٣) سورة الأعراف، جزء من الآية ١٥٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، ح ٤٣٤.

(٥) أمين أبو لاوي، أصول التربية الإسلامية، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية ١٩٩١، ص ٤١.

دين الحياة والدين الخاتم قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١).
وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ
الْخَسِرِينَ﴾^(٢)

ـ أهداف التربية الإسلامية وأساليبها :

إن تحديد الهدف أمر أساس في كل عمل، وبعد أن يتم توضيحه، وتوجد القناعة بأهميته يرسم الطريق المؤدي إليه، ويبدأ السير عليه، ودون ذلك تضيع الجهود وتتعثر الخطوات، ويصبح المرء كمن يدور في حلقة مفرغة، فيثاقل إلى الأرض، ولا يرغب في القيام بأي جهد.

والوسائل هي أدواتنا الوحيدة لتحقيق ما نؤمن به من الأهداف، وينبغي العناية الكاملة بها، والتدقيق في بحثها واختيارها، إذ الوسيلة الفاسدة تضيع الهدف الصالح وتحيد عن الطريق. «وحين يتم تحديد هدف التربية بشكل صحيح، ويكون هذا الهدف واضحاً للمربين، ومقبولاً من الذين يعملون في حقلها ويتأثرون بها، وتوضع الوسائل المؤدية إليه، ويبدأ العمل بأساليب محكمة، فإن التربية تؤدي ثمارها، وتصبح ذات أثر كبير في رقي الأمة وازدهار المجتمع»^(٣).

ومن ثم فالوسائل والأهداف عنصران أساسيان من عناصر المنهج التربوي، ولا تفترق، ولا يمكن تقويم الهدف من غير الوسيلة التي تؤدي إلى تحقيقه، ولا يمكن تقويم الوسائل بمعزل عن الأهداف. وللتربية الإسلامية أهداف سامية جداً، تستهدف تحقيقها، كما لها أساليب خاصة سامية أيضاً لتحقيق هذه الأهداف.

أ - أهداف التربية الإسلامية :

تمتاز أهداف التربية الإسلامية عن غيرها من الأهداف تبعاً لتمييز نظرة الإسلام لله والإنسان والكون والمجتمع والحياة الآخرة. وهذه الأهداف هي القاعدة الأساسية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة والدولة الإسلامية. وقد صرح القرآن الكريم بأن الهدف الأساس لوجود الإنسان في الكون هو عبادة الله والخضوع له في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾^(٤).

«ومفهوم العبادة في الإسلام مفهوم واسع شامل، لا يقتصر على أداء الشعائر

(١) سورة آل عمران، جزء من الآية ١٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

(٣) عمر أحمد عمر، فلسفة التربية في القرآن الكريم، دمشق، دار المكتبي، ٢٠٠٠، ص ١٣٧.

(٤) سورة الذاريات الآية ٥٦.

التعبدية فحسب، بل يشمل نشاط الإنسان كله من اعتقاد وفكر وشعور وتصور وعمل ما دام الإنسان يتوجه بهذا النشاط إلى الله، ويلتزم فيه شرعه، ويسير على منهجه^(١). وإذا كانت هذه مهمة الإنسان في الحياة فإن تربيته يجب أن يكون لها الهدف نفسه.

فنرى أن التربية الإسلامية تهدف إلى «تنمية الإنسان العابد الصالح وينطوي تحت هذا الهدف مجموعة من الأهداف الخاصة التي تجعل من الإنسان هدفاً في حد ذاته، وهي علامات في طريقه إلى الهدف الأعلى من التربية الإسلامية»^(٢). وهذا الإنسان لبنة صالحة لبناء المجتمع الصالح الذي تحكمه خشية الله وتقواه، وبصلاحه يصلح المجتمع المسلم.

وعلى هذا «فإن التربية الإسلامية نظام متكامل لبناء شخصية الإنسان المسلم في ذاته وفي مجتمعه، ومن ثم فهي وسيلة لإيجاد مجتمع خيرٍ فاضلٍ قدر المستطاع»^(٣) ولذلك «تكون الغاية النهائية لهذه التربية هي تحقيق العبودية لله في حياة الإنسان الفردية والجماعية»^(٤).

نستنتج مما سبق أن الهدف الثاني للتربية الإسلامية هو إيجاد الأمة الرائدة، لتأخذ دورها بين الأمم وتحمل راية التوحيد إلى الأمم جميعاً تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الخير امتثالاً لقوله تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٥).

أمة يسعى كل فرد فيها إلى قضاء حوائج أخيه، ويطمع أن يتحقق فيه قول رسول الله ﷺ: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة»^(٦).

فهي أمة يتعاون فيها الجميع، والذكور والإناث، والكبار والصغار، لتنفيذ شرع الله تعالى وهداية البشرية إلى الصراط المستقيم.

ب - أساليب التربية الإسلامية:

إذا كانت التربية الإسلامية تتميز بالشمول والتكامل، فإن أساليبها تتميز كذلك

(١) سعيد إسماعيل علي، اتجاهات الفكر التربوي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩١، ص ٢٥.

(٢) علي خليل أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(٣) إحسان عباس، التربية العربية الإسلامية، المجتمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان ١٩٩٠، ج ٤، ص ١٥٠١.

(٤) عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٥) سورة آل عمران، جزء من الآية ١١٠.

(٦) صبحي الصالح، منهل الواردين شرح رياض الصالحين للإمام الحافظ محيي الدين بن زكريا يحيى بن شرف النووي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٠٧، ح ٢٣٢.

بالتعدد والتنوع في شمول معجز وتكامل دقيق وتوازن محكم .

ولو اتجه المتخصصون إلى استعراض آيات القرآن الكريم، وفهمها، لخلصوا منها إلى صور عديدة مشرقة لأساليب هذا النهج الرباني في التربية، الذي يتميز باتزان محكم دقيق . فكيف لا وهو من الله خالق الإنسان ومبدع الوجود !
فنعرض لأهم الأساليب في حدود ما يشير إليه القرآن الكريم :

* التربية بالوعظ والنصح :

من الأساليب المعروفة في التربية الإسلامية، الموعظة والنصح «ففي النفس الإنسانية دوافع فطرية في حاجة دائمة للتوجيه والتهديب، ولا بد في هذا من الموعظة»^(١).

فالموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان كما نرى أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ في طريق الدعوة : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالْقِيَمَةِ حَسَنًا ﴾^(٢).

لا شك أن «الإنسان قد يصغي ويرغب في سماع النصح من مُجِبِّهِ وناصحيه، فالنصح والموعظة يصبحان في هذه الحالة ذا تأثير بليغ في نفس المخاطب، ولا سيما حين يكونان صادريّن عن محبة ومن القلب إلى القلب وما لم يكن الوعظ صادراً من القلب إلى القلب فتأثيره يكون ضعيفاً أو معدوماً تقريباً»^(٣).

ونرى كثيراً من النصائح والمواعظ القيمة في القرآن الكريم، وهو الذي وُصِفَ بأنه جاء موعظة للناس . كما قال تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٤).

وخير مثال على ذلك من كتاب الله ما جاء في موعظة لقمان لابنه، وهو ينهاه عن الشرك، ويأمره بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويأمره بمكارم الأخلاق .

قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ هُوَ يَعُظُكَ بِبَنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾^(٥) . ويقول

(١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية والتربوية، والباحث: ماجد عرسان الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص ٢١.

(٢) سورة النحل، جز من الآية ١٢٥.

(٣) محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢، ص ١١١.

(٤) سورة يونس، الآية ٥٧.

(٥) سورة لقمان، الآية ١٣.

اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١).

فنرى «معظم المواعظ القرآنية تدور حول تربية الإنسان عقلياً وسلوكياً، ومن ثم تأتي أهمية هذه الطريقة العظيمة من طرق التربية الإسلامية لتكوين وتنشئة وإعداد المسلم العابد الصالح بحيث يكون سلوكه صائباً في معتقده ودينه وعقله وعلمه وهذا هو هدف الموعظة كما جاءت في القرآن الكريم»^(٢). وهو الأمر الذي يهدف إليه الكتاب العزيز بالجملة.

* التربية بالقُدوة:

ترى التربية الإسلامية تقديم القدوة من وسائل التربية، وهو أقوى تأثيراً من التوجيه بالوعظ والقول، فلا فائدة ترجى من قول لا يترجم إلى عمل، لأنَّ المربي حين يعطي القدوة، ينبغي ألا يثير التناقض بين ما يأمر به وبين ما يترجمه إلى سلوك. «والفرد في تربيته لا بدَّ له من قدوة تتمثل في والديه ومعلميه والمحيطين به، لكي يتشرب قيم مجتمعه وآدابه عن طريق هذه القدوة، فهي التي تجعل الصور الذهنية لتلك القيم والمبادئ المثالية معروضة عرضاً واقعياً أمام عينيه»^(٣).

فالطفل منذ ولادته يكتسب ألوان السلوك بتقليده للآخرين ومحاكاتهم، ويتوقف ما يكتسبه الطفل من عادات مرغوب فيها أو غير مرغوب فيها على نوع القدوة التي تأثر بها في حياته التربوية.

والقرآن يؤكد أهمية القدوة في تقرير مصير الإنسان تأكيداً قوياً، وهو يدعو المسلمين لأن يدرسوا سيرة الرسول ﷺ فيتخذوها قدوة لهم، قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٤).

وحقا «كان رسول الله ﷺ أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، وكان مربياً وهادياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به»^(٥).

ولقد كان لهذه الطريقة أثر عميق في تعليم المسلمين وتثقيفهم وتغيير اتجاهاتهم وتعديل سلوكهم والأخذ بيدهم نحو بناء الشخصية الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

(١) سورة النساء، الآية ٥٨.

(٢) علي خليل أبو العينين، فلسفة التربية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٣) عبد الغني عبود، التربية الإسلامية وتحديات العصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٤٩٢.

(٤) سورة الأحزاب، جزء من الآية ٢١.

(٥) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٨٣.

* التربية بالقصة :

القصة من أكثر أساليب التربية فعالية، وهي وسيلة مشوقة للصغار والكبار، تحدث أثرها في النفس مع الشعور بالمتعة، وتجعل الإنسان ينجذب إليها وينتبه إلى أحداثها، ولا يشرد بذهنه عن يريه. «والإسلام يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة، ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم»^(١).

والقرآن يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه، قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ﴾^(٢).

فإذا صدرت القصة عن الحكيم الخبير العليم ببواطن النفس، وبما يصلحها وبكيفية إصلاحها آتت ثمارها يانعة، وحقت الغاية منها، وكانت قصص القرآن الكريم طويلة حيناً وقصيرة أحياناً. وهي كل مرة تقع في القمة من البلاغة والأسلوب البياني ومن الناحية الأدبية والفنية وبالنظر إلى مغزاها وآثارها التربوية.

إن الحكماء والمربين ليستنبطون العبر ممّا في القرآن من قصص الأنبياء وغيرهم، ويجعلونها وسيلة من وسائل التربية القويمة كما قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

* التربية بالترغيب والترهيب :

مصطلح الترغيب والترهيب يطلق عند المربين المسلمين على الوسائل الدافعة لفعل الشيء، أو المانعة من فعله، وهذا الأسلوب من الأساليب التي لا يستغني عنها المربي في كل زمان ومكان. «ويتمشى مع طبيعة الإنسان حيثما كان، وأياً كان جنسه أو لونه أو عقيدته، فالإنسان يتحكم في سلوكه، ويعدل فيه بمقدار معرفته بالنتائج الضارة أو النافعة، والسارة أو المؤلمة التي تترتب على عمله وسلوكه»^(٤).

والتربية الإسلامية تستخدم أسلوب الترغيب والترهيب، لما له من أهمية بالغة في التنشئة الصالحة لأبنائنا؛ لأنّ «الإنسان يولد وفيه استعداد الخوف والرجاء متجاورين..

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٢) سورة يوسف الآية، ٣.

(٣) سورة يوسف الآية ١١٠ - ١١١.

(٤) ماجد عرسان الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، ١٩٨٧، ص ١٢٨.

في المخيلة، ويجعل التأثير بتلك الصورة أشد من الأفكار المجردة، إضافة إلى ما في التصوير والتشخيص الحي من الإثارة والتمتع^(١).

وقد أشار القرآن الكريم الى استخدام هذا الأسلوب من أساليب التربية بقوله: ﴿وَلَكُمْ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٢). ذلك لأن «الأمثال أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر وأقوم في الإقناع»^(٣).

وقد كثر الاعتماد على هذا الأسلوب في القرآن الكريم، حتى ضربت فيه الأمثال بكثير من الأشياء الصغيرة وبعض الحشرات الحقيرة.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٤).

وفي الحقيقة «إذا كان الغرض التأثير، فالبلاغة تقضي بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه، بحال الأشياء التي جرى العرف بتحقيرها واعتادت النفوس النفور منها»^(٥).

ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى شبه ضلال المشركين وضعف أوليائهم الذين يلجؤون إليهم من دون الله بالأنسجة التي تنسجها العنكبوت لقنص فريستها، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٦).

وأخبر الله تعالى عن إحباط أعمال الكافرين بقوله:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾^(٧). «فكما أن الريح الشديدة والعاصفة القوية تبعثر الرماد، ولا تبقي منه شيئاً، فإن أعمال الكافرين تتبدد فتصبح هباءً منثوراً، ولا ينفعهم شيء مما عملوه وكسبوه؛ لأنهم لم يجعلوه خالصاً لوجه الله»^(٨).

(١) عمر أحمد عمر، فلسفة التربية في القرآن، مرجع سابق، ص ٢٠٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٣٤.

(٣) عبد الغني عبود، التربية الإسلامية وتحديات العصر، مرجع سابق، ص ٤٩٧.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٦.

(٥) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج ١، ص ٢٣٦.

(٦) سورة العنكبوت، الآية ٤١.

(٧) سورة إبراهيم، الآية ١٨.

(٨) ناصر مكارم شيرازي، مثالهاي زيباي قرآن (أمثال القرآن)، نسل جوان، قم، ١٤٢٠، باللغة الفارسية، ص ٣١٨.

وشبّه مضاعفة ثواب الذين ينفقون أموالهم في سبيله بالحبّة التي أنبتت سنابل كثيرة في كل منها حبات عديدة، فقال:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

* التربية بالعمل والعادة:

إنّ التربية الإسلامية ليست تربية نظرية «ولا تكتفي بالقول وإنما تتعداه إلى الممارسة والعمل، لأنّ من تمام كمال الإنسان المسلم أن تتطابق أقواله وأفعاله»^(٢)، فتكوين الأخلاق الفاضلة لا يتم بالوعظ فقط ولا بالحفظ وحده، ولا بالاعتناء العقلي بمفرده بل يحتاج إلى ممارسة فعلية يقوم بها الإنسان حتى يتعود هذه الأخلاق الفاضلة فتصبح جزءاً من كيانه ولا يطمئن قلبه بغيرها ولا يرتاح ضميره إذا خرج عنها.

فالإسلام دعوة إلى العمل كما أنّ التفاضل بين المسلمين تفاضل بالأعمال الصالحة والخالصة لوجه الله تعالى.

ولقد اعتمد هذا الدين على التربية بالعمل من أول الدعوة فكان الواحد من الصحابة حين يعتنق الإسلام يدفعه الرسول ﷺ إلى من يعلمه القرآن الكريم، فيتعلم عشر آيات، ويقول لمن يعلمه: دعني حتى أذهب وأعمل بهذه الآيات ثم أعود فأتعلم غيرها^(٣).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي^(٤): «حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»^(٥).

وحين يكرّر الإنسان الأعمال التي تعلمها مرات عديدة تصبح عادة متأصلة في نفسه «فالاعتقاد أمر مهم في ميدان التربية، وإن لم يكن كل شيء في التربية ولقد بالغ بعض المربين حين عبروا بأنّ التربية عادة، فقال ابن سينا مثلاً: التربية عادة. وأعني

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

(٢) سليمان عبد الرحيم الخيل، التربية الإسلامية، مطابع الشريف، الرياض، ١٤١٢، ص ٧٣.

(٣) كما روي عن عبد الله بن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهنّ. (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١ / ٤).

(٤) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي، أبو عبد الرحمن (٣٢٥ - ٤١٢) شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم وبلغت تصانيفه مائة أو أكثر منها «حقائق التفسير» وكان مولده ووفاته في نيسابور (الزركلي: الأعلام ٦ / ٩٩).

(٥) إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١، ج ١، ص ٤.

بالعادات فعل الشيء الواحد مراراً كثيرة زماناً طويلاً في أوقات متقاربة»^(١).
والعادات التي أمر الله بها عباده، ما هي إلا «وسائل تربية الإنسان وتوجيهه نحو
الأهداف التربوية التي يدعو إليها القرآن»^(٢). ولذلك «تتطلب ممارسة وأسلوباً
عملياً»^(٣).

على سبيل المثال أمر الله تبارك وتعالى:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٤).

إن الصلاة تربي الإنسان روحياً وخلقياً إذ تربط بينه وبين خالقه، وتقوي إرادته
وتعوّده، ضبط النفس والمحافظة على المواعيد، فالعادات في الإسلام طرق للتربية
على منهج الإسلام وهي «تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن
يظل متمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف»^(٥).

لذلك حرص المربون المسلمون على استخدام الممارسات العملية في التربية
لتكوين العادات الحسنة وترك العادات السيئة.

هذه هي أهم أساليب الإسلام في التربية، وهي تتعاون كلها في تحقيق هدف
واحد وهو بناء شخصية المسلم ويستخدم منها ما يتلاءم مع طبيعة كل إنسان وإمكاناته
وتهيؤه النفسي وسنّه وقدرة إدراكه.

(١) مقدار يالجن، علم النفس التربوي في الإسلام، دار المريح، الرياض، ١٩٨١، ص ٣٢٠.

(٢) محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٣) محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها، مرجع سابق، ص ١٣٩.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٣٨.

(٥) محمد الغزالي، خلق المسلم، دار القلم، دمشق، ١٩٨٩، ص ٧.

الفصل الأول

دراسة شخصية الإمام الصادق

المبحث الأول : المعالم البارزة في عصر الصادق

المبحث الثاني : المعالم البارزة من حياة الإمام

المبحث الثالث : إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق

تمهيد

تستلزم دراسة الفكر التربوي عند الرجال، تحليل ظروف واتجاهات العصر الذي عاشوا فيه؛ لأنّ السعي لمجانبة الحقيقة والتزام الصدق والأمانة العلمية في مجال الأبحاث الفكرية لا يتأتى إلّا من خلال الإحاطة بالظروف الاجتماعية والفردية الخاصة بالشخصية موضوع البحث، «فالتربية بطبيعتها عملية مشروطة بالزمان والمكان ويستحيل على الباحث التربوي أن يحيط علماً بأي نظام تربوي وأن يقف على حقيقة أمره في مجتمع من المجتمعات، دون أن يتعرف إلى الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية المحيطة به، فدراسة هذه الأبعاد ليست من قبيل العمل التمهيدي للبحث وإنّما هي جزء أساسي له»^(١).

لهذا يقتضي في هذا الفصل الإيماء إلى الحالة الفكرية والسياسية والاجتماعية التي عايشها الإمام جعفر بن محمد الصادق.

أما بالنسبة لحياته الشخصية لا يخفى على أحد من المسلمين ورواد العلم وغيرهم منزلة ومكانة هذا الإمام الجليل، فهو كان مشعل الهداية ومصباح الدين الذي تألّأت أضواؤه في كل مكان وتخرّج في مدرسته الرواة والمحدثون والفقهاء.

وليس بإمكاننا التعرّف إلى هذا المفكر التربوي الكبير حق المعرفة إلّا بالمرور الخاطف على بعض زوايا حياته، من سيرته وأخلاقه وأقوال الكبار والعلماء في شأنه، ومدرسته العلمية وتعاليمه، تلاميذه ورواته مع إشارة موجزة إلى كبار المتخرجين في مدرسته.

فالحديث عن الإمام الصادق حديث عمّن أغنى الفكر الإنساني بأنواع المعارف والعلوم ودفع الحياة إلى الازدهار في مجالاتها الفكرية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية.

ولعلّ أكثر ما اهتم به الإمام جعفر هو بناء الشخصية الإسلامية وإيصالها إلى مستوى التكامل والرقى، فقد مارس هذا الدور بشكل عملي ووظف أفكاره وأساليبه وطرقه في إطار نظري منسق بهذا الاتجاه. و«استمرّ يناضل في سبيل الإسلام مجاهداً

(١) أمينة أحمد حسن، نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول ﷺ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥، ص ١١.

ولكنه لم يحمل سيفاً، كان جهاده هو الجهاد الأكبر وهو ضبط النفس عن أهوائها والإرشاد والتعليم»^(١).

وقد استوعب مجال التربية عند الصادق كثيراً من ميادينها إذ قدم الإمام منهجاً شاملاً - ناشئاً من القرآن الكريم وسيرة جدّه ﷺ - بين يدي المريين عسى أن ينفعهم في مهامهم الإصلاحية والتربوية.

سنحاول فيما يلي أن نعرض المعالم البارزة في عصر الإمام وحياته وكذلك الاتجاهات الرئيسة لفكره التربوي وما ينطوي عليه.

(١) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ٥٠.

المبحث الأول

المعالم البارزة في عصر الصادق

- الجانب السياسي :
- الجانب الديني :
- الجانب الاجتماعي :
- الجانب العلمي والثقافي :

المبحث الأول

المعالم البارزة في عصر الصادق

الجانب السياسي :

يمتد عصر الإمام الصادق من آخر خلافة عبد الملك بن مروان إلى وسط خلافة أبي جعفر المنصور، أي سنة ٨٣ هـ إلى سنة ١٤٨ هـ.

وقد عاش جعفر بن محمد حتى الحادية عشرة من عمره مع جده زين العابدين، وحتى الثانية والثلاثين مع أبيه محمد الباقر، وعاش بعد أبيه أربعاً وثلاثين سنة، وكان في هذه السنوات بقية ملك هشام بن عبد الملك، وأيام ملك الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم يزيد بن الوليد الناقص، ثم إبراهيم بن الوليد، ثم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، ثم صارت المسوذة (لاتخاذهم شعار السواد) مع أبي مسلم سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فملك أبو العباس الملقب بالسفاح، ثم ملك أخوه أبو جعفر الملقب بالمنصور، وتوفي الإمام بعد عشر سنين من ملكه.

فالإمام الصادق عاش في مرحلة من أدق المراحل التاريخية الإسلامية من الناحية السياسية واختلاف دولتين، هما دولة بني أمية ودولة بني عباس اللتان مارستا دوراً حساساً خطيراً في هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي.

أولاً: العصر الأموي: يمتد من سنة ٤١ إلى سنة ١٣٢ للهجرة (٦٦١ - ٧٥٠ م)، أي نحو تسعين عاماً من الدهر. والخلفاء الذين حكموا في هذه الدولة فرعان: الفرع السفني والفرع المرواني.

بعد معركة صفين صار معاوية بن أبي سفيان، خليفة على البلاد الإسلامية، ثم حكم عشرين سنة، من السنة ٤١ هـ إلى السنة ٦٠ هـ وثبت الملك في أثنائها لبني أمية، وجعل الخلافة وراثية في نسله. و «كانت فكرة الوراثة في الملك غريبة عن العرب. فجهد معاوية بضع سنوات حتى استطاع أن يمهّد لها»^(١).

ولما ولي معاوية ابنه يزيد العهد، انتقلت الدولة من ذلك النظام الذي ساد عهد

(١) عمر فروخ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٣٢.

الخلفاء الراشدين، إلى النظام الذي سار عليه الأمويون «وهو النظام الملكي الذي يقوم على أساس الوراثة. وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسية منها إلى الدين واستحالت بذلك إلى ملك»^(١).

مات معاوية سنة ٦٠ هـ فخلفه ابنه يزيد و «لم يكن من الدّهاء السياسي كأبيه»^(٢) وقد وقعت في عهده وقائع وأحداث نتيجة لموقف المعارضة منها، فكانت في أيامه مأساة كربلاء في ١٠ المحرم ٦١ هـ، ومقتل الحسين بن علي وأهل بيته^(٣) ثم كانت في أيامه وقعة الحرّة^(٤) في ذي الحجة من سنة ٦٣ هـ^(٥) فكثُر أعداء الأمويين وخصومهم في العراق وفي الحجاز»^(٦).

وجاء بعد يزيد ابنه معاوية وكانت مدة خلافته قصيرة أقل من شهر، فلما توفي عاد النزاع على الخلافة من جديد، «ولكن بين عدد أكبر من الطامعين فيها، ثم بين نفر من رؤوس بني أمية على الأخص»^(٧).

تغلّب مروان بن الحكم يومذاك على الطامعين، فعادت الخلافة إلى الاستقرار في بني أمية، ولكن في فرع جديد عرف في التاريخ باسم الفرع المرواني نسبة إلى مروان بن الحكم. وعاش مروان بن الحكم في الخلافة عشرة أشهر، ثم خلفه ابنه عبد الملك، فبقي في الخلافة إحدى وعشرين سنة امتدت من سنة ٦٥ إلى سنة ٨٦ هـ.

واتسعت الفتوح في المغرب (ليبيا وتونس وما وراءهما)، وكذلك في خراسان وبلاد الترك والسند في الجانب الشمالي الشرقي من شبه جزيرة الهند، ثم فتحت الأندلس زمن ابنه الوليد الذي حكم عشر سنوات.

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٧، ١٩٦٤ ج ١ ص ٤٣٧.

(٢) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ج ١، ص ٣٥١.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٧، ج ٣ ص ٢١٨.

(٤) حرّة واقم إحدى حرّتي المدينة، وهي الشرقية وفيها كانت وقعة الحرّة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية وأمير الجيش من قبل يزيد، مسلم بن عقبة المُرّي، قدم المدينة فنزل هذا الوادي، خرج إليه أهل المدينة يحاربونه فكسروهم وقتل من الموالى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ومن الأنصار ألفاً وأربعمائة ومن قريش ألفاً وثلاثمائة ودخل جندة المدينة فنهبوا الأموال وسبوا الذرية. (ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ٢٨٧)

(٥) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة، مصر ١٩٥٢ ص ٣٠٩، الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٣ ج ٨ ص ٢٣٢.

(٦) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص ٣٥١.

(٧) المصدر نفسه والمكان نفسه.

وشهدت الساحة الأموية في عهد المروانيين صراعات بين أفراد الأسرة التي ترجع إلى طموحات الأمويين للوصول إلى السلطة. وأول خلاف جدّي هو صراع عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد الذي خلع بيعته وتمرد عليه، وقد أدى إلى إراقة دم عمرو على يد عبد الملك بعد سلسلة من الأحداث^(١). وفي الحقيقة «كانت تولية العهد لاثنين^(٢)، من الأسباب التي أدت إلى انشقاق البيت الأموي والمنافسة بين أفراد تلك الأسرة وأورثتهم الأحقاد والبغضاء»^(٣).

وكان لهذه السياسة أثرها في ضعف الأمويين «وهذا النزاع لم يقتصر على أفراد البيت الأموي، بل تعداهم إلى القواد والعمال، حتى إذا ولي الثاني^(٤) الخلافة انتقم من أنصار الخليفة الذي قبله وأقصاهم عن مناصب الدولة»^(٥).

على صعيد آخر: «ارتكز الحكم الأموي منذ نشأته على العصبية القبلية، وغلب عليه الطابع العربي القومي الذي لازمه حتى زواله»^(٦).

وراح الأمويون يستعلون على الموالي^(٧)، و«لا يسوون بينهم وبين العرب في الحقوق، فهم يرهقونهم بكثرة الضرائب»^(٨)، ويحرمونهم الامتيازات الاقتصادية «ويبعدونهم بشكل عام من تولّي الوظائف الكبرى في الدولة»^(٩).

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالي سبباً في حقدهم على العرب أو بعبارة أدق على الدولة الأموية.

وتبدلت السياسة الأموية تجاه الموالي في خلافة عمر بن عبد العزيز، بسبب زهده «وقد نجحت في تسكين الفتن والاضطرابات، ثم تغيرت هذه السياسة بعد وفاته، فعاد الأمويون يفرقون في المعاملة بين العرب والموالي»^(١٠).

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار سويدان، بيروت، ج ٦ ص ١٤٥ وما بعدها.

(٢) أول من سن هذه السنة مروان بن الحكم فإنه وليّ عهده ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز.

(٣) محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، بيروت ١٩٩٦، ص ١٩٠.

(٤) أي الخليفة اللاحق.

(٥) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج ٢ ص ٧.

(٦) محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، مرجع سابق، ص ١٩١.

(٧) الموالي هم الأرقاء من غير العرب الذين أعتقوا بعد إسلامهم، أو على العموم، الأجانب الذين أسلموا، إذ أطلق بنو أمية لقب المولى على كل مسلم غير عربيّ، وسمّوهم «الحمراء» نسبة إلى الأعاجم من فرس وروم على الأخص (شهادة علي الناطور، دور الموالي في المجتمع الأموي، ص ٢).

(٨) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٧٤.

(٩) محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، مرجع سابق، ص ١٩٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

ومنذ وفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ أخذت الأفعال وردود الأفعال القبلية تتمادى وتزداد استشرافاً، و«امتدت تأثيراتها على كافة الأقاليم وإلى سائر مساحات الحياة الإدارية والسياسية والاقتصادية، فكانت أحد العوامل في تدمير الوجود الأموي»^(١).

إضافة إلى أسباب خطيرة أخرى كقيام حركات المعارضة من العلويين والخوارج والدعوة العباسية في نهاية الأمر. و«كان العصر الأموي من الناحية السياسية عصرًا قلقاً، يتأرجح إلى الدنيا مرةً، وإلى الدين الحق مرةً أخرى، وفيه تأججت الثورات في كل مكان، وانتهت تلك الثورات بإضعاف الحكم الأموي»^(٢).

ثم نشط الدعاة العباسيون، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني، فاختار النقباء، وأرسلوا الدعاة إلى مختلف الأقاليم، وبخاصة خراسان، يدعون إلى الرضا من آل البيت، واتخذوا السواد (العلم الأسود والثياب السود شعاراً لهم مخالفةً لبني أمية الذين كان البياض شعاراً لهم). فاجتمع الناس خلف تلك الدعوة واستطاعوا أن يزعموا الحكم وطويت صفحة الدولة الأموية بقتل مروان الجعدي (وهو مروان بن محمد بن مروان بن حكم)^(٣).

ثانياً: العصر العباسي: قامت الدولة العباسية في سنة ١٣٢هـ: وهم من نسل العباس عم الرسول ﷺ، واستمرت قائمة أكثر من خمسة قرون.

كان السّفاح أول خلفاء بني العباس «فقد عمل على تصفية بقايا الأمويين ومطاردتهم في كل مكان»^(٤)، وقد اتخذ الكوفة عاصمةً له ثم هجرها لأنها كانت مركزاً للعلويين وأنصارهم واتخذ الأنبار (على الفُرات في شمالي العراق) عاصمةً جديدة. وحكم أربع سنوات ثم توفي سنة ١٣٦هـ فخلفه أخوه أبو جعفر المنصور، وهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية (١٣٦ - ١٥٨ هـ:) «بني المنصور بغداد سنة ١٤٥هـ وجعلها عاصمة الدولة العباسية بعيدة عن الشام»^(٥).

وتطور نظام الخلافة بقيام العباسيين، إذ قامت تلك الدولة على كواهل الفرس. بينما «كان استخدام الموالي في العهد الأموي نادراً، ولكن صار هو المألوف في العصر العباسي»^(٦).

(١) عماد الدين خليل، تحليل التاريخ الإسلامي، دار الثقافة، قطر، ١٩٩٠، ص ٣٨.

(٢) عبد الغني عبود، دراسة مقارنة لتاريخ التربية، دار الفكر العربي - بيروت - ١٩٧٨، ص ٢١٢.

(٣) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والرسول والملوك، مرجع سابق، ج ٦ ص ٧٨.

(٤) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ج ٢ ص ٣٥.

(٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ج ١ ص ٦٦.

(٦) أحمد أمين، ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ج ١، ص ٤٠.

إن أبا جعفر المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال، وقدّمهم على العرب، بل روي «أن أكثر من تولّى الأعمال للمنصور كانوا من الموالى»^(١).

هذا العباسيون حذو الأمويين في تولية العهد لأبنائهم، كما نرى «في سنة سبع وأربعين خلع المنصور عمّه عيسى بن موسى من ولاية العهد الذي كان السفاح عهد بها إليه من بعد المنصور، وعهد بها إلى ولده المهدي»^(٢).

ومن أبرز معالم سياسة المنصور القضاء على ثورات العلويين، ومنها ثورة محمد بن عبد الله بن حسن المعروف بالنفس الزكية^(٣) (سنة ١٤٥هـ)، وثورة إبراهيم بن محمد^(٤) أخيه الذي أعلن ثورته الكبرى على الخليفة في البصرة^(٥) وكذلك لم تكن بداية دولة بني العباس إلا مرحلة أخرى من الحروب والاضطرابات والثورات والعمليات العسكرية لما نقله على آخر ذيول الحكم الأموي وتثبيت المواقع السياسية الجديدة.

لذلك نستطيع أن نميز عصر الصادق بأنه كان عصر فتن وحروب طاحنة، ونزاع بين رجال الدولة والحركات السياسية فضلاً عن الاضطرابات التي كانت تنخر عظام دولة الخلافة من طولها إلى عرضها.

لقد شهد جعفر الصادق مخاض المعارك والمؤامرات السياسية، التي كانت تتوخى زعزعة الكيان الأموي، وعایش يوميات الأحداث التي انتهت بالانقلاب العباسي على الخلفاء الأمويين، والنزاع الكبير الذي جرى إثر ذلك بينهم وبين العلويين من أبناء الحسين وأبناء عمهم، وطولب الإمام أن يبايع بعض أبناء عمه، فأبى، فاتّهم بالحدق والحسد.

(١) الجهشياري، تاريخ الوزراء والكتاب، ص ١٣٩ (بتصرف).

(٢) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ٢٦١.

(٣) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (٩٣ - ١٤٥هـ) أبو عبد الله الملقب بالنفس الزكية ولد ونشأ بالمدينة، أحد الأمراء الأشراف من الطالبين كان غزير العلم، فيه شجاعة وحزم وسخاء لما بدأ الانحلال في دولة بني أمية بالشام اتفق رجال من بني هاشم بالمدينة على بيعته سراً ثم تخلف عن الوفود على السفاح ثم على المنصور، فانتدب المنصور لقتاله ولي عهده عيسى بن موسى بأربعة آلاف فارس، فقاتله محمد، فقتله عيسى في المدينة وبعث برأسه إلى المنصور. (الزركلي، الأعلام ٦/ ٢٢٠).

(٤) إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (٩٧ - ١٤٥هـ) أحد الأمراء الأشراف الشجعان، خرج بالبصرة على المنصور العباسي، فبايعه أربعة آلاف مقاتل فكانت بينه وبين جيوش المنصور وقائع هائلة إلى أن قتله حميد بن قحطبة. كان شاعراً عالمياً بأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم. (الزركلي، الأعلام ١/ ٤٨).

(٥) الطبري، تاريخ الأمم والرسول والملوك، مرجع سابق، ج ٦، ص ١٨٣ وما بعدها.

وكان من بين الذين كانوا يعملون لمصلحة العلويين أحد القادة أبو سلمة الخلال^(١)، ولما أحسَّ أبو سلمة بنوايا العباسيين وعزمهم على الاستئثار بالسلطة كتب إلى ثلاثة من العلويين هم الإمام الصادق وعبد الله المحض^(٢) وعمر الأشرف^(٣)، وأرسل الكتب مع بعض أنصارهم وقال للرسول: إقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق، فإن أجابك فلا تراجع غيره، ومزق الكتابين، وإن لم تجد منه جواباً، فاذهب إلى عبد الله المحض، وسلّمه الكتاب، فإذا أجابك، فلا تراجع غيره، وإلا فاذهب إلى عمر الأشرف.

فذهب الرسول إلى الإمام جعفر بن محمد، ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال الإمام: ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري؟ ثم قال لخادمه: أدن مني السراج. فأدناه منه، فوضع الكتاب على النار، حتى احترق بكامله والرسول ينظر إليه، فقال له الإمام هذا جواب كتابه.

فمضى الرسول إلى عبد الله المحض، فدفع إليه الكتاب، فقبله وقرأه وركب من ساعته إلى الإمام الصادق وقال له: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة، وقد وصلني مع بعض شيعتنا من أهل خراسان. فقال له الصادق: «ومتى صار أهل خراسان شيعة لك؟ أنت وجهت إليها أبا مسلم؟ وهل تعرف أحداً من أهلها باسمه، فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم ولا يعرفونك؟ فرد عليه عبد الله بقوله: هذا الكلام منك لشيء.

فقال الصادق: لقد علم الله أنني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم فكيف أدخره عنك، فلا تمنّي نفسك بالخلافة، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء - أي لبني العباس - وقد جاءني مثل هذا الكتاب الذي جاءك»^(٤).

(١) حفص بن سليمان بن همداني الخلال أبو سلمة (م ١٣٢هـ) أول من لقب بالوزارة في الإسلام، كانت إقامته قبل ذلك في الكوفة وأنفق أموالاً كثيرة في سبيل دعوة العباسية ولما استقام الأمر للسفاح استوزره فكان أول وزير لأول خليفة عباسي لما كان عليه من علم بالسياسة والتدبير، واستمر أربعة أشهر واغتاله أشخاص كمنوا له ليلاً ووثبوا عليه فقطعوه بأسياهم، ويعرف بالخلال لسكنائه بدرب الخلالين بالكوفة (الزركلي، الأعلام، ٢/ ٢٦٣).

(٢) عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو محمد (٧٠ - ١٤٥هـ) المعروف بالمحض تابعي، من أهل المدينة، كان ذا وجهة وهيبة ولسان ولما ظهر العباسيون قدم مع جماعة من الطالبين على السفاح وهو بالأنبار فأعطاه ألف ألف درهم، وعاد إلى المدينة ثم حبسه المنصور عدة سنوات من أجل ابنه محمد وإبراهيم ونقله إلى الكوفة فمات سجيناً فيها كما حققه الخطيب البغدادي. (المصدر نفسه ٤/ ٨٧).

(٣) عمر بن علي بن الحسين، أبو علي وقيل أبو حفص عمر الأشرف هو أخو زيد بن علي بن الحسين الشهيد وأسن منه فلقبه الأشرف فإنه كان فخم السيادة جليل القدر والمنزلة في الدولتين الأموية والعباسية وكان ذا علم وقد روي عنه الحديث (محسن الأمين، أعيان الشيعة ٨/ ٣٨٠).

(٤) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، دارالتعارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠١ ج ١، ص ٣٧٥.

الأخبار في جملتها تومئ إلى أن «الإمام الصادق ما كان يتجه إلى الانتفاض على الحكام، لأنه كان يعتقد أن هذا لا يفضي إلى إقامة الحق وإزهاق الباطل... وفوق ذلك فإنه قد لاحظ أن الخروج يؤدي إلى الفتن، والفتن تضطرب فيها الأمور»^(١). فما شارك في تلك الحوادث قط، لعلمه بعواقب الأمور، وأن الدعاة لهم أهداف وغايات، فاختط لنفسه ولأهل بيته خطة الاعتزال عن تلك التيارات والأعاصير السياسية، ولم يذكر اسمه في الأحداث التي وقعت في عصره، إلا إذا كانت ألماً أو أسفاً أو حزناً على الذين يقتلون من ذوي قرباء، واتجه إلى الاحتفاظ بمركزه العلمي لأداء رسالة الإسلام على أكمل وجه، فابتعد عن المغامرة برغم إلحاح الكثيرين ممن ينظرون إلى الأمور نظراً سطحيّاً، ولا يعلمون بعواقبها، ولذلك كان ينهي أبناء عمّه عن القيام بأيّ نشاط ثوري، كما «نهى حمزة بن عبد الله عندما خرج مع النفس الزكية، وقد استغل جعفر الصادق هذه المرحلة أحسن استغلال لإنعاش الساحة الثقافية وخلق واقع تعليمي وتربوي في المجتمع».

(١) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق حياته وعصره آرائه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٣١ (بتصرف).

الجانب الديني

تميز عصر الصادق بظهور المذاهب والفرق الإسلامية والدينية المختلفة، وقد أدى انتشار هذه المذاهب والفرق إلى زيادة اهتمام العلماء ببحث المسائل الدينية المختلفة ومنها مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار، وقدرة الإنسان إلى جانب قدرة الله تعالى، ومرتكب الكبيرة وخلق القرآن... ومن أهم هذه الفرق والمذاهب الإسلامية:

أ- الخوارج:

وهم الذين ظهروا في حرب صفين بعد التحكيم وهم يرون «أن الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح يقوم به عامة المسلمين لا فريق منهم، ويستمر خليفة ما دام قائماً بالعدل مقيماً للشرع، مبتعداً عن الخطأ والزيغ، فإن حاد وجب عزله أو قتله... ويرى الخوارج تكفير أهل الذنوب، ولم يفرقوا بين ذنب وذنب، بل اعتبروا الخطأ في الرأي ذنباً، ولذلك كفّروا علياً لرضاه بالتحكيم مع أنه لم يقدم عليه مختاراً... وهم متمسكون بألفاظ قد أخذوا بطواهرها، وظنوا هذه الظواهر ديناً مقدساً»^(١).

وكما عاды الخوارج الإمام علي (كرم الله وجهه) وكرهوه، فقد كانوا أعداء لبني أمية، ولذلك نجد صراعهم يطول في عهد الدولة الأموية. «وتاريخهم في هذا العهد - بشكل عام - يمثل سلسلة من الثورات المسلحة والحروب المتواصلة التي لا يختلف بعضها عن بعض، إلا باختلاف العناصر البشرية المتحاربة وتبدل مواقع القتال الجغرافية»^(٢)، حتى إنهم في بعض الأحيان كانوا «يظفرون ويكوتون لأنفسهم سلطة ونفوذاً»^(٣).

وفي النهاية ضعف أمرهم في العصر الأموي، وانكسرت شوكتهم، ولم يعودوا يشكلون خطراً يذكر على كيان الدولة فيما بعد، ولكن يبدو أن نهايتهم كانت مقدمة

(١) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٩، ج ١، ص ٦٥ و ٦٦.

(٢) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٤، ص ١٠٨.

(٣) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، رقم، الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها ج ٢، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٤٧.

لنهاية حكم الأمويين أيضاً، حيث اقتصر نشاطهم بصورة عامة على الفترة الأولى من الخلافة العباسية، أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي واجههم في الجزء الأكبر من خلافته. «فظل نظرهم إلى الخلفاء في العهد العباسي كما كان في العهد الأموي بأن كلهم لا يصلحون للخلافة، ويجب الخروج عليهم، إلا أن قوة الخوارج في هذا العهد لم تكن كقوتهم في العهد الأموي»^(١).

ب - المعتزلة:

نشأت هذه الفرقة في العصر الأموي، ولكنها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحاً طويلاً من الزمن. وتعتبر هذه الفرقة من أهم الفرق الكلامية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، وقد نصب أتباعها أنفسهم للدفاع عن العقيدة وما يتصل بها.

قيل في سبب تسميتهم بالمعتزلة «أن أستاذهم الأول «واصل بن عطاء»^(٢) كان من يرتاد مجلس الحسن البصري^(٣) ولكن خرج عن أقوال الفرق قبله وجعل الفاسق من هذه الأمة في منزلة بين الكفر والإيمان فطرده الحسن البصري من مجلسه فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وقال الناس يومئذ فيه إنه قد اعتزل قول الأمة وسمي أتباعه من ذلك اليوم معتزلة»^(٤).

وتتكون عقيدتهم من خمسة أصول «هي: التوحيد، والعدل، المنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(٥).

وتتلخص عقيدة المعتزلة في «نفي صفات الله الأزلية والقول باستحالة

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٣٧ (بتصرف).

(٢) واصل بن عطاء الغزالي (٨٠ - ١٣١ هـ) أبو حذيفة، من موالى بني ضبة أو بني مخزوم: رأس المعتزلة من أئمة البلغاء والمتكلمين. سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري. ومنهم طائفة تنسب إليه، الواصلية وهو الذي نشر مذهب الاعتزال. ولم يكن غزالياً، وإنما لقب به لترده على سوق الغزاليين بالبصرة. له تصانيف، منها «أصناف المرجئة» و«المنزلة بين المنزلتين» و«معاني القرآن» و«كبقات أهل العلم والجهل» و«السبل إلى معرفة الحق» و«التوبة». (الزركلي، الأعلام، ١٠٨/٨)

(٣) الحسن بن يسار البصري (٢١ - ١١٠ هـ)، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف، وقد سلم من أذاه. وأخباره كثيرة، وله كلمات سائرة. توفي بالبصرة. (الزركلي، الأعلام، ٢/٢٢٦)

(٤) عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٠، ص ١١٨ والحميري، الحور العين، دار آزال، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٥٨، (بتصرف).

(٥) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٢٦.

رؤية الله عز وجلّ بالأبصار، واتفقوا على القول بحدوث كلام الله وأنّ الله غير خالق لأكساب الناس والناس هم الذين يقدرّون على أكسابهم والقول بأنّ المسلم العاصي في منزلة بين المؤمن والكافر وهو فاسق^(١)، واتسعت حركتهم في عصر الصادق اتساعاً كبيراً «وكانوا يكرهون الأمويين ويكرههم الأمويون . . وفي بدء العصر العباسي نشطت دعوتهم، وبعثوا الدعاة إلى أقصى الأقطار ينشرون مبادئهم . . . وكان زعيمهم عمرو بن عبيد^(٢) مهادناً للمنصور لا يخرج عليه، ولكن لا يعاونه»^(٣)

ج - الجهمية^(٤) أو الجبرية:

خاض العلماء في حديث القدر وقدرة الإنسان بجوار قدرة الله سبحانه وتعالى في عهد بني أمية، وكان فريق منهم زعموا أن الإنسان لا يخلق أفعاله، وليس له مما ينسب إليه من الأفعال شيء، وإنما هو مجبور فيها ولا قدرة ولا إرادة ولا اختيار له . فقوام هذا المذهب «نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى»^(٥) فإنّ الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة . و«القول في الجبر شاع في أول العصر الأموي، وكثر حتى صار مذهباً في آخره»^(٦) له ناس يعتنقونه، ويدعون إليه، ويدرسونه، ويبيّنونه للآخرين .

ويقال: إن أول من دعا إلى هذه النحلة من المسلمين الجعد بن درهم^(٧)، ثم

- (١) البغدادى، الفرق بين الفرق، مرجع سابق، ص ١١٤ (بتصرف).
- (٢) عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء (٨٠ أ ١٤٤ هـ)، أبو عثمان البصري شيخ المعتزلة في عصره وفقهها وأحد الزهاد المشهورين، اشتهر عمرو بعلمه وزهده وأخباره مع المنصور العباسي وغيره، له رسائل وخطب وكتب منها «التفسير» و«الرد على القدريّة»، توفي بمروان قرب مكة، ورثاه المنصور، ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . وفي العلماء من يراه مبتدعاً، قال يحيى بن معين: كان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع . (الزركلي، الأعلام ٨١/٥)
- (٣) أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج ٣ ص ٩٠.
- (٤) نسبة إلى الجهم بن صفوان.
- (٥) الشهرستاني، الملل والنحل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٤٠٨، ج ١، ص ٧٩.
- (٦) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٤.
- (٧) الجعد بن درهم (نحو ١١٨ هـ)، من الموالى: مبتدع، له أخبار في الزندقة . سكن الجزيرة الفراتية، أخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة، في أيام هشام بن عبد الملك فنسب إليه . أو كان الجعد مؤدبه في صغره . ومن أراد ذم مروان لقّبه بالجعدي نسبة إليه . وقال ابن الأثير: كان مروان يلقب بالجعدي، لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدرة . (الزركلي، الأعلام ١٢٠/٢).

تلقاه عنه الجهم بن صفوان^(١) الذي نسبت إليه هذه الفرقة.

د - القدريّة :

وهؤلاء مذهبهم على النقيض من مذهب الجهمية، إذ إنهم يقولون إنّ الإنسان يعمل أفعال نفسه ويكسبها. «فإن القدريّة نفوا العلم الأزلي والتقدير الأزلي»^(٢).

وقد كان ظهور هذه النحلة بالبصرة و«أول من حمل لواء هذه الدعوة معبد الجهني»^(٣) وسلك أهل البصرة مسلكه^(٤)، ثم وسّع القول فيها غيلان الدمشقي^(٥).

هـ : - المرجئة :

من الطوائف الإسلامية التي شاعت في عصر الصادق المرجئة، وهم الذين يخرجون العمل من دائرة الإيمان، وهم أصناف شتى، فمنهم من يزعم أنّ الإيمان هو المعرفة (أي معرفة القلب فقط) و«لم يكفروا أصحاب الكبائر ولم يحكموا بتخليدهم في النار خلافاً للخوارج والقدريّة»^(٦). وزعموا أنّ الإيمان إقرار وتصديق ومنفصل عن العمل^(٧).

(١) الجهم بن صفوان السمرقندي (١٢٨ هـ)، أبو محرز، من موالي بني راسب رأس الجهمية، قال الذهبي: الضال المبدع، هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً. كان يقضي في عسكر الحارث بن سريح، الخارج على أمراء خراسان، فقبض عليه نصر بن سيار، فطلب جهم استبقاءه، فقال نصر: لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت، وأمر بقتله، فقتل. (الزركلي، الأعلام ١٤١/٢).

(٢) أبو زهرة، الإمام الصادق حياته وعصره، آراؤه وفقهه، مرجع سابق، ج ١ ص ١١٥.

(٣) معبد بن عبد الله بن عليم الجهني البصري (م ٨٠ هـ)، أول من قال بالقدر في البصرة سمع الحديث من ابن عباس وعمران بن حصين وغيرهما، وحضر يوم التحكيم وانتقل من البصرة إلى المدينة، فشر فيها مذهبه وعنه أخذ غيلان الدمشقي، كان صدوقاً، ثقة في الحديث من التابعين وخرج على الحجاج بن يوسف، فقتله الحجاج بعد أن عذبه. وقيل: صلبه عبد الملك بن مروان في دمشق، على القول في القدر ثم قتله. (الزركلي، الأعلام ٢٦٤/٧).

(٤) المقرئزي، الخطط المقرئزية، إحياء العلوم، لبنان، د.ت، ج ٢، ص ٣٥٦ (بتصرف).

(٥) غيلان بن مسلم الدمشقي (بعد ١٠٥ هـ)، أبو مروان: كاتب، من البلغاء، تنسب إليه فرقة الغيلانية من القدريّة. وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، لم يسبقه سوى معبد الجهني. وله رسائل. قال ابن النديم: إنّها في نحو ألفي ورقة. وقيل: تاب عن القول بالقدر، على يد عمر بن عبد العزيز، فلما مات عمر جاهر بمذهبه، فطلبه هشام بن عبد الملك، وأحضر الأوزاعي لمناظرته، فأفتى الأوزاعي بقتله، فصلب على باب كيسان بدمشق. (الزركلي، الأعلام ١٢٤/٥).

(٦) الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ج ١، ص ١٣٠.

(٧) يطلق اسم المرجئة - بمعنى التأخير - على الجماعة أي أنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد. وهذا المعنى ليس قصدنا في هذا المجال.

و«لا تضرّ مع الإيمان المعصية، كما لا تنفع مع الكفر الطاعة»^(١).

و - الغالية (من الشيعة) :

«هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم عن حدود الخليقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية»^(٢).

ولهم أصناف مختلفة ومنهم الخطابية، وهم أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي^(٣) الذي عزا نفسه إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد «وزعم أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة، وقال بإلهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه، فلما وقف الصادق على غلوّه بالباطل في حقه تبرأ منه، ولعنه، وأمر أصحابه بالبراءة منه، وشدد القول في ذلك»^(٤).

إلى جانب انتشار هذه الفرق الإسلامية نرى ظهور حركات خطيرة كحركات الزنادقة في هذا العصر. يرجع تاريخهم إلى أواخر العصر الأموي، لكنّها لم تقو على الظهور، إلّا بعد قيام الدولة العباسية إذ انتشرت في الكوفة. «ونحن إذا قارنا بين انتشار هذه الكلمة في العصر الأموي والعصر العباسي، وجدنا استعمال الكلمة في العصر الأموي قليلاً نادراً، وفي العصر العباسي فاشياً شائعاً»^(٥).

وللزنادقة عدّة معان تختلف باختلاف العصور: «فقد كان العرب يطلقون لفظ زنديق على من ينفي وجود الله سبحانه وتعالى أو يقول: إنّ له شريكاً.

وقيل: هو كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم، ويسرف في العبث والمجون»^(٦).

وقيل: هو «اتباع دين المجوس خاصّة دين مانى مع التظاهر بالإسلام أو غير تظاهر بالإسلام»^(٧).

ومهما كانت معانيها المختلفة، فمن المعلوم أنّ «غرض حركة الزنادقة في هذا

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(٣) محمد بن أبي زينب مقلص، أبو الخطاب الأسدي، مولى، كوفي، كان يبيع الأبراد يكنى أبا إسماعيل ويكنى أيضاً أبا الضبيان، كان في عصر جعفر بن محمد الصادق فهو غال، وردت أخبار كثيرة عن الصادق في ذمّه ولعنه. (الخوئي، معجم رجال الحديث، ١٤ / ٢٤٤).

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٥٩.

(٥) أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٨.

(٦) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٥.

(٧) أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٤ (بتصرف).

العصر كان تهديد الدين الإسلامي، فهي تدعو إلى آراء تخالف تعاليم الإسلام^(١). وقد قُتل كثيرون من رؤوس الزنادقة في العصر العباسي «يتقدمهم ابن المقفع الذي قُتل في عهد أبي جعفر المنصور»^(٢).

وفي وسط هذا الجو، تعددت الفئات الدينية في المجتمع الإسلامي؛ فكان منها أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، وقد عاشوا بين المسلمين، بالأمن والحرية في شتى المجالات، و«كانوا يتمتعون بكثير من التسامح الديني، ويقيمون شعائرهم الدينية في أمن ودعة»^(٣).

فقد كانت نتيجة الانفتاح الثقافي والفكري على الملل والنحل انتشار الفلسفة اليونانية بموضوعاتها ومفاهيمها ومصطلحاتها الجديدة «فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي»^(٤). وتغلغل معها الشك بين المسلمين فكثرت الشبهات. وطغت موجة الأفكار المنحرفة، فكان أرباب الديانات يتجادلون في أديانهم، ويقفون مواقف الهجوم والدفاع، ويدعون إلى دينهم بأدلة عقلية مؤسسة على منطق أرسطو وقد كانت الدعوة إلى الإسلام في العصر الأول أكثر ما تعتمد على الأسلوب الفطري والانتباه إلى الكون وآثاره. أمّا في هذا العصر، «فتحولت الدعوة الدينية إلى علم الكلام، وتأثر تفسير القرآن وتفسير الحديث والتشريع بهذا الأثر الفلسفي ورأينا العلماء يجتهدون في شرح كل ما يعرض لهم من ذلك بعلم عقلية وعبارات منطقية»^(٥).

وكذلك نضج علم الكلام في العصر العباسي الأول، وانتشر الخلاف وكثر الجدل وكان النزاع يملأ حلقات العلم، والمناظرات تقع في مجالس الخلفاء في المساجد وفي الشوارع.

وفي وسط هذه الأفكار والآراء نرى أنّ «الصادق كان ذا تفكير مستقل، وكان يوجّه ولا يتأثر بالآراء وكان غير مقيد بنحلة وفرقة بل كان فوق تنازع الفرق»^(٦) وكان يبين مقدار ما فيها من الحق وكان المصلح الذي تولّى تربية الجيل المسلم على منهج خاص «ومنهاجه القويم الذي رسمه لنفسه هو الالتزام بالكتاب والسنة»^(٧) وسنفصل الكلام عليه فيما بعد عند كلامنا على آرائه التربوية في البحوث التالية.

(١) علي حسن الخربوطلي، المهدي العباسي، الدار المصرية، ١٩٨٤، ص ١٤٧.

(٢) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، مرجع سابق، ص ٨١.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٢٥.

(٤) السيد مير علي الهندي، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، القاهرة، ١٩٣٨، ص ١٧٩.

(٥) أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص ٩.

(٦) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ج ١، ص ٧٩ وص ١١٧.

(٧) المصدر نفسه، ص ٧٩.

الجانب الاجتماعي

لم يحدث الانقلاب في البيئة العربية فجأة، بل بدأ التبدل فيها منذ خرجت جيوش الفتح إلى أقطار العالم في الشرق والغرب، ومنذ أخذ الإسلام ينتشر في صفوف غير العرب، ومنذ شرع البدو يتخلّون عن سكنى البادية، وينزلون الحواضر، ومنذ تزوّج الفاتحون العربُ الفارسيات والتركيات والروميات. إلا أن هذا التبدّل التدريجي كان قد بلغ مع قيام الدولة العباسية مبلغاً لفت الأنظار.

العرب في الأصل - إلا أقلّهم - بدوٌ رُحّل يحملون مبادئهم وقيمهم مع خيامهم ويتنقلون بها من مكان إلى آخر، لا يذكرون إلا صلة النسب أو ما هو بمعنى النسب من الولاء والحلف. وشرعوا يتخلّون عن سكنى البادية، وينزلون الحواضر في عهد بني أمية «فدعاهم النزول في الحضر إلى الترف واللهو وإلى ضياع كثير من محامدهم الأولى من الفطرة الخيرة والشجاعة والنجدة، ثم انتشر بينهم كثير من مساوئ المدنية كالشراب والانغماس في اللذات»^(١).

من ناحية أخرى جعل الفتح الإسلامي العرب يحتكّون بأمم غير عربية. فتزوج العرب بغير العربيات، فنشأ بذلك جيل مُولّد بين العرب وغير العرب. هذا الجيل الجديد كان أكثر إمعاناً في اللهو من الجيل العربي الأول. ثم كثرت الجوّاري أيضاً وشاعت المجالس التي يجتمع فيها الناس كلّهم، وحدث السّفور (بروز النساء في المجالس ومجارات الرجال في التّزه والغناء). «وقد أخذ الأمويون كما أخذ العباسيون من بعدهم نظام مجالسهم عن الفرس»^(٢).

وتطوّر الغناء تطوّراً بارزاً بسبب ما انتقل إليه من الفن الفارسيّ وأشياء قليلة من الفن الرومي. وكان حظ الحجاز من هذا التطور في الغناء عظيماً جداً، وكان أهل الحجاز صنّاع هذا التطوّر، «فقد امتلأت مكة والمدينة وضواحيها بالمغنين والمغنيات وكان لمغنّي مكة مذهب في الغناء ولمغنّي المدينة مذهب، وكان بين الفريقين مفاخرة»^(٣).

(١) عمر فروخ، الأدب العربي، مرجع سابق، ج ٢ ص ٣٩.

(٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٣٢.

(٣) أحمد أمين، فجر الإسلام، مطبعة اعتماد، القاهرة، د.ت، ج ١ ص ١٧٦.

ولا مجال لإنكار انتشار الغناء واللهو في الحجاز وأقاليم أخرى في الدولة الأموية كالعراق والشام، فذلك ما تؤكده كثير من الروايات، وتؤيده دواوين الشعراء وموروثات الأدباء، وبرغم اختلاف الروايات في مدى ذلك الانتشار وتعبيره عن حقيقة الحياة في المجتمع الأموي في خطها العام، ومهما كان في هذه القصص من المبالغة، فالأساس صحيح.

هذا وقد أسهم عدد من خلفاء بني أمية وأبناء الخلفاء في نشر الموسيقى والغناء واستعمال آلاتها، على أن آخرين منهم كعمر بن عبد العزيز كانوا يرفضون ذلك ويقاومونه^(١).

أما العباسيون، فقد رفضوا في مطلع عهدهم التعاطي باللهو والغناء، «كالمنصور الذي كان يعير آل الزبير بحبهم للطرب والموسيقى»^(٢)، ولكن عدداً من الخلفاء العباسيين اشتغل فيما بعد بصناعة الموسيقى والتلحين، حتى شاع اللهو في البلاد، ومال الناس إلى الغناء والرقص والتفنن في الملبس، وكان من الترف والفراغ أن شاع التسري، وتعاطي الناس المسكرات سراً وعلناً، «ولقد كان هذا نتيجة حتمية للاختلاط بالأجناس الأجنبية، والثقافات المغايرة، وأيضاً لإطلاق الحريات في جميع الميادين»^(٣)، وقد أثر ذلك تأثيراً بالغاً في الحياة الاجتماعية.

لقد كان هذا الحال واضحاً في العصر العباسي إلا أن هذا كان من شأن طائفة فقط، ولم يكن شأن الجميع، «فما كانوا كلهم أغنياء ولا كلهم هازلين، وما كان ذلك لأمة من الأمم في أي عصر من العصور... إنما هو يمثل ناحية واحدة من نواحيها المتعددة ووجوهها المختلفة»^(٤) كما نرى في هذا العصر، تيار الزهد والتقوى الذي غير الوضع قليلاً كتكشف وزهد سفيان الثوري^(٥)، وعبد الله بن المبارك^(٦)، فقلدهم الناس وساروا في طريقهم.

(١) علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، دارالفكر، بيروت، ط ٥، ١٩٩٣ ج ١، ص ٣٢١ وح ٥، ص ١٥٦ و ١٥٧.

(٢) محمد كاظم مكي، المدخل إلى حضارة العصر العباسي، دار الزهراء، بيروت، ١٩٩٠، ص ٤٢١.

(٣) محمد سعد القزاز، الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، دارالفكر العربي، مصر، ١٩٩٥، ص ٧٩.

(٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ١، ص ١٢٦.

(٥) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧ - ١٦١ هـ) من بني ثور بن عبد مناة، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى، وخرج من الكوفة، فسكن مكة والمدينة. له من الكتب «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» كلاهما في الحديث و«الفرائض» وكان آية في الحفظ. (الزركلي، الأعلام ٣/ ١٠٥).

(٦) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء (١١٨ - ١٨١ هـ) الحافظ، شيخ الإسلام، =

وقد شهد العصر الأموي طائفة من التطورات الإدارية والاجتماعية. . فكان منها ما اتجه إلى تطوير الإدارة بابتكار بعض الدواوين، مثل ديوان البريد وديوان الخاتم. والاتجاه إلى صهر الأمة الإسلامية مختلفة الأجناس في الإطار العربي، وذلك ببدء حركة التعريب سواء بتعريب أهم دواوين الدولة وهو ديوان الخراج، أم بتعريب العملة، حيث سك عبدُ الملك للعرب عملةً خاصةً بهم^(١)، بعد أن كانوا يتعاملون بالعملة الرومية والعملة الفارسية (سنة ٥٧٤هـ)، ثم أمر بتعميمها في جميع النواحي (سنة ٧٦). «ولم يكتف بتعريب العملة بل وحدَّ عيارها»^(٢)، فخفضت من مشكلات الجباية الناشئة عن اختلاف أوزان الدراهم من قبل، وأصبح نقداً دولياً في التعامل التجاري الدولي.

كما «أمر عبد الملك بنقل الدواوين (كتابة سجلات الدولة) إلى اللغة العربية»^(٣) بعد أن ظلت إلى أيامه تُكتب في العراق بالفهلوية (الفارسية القديمة) وفي الشام بالرومية وفي مصر بالقبطية. «فقد سادت اللغة العربية هذه الممالك جميعها وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للبلاد»^(٤)، وهكذا أصبحت لغة دولة و«لم ينقض العصر الأموي حتى كانت اللغة العربية هي السائدة في كل أنواع المكاتبات»^(٥). واضطر الساكسون في البلاد الإسلامية إلى تعلّم اللغة العربية، وجمعتهم ثقافة واحدة.

ومن ناحية أخرى سن الأمويون نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية الأموال، «وقد زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، إذ لم يراع الخلفاء الأمويون القواعد التي قررها أسلافهم، بل تجاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها»^(٦)، كالرسوم على الصناعات والحرف^(٧) وفرض ضرائب على من يتزوج أو يكتب عرضاً^(٨) وفرض الجزية على المسلمين الجدد في زمن عبد الملك بن مروان^(٩)،

= المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار وجمع الحديث والفقهِ العربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء، كان من سكان خراسان. له كتاب في «الجهاد» وهو أول من صنف فيه. (المرجع نفسه ٤/١١٥).

(١) تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٣٨٧، ص ٤٠.

(٢) أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، قم، ١٤٠٤، ص ٤٥ (بتصرف).

(٣) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٤) أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٥) مجدي فتحي السيد، تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي، دار الصحابة بطنطا، ١٩٩٨، ص ٣١٠.

(٦) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢ ص ٣٠١.

(٧) بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع، بيروت، د.ت، ص ٥٧.

(٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٣.

(٩) الطبري، تاريخ الأمم والرسول، ج ٨ ص ٣٥.

ثم ألغى عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته الضرائب الإضافية، كهدايا النوروز والمهرجان وضرائب الزواج وأجور البيوت. . . فقرر إعفاء من يسلم من الجزية^(١)، ولكن إصلاحاته انتهت بوفاته^(٢). . . ولم تستمر إلا جزئياً بعده.

وقد اهتم العباسيون كذلك بالخراج اهتماماً عظيماً، «وكانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجبي من الضرائب، وقد بلغت في أيام الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار»^(٣).

وقد أدت كثرة الأموال في العصر الأموي والعباسي إلى الترف، وانتقل المجتمع الإسلامي من طور البساطة والزهد والتخفف من متاع الدنيا، إلى طور جديد فيه شيء من الترف وقدر من التنعم، وقد تركت هذه النقلة المدنية أثرها على مناحي الحياة المختلفة، «فعمّ التألق في المطعم والملبس والمسكن ثم بُنيت الدور والقصور، وأنشئت البساتين»^(٤).

فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، اعتمد الخلفاء عليهم. وأهملوا العرب الذين نعموا على الفرس، حتى إن الطابع الفارسي ظهر واضحاً في العصر العباسي الأول، واقتبس الخلفاء العباسيون كثيراً من نظم الفرس الحكومية. فعلى سبيل المثال، «طرائقهم في تنسيق دواوين الدولة وأساليب الحرب، ونظم الحكم»^(٥)، حتى لقد «أخذ العباسيون من الفرس فكرة الوزارة»^(٦).

واحتجب الخليفة عن رعيته واتخذ الوزير والسياف، فأحيط شخصه بالقداسة والرهبة. . «وإن ذلك المظهر الخارجي الذي أحاط بالخلفاء العباسيين ليختلف عن تلك البساطة الأولى التي امتاز بها الإسلام، ويعيد إلى الذاكرة مظاهر الأبهة التي تجلت في البلاط الساساني»^(٧).

وهكذا انغمس العباسيون في الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة، وكانت قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة مضرب المثل في حسن رونقها وبهائها، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها^(٨)، كقصر الذهب الذي بناه أبو جعفر المنصور في وسط بغداد وقصر الخلد الذي بناه على شاطئ دجلة الغربي^(٩).

(١) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٣٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٢٩.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٠٢.

(٤) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص ٣٥٤.

(٥) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٢٨١.

(٦) محمد سعد الفزاز، الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٧) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٥٤ و ٢٥٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٠٢.

(٩) أحمد بن علي خطيب بغدادي، تاريخ بغداد، مرجع سابق، ج ١ ص ٧٥.

ومن الطبيعي أن يعمّ البؤس والشقاء من جانب، بينما يعمّ النعيم والترّف من جانب آخر^(١)، فقد كانت هناك طبقة تنعم بالحياة بلا حدّ، وطبقات قُتِرَ عليها في الرزق، فهي تشقى كلّ الشقاء إذ، «لم تكن أموال الدولة موزّعة توزيعاً متقارباً، ولا كانت الفروق بين الطبقات فروقاً طفيفة، وإنما كانت هناك هُوات سحيقة بين الطبقات»^(٢).

والجدير بالذكر أنّ عناية الخلفاء لم تقتصر في هذا العصر على عمارة القصور والبساتين فقط، بل اهتموا ببناء المدن الكبرى من ناحية (كمدينة قيروان ومدينة بغداد)، وبناء المساجد من ناحية أخرى، كما روي بناء مسجد الخيف بمنى على يد أبي جعفر المنصور وكذلك توسيع المسجد الحرام على يده، فقبل عندما أراد أبو جعفر أن يوسّع المسجد الحرام «وامتنع الناس من بيع منازلهم، فذكر ذلك منصور لجعفر بن محمد، فقال الإمام: سلهم أهم نزلوا على البيت أم البيت نزل عليهم؟ فكتب منصور إليهم فقالوا: نزلنا عليه. فقال جعفر بن محمد: فإن البيت فناؤه. فكتب أبو جعفر إلى واليه زياد بن عبيد الله بهدم المنازل التي تليه فهدمت المنازل وأدخلت عامّة دار الندوة فيه حتى زاد فيه ضعفه...»^(٣).

(١) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٢) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ١ ص ١٠٣.

(٣) أحمد يعقوبي، تاريخ يعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ج ٢، ص ٣٦٩.

الجانب العلمي والثقافي

لم يقتصر تطوّر البيئة العربية في عصر الصادق على جانب واحد من الحياة الاجتماعية، فقد تطوّرت في جوانب مختلفة، وكان للحركات الفكرية والثقافية نصيب من ذلك التطوّر، فدخلت الأمة الإسلامية ذلك العصر مرحلة جديدة في حياتها العقلية والعلمية.

نلاحظ في أوائل العصر الأمويّ عناية العرب بمعارفهم العربية الخالصة من أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم، فكثّر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار، وإلى جانب المعارف العربية اندفع العرب نتيجة لتمازجهم مع الأمم الأعجمية يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية، فعرفوا تخطيط المدن وعمارة المباني، كما عرفوا جباية الخراج وضبط الدواوين، ولم يقف تأثر العرب بالأعاجم عند المعارف التطبيقية وإنما تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها، «ولا شك أنهم استفادوا من المدارس التي وجدت في جند يسابور والرها ونصيبين وأنطاكية وحرّان والإسكندرية التي هي مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة، دينية وغير دينية»^(١).

بدأ العرب يهتمون بالترجمة منذ ذلك العصر، و«كان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عُنيَ بنقل علوم الطب والكيمياء من الكتب اليونانية والقبطية إلى العربية»^(٢)، وفي أخبار عمر بن عبد العزيز «أنه أمر ماسرجوية البصري أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً في الطب»^(٣).

لكن أعمال الترجمة في العصر الأمويّ كانت مقصورة على أفراد، وتمثل اهتمامات فردية أو جهوداً شخصية، خلافاً لما نجده في العصر العباسي، حيث كانت الترجمة «تمثل مدرسة كاملة ترعاها الدولة وتباركها. كذلك اهتمت الترجمة في العصر الأمويّ بالعلوم مثل الطب والكيمياء، ولم تتعدّها إلى العلوم العقلية في الرياضيات والمنطق والفلسفة»^(٤). إضافة إلى «أن الترجمة في هذا العصر كانت بدائية وضعيفة

(١) نجدة خمّاش، خلافة بني أمية في الميزان، ربيع الدار السورية، ٢٠٠١، ص ١٧٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج ١ ص ٥١٠.

(٣) محمد بن إسحاق، النديم، الفهرست، د.ن، د.ت، ص ٣٥٥.

(٤) محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها، مرجع سابق، ص ١٨٤.

المستوى إذا ما قورنت بالترجمات الأخرى في الأدوار التالية»^(١)، على كل حال لم يكن لترجمة الكتب العربية حظ كبير في عهد بني أمية ولقد عمل الخلفاء العباسيون جميعاً على تنشيط حركة الترجمة، مستخدمين في ذلك شتى السبل والأساليب المادية منها والمعنوية.

فإن الخليفة المنصور هو أول من ازدهرت في عهده هذه الحركة من خلفاء بني العباس، فعني بترجمة الكتب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية وتشجيع العلماء والباحثين على ذلك... حتى قيل: «إن المنصور كان يدفع ثمن المترجمات الجديدة ما يوازي وزنها ذهباً»^(٢) فترجمت له الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية، فنشرها بين الناس، فكثرت في أيامه رواياتهم، واتسعت علومهم. «ومن المؤلفات التي ترجمت في أيام المنصور، كتاب كيلة ودمنة، وكتاب السند هند، وكتاب أرسطوطاليس من المنطقيات وسائر الكتب العجمية في النجوم، والحساب والطب والفلسفة وغير ذلك... ويعتبر المنصور أول خليفة عمل بأحكام النجوم، وترجمت في عهده أشهر كتب الفلك»^(٣).

وكذلك نرى أن العلم في العصر الأموي كانت نواته القرآن والحديث، فكل مسائل العلم تقريباً تدور حول هذه النواة، منهما يستنبط الفقه، ولأجلهما يُروى الشعر، وبسببهما تبحث مسائل النحو. وعلى الجملة «الحركة العلمية كانت كلها دينية إلا القليل؛ والعلم كان رواية العلماء من حفظهم أو من صحف جمعت حيثما اتفق، فالصحيفة قد يكون فيها حديث ومسألة فقهية، ومسألة نحوية، ومسألة لغوية. ومجالس العلماء كذلك ولم نجد العلوم متميزة، فليس علم مستقل اسمه التفسير، ولا علم مستقل اسمه الفقه وهكذا، ولا العلماء كذلك.

أما في العصر العباسي، فنجد الدراسة حول الطب والطبيعة والكيمياء والهيئة وغير ذلك من الدراسات الدنيوية إلى جانب الدراسات الدينية حول القرآن والحديث، ولكل نوع مميزات خاصة ومنهج في البحث خاص»^(٤). ونجد في الوقت نفسه أن كلاً منها قد أثر في الآخر وتأثر به.

وبدأت تتراءى في هذا العصر مسألة التخصص في العلوم، فامتازت مختلف العلوم

(١) رشيد حميد حسن الجميلي، حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، دار الكتاب، طرابلس ١٩٨٢، ص ٢٧.

(٢) أحمد الحنفوي، الحضارة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية، ص ١٦٥.

(٣) رشيد حميد حسن الجميلي، حركة الترجمة في المشرق الإسلامي، مرجع سابق، ص ٧٠ و ٧٣ (بتصرف).

(٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص ١١ إلى ١٣ (بتصرف).

عن بعضها البعض، وجمعت مسائل كل علم على حدتها، «وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم. ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم، أو العلوم القديمة»^(١).

وتشمل العلوم النقلية: التفسير، والقراءات، والحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان، والأدب.

وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، والهندسة وعلم النجوم، والطب، والكيمياء. وفي هذا العصر «بدأت المذاهب تتحدّد، وأصبح لكل إمام أصول وأساليب يجري عليها في الاستنباط... فظهر المذاهب الفقهية وتكوّنها وشمولها لأبواب الفقه والتأليف فيها واستقلالها ونحو ذلك كله ظاهرة من ظواهر العصر العباسي»^(٢). ولذلك ذكر المؤرّخون أن التدوين والتأليف كانا من مميزات العصر العباسي في التشريع، «فقد ظهرت حركة التدوين في هذا العصر في كل فروع العلم ومنها الفقه؛ نعم كان في العصر الأمويّ نواة التدوين، ولكنها نمت واتسعت في العصر العباسي»^(٣).

ولم يكن للمكتبات شأن كبير في العصر الأموي، ولما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي، وتقدمت صناعة الورق، كثرت المكتبات التي كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية، وصارت هذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية.

وكذلك نرى للمساجد في هذا العصر دوراً كبيراً في النهضة العلمية؛ فلم تكن بيوتاً للعبادة فحسب، بل كانت أيضاً معاهد علمية لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة، والحافلة بكل أنواع المعرفة والتثقيف، يقدم إليها الراغبون في العلم، ويجتمعون في حلقات حول أستاذهم، وتكبر الحلقة وتضجر تبعاً لمكانة الأستاذ.

ففي مسجد الرسول ﷺ «كان الإمام جعفر الصادق يجلس ليعلم الناس ويثقفهم ويفقههم في أمور دينهم»^(٤). وفي مسجد البصرة حلقات أخرى للدرس والشعر والأدب... وقد عملت هذه المجالس والحلقات على تنشيط الحركة العلمية والفكرية والثقافية الإسلامية.

وسوف أتحدث إن شاء الله عن إسهامات الإمام الصادق في تنشيط هذه الحركة في الفصول الآتية بالتفصيل، أسأل الله تبارك وتعالى أن يعينني في ذلك.

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٣٢٣.

(٢) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص ١٧٣، (بتصرف)

(٣) المصدر نفسه ص ١٧١.

(٤) محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد، مرجع سابق، ص ١٨٩.

المبحث الثاني

المعالم البارزة من حياة الإمام الصادق

- ولادته وتسميته :
- روافد علمه وفكره :
- لمحات من صفاته وأخلاقه :
- مكانته العلمية وآثاره :
- أقوال العلماء في شخصيته :
- رواته وكبار المتخرجين من تلاميذه :

المبحث الثاني

المعالم البارزة من حياة الإمام الصادق

ولادته وتسميته:

الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق، ابن محمد الباقر، ابن علي زين العابدين، ابن الحسين سبط رسول الله ﷺ، ابن علي بن أبي طالب.

وُلد بالمدينة المنورة يوم الجمعة، عند طلوع الفجر ١٧ ربيع الأول سنة ٨٠هـ: (١). اسمه الشريف جعفر، له ألقاب أشهرها الصادق ومنها الصابر والفاضل والطاهر والكافل ولقب بالصادق لصدق حديثه (٢).

وكُنِّي الإمام الصادق بأبي عبد الله وأبي إسماعيل وأبي موسى (٣). والده: هو الإمام محمد بن علي الباقر، من جلة علماء المدينة (٤) وشهر أبو جعفر بالباقر من بقر العلم (أي شقّه) فعرف أصله وخفيه (٥).

وكان رضي الله عنه مفسراً للقرآن، ومفسراً للفقهِ الإسلامي، مدركاً حكمة الأوامر والنواهي، فاهماً كل الفهم لمراميها، وكان راوية للأحاديث. ولهذا «كان مقصد العلماء من كل البلاد الإسلامية» (٦).

رويت عنه آثار في الأخلاق الشخصية والاجتماعية ما لو جمع في كتاب لتكون منه مذهب خلقي سام، يعلو بمن يأخذ به إلى مدارج السمو الإنساني. وقد جمع بين العلم والعمل والسؤدد والشرف والشقة والرزانة (٧).

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١، ص ١٥٧ / ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، د.ت ج ١، ص ٣٢٧.

(٢) السمعاني، الأنساب، دار الجنان، بيروت، ج ٣، ص ٥٠٧.

(٣) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، منشورات العلمية، قم، ج ٤، ص ٢٨١.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦ ج ٦، ص ٢٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٠٢.

(٦) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ١٨.

(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ٤٠٢.

هذا أبو جعفر محمد الباقر، ومن حاله نعرف إلى أي سلالة ينتمي جعفر، ونعرف أنه في ظل العلم النبوي نما وترعرع، وقد كان له قدوة في طلبه للحقيقة والحكمة، فكان ذا أثر بالغ في حياة ولده، وقد مات في سنة ١١٥^(١).

والدته: هي (أم فروة) بنت الفقيه القاسم بن محمد بن أبي بكر^(٢) اسمها قريبة أو فاطمة، وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر وهذا معنى قول الصادق إن أبا بكر ولدني مرتين^(٣).

وهي من سيدات النساء عفة وشرفاً وفضلاً، فقد تربت في بيت أبيها وهو من الفضلاء اللامعين في عصره، كما تلقت الفقه والمعارف الإسلامية من زوجها الإمام محمد الباقر وكانت على جانب كبير من الفضل، حتى أصبحت مرجعاً للسيدات من نساء بلدها وغيره في مهمات أمورهن الدينية، وحسبها فخراً وشرفاً أنها صارت أماً لإمام من أئمة المسلمين، وكانت تعامل في بيتها بإجلال واحترام من قبل زوجها، وباقي أفراد الأسرة النبوية.

وقد قال الإمام الصادق فيها: إنها ممن آمنت واتقت وأحسنن والله يحب المحسنين^(٤).

ـ نشأته :

نشأ أبو عبد الله بالمدينة المنورة، وقد تولى جدّه الإمام زين العابدين تربيته في عهد طفولته، ودرج تحت كنفه ورعايته، وكان هو معلمه الأول.

قضى مع جده زين العابدين ما يقارب ١٤ سنة من عمره، وبعد وفاة جدّه سنة ٩٤هـ، تولى أبوه الباقر تربيته، واستقل بتعليمه، وكان الإمام الصادق مقدماً عند أبيه وملازماً له في حلّه وترحاله، ودخل معه الشام ومكة المكرمة، وشاهد هناك ازدحام الفقهاء من مختلف الأقطار على أبيه الباقر لاستماع حديثه وسؤاله، وكانت حلقة درسه تعقد بالمسجد، فتكون هي الحلقة الوحيدة لطلاب العلم، ورجال الفكر، ورواة الحديث، فلا تعقد حلقة هناك إلا بعد انتهاء الإمام الباقر من إلقاء دروسه.

(١) ابن كثير، البداية النهاية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٣، ج ٩، ص ٢٣٩.

(٢) القاسم بن محمد بن أبي بكر كان من الفقهاء الأجلاء، رواة الحديث، وقد روى حديثه أصحاب الصحاح الستة. وكان عمر بن عبد العزيز يُجلّه كثيراً وقد قال: لو كان لي من الأمر شيء لوليت القاسم بن محمد الخلافة، وقد عمر طويلاً وذهب بصره في آخر عمره. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥٩/٤).

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٥٥.

(٤) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٧٠.

وكان الإمام الصادق في طليعة تلامذة أبيه في مدرسته بالمدينة، وهي تضم عدداً وافراً من أعلام عصره وهم يسألونه عن أهم المسائل وأعظم المشكلات. وهكذا بقي مع أبيه بعد جدّه زين العابدين تسع عشرة سنة.

وفي هذا النبع الصافي من علم آل محمد ترعرع ونما، وفي ظل ذلك البيت الكريم عاش، وقد اتجه منذ نعومة أظفاره إلى العلم، كشأن أهل البيت في ذلك الوقت.

ولذلك نرى أن حياة الصادق العلمية والفكرية والتربوية هي امتداد لحياة أبيه وجدّه وقد أغنى فيها الفكر بالعلم الغزير ومناهجه التربوية السديدة.

روافد علمه وفكره

أولاً: جده علي بن الحسين زين العابدين:

ولقد قال ابن شهاب الزهري الذي تتلمذ لزين العابدين: «ما رأيت أفقه من علي بن الحسين . . . وكانت أكثر مجالستي له»^(١).

فقد مات زين العابدين والصادق في الرابعة عشرة من عمره أو حولها، فلا بد أنه أخذ عنه، وخصوصاً أنه بقية السلف من أولاد الحسين.

وقيل: «روى عنه (زين العابدين) أولاده باقر وزيد كما روى عنه حفيده الصادق»^(٢).

ثانياً: أبوه محمد الباقر:

فقد كان إماماً في عصره، تلقى عنه أبو حنيفة، وأخوه زيد وغيرهم، وقد كان بيته مقصد العلماء من كل فج عميق، وإنه كان على اتصال بكل علماء المدينة يجيئون إليه.

وقد قال فيه ابن كثير في تاريخه: وروى عنه جماعة من كبار التابعين وغيرهم فمن روى عنه ابنه جعفر الصادق، والحكم بن عتبة، والأعمش، وأبو إسحاق السبيعي، والأوزاعي، والأعرج، وهو أسن منه، وابن جريج، وعطاء، وعمرو بن دينار، والزهري^(٣).

وقد لزم جعفر أباه معدن العلم وتوفي أبوه وهو في الرابعة والثلاثين. ولأنه استقى العلم من جده زين العابدين، ومن أبيه الإمام محمد الباقر فقد نشأ تلك النشأة الصالحة، ونال تلك الدرجة السامية، وعظم في أعين كبار الفقهاء، لما تحلى به من الخصال الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والإحاطة التامة بشتى العلوم، وظهرت عليه علائم الفضل، وشرف المحتد، وعزة النفس، وصدق اللهجة.

وجدير بالذكر بأن هناك أقوالاً مختلفة في شيوخ الإمام غير أبيه وجده^(٤). وعند

(١) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٢، ص ١٤٢.

(٢) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص ١٢٢.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٠٦.

(٤) منها قول الذهبي: جده القاسم بن محمد وعبيد الله بن أبي رافع وعروة بن الزبير وعطاء بن أبي رباح ونافع العمري (تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٦).

دراسة مختلف الآراء - في هذا الصدد - نجد أن العلماء قد أجمعوا على ذكر أبيه الباقر وجده زين العابدين، واختلفوا في سائر الأشخاص حتى إن الأستاذ أبا زهرة الذي قد حاول جاهداً العثور على شيوخ يربط من خلالهم بين الصادق وبين رسول الله ﷺ لم يذكر مثلاً على ذلك سوى اسم القاسم بن محمد بن أبي بكر ويقول: «ولا بد أن يكون قد تلقى عن أبي أمه، وهو القاسم بن محمد، فقد توفي القاسم، وهو في الثامنة والعشرين». وقال في موضع آخر: «بلا ريب له شيوخ كثيرون وإن لم تذكرهم كتب المناقب بالإحصاء والعدد».

وأضاف قائلاً: «ولم يكن له طريق إلا التلقي العلمي عن آبائه وأجداده»^(١). ويرغم أن الذهبي ذكر عدة شيوخ للإمام قائلاً: «وليس هو بالمكثر إلا عن أبيه»^(٢) ولهذا بعيداً عن الدخول في مجالات الخلاف ذكرنا الأسماء التي أجمع العلماء عليها، واتفقوا فيها، وهما أبوه الباقر وجده كما أكد الإمام الصادق نفسه:

قيل لأبي بكر بن عيَّاش^(٣) لم تستمع الحديث من جعفر بن محمد مع أنك أدركته؟ قال: سألت جعفر بن محمد عن الأحاديث التي كان ينقلها: هل سمع شيئاً منها - أي هل لها شيوخ حديث -؟ قال: لا، لكنّها رواية روينها عن آبائنا^(٤).

(١) أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٦ إلى ٨٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٥٥.

(٣) أبو بكر بن عيَّاش بن سالم الأسدي الكوفي المقرئ مولى واصل الأحذب قال ابن حبان: اختلفوا في اسمه والصحيح أن اسمه كنيته وكان من العباد الحفاظ المتقين وهو يروي عن أجلة الناس، مات سنة أربع وتسعين. (تهذيب التهذيب، ج ١٢، ص ٣٧).

(٤) أبو الحجاج يوسف المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ج ٥، ص ٧٧.

لمحات من صفاته وأخلاقه

لقد كان الإمام الصادق مثلاً أعلى للصفات الكاملة، والمزايا الحميدة، والأخلاق الفاضلة، فهو الصادق في القول، والناطق بالحق، والعالم العامل بعلمه، والموجه للأمة بدعوته، «وما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم كما أجمعوا على فضله وعلمه»^(١).

وفيما يلي بعض أبرز صفاته ومميّزاته:

أ- الإخلاص:

اتصف الإمام الصادق التقى بنبل المقصد وسمو الغاية، والتجرد في طلب الحقيقة من كل هوى، أو عرض من أعراض الدنيا، فما طلب أمراً دنيوياً تنتابه الشهوات أو تحف به الشبهات، بل طلب الحقائق النيرة الواضحة، وطلب الحق لذات الحق لا يبغي به بديلاً. قيل في شأنه: «إنه لم يرَ لأحد غير الله حساباً فما كان يخشى أحداً في سبيل الله، ولا يقيم وزناً للوم اللاتمين... وكان بهذا الإخلاص وتلك التقوى السيد حقاً وصدقاً»^(٢).

وقد تحدّث التاريخ بصدقاته في السرّ، كان يقوم في الليل يحمل الطعام والدراهم على عاتقه لأهل الحاجة من فقراء المدينة، فيقسمه فيهم ولا يعرفونه.

ومن صلّاته السرية ما رواه إسماعيل بن جابر^(٣) قال: أعطاني أبو عبد الله خمسين ديناراً في صُرة، وقال لي: ادفعها إلى شخص من بني هاشم، ولا تُعلمه أنني أعطيتك شيئاً، فأتيته ودفعتها إليه، فقال لي: من أين هذه؟ فأخبرته أنها من شخص لا يقبل أن تعرفه، فقال العلوي: ما يزال هذا الرجل كل حين يبعث بمثل هذا المال، فنعّيش بها إلى قابل، ولكن لا يصلني جعفر ب درهم مع كثرة ماله^(٤).

(١) أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٣) إسماعيل بن جابر الجعفي أو الخثعمي الكوفي من أصحاب الصادق، روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله وهو الذي روى حديث الأذان، له كتاب ذكره محمد بن الحسن الوليد، ثقة ممدوح له أصول رواها عن صفوان بن يحيى. (محسن الأمين، أعيان الشيعة ٣/ ٣١٤)

(٤) أبو الحسين ورام بن أبي الفوارس الأشتري، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (المعروف بمجموعة ورام)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ٨٢.

ب - عبادته :

خشية الله وعبادته على قدر معرفة المرء بربه، وعلاقته به وحبه، وقد قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١).

والإقبال على عبادة الله تعالى وطاعته من أبرز صفات الإمام، فقد كان من أعبد الناس لله في عصره، قال الإمام مالك بن أنس: «جعفر بن محمد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى خصال ثلاث: إما مصل، وإما صائم، وإما يقرأ القرآن»^(٢).

قال أحد أصحابه: رأيت أبا عبد الله ساجداً في مسجد النبي ﷺ، فجلست حتى أطلت، ثم قلت: لأسبحن ما دام ساجداً، فقلت: «سبحان ربي وبحمده، أستغفر الله ربي وأتوب إليه» ثلاثمائة ونيفاً وستين مرة، فرفع رأسه^(٣).

وقيل: كان عليه السلام إذا أراد التوجه إلى الصلاة اصفرَّ لونه، وارتعدت فرائضه خوفاً من الله تعالى ورهبة وخشية منه، وقد أثرت عنه مجموعة من الأدعية في حال وضوئه، وتوجهه إلى الصلاة وفي قنوته، وبعد الفراغ من صلاته^(٤).

ج - سخاؤه :

إن السخاء بالمال يدل على مقدار قوة الإحساس الاجتماعي، وإن ستره يدل على ملاحظة جانب الله وحده، وليس ذلك بعجب ممن نشأ مثل نشأة الإمام الصادق.

سأله فقير فأعطاه أربعمئة درهم، فأخذها الفقير وذهب شاكراً فقال لخدمه: ارجعه، فقال الخادم: سئلت فأعطيت، فماذا بعد العطاء؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير صدقة ما أبقت غنى، وإنا لم نغن، فخذ هذا الخاتم فاعطه فقد أعطيت فيه عشرة آلاف درهم، فإذا احتاج فليبعه بهذه القيمة»^(٥).

وقيل: كان جعفر بن محمد يعطي حتى لا يبقى لعياله شيئاً^(٦).

يقول أحد أصحابه: كان أبو عبد الله إذا أعتم وذهب من الليل شطره أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم، فحمله على عنقه ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة

(١) سورة فاطر، جزء من الآية ٢٨.

(٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، ج ٢، ص ٨٩.

(٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة، دار المعارف للطبوعات، بيروت، ١٤٠٦، ج ٤، ص ١٣٨.

(٤) باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٢، ج ١، ص ٦٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٦) المزني، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مرجع سابق، ج ٥، ص ٨٧.

فقسّمه فيهم ولا يعرفونه فلما مضى جعفر فقدوا ذلك، فعلموا أنه كان أبا عبد الله^(١).

د - حلمه وسماحته :

إن الحلم والسماحة، خلق قادة الفكر والدعاة إلى الحق. كما قال الله تعالى آمراً نبيه، وكل هاد بل كل مؤمن: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢).

ولقد كان الصادق سمحاً كريماً لا يقابل الإساءة بمثلها، بل يقابلها بالتي هي أحسن، عملاً بقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٣).

وقد ضرب المثل الأعلى في هذا الصدد، فقد روي أن رجلاً من الحجاج نام في المدينة، فتوهم أن كيسه للنفقة قد سرق، فخرج فرأى جعفر الصادق مصلياً، ولم يعرفه، فتعلّق به، وقال له: أنت أخذت همياني! قال: ما كان فيه؟ قال: ألف دينار. فحمّله إلى داره، ووزن له ألف دينار، وعاد الرجل إلى منزله، فوجد هميانه، فعاد إلى جعفر معتذراً بالمال، فأبى قبوله، وقال: شيء خرج من يدي لا يعود إليّ.

فسأل الرجل عنه، ف قيل: هذا جعفر الصادق.

قال: لا جرّم هذا فعال مثله^(٤)!

وكان رقيقاً مع كل من يعامله، من عشراء وخدم، ويروي في ذلك أنه بعث غلاماً له في حاجة، فأبطأ، فخرج يبحث عنه، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه، وأخذ يروّح له حتى انتبه، فقال: «ما لك تنام الليل والنهار؟ لك الليل ولنا النهار»^(٥).

هـ: - إكرامه للضيوف :

مدح الله عزّ وجلّ نبيه إبراهيم عليه السلام بكرمه إذ قال في كتابه المبارك: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾^(٦)، فأسرع إبراهيم عليه السلام بتقديم ضيافة عظيمة، لعلّ الضيوف جياع.

ويشعر هذا التصرف باستحباب الإسراع في تقديم القرى للضيف. فالضيف أسير مضيفه، وتحت رعايته، فينبغي إكرامه بالابتسام والبشاشة والإطعام و...

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، مرجع سابق، ج ٤، ق ٢، ص ١٤٠.

(٢) سورة الأعراف، جزء من الآية ١٩٩.

(٣) سورة فصلت، الآية ٣٤.

(٤) عبد الكريم هوزان الشافعي النيشابوري، الرسائل القشيرية، القاهرة، ص ١١٤.

(٥) الكليني، الأصول الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ٣، ١٣٨٨، كتاب الايمان

والكفر، باب الحلم، ج ٧.

(٦) سورة هود، جزء من الآية ٦٩.

ومن كرم الصادق وسخائه حبه للضيوف وإكرامه لهم، فكان - فيما يقول الرواة - يشرف على خدمة ضيوفه بنفسه، وكان يأتيهم بأشهى الطعام وألذه، وأوفره، فعن أبي حمزة الثمالي^(١) قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة فأتينا بطعام ما لنا عهد بمثله لذادة وطيباً، وأتينا بتمر ننظر فيه إلى وجوهنا من صفائه وحسنه، فقال رجل: لتسألن عن هذا النعيم الذي نعمتم به عند ابن رسول الله ﷺ، فقال أبو عبد الله: «اللَّهُ أَكْرَمُ وَأَجَلُ مَنْ أَنْ يَطْعَمَكُمْ طَعَاماً فَيَسْوَغَكُمْوهُ، ثم يسألكم عنه، ولكن يسألكم عمّا أنعم عليكم بمحمد وآل محمد^(٢). ويكرر عليهم القول وقت الأكل: «أشدكم حباً لنا أكثركم أكلاً عندنا»^(٣).

فهو يحدثهم في أثناء الطعام ليطول جلوسهم على المائدة، ويرفعوا الحياء عند الأكل، وليكونوا في حال شغل بالأكل والمضغ، والإمام يحدث رويداً رويداً، فيبقى عندئذ على الطعام إلى آخر الضيوف.

و - تواضعه ومواساته للضعفاء:

ومن مظاهر شخصيته العظيمة نكرانه للذات وحبه للتواضع، فقد جافى التكبر، والاستعلاء على خلق الله، وكان يرى ذلك من أفحش الصفات، التي تهبط بالإنسان إلى قرار سحيق.

وكان من تواضعه أنه يجلس على الحصير^(٤)، ويرفض الجلوس على الفرش الفاخرة، وكان ينكر ويشجب المتكبرين وقد قال ذات مرة لرجل من إحدى القبائل: من سيد هذه القبيلة؟

فبادر الرجل قائلاً: أنا، فأنكر الإمام ذلك، وقال له: «لو كنت سيدهم ما قلت: أنا»^(٥). وروى أنه كان يقول لخدامه في أوقات حاجة الناس: «اشتر لنا شعيراً، واخلط به طعامنا، فإني أكره أن نأكل جيداً، ويأكل الناس رديئاً»^(٦).

(١) ثابت بن دينار الثمالي الأزدي بالولاء، أبو حمزة (.. - ١٥٠هـ) من رجال الحديث الثقات عند الإمامية. وروى عنه بعض أهل السنة. وهو من أهل الكوفة. قُتل ثلاثة من أولاده مع زيد بن علي بن الحسين. وكان الرضا علي بن موسى يقول: هو لقمان زمانه. وكان أبوه مولى للمهلب بن أبي صفرة. له كتاب في تفسير القرآن وكتاب الزهد وكتاب النوادر. (الزركلي، الأعلام ٩٧/٢)

(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، المحاسن، دار الكتب الإسلامية، طهران، د.ت، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣، ج ٧٢، ص ٤٥٠.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، الهيئة المصرية، القاهرة، د.ت، ج ٥، ص ١٧٦.

(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ١٤٠٥، ج ١، ص ٣٢.

(٦) هاشم معروف الحسني، سيرة الأئمة الاثني عشر، دار القلم، بيروت ١٩٨١، ج ٢، ص ٢٩٧.

وهكذا يجب أن يكون القدوة، يعيش آلام الناس، ويشاركهم شظف العيش، ويواسيهم بنفسه، ويكره أن يتميز عنهم.

ز - حضور بديهته :

وكان الإمام الصادق حاضر البديهة تجيئه أرسال المعاني في وقت الحاجة إليها من غير حبة في الفكر، ولا عقدة في اللسان، وإن مناظراته الكثيرة تكشف عن بديهة حاضرة، فيجيب عنها من غير تردد ولا تلكؤ مبنياً باختلاف الفقهاء فيها، وما يختار من أقوالهم، وما يخالفهم جميعاً فيه.

وإن مناظراته التي كان يلقي بها الزنادقة وغيرهم الحجة، ما كانت ليستقيم فيها الحق لولا بديهة تسعفه بالحق في الوقت المناسب.

قيل: إن ابن أبي العوجاء لما سمع بعض الحجج الدامغة من الصادق في العقيدة الإسلامية، كان يفتش عن دليل يتمسك به للرد على الإمام، فمرة جاء إلي جعفر بن محمد وجلس ساكناً لا ينطق بشيء، فقال له الإمام: كأنك جئت تعيد بعض ما كنا فيه؟ فأسرع ابن أبي العوجاء قائلاً: أردت ذلك يا ابن رسول الله! فقال الإمام: «ما أعجبك هذا، تنكر لله وتشهد أنني ابن رسول الله!»^(١)

إن حضور البديهة من ألزم اللوازم لقادة الأفكار، والأئمة المتبعين، فلا توجد قيادة فكرية لعيي في البيان، ولا توجد قيادة فكرية لمن عنده حبة في المعاني.

ح - هيئته :

أضفى الله تعالى على جعفر بن محمد الصادق، جلالاً ونوراً من نوره، وذلك لكثرة عبادته، وصمته عن لغو القول، وانصرافه عما يرغب فيه الناس، وجلده للحوادث، كل هذا جعل له مهابة في القلوب، فوق ما يجري في عروقه من دم طاهر نبيل، وما يحمل من تاريخ مجيد لأسرته، وما آتاه الله من سمت حسن، ومنظر مهيب، وعلو عن الصغائر واتجاه إلى المعالي.

وقد التقى مرة بابن العوجاء، فلما رأى الصادق واسترعى انتباهه ما عليه من سمت، وأخذ الصادق يتكلم فلم يحرك جواباً، حتى تعجب الصادق والحاضرون، فقال له: ما يمنعك من الكلام؟ ويقول الزنديق: «بدا جلال لك ومهابة، وما ينطق لساني بين يديك، فإني شاهدت العلماء، وناظرت المتكلمين، فما داخلني هيبة قط مثل ما داخلني من هيبتك»^(٢).

(١) باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، ج ١، ص ١٦٨

(٢) أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٩.

ومع هذه الهيبة التي تفرض الإنصات إليه، مهما تكن لاجابة من يسمعه نرى من الصادق تواضعاً لتلاميذه والمقبلين عليه.

وهكذا العظماء تفرض المهابة طاعتهم، ولكنهم موطنو الأكناف لعشرائهم، وخصوصاً الضعفاء، ليدنوهم إليهم، وليكونوا في حرية ورغبة وإرادة.

تلك بعض سجايا الصادق، وإنه ببعض هذه الصفات يعلو الرجال على أجيالهم، ويرتفعون إلى أعلى مراتب القيادة الفكرية، فكيف وقد تحلى بهذه الصفات وبغيرها. ولقد نوّه إلى تلك السمات العالية مَنْ كان في عصره وأشاد بالإمام حتى اعداؤه، عندما يعترفون بفضائله الخلقية والعلمية في تعامله معهم.

هذا هو ابن أبي العوجاء حينما يسمع أحد تلاميذ الإمام بعض أباطيله، بحيث لم يمتلك نفسه غضباً فيخاطبه: يا عدو الله أُلحِدْتَ في دين الله وأنكرت الباري جل قدسه... أجاب ابن أبي العوجاء: «إن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلك يجادلنا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدّى في جوابنا، وإنّه للحليم الرزين^(١) العاقل الرصين^(٢)، لا يعتريه خرق^(٣) ولا طيش^(٤) ولا نزق^(٥)، ويسمع كلامنا ويصغي إلينا، ويستعرف حجّتنا حتّى استفرغنا ما عندنا، وظنّنا أنّنا قد قطعناه، أدحض حجّتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يلزمنا به الحجّة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردّاً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه»^(٦)!

(١) أي: الوقور.

(٢) الحكم الثابت.

(٣) ضدّ الرفق.

(٤) الخفّة.

(٥) خفّة في كلّ أمر وعجلة.

(٦) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ٥٨.

مكانته العلمية وآثاره

سنوات قليلة من حياة الإمام جعفر بن محمد الصادق ملأ فيها الدنيا من علمه، وازدهرت ألوف الكتب بأحاديثه وآرائه، ألقى فيها على طلابه مختلف العلوم، وعلمهم صنوف المعارف.

وانتشر عنه من العلوم الجمة ما بهر به العقول، ولم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نقل عنه، ولا لقي أحداً منهم من أهل الآثار ونقله الأخبار، ولا نقلوا عنهم ما نقلوا عنه لقد شبهوا دار الإمام بالجامعة، جامعة كبيرة تموج بالحكماء وأهل العلم يجيب عن أسئلتهم، ويحل مشاكلهم، دون التفات إلى نحلهم ومذاهبهم أو مقاصدهم. ولذلك: «ما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم في أمر، كما أجمعوا على فضل الإمام الصادق وعلمه، فأئمة السُّنة الذين عاصروه تلقوا عنه وأخذوا، أخذ عنه مالك رضي الله عنه، وأخذ عنه طبقة مالك، كسفيان بن عيينة وسفيان الثوري، وغيرهم كثير، وأخذ عنه أبو حنيفة... وقد تلقى عليه رواية الحديث طائفة كبيرة من التابعين، منهم يحيى بن سعيد الأنصاري، وأيوب السختياني وأبان بن تغلب، وأبو عمرو بن العلاء، وغيرهم من أئمة التابعين في الفقه والحديث، وذلك فوق الذين رَووا عنه من تابعي التابعين ومن جاء بعدهم والأئمة المجتهدين^(١). ولذا كان مجلسه بالمدينة مثابة أهل العلم، وطلاب الحديث وطلاب الفقه، يأخذون عنه، ويردون موارده العذب... «وكل من التقى به أجَّلَه وأجَّلَ علمه، وكانوا يقتبسون من علمه وخلقه وحكمه»^(٢).

وقد كان يقصده العلماء ليستمعوا إليه، وليأخذوا عنه فكان يحضر درسه في أغلب الأوقات أربعة آلاف من الطلاب.

«فقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل، ذكرهم الحافظ ابن عقدة الزيدي في كتاب رجاله، وذكر مصنفاتهم فضلاً عن غيرهم، واستدرك ابن الغضائري على ابن عقدة فزاد عليهم، وروى عنه راوٍ واحد وهو أبان بن تغلب الرُّبَيعي، أبو سعد، ثلاثين ألف حديث^(٣).

(١) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٢) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٧٠١.

(٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة، مرجع سابق، ج ٤، ق ٢، ص ١٧١.

ولا شك أن كثرة المتعلمين الذين كانوا يحضرون في حلقة درسه، أو الذين نقلوا عنه الأحاديث يظهر مدى عظمة شخصيته العلمية.

كان الحسن بن علي الوشاء^(١) يقول: «رأيت في مسجد الكوفة تسعمائة شخص يقول كل منهم حدثني جعفر بن محمد»^(٢).

ولذلك نطقت ألسنة العلماء جميعاً بفضل «وبذلك استحق الإمامة العلمية في عصره، كما استحقها أبوه وجده من قبله، فقد كانوا جميعاً أئمة الهدى يقتدى بهم، ويقتبس من أقوالهم، وقد عكفوا على علم الإسلام عكوف العابد على عبادته، فخلفوا علماً، وخلفوا رجالاً، وتناقل الناس علمهم وتحذثوا به»^(٣).

ولقد خاض الإمام في عدة علوم، وبلغ فيها الذروة، فهو نجم بين علماء الحديث، وكان ينادي: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي»^(٤).

وساد علماء عصره في الفقه حتى إنه كان يعلم اختلاف الفقهاء، ويروى في ذلك عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: «قال لي أبو جعفر المنصور يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهبىء له من المسائل الشداد، فهباً له أربعين مسألة، والتقى الإمامان بالحيرة في حضرة المنصور، ويقول الإمام أبو حنيفة في اللقاء: «أتيتته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر الصادق بن محمد ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه، وأوماً فجلست، ثم التفت إليه، وقال: هذا أبو حنيفة. فقال: نعم، ثم التفت إلي، وقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك، فجعلت ألقى عليه، فيجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربما تابعنا، وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة: «إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»^(٥).

وكان العلماء يتلقون عنه التخريجات الفقهية، وتفسير الآيات القرآنية المتعلقة

(١) حسن بن علي بن زياد الوشاء الخزاري البجلي الكوفي المعروف بابن بنت إلياس من أصحاب علي بن موسى الرضا وله كتب منها: «ثواب الحج» و«المناسك» و«النوادر» (محسن الأمين، أعيان الشيعة ١٩٥/٥)

(٢) أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٦٣.

(٣) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٤) المزي، تهذيب الكمال، مرجع سابق، ج ٥، ص ٧٩.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٥٨؛ المزي، تهذيب الكمال، مرجع سابق، ج ٥، ص ٧٩ - ٨٠.

بالأحكام الفقهية. والأحاديث التي وصلت إلينا من الإمام الصادق لا تختص بالفقه فقط، بل وصلت إلينا منه أحاديث أيضاً في مجال التفسير.

وقد عُني بدراسة علوم القرآن، فكان على علم دقيق بتفسيره، وكان على علم بتأويله، يعلم الناسخ والمنسوخ.

وروي أن ابن أبي العوجاء - من الزنادقة - سأل هشام بن الحكم، فقال: أليس الله حكيماً؟ قال: بلى هو أحكم الحاكمين. قال فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَرَبْعاً فَإِنَّ خِفَتَكُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَجَدَتْ﴾^(١) أليس هذا فرض؟ قال: بلى، قال: فأخبرني عن قوله عز وجل: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾^(٢)

أي حكيم يتكلم بهذا؟ فلم يكن عنده جواب فرحل إلى المدينة إلى أبي عبد الله فقال: يا هشام في غير وقت حج ولا عمرة.

قال: نعم جعلت فداك لأمر أهمني أن ابن أبي العوجاء سألني عن مسألة لم يكن عندي فيها شيء قال: وما هي؟ فأخبرته بالقصة فقال أبو عبد الله: «أما قوله عز وجل: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَرَبْعاً فَإِنَّ خِفَتَكُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَجَدَتْ﴾ يعني في النفقة وأما قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ يعني في المودة، فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في المودة، فلما قدم عليه هشام بهذا الجواب، قال: والله ما هذا من عندك»^(٣).

ولقد اشتهرت مناظرات الإمام الصادق، حتى صار، ومرجعاً للعلماء في كل ما تعضل عليهم الإجابة عنه من أسئلة الزنادقة وتوجيهاتهم، وقد كانوا يثيرون الشك في كل شيء ويستمسكون بأوهى العبارات، ليثيروا غباراً حول الحقائق الإسلامية.

وقد قال أبو شاعر الديصاني (من الزنادقة): إن في القرآن عبارة تدل على أن الإله ليس واحداً، فقد جاء فيه: «وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله» فبلغ ذلك الصادق، فقال لمن بلغه، وقد عجز عن الرد: «هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك في الكوفة؟»

فإنه يقول لك: فلان. فقل له: ما اسمك، بالبصرة؟ فإنه يقول لك: فلان، فقل له: كذلك ربنا في السماء إله وفي الأرض إله، وفي البحار إله، وفي القفار إله، وفي كل مكان إله^(٤).

(١) سورة النساء، جزء من الآية ٣.

(٢) سورة النساء، جزء من الآية ١٢٩.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠٢.

(٤) أبو زهرة، الإمام الصادق، ج ١، ص ٧٩.

وإنَّ ردَّ الصادق واضح كلِّ الوضوح، وهو تسهيل لبيان المراد، وإن ذلك الزنديق الذي يعلم العربية لا بد أن يعلم أن كلمة (إله) خبر عن مخبر عنه واحد، وتعدد الأخبار لتعدد المكان لا يدل على تعدد المبتدأ، كما تقول: الصادق هو العالم في العراق، والعالم في المدينة والعالم في مكة، فإن هذا وصف واحد تعدد في أخبار، باعتبار تعدد الأمكنة، وهو واحد، والحقيقة واحدة.

هذه المناظرات وغيرها كثير تدل على عناية الإمام الصادق بتصحيح العقائد، والوقوف في وجه أولئك الذين كانوا ينحرفون في اعتقادهم، أو يهاجمون الإسلام «وفوق هذه العلوم كان الإمام الصادق على علم بالأخلاق وما يؤدي إلى فسادها»^(١).

ومن هؤلاء الذين كانوا يحرصون على سماع مواعظه وحكمه سفيان الثوري محدث الكوفة وفقيهها والذي قال لقيت الصادق فقلت: يا ابن رسول الله أوصني، فقال لي: «يا سفيان ثق بالله تكن مؤمناً، وارض بما قسم الله تكن غنياً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، ولا تصحب الفاجر يعلمك فجوره، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عزَّ وجلَّ»^(٢).

هذه نماذج من جوامع الكلم قد نطق بها ذلك الإمام الجليل عتره النبي ﷺ، ولقد أثر عنه كلام قيم في الأخلاق وتلقَّى النفوس لها، وكانت ذات أثر في الذين التقوا به، ومن ذلك مجموعات مأثورة.

على صعيد آخر نرى بأن الإمام الصادق لم يكتف بالدراسات الإسلامية وعلوم القرآن والسنة والعقيدة والأخلاق، بل اتجه إلى دراسة الكون وأسراره، ودراسة الإنسان إجابة لطلب الله تعالى من عباده أن ينظروا في السموات والأرض وما فيهما، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

فنرى كثيراً من هذه الدراسات في رسالة التوحيد التي أملاها الإمام على تلميذه مفضل بن عمرو الكوفي.

ومن الثابت أن الإمام الصادق كان على علم بخواص الأشياء منفردة ومركبة، وأنه درّس علم الكيمياء في مدرسته، وقد اشتهر من تلامذته في هذا العلم جابر بن حيان الذي دوّن تقارير الإمام في علمي الكيمياء والطب^(٤).

واعترف العلماء ومنهم علماء الغرب بالدور البارز للإمام الصادق في علم النجوم

(١) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٣) سورة يونس، الآية ١٠١.

(٤) ابن النديم، الفهرست، مرجع سابق، ص ٤٢.

«وكتبوا عن آرائه ونظرياته في دوران الكرة الأرضية وحركاتها، وفي مقدار أشعة النجوم، وحركة الضوء، وأنه كان يلقي دروسه ونظرياته في هذا العلم على تلاميذه وطلّاب العلم، ويناقش محترفي علم النجوم، ويصحّح آراءهم، ويوضّح لهم أخطأهم»^(١).

وكان من تأثير توجيهات الإمام وإرشاداته في علوم الهيئة والفلك، أن اهتمّ تلامذته بهذه العلوم، واشتغلوا بالأرصاء والتقويم والتنجيم والاختبارات وغير ذلك من فروع علم الفلك من أقدم الأزمنة، كان أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري (المتوفى عام ١٦١) وهو من تلامذة الإمامين الصادق وموسى بن جعفر أول من عمل الإصطرلاب^(٢) في الإسلام، وأول من ألف فيه، وله في ذلك «كتاب العمل بالإصطرلاب ذوات الحلق» و: «كتاب العمل بالإصطرلاب المسطح»^(٣).

وكذلك نرى بأن الإمام أعطى فهماً واسعاً لكلمة العلم، فقد كان من الواضح في الأذهان أن العالم هو الذي يدرس علم الحديث والتفسير وغيرهما مما له علاقة بالفقه. أما الإمام فقد وسع هذا المعنى، ليشمل أكثر العلوم الكونية، كالجبر والكيمياء والفلك وغيرها من العلوم، ولهذا كان الإمام الصادق، «... أكثر أئمة المذهب معرفة، حيث كان له آراء في كل لون من ألوان المعرفة آنذاك، ولا تقف معرفته عند علوم الدين فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الكيمياء والطب وغير ذلك من العلوم التي تبدو بعيدة الصلة عن الإمامة الدينية»^(٤).

وقد برهن الإمام أن الدين الإسلامي جاء للحياة ليحكمها لا ليصدّ عنها ويحكمها الشيطان. «وهذا هو التفكير إلى الاهتمام بعلوم الطبيعة... لأنها علوم تحقق مصالح الناس، تحرر الفكر وتهديه إلى الإيمان العميق الحق الراسخ»^(٥). ومن المعلوم «أن الخاصة التي اختص بها الإمام الصادق ليست هي أنه عالم في الكيمياء أو الطبيعة أو الطب، وإنما الظاهرة الكبرى فيه أنه كان أبرز أئمة عصره في علوم الإسلام، يؤخذ عنه، وتشد الرحال إليه في طلبها، ولذلك كانت عنايتنا متجهة إليها على أنها الأصل

(١) نخبة من علماء الغرب، الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، نقله إلى العربية آل علي، دار الذخائر للطبوعات، قم، ١٩٨٨، ص ١١٢.

(٢) الإصطرلاب لفظة يونانية مأخوذة من كلمة «الإصطرلابون» ومعناها مرآة النجوم، وقيل: إنها لفظة فارسية أصلها «ستارة ياب» أي كاشف النجم.

(٣) نخبة من علماء الغرب، الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٤) أحمد محمود صبحي، نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، دار المعارف، مصر ١٩٦٩، ص ٣٦٢.

(٥) عبد الرحمن شرقاوي، شخصيات إسلامية، ص ٤٠.

المقصود والغرض المنشود وعداه على هامش الموضوع كما كانت هذه المعلومات على هامش تفكيره، فما كانت غايته...»^(١).

مؤلفات الإمام جعفر بن محمد الصادق:

هذه المؤلفات هي^(٢):

- ١ - كتاب توحيد المفضل الذي أملاه الإمام الصادق على المفضل بن عمرو الكوفي من تلاميذه عندما التقى المفضل بأحد الزنادقة، وناظره، وطلب من الإمام أن يملئ عليه بما يقوى به على مناظرة الزنادقة، ويحتوي على دلائل التوحيد ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم من بيان هيئة العالم وتأليف أجزائه وكيف خلق الإنسان وتكوينه إلى غير ذلك.
- ٢ - رسالة إلى النجاشي والي الأهواز المعروفة برسالة عبد الله بن النجاشي، وفيها مهمات الحاكم والموظف الإداري.
- ٣ - رسالة إلى جماعة من أتباعه وتلاميذه فأمرهم بمدارستها والنظر فيها وتعاهدها والعمل بها، وكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم، فإذا فرغوا من الصلاة نظروا فيها.
- ٤ - رسالته في الغنائم ووجوب الخمس.
- ٥ - وصيته لعبد الله بن جندب.
- ٦ - وصيته لأبي جعفر محمد بن النعمان الأحول في علوم القرآن.
- ٧ - نثر الدرر كما سماه بعض الشيعة وكله حكم بالغة الأهمية.
- ٨ - رسالته في وجوه معاش العباد ووجوه إخراج الأموال جواباً لسؤال من سأل: كم جهات معاش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات؟.
- ٩ - رسالة في احتجاجة على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق.
- وهاتان الرسالتان عملاّن أساسيان في الاقتصاد والاجتماع، يدلان على منهج الإمام في صلاح الدنيا بالعمل والعبادة معاً.
- ١٠ - كلامه في خلق الإنسان وتركيبه وحكمه القصيرة^(٣).
- ١١ - كتاب الردّ على القدرية، كتاب الردّ على الخوارج؛ كتاب الردّ على الغلاة من الروافض.

(١) أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ١٩٢.

(٢) محسن الأمين، أعيان الشيعة، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٦٨.

(٣) كلّ هذا من الرقم أربعة وإلى هذا الرقم ورد في تحف العقول للحرّاني.

وهناك كتب مروية عن الصادق، جمعها أصحابه مما رَوَّه عنه، فيصح بهذا الاعتبار نسبتها إليه؛ لأنَّ الإملاء أحد طرق التأليف.

١٢ - نسخة ذكرها النجاشي في ترجمة محمد بن ميمون الزعفراني فقال: عامي غير أنه روى عن أبي عبد الله نسخة.

١٣ - نسخة رواها الفضيل بن عياض عن الإمام قال النجاشي في ترجمة الفضيل: بصري، ثقة عامي، روى عن أبي عبد الله نسخة.

١٤ - نسخة رواها عبد الله بن أبي أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي حليف بني تميم بن مرة أبو أويس عن الإمام. قال النجاشي: له نسخة عن جعفر بن محمد.

١٥ - نسخة يرويها إبراهيم بن رجاء الشيباني قال النجاشي: له عن جعفر نسخة.

١٦ - كتاب رسائل الإمام الصادق إلى جابر بن حيان الكوفي^(١).

هذا ما عرف من الكتب التي دوّنت وحدها، وعرفت بأسماء مخصوصة، وإلا فالذي جمع مما رواه عنه العلماء في فنون شتى من فنون العلم في العقيدة وأصول الفقه والاحتجاج والحكم والمواظ والآداب وغير ذلك لا يكاد يحيط به الحصر.

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٢٩١.

أقوال العلماء في شخصيته

- ١ - قال الإمام أبو حنيفة (م ١٥٠): «ما رأيتُ أحداً أفقه من جعفر بن محمد... ألسنا رويناً أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»^(١).
- ٢ - قال الإمام مالك بن أنس (م ١٧٩): «ما رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادةً وورعاً»^(٢).
- وقال: «كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اخضرّ واصفرّ. ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن. وما رأيته قط يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على الطهارة»^(٣).
- ٣ - محمد بن إدريس الشافعي (م ٢٠٤)، فقد قال إسحاق بن راهويه: قلت للشافعي: كيف جعفر بن محمد عندك؟ فقال: ثقة. في مناظرة جرت بينهما^(٤).
- ٤ - أبو حاتم الرازي (م ٢٧٧) فقد روى ابن أبي حاتم عن أبيه: «جعفر بن محمد ثقة لا يسأل عن مثله»^(٥).
- ٥ - قال الجاحظ (م ٢٥٠ أو ٢٥٥): «جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه»^(٦).
- ٦ - وقال ابن الواضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي (م ٢٩٢): «... أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب... وكان أفضل الناس وأعلمهم بدين الله، وكان من أهل العلم الذين سمعوا منه، إذا روي عنه قالوا: أخبرنا العالم»^(٧).

(١) المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج ٥، ص ٧٩ والذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٦٦ وتاريخ الإسلام (حوادث سنة ١٤١ - ١٦٠)، ص ٨٩ وسير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٥٧.

(٢) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٤) عبد الرحمن بن إدريس بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٢، ج ٢، ص ٤٨٧ والعسقلاني، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٨.

(٥) الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٦.

(٦) حسن السندوبي، رسائل الجاحظ، المطبعة الرحمانية، مصر، د.ت، ص ١٠٦.

(٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٨١.

- ٧ - وقال ابن عدي (م ٣٦٥): «ولجعفر أحاديث ونسخ، وهو من ثقات الناس، كما قال يحيى بن معين»^(١).
- ٨ - وعن الحاكم النيسابوري (م ٤٠٥): «وأصح طريق يروى في الدنيا أسانيد أهل البيت جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، عن أبيه، عن جدّه، عن علي، إذا كان الراوي عن جعفر ثقة»^(٢).
- ٩ - وقال أبو نعيم الأصفهاني (م ٤٣٠): «... الإمام الناطق، ذو الزمام السابق، أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق، أقبل على العبادة والخضوع، وأثر العزلة والخشوع، ونهى عن الرئاسة والجموع... حدث عنه الأئمة والأعلام: مالك بن أنس وسفيان الثوري... وأخرج عنه مسلم بن الحجاج في صحيحه محتجاً بحديثه»^(٣).
- ١٠ - وقال ابن حجر العسقلاني (م ٤٦٣): «جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقيه صدوق»^(٤).
- ١١ - وقال الشهرستاني (م ٥٤٨): «... جعفر بن محمد الصادق. هو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات»^(٥).
- ١٢ - وقال ابن خلكان (م ٦٨١): جعفر الصادق: كان من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه في مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر^(٦).
- ١٣ - وقال الذهبي (م ٧٤٨): «جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الهاشمي أبو عبد الله، أحد الأئمة الأعلام، برّ، صادق، كبير الشأن»^(٧).
- وقال أيضاً: «جعفر بن محمد بن علي، ابن الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي، الإمام أبو عبد الله العلوي، المدني، الصادق، أحد السادة الأعلام»^(٨).

(١) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٨.

(٢) السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥، تحقيق الدكتور محمد عمر هاشم، ص ٦١.

(٣) أبو نعيم، حلية الأولياء، مرجع سابق، ج ١، ص ١٩٢.

(٤) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٨ نقلاً عن تقريب التهذيب، ص ٦٨.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ج ١، ص ١٤٧.

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٨.

(٧) الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الفكر، بيروت، د.ت، تحقيق علي محمد البجاوي، ج ١، ص ٤١٤، رقم ١٥١٩.

(٨) الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٦.

١٤ - وقال ابن حجر الهيتمي (م ٩٧٤): «جعفر الصادق... نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر»^(١).

١٥ - وقال خير الدين الزركلي (م ١٣٨٥): «كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط.»^(٢).

(١) ابن حجر الهيتمي المكي، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٠١.

(٢) خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨ ج ٢، ص ١٢١.

رواته وكبار المتخرجين من تلاميذه

لم يشهد التاريخ الإسلامي مدرسة أعظم من مدرسة الإمام الصادق في كثرة طلابها، واختلاف العلوم التي كان يدرسها فيها وكانت امتداداً لمدرسة أبيه وجده. فهي لم تكن بأي حال من الأحوال مدرسة خاصة فيها لون خاص من المعارف والعلوم، وإنما كانت تبني عقولاً وتنشئ أجيالاً، وتؤسس صروحاً من الثقافة، ودنيا من التوجيه، وتضع دستوراً شاملاً لإصلاح الحياة وتطويرها وتقدمها في جميع الميادين^(١).

انتشر ذكر مدرسة الإمام الصادق في جميع الأقطار الإسلامية، فأصبحت جامعة إسلامية كبرى تقصدها وفود الأمصار. وعملت على تنوير الفكر البشري، وتطوير المجتمع الإنساني، وإبراز القيم الإسلامية، فأنتجت صفوة العلماء، وقادة المفكرين، وقد جهدوا بإخلاص على نشر العلم بجميع أنواعه.

وقد قيل في البعثات العلمية التي بادرت إلى الالتحاق بجامعة الإمام أن «الكوفة والبصرة، وواسط، والحجاز أرسلت إلى جعفر بن محمد أفلاذ أكبادها من كل قبيلة، من بني أسد، ومن غنى، ومخارق، وطبي، وسليم، وغطفان، وغفار، والأزد، وخزاعة، وخثعم، ومخزوم، وبني ضبة، ومن قريش، ولا سيما بني الحارث بن عبد المطلب، وبني الحسن بن علي^(٢)».

فكان عددهم من أضخم ما ضمته المدارس العلمية في ذلك العهد وفيهم من كبار العلماء والمحدثين الذين أصبحوا فيما بعد أئمة ورؤساء المذاهب الإسلامية:

- كالإمام أبي حنيفة (المتوفى ١٥٠هـ)، يقول الأستاذ أبو زهرة: «أبو حنيفة كان يروي عنه - جعفر بن محمد -، وقرأ كتاب الآثار لأبي يوسف والآثار لمحمد، فإنك واجد فيهما رواية عن أبي حنيفة عن جعفر بن محمد. فكان الثقة الصدوق. ومع أنه في مثل سن أبي حنيفة لم يتأب أبو حنيفة عن الأخذ عنه^(٣)».

- والإمام مالك بن أنس (المتوفى ١٧٩هـ) وكانت له صلة تامة بالإمام الصادق

(١) حسن الأمين، دائرة المعارف الشيعية، دار المعارف للطبوعات، بيروت، ١٩٨١، ج ٢، ص ٧٦.

(٢) عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، دار الشرق الجديد، بيروت، ١٩٥٤، ص ٥٩.

(٣) أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٧٠١.

وروى الحديث عنه، «واختلف إليه في مجلسه وانتفع من فقهه وروايته»^(١). وغير هؤلاء من حملة الحديث وأعلام الأمة ولا يتسع المجال لذكرهم، ونكتفي بذكر جماعة منهم في عرض موجز وهم:

- يحيى بن سعيد الأنصاري أبو سعيد المدني (المتوفى ١٤٣هـ) قاضي المدينة، قال البخاري عن علي بن المدني له نحو ثلاثمائة حديث وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث حجة ثبثاً، روى عن إسحاق بن عبد الله وأنس بن مالك وجعفر الصادق وغيرهم^(٢).

- شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي (المتوفى سنة ١٦٠هـ) خرج له أصحاب الصحاح والسنن، وروى عنه خلق كثير. قال الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق. وقال أحمد: شعبة أمة وحده^(٣).

- سفيان الثوري (المتوفى سنة ١٦١هـ) وهو من حملة الحديث وأعلام الأئمة، وكان له اختصاص بالإمام الصادق، وقد روى عنه الحديث كما روى كثيراً من آدابه وأخلاقه ومواعظه^(٤).

- زهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني (المتوفى سنة ١٦٢هـ) أخذ عن الإمام الصادق وعنه أبو داود الطيالسي، وروح بن عبادة، وأبو عامر العقدي، وعبد الرحمن بن مهدي، والوليد بن مسلم، ويحيى بن بكير، وأبو عاصم وغيرهم، وثقه أحمد ويحيى وعثمان الدارمي، وهو من رجال الصحاح^(٥).

- معاوية بن عمار الدهني البجلي الكوفي (المتوفى ١٧٥هـ) روى عن أبيه عمار وأبي الزبير واحتج به مسلم والنسائي، وحديثه في الحج من صحيح مسلم عن الزبير، روى عنه عن مسلم يحيى بن يحيى وقتيبة وجماعة^(٦).

- وحاتم بن إسماعيل (المتوفى سنة ١٨٠هـ) كوفي الأصل خرج له البخاري ومسلم والترمذي والجماعة وكان ثقة في الحديث، أخذ عن الصادق، وأخذ عنه خلق كثير منهم إسحاق وابن معين^(٧).

(١) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٢) المزي، تهذيب الكمال، مرجع سابق، ج ٣١، ص ٣٤٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٢٩٩ وذكر أنه أخذه عن الصادق ص ٢٩٧.

(٤) جاء فيه أنه أخذ عن الصادق: المزي، تهذيب الكمال، جزء ١١، ص ١٥٤.

(٥) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٣، ص ٣٠١.

(٦) الذهبي، ميزان الاعتدال، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٣٧ ذكر أنه أخذه عن الصادق: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٥٦.

(٧) المزي، تهذيب الكمال، ج ٥، ص ١٨٧.

- إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري (المتوفى سنة ١٨٠هـ) روى عنه محمد بن جهضم ويحيى بن يحيى النيسابوري، وأبو الربيع الزهراني، وأبو معمر الهذلي وغيرهم، قال ابن سعد: ثقة وهو من أهل المدينة قدم بغداد، ولم يزل بها حتى مات، خرَّج له البخاري ومسلم والجماعة^(١).

- وحفص بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك أبو عمرو الكوفي (المتوفى سنة ١٩٤هـ) روى عن الصادق. وروى عنه أحمد، وإسحاق، وأبو نعيم، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وعفان بن مسلم، وعامة الكوفيين، ولي قضاء بغداد، ثم عزل، وولي قضاء الكوفة، وكان كثير الحديث حافظاً له ثبتاً فيه مقدماً عند المشايخ كتبوا عنه من حفظه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حديث، خرَّج له الجماعة أجمع^(٢).

- سفيان بن عيينة (المتوفى سنة ١٩٨هـ) كان في الكوفة وهو شاب على عهد الإمام أبي حنيفة وكان حسن الحديث يُعدُّ من حكماء أصحاب الحديث، وفيه قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز^(٣).

- يحيى بن سعيد بن فروخ القطان الحافظ البصري (المتوفى سنة ١٩٨هـ) روى له رجال الصحاح، وحدث عنه ابن مهدي، وعفان ومسدد وأحمد وإسحاق وابن معين^(٤).

- عثمان بن فرقد العطار أبو معاذ البصري، خرَّج له البخاري في صحيحه والترمذي، وروى عنه ابن المديني وابن المشني وزيد بن أحزم، قال ابن حبان: مستقيم الحديث^(٥).

وأما خواص أصحابه وحملته فقهه، الذين كانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الفكرية والاجتماعية، فعدد كبير جداً على سبيل المثال: أبان بن تغلب وأبو بصير الأسدي، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية العجلي في المجال الفقهي، وجابر بن يزيد جعفي، وأبو حمزة الثمالي في مجال الأخلاق، ومفضل بن عمرو في مجال أسرار الكون وحكمة الوجود، وجابر بن حيان الصوفي في مجال الكيمياء... ولا بأس بالإشارة إلى بعض الوجوه البارزة ممَّن كان لهم الأثر الكبير في الحركة

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مرجع سابق، ج ٨، ص ١٨٨ وذكر أنه أخذه عن الصادق: أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٩٩.

(٢) ذكر أنه أخذه عن الصادق: ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٣٥٨ والمزي، تهذيب الكمال، ج ٧، ص ٥٨.

(٣) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، جزء ٤، ص ١٠٤ وجاء فيه أنه أخذه عن الصادق.

(٤) جاء فيه أنه أخذه عن الصادق. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٥٦.

(٥) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ١٣٤ جاء فيه أنه أخذه عن الصادق

العلمية والعقلية في ذلك العصر، وفضلنا الاقتصار على دراسة حياة أبان بن تغلب، وجابر بن حيان اللذين كانا من المتخصصين في مجالات مختلفة.

* أبان بن تغلب:

أبان بن تغلب بن رباح الرّبيعي هو أبو سعد الكوفي البكري الجريري (المتوفى سنة ١٤١هـ) كان جليل القدر وعظيم المنزلة، فقد حضر عند الإمام زين العابدين، وبعده عند الإمام الباقر، ثم الإمام الصادق وأخذ عنهم علمي الفقه والتفسير وكان مقدماً في الأدب واللغة والنحو.

قال ياقوت الحموي: كان قارئاً لغوياً فقيهاً نبياً ثبّتاً^(١)، وسمع من العرب وحكى عنهم وصنّف غريب القرآن وغيره^(٢).

وقال ابن سعد: كان ثقة^(٣)، وذكره ابن حبان في الثقات^(٤).

روى الحديث عنه كثير ومنهم موسى بن عقبة الأسدي (المتوفى ١٤١) فهو من رجال الصحاح الستة، وشعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة وغيرهم.

وقيل: بأنّه روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث^(٥).

وترجم له الذهبي في ميزان الاعتدال، فقال: «أبان بن تغلب (م. عو) الكوفي شيعي جلد، لكنه صدوق، فلنا صدقه، وعليه بدعته، وقد وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبو حاتم. ولو ردّ حديث هؤلاء، لذهب جملة من الآثار النبوية»^(٦).

وعده ممن احتج بهم مسلم وأصحاب السنن الأربعة، أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه حيث وضع على اسمه رموزهم^(٧). وهو ممن أجمعوا على قبول روايته وصدقه.

ومما يدل على إحاطة أبان في الحديث أنه كان يجلس في مسجد النبي ﷺ فيجيء إليه الناس ويسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال^(٨).

(١) والثبت بفتح الباء الحجة والرجل الثقة في روايته.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠، ج ١، ص ١٠٨.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج ٥، ص ٧٦.

(٤) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٢٠.

(٥) تقي الدين بن داود الحلّي، رجال، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ص ١٠.

(٦) الذهبي، ميزان الاعتدال، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٥.

(٧) روى عنه في: صحيح مسلم، كتاب الأيمان باب تحريم الكبر وبيانه ج ١ ص ٥١ وسنن أبي داود، ج ٤ ص ٣٤ ح ٣٩٨٧ وسنن النسائي كتاب مناسك الحج باب كيفية التلبية ج ٥ ص ١٦١.

ونحن إنما نخرج على مورد واحد فقط وإلا فقد يكون هناك عشرات الموارد.

(٨) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٦.

ومن مؤلفاته: غريب القرآن وهو أول تأليف في ذلك، فصار أساساً لعلم اللغة - وكتاب الفضائل - وكتاب معاني القرآن - كتاب القراءات - كتاب الأصول في الرواية على مذهب الشيعة^(١).

* جابر بن حيان:

هو أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الطرطوسي الكوفي، وهو كوفي نسبة إلى التي عاش فيها زمنًا واشتهر بعلم الكيمياء^(٢)، وهو أول من عرف به، و«بلغت مؤلفاته ٣٩٠٠ رسالة»^(٣).

ونسب أخذه وتعلمه لهذا العلم عن الإمام الصادق. لقد وجد الإمام في تلميذه استعداداً ولياقة، فأخذ يخصّه بوقت يُدرّسه فيه الكيمياء وغيرها من العلوم، حتى كتب جابر من محاضرات الإمام مئات الرسائل، وقيل: إنّه قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة، تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهي خمسمائة رسالة^(٤).

وعبارات جابر بن حيان في رسائله تؤيد ما يقوله أكثر الباحثين بأنه أخذ ذلك عن الإمام الصادق، فقد كرر في عباراته ما يشعر بذلك، ويعبر عنه بقوله: حدثني سيدي عن آبائه واحداً بعد واحد، وقال لي...^(٥). فالإمام «كان يدارسه ويختصه بالانفراد في الدراسة، مما يدل على أنّ ما كانا يتدارسانه لا يطيقه كل الناس، لدقة حقائقه، وعمق ما يحتاج إليه من تفكير»^(٦).

وقد استغرب جورج زيدان الباحث النصراني المعروف - قلّة اهتمام المسلمين به، حيث قال: إنه - يعني جابر بن حيان - من تلامذة الصادق، وإنّ أعجب شيء عثرت عليه في أمر الرجل أنّ الأوروبيين اهتموا بأمره أكثر من المسلمين والعرب، وكتبوا فيه وفي مصنفاته تفاصيل، وقالوا: إنّه أول من وضع

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٧٦.

(٢) الكيمياء: هو علم يبحث فيه عن طبائع وخواص الأجسام الأرضية، وكيفية تحليلها وتركيبها، والمادة التي يتم بها تحوّل بعض المعادن إلى الذهب.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص ٥١٤.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩١ والزركلي، الأعلام، ج ١، ص ١٨٦ ومحمد فريد وجدي، دائرة المعارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧١، ج ٣، ص ١٠٩.

(٥) أسد حيدر، الإمام الصادق، ص ٢٧، نقلاً عن رسائل جابر بن حيان التي نشرها المستشرق كراوس، ص ٣٣٥ في كتاب السر المكنون.

(٦) أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ٨٠.

أساس الكيمياء الجديد، وكتبه في مكاتبهم كثيرة، وهو حجة الشرقي على الغربي إلى أبد الدهر^(١).

وهكذا خرّجت مدرسة الإمام الصادق كادراً علمياً ناضجاً وواعياً، ضرب المثل في الصمود والدفاع عن العلم والعقيدة، تفنّن الإمام في صنعه ونحته، فبقى خالداً تردّد إنجازاته ذاكرة التاريخ والزمن.

(١) محمد أمين الأميني، الإمام الصادق رمز الحضارة الإسلامية، مطبعة أمين، قم ١٤٢٣، ص ١٩٥.

المبحث الثالث

إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق

- أساسيات التربية عند الإمام :
- اهتمامات الصادق التربوية بالبعدين الروحي والجسدي :
- العوامل المؤثرة في التربية عند الإمام :
- تربية الطفل ورعايته في فكر الصادق :
- طرائق التربية والتعليم في مدرسة الصادق :

المبحث الثالث

إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق

أساسيات التربية عند الإمام:

إن الفكر التربوي عند الإمام الصادق حصيلة تصور إسلامي شامل متكامل لله وللكون والإنسان؛ «لأن عملية التربية وأنشطتها المختلفة لا يمكن أن تتم، ولا يمكن حتى تصورها بمعزل عن هذه النواحي»^(١).

فلا بد أن يحدد المربي موقفه من هذه المباحث الرئيسة الثلاثة ونوع العلاقة التي يجب أن تربط بين الإنسان وخالقه وسائر الكائنات.

وإليك المبادئ والمعتقدات والمسلمات التي أقام عليها الإمام رسالته التربوية.

أ - الله:

إن الاعتقاد بالله تبارك وتعالى في كل أجزائه، ليس مجرد طرح فكري بل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الإنسان وسلوكياته.

وعلى هذا الأساس، «يجعل الصادق الإيمان بالله والمعرفة به منطلقاً أساسياً لسلوكيات المسلم، ومن هنا تأتي أهمية دراسة العقيدة عنده لما لها من أهمية في تحديد الأهداف التربوية عنده وبالتالي تحديد شخصية المسلم»^(٢).

فهو يرى أنّ الدليل على وجود الخالق الحكيم دليل فطري علمي عقلاني، ويعتبر شك الكافرين بالله تعالى ناجم عن الجهل المطبق الذي استوعب آفاق نفوسهم، وتركهم يتخبطون في مجاهل هذه الحياة، فلم ينظروا في خلق أنفسهم، ولم يبصروا ما في الكون من عجائب مخلوقات الله تعالى المنتشرة في البر والبحر، فيقول: «إن الشكك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة، وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب

(١) عمر محمد التومي الشيباني، من أسس التربية الإسلامية، المنشأ للشعبية للنشر، طرابلس، ١٩٧٩، ص ٣٧.

(٢) أبو العينين، الاهتمامات التربوية في فكر الإمام جعفر الصادق، من أعلام التربية العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة، دول الخليج، ١٩٩٨، ج ١، ص ٩٦.

والحكمة فيما ذرأ الباري، وبرأ من صنوف خلقه في البر والبحر، والسهل والوعر، فخرجوا بقصر عقولهم إلى الجحود، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود، حتى أنكروا خلق الأشياء، وادعوا أن تكونها بالإهمال، ولا صنعة فيها، ولا تقدير، ولا حكمة من مدبر، ولا صانع، تعالى الله عما يصفون»^(١).

فالصادق يربط طريق المعرفة بالله «بالتعرّف على إبداعه وتمام صنعه واتصال تدبيره، بافتقارنا إليه، بتغيير كل شيء وتسخيره»^(٢).

وتتلور رؤيته في الله بأنه موصوف بصفات الكمال: «واحد، صمد، أزلي، غير محسوس، لا تدركه الأبصار، علا فقرب، دنا فبعد، عُصي فغفر، وأطيع فشكر، لا تحويه أرضه ولا ثقله سماواته، لا ينسى ولا يلهو...»^(٣).

كما أنه ينزّهه تنزيهاً مطلقاً عن النقص والتشبيه بقوله: «لم يلد أنّ الولد يشبه أباه ولم يولد فيشبه من كان قبله ولم يكن له من خلقه كفواً أحد... لا يوصف بزمان ولا مكان ولا حركة ولا سكون بل خالق الزمان والمكان والحركة والسكون...»^(٤).

وينفي منه تعالى أي صفة من صفات المخلوق كقوله: «لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس»^(٥). . . ولو كان الله تعالى جسماً لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق»^(٦).

وإنّ تصور العقيدة كما يبدو عنده يوحي بأنّ على الإنسان أن يعرف ربّه معرفة حقيقية وهذا ما أوضحه إذ قال:

«ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه ثم لا يعرف الله حق معرفته»^(٧).

فهو يرسم الطريق الصحيح إلى معرفة الله بأنه الرجوع إلى القرآن والاقتصار على ما وصفه الله به نفسه قائلاً:

(١) كاظم المظفر، توحيد المفضل، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ٢، ١٤٠٤، ص ٩.

(٢) عبد القادر محمود، رائد السّنة والشيعة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٥٠.

(٣) محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، المطبعة سيد الشهداء، قم، ١٤١٥، ج ٤، ص ٣٩٨.

(٤) الصدوق، التوحيد، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، ١٣٨٧، ص ١٠٤ و ١٨٤.

(٥) أبو طالب المكي الحارثي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، القاهرة، ص ٥٨ / دار صادر، بيروت، ١٩٩٥.

(٦) محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ٤، ص ٢٧٩.

(٧) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤، ص ٥٤.

«إن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عز وجل... ولا تعدوا القرآن فتضلوا بعد البيان»^(١).

وقد اعتمد الإمام في نهجه التربوي على القرآن الكريم، الذي يعتبر المعلم الأخلص والمرشد الأبلغ، الذي رسخ جذور المعرفة بالله وعني بذكر صفاته التي لا مثيل لها، ولا سيما الاعتراف بتوحيد الله عز وجل، كما نرى في تعريفه الموجز للتوحيد.

وهو «أن لا تجوز على ربك ما جاز عليك»^(٢). وفي رواية أخرى: «... التوحيد أن لا تتوهمه»^(٣).

وبما أن التوحيد والشرك مفهومان متضادان، فيساعد فهم أحدهما على فهم الآخر.

يلقي الإمام الضوء على المراتب الخفية من الشرك تحذيراً للناس من الوقوع فيها والتلبس بها.

فيعرف الشرك في شرح الآية الشريفة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٤) «بأنه قول الرجل: لولا فلان لهلك ولولا فلان لأصبت كذا وكذا ولولا فلان لضاع عيالي، ألا ترى أنه قد جعل الله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه»^(٥). وبهذه التعريفات الدقيقة يبرز الإمام الرؤية السليمة إلى الله الخالق وتوحيده.

ب - الكون:

يرى الصادق أن الكون وما فيه من المخلوقات، إنما هو منتظم مبدع، خلقه الله عز وجل بعلمه وحكمته المطلقة، وتبلور رؤيته لهذا الكون في قوله: «كل ما كان إذا فُتّش وجد على غاية الصواب حتى لا يخطر بالبال شيء إلا وجد ما عليه الخلقة أصح وأصوب منه»^(٦).

فيستدل الإمام على هذه النظرية الإسلامية الأصيلة في أدلته التي قد حشدها في رسالة التوحيد في مجالسها الأربعة على أنه «ليس في الإمكان أبدع مما كان حتى في

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب التوحيد، ص ١٠٠، ح ١.

(٢) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٣) محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ٢، ص ٤١٩.

(٤) سورة يوسف، الآية ١٠٦.

(٥) فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٥، ج ٥، ص ٤٦٢.

(٦) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٤٣.

النملة التافهة . . . وإذا كان تمام التدبير واتصاله وإعجاز الرعاية هكذا في أحقر الأشياء فما بالك في السماوات والأرض وملكوتها؟»^(١).

فكل مظاهر الطبيعة بجمالها وروعيتها مع ما فيها من النظم والسنن، أصدق شاهد على وجود بارئها ومكونها ومنشئها، فقال:

«أول العبر والأدلة على الباري - جل قدسه - تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وميزته بعقلك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسمااء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالسطح، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه معد، والإنسان كالمملك ذلك البيت، والمخول جميع ما فيه، وضروب النبات مهية لماربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة، ونظام وملاءمة، وأن الخالق له واحد وهو الذي ألفه ونظمه بعضاً إلى بعض»^(٢).

فالصادق يستقرئ في أحوال الخلق، من إنسان وفلك وحيوانات ونباتات وغير ذلك ليستدل من خلال تلك الأحوال على وجود الله.

ومن المناسب ذكر بعض ما أفاده الإمام في هذا المقام، أنه يتناول من السماء وما فيها من ضروب المنافع: «فكر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية . . . فانظر كيف جعل الله جل وتعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ليمسك الأبصار المنقلبة عليه فلا ينكأ فيها بطول مباشرتها له، فصار هذا الذي أدركه الناس فالفكر والروية والتجارب يوجد مفروغاً منه في الخلقة حكمة بالغة ليعتبر بها المعتبرون»^(٣).

ومنها قوله: «فكر في ضروب من التدبير في الشجر فإنك تراه يموت في كل سنة موتة، فتحبس الحرارة الغريزية في عوده وتتولد منه مواد الثمار، ثم تحيا وتنتشر فتأتيك بهذه الفواكه نوعاً بعد نوع، كما تقدم إليك أنواع الأطبخة التي تعالج بالأيدي واحداً بعد واحد. فترى الأغصان في الشجر تتلقأك بشمارها حتى كأنها تناولكما عن يد وترى الرياحين تلقأك في أفنائها كأنها تجيئك بأنفسها، فلمن هذا التقدير إلا لمقدر حكيم؟! والعجب من أناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها»^(٤).

(١) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٢) كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص ١١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

وكذلك عكف الصادق على دراسة الكون، وما اشتمل عليه، «فكل علم من العلوم الكونية، التي تبحث عن المادة وخصوصياتها وتكشف عن سننها وقوانينها، كعملة واحدة لها وجهان، فمن جانب يعرف المادة بخصوصياتها، ومن جانب آخر يعرف موجدتها وصانعها»^(١)، إذ لا بد لكل مخلوق من خالق، ولا بد لكل موجود من واجد، وقد تفهم الإمام حال الكون وكيفية خلقه، و«كان عنده من القوى العقلية والنفسية والفراغ ما يجعله يتجه إلى طلب المعرفة من أي نوع كانت، وعندنا الكثير من الأدلة المقربة التي تدل على أنه كان له علم بالكونيات، وقد طلب ذلك، ليتخذ منه ذريعة لبيان وحدانية الله تعالى»^(٢).

فهو يعتبر أن الخوض في العلوم الكونية من الأمور اللازمة التي تؤدي إلى قوة الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتربية الإنسان المسلم عليها، فقد دعا تلاميذه إلى الاشتغال بها لإثراء الثقافة الإسلامية والفكر الإنساني على السواء.

وقد كان لنظرته تلك أثرها التربوي في مدرسته العلمية، التي تمثلت في جابر بن حيان، الذي أخذ عنه أصول الاعتقاد والإيمان، كما أخذ عنه طبائع الأشياء وخواص المعادن، ومزج الأشياء ببعضها.

ج - الإنسان:

الإنسان هو محور التربية فالعملية التربوية بكل ما تشتمل عليه من أصول ونظريات، ومناهج، ومربين، كلها تعمل وتتفاعل من أجل تهيئة الجو المناسب للإنسان كي يرتقي إلى درجة الكمال التي هيأها الله له.

ولن يتحقق هذا الأمر إلا بمعرفة طبيعة الإنسانية والعلم بها كي يمكن المساهمة في إصلاحه وارتقائه وعليه «ولا بد لكل فلسفة تربوية من أن تحدد مفهومها لطبيعة الإنسان إذ في ضوء هذا المفهوم تتعين الأهداف التربوية وتحدد الوسائل المعينة لتحقيقها»^(٣).

فنظرة المربي إلى الطبيعة الإنسانية تفسح له المجال في معرفة الطريقة التي يعامل الإنسان بها، ويحدد مجال العمل معه حسب قدرة الإنسان وإمكاناته ومدى تقبله لها.

فأساس التربية أمران مهمان: أحدهما طبيعة الإنسان، المادة الخام التي يعالجها

(١) جعفر سبحاني، الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، الدار الإسلامية، بيروت ١٩٨٩، ص ٣٩.

(٢) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٣) حسن إبراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٥، ص ١٩.

علماء التربية، وفي ضوئها تتحدد المعالم الرئيسة لها، والآخر حرية الإنسان في أفعاله وأعماله. وفيما يلي نذكر رأي الصادق في هذين الأمرين:

* طبيعة الإنسان وفطرته:

الطبيعة الإنسانية في الإسلام تختلف في مفهومها، وفي مصدرها، وفي غايتها عن الطبيعة الإنسانية في الفلسفات ومدارس علم النفس المختلفة.

و «الطبيعة في المصطلح الغربي الذي قامت عليه مدارس علم النفس هناك، هي الأشياء المادية المحسوسة حولنا من جماد وحيوان ونبات، ففي الاصطلاح اليوناني: (الفيزيقا) - هي الطبيعة و- (الميتافيزيقا) - ما وراء الطبيعة أي الأمور الغيبية وغير المحسوسة»^(١). في حين لا يختلف معنى الطبيعة الإنسانية في التصور الإسلامي عن معنى الفطرة.

ومعنى أن الله فطر الخلق «هو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال»^(٢)، ومفهوم فطرة الإنسان هو الخلقة أو الهيئة التي خلق الله الناس عليها. لذلك «يقصد بالطبيعة الإنسانية من المنظور الإسلامي فطرة الإنسان التي فطره الله عليها»^(٣).

فإذا كانت الفطرة في الإسلام هي خلق الله الإنسان، فإن الطبع هو صياغة الله الإنسان بمزاج وسجية خاصة. وعندما ننتبه إلى نظرة الصادق إلى الإنسان نرى أنه آمن بأن النفس الإنسانية في مبدأ الفطرة خالية من جميع العلوم كما وردت في القرآن الكريم:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾^(٤).

ولكنها مستعدة لتلقيها استعداداً فطرياً، فالطفل يتدرج بمعارفه مكتسباً الخبرة الخارجية بحواسه، وذلك عن طريق تكرار استعمال الحواس حتى تحصل له المعارف الأولية الناتجة عن الحس عن طريق البيئة التي يعيش فيها ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى تحصل له المدارك العقلية.

ورد عن الإمام ما نصّه: «... فصار - أي الطفل - يخرج إلى الدنيا جاهلاً غافلاً عما فيه أهله، فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة، ثم لا يزال يتزايد في

(١) علي أحمد مدكور، منهج التربية في التصور الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٣٠.

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، مادة فطر.

(٣) محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٤) سورة النحل، جزء من الآية ٧٨.

المعرفة قليلاً قليلاً وشيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، حتى يَأْلَفَ الأشياء، ويتمرن، ويستمر عليها، فيخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته، وإلى الاعتبار والطاعة والسهو والغفلة والمعصية»^(١).

ويعلل الإمام الصادق ذلك بوجوه مختلفة فيقول:

«لو كان المولود يولد فهماً عاقلاً، لأنكر العالم عند ولادته، ولبقي حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، وورد عليه ما لم ير مثله من اختلاف صور العالم من البهائم والطيور إلى غير ذلك مما يشاهد ساعة بعد ساعة...»

ولو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً... لأنه لا يستغني عن هذا كله لرقه بدنه... ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل... فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالدين في الاشتغال بالولد من المصلحة، وما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر والعطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلك منهم... ثم كان الأولاد لا يألفون آباءهم ولا يألف الآباء أبنائهم، لأن الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم فيتفرقون عنهم حيث يولدون...»^(٢).

وكذلك بيّن الإمام الصادق وجوهاً خمسة لبيان الحكمة في مجيء الطفل وعقله فارغاً من العلوم والمعارف قابلاً لها بحسب الاستعداد الفطري، فإنه لو كان يولد وله من المعارف لحصل:

أولاً: إنكار العالم عنده وحيرته مما يشاهد.

ثانياً: الشعور بالذلة والمنقصة في نفسه للحمل والرضاع وغير ذلك.

ثالثاً: ذهاب حلاوة التربية من الأبوين للأولاد.

رابعاً: عدم حصول مصلحة للوالدين في تربية أولادهم ورعايتهم، وعدم الترابط والتراحم فيما بينهم.

خامساً: ذهاب مكافأة الولد لوالديه بالبر والإحسان عند عجزهما وكبرهما. ولهذا يرتقي الإمام الصادق في هذه النظرة التربوية التي سبقت وجهات النظر التربوية الحديثة منذ اثني عشر قرناً.

على صعيد آخر يعتبر الإمام الصادق معرفة الله أمراً فطرياً عند الإنسان وهذا ما

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٤.

عبر عنه في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾^(١).

«وأثبت الإقرار في صدورهم ولولا ذلك ما عرف أحد خالقه ولا رازقه»^(٢) فيرى الإمام بأن الآية واضحة الدلالة على أن الناس كافة مجبولون على معرفة الله.

فيسلك الأنبياء بين الناس بالنسبة إلى المعرفة الإلهية دور المذكر لا المعلم، فإنهم يقومون بإزاحة أستار الغفلة عن الفطرة الإنسانية و«جاءوا ليوصلوا المعرفة الفطرية الإجمالية إلى مرحلة الإيمان الاستدلالي العقلي التفصيلي»^(٣).

ومن الإفاضات الإلهية الفطرية للبشر في رأي الصادق: الحس الأخلاقي - أي: القوة المدركة الباطنية للخير والشر - الذي يكون جزءاً من البناء التام للإنسان وفطرته. و«لولا أودع الله في النفوس من إدراك المعلومات على اختلاف مراتبها، لما فهموا ما تدعوهم إليه الشرائع الإلهية»^(٤).

أشار الإمام إلى هذه القوة في النفس الإنسانية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٥) «بين لها ما تأتي وما تترك»^(٦).

يستفاد من استعمال كلمة الإلهام «حدوث علم في النفس بدون تعليم»^(٧). فهي جزء من خلقة الإنسان وهيكله، والله تبارك وتعالى غرس في الإنسان هذه البصيرة الأخلاقية يستطيع بها أن يدرك الخير والشر، بإرشاد الأنبياء والرسل عليهم السلام.

* حرية الإنسان وإرادته :

ذكرنا سابقاً أن الإنسان موضوع اهتمام التربويين باعتباره موجوداً يحمل في داخله قدراً كبيراً من الإمكانيات والاستعدادات بل ومن المتناقضات، وله أهداف معينة في هذه الحياة التي تتحقق بها إنسانيته ولا يصل إليها إلا بممارسة اختياره وقدرته وحرية.

ومن هنا «تظهر أهمية الحرية بالنسبة للتربية، حيث إن الحرية أساسية في تحقيق الذات الحقيقية، أما إذا فقد الإنسان حريته فإن النتائج السيئة في تربية أكثر من أن تعد

(١) سورة الأعراف، جزء من الآية ١٧٢.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٢٣.

(٣) محمد تقي الفلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية، ج ١، ص ٣٠٣.

(٤) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ج ٣٠، ص ٣٢٦.

(٥) سورة الشمس، الآية ٧، ٨.

(٦) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب البيان والتعريف، ص ١٦٣.

(٧) ابن عاشور، التحوير والتنوير، مرجع سابق، ج ٣٠، ص ٣٢٦.

وتحصي، فالإنسان الفاقد لحريته لا يمكن له القيام بالعملية التربوية على الوجه الأكمل»^(١).

فالتربية المثمرة تعتمد على نظرة صحيحة ومتكاملة إلى حرية الإنسان واختياره. بناء على هذا يقرر الصادق رأيَه في هذا الصدد بعبارة موجزة ودقيقة وهي قوله: «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين»^(٢). ولربما اعتبر أمر التخيير هو ما قد يحل محل الجبر أو التفويض، وليس الأمر بين الأمرين تلفيقاً بين الجبر والتفويض بمعنى أنّ في سلوك الإنسان شيئاً من الجبر وشيئاً من التفويض بل بمعنى نفي الجبر ونفي الاستقلال في سلوك الإنسان.

وعندما سأل رجل الإمام: وما أمر بين الأمرين؟ قال: «مثل ذلك رجل رأيته على معصية، فنهيته فلم ينته، فتركته، ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته، كنت أنت الذي أمرته بالمعصية»^(٣).

فيرى الإمام أنّ الإنسان مسؤول عن أعماله، لأنّ في استطاعته أن يفعل أو لا يفعل، ولو لم يكن مسؤولاً عن أعماله، لما كلف ولما كان هناك معنى للشواب والعقاب، ولا جدوى للأنبياء والرسالات والتي ما كانت إلا لإرشاد الناس ورعايتهم وتحذيرهم حتى تكون هناك مسؤولية.

وكذلك سأل رجل أبا عبد الله: أجبر الله العباد على المعاصي؟ فقال: «الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي، ثم يعذبهم عليها». فقال له: ففوض الله إلى العباد؟

قال: «لو فوض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي. فقال له: فبينهما منزلة؟ قال: نعم، أوسع مما بين السماء والأرض»^(٤).

هذا الكلام يبين لنا حقيقة هامة يجب أن نأخذها بالاعتبار وهي أنّ مساحة الأمر بين الأمرين هي كل مساحة حياة الإنسان وهو في كل شؤون وأعماله وحركاته يتعامل مع الله تعالى ولم ينفرد عن رعايته وتديره، فسلطان إرادة الله في حياة الفرد إلى جانب حرية إرادة الإنسان هو مبدأ الأمر بين الأمرين وهذه المساحة الواسعة هي التي عبّر الصادق عنها بأوسع ممّا بين السماء والأرض.

(١) علاء الدين الفزويني، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، مكتبة الفقيه، الكويت، ١٩٨٦، ص ١٣٤.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب الجبر والقدر، ح ١٣.

(٣) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ح ١١.

اهتمامات الصادق التربوية بالبعدين الروحي والجسدي

إن الله تعالى خلق الإنسان ذا طبيعة مزدوجة وجعله مزيجاً من العالمين الروحي والمادي، يتميز به عن سائر المخلوقات. فهو سبحانه جعل هذين العنصرين، مترابطين في كيان كلي واحد وبسبب هذا الارتباط يؤثر الواحد منهما في الآخر. فمثلما تؤثر الجهود الجسمانية تأثيراً عميقاً في روح الفرد كذلك فإن الروح والجهد النفسي له أثره في البدن.

من هنا تعطي التربية الإسلامية جانب الروح حقه من الصفاء والعبادة ونقاء السريرة وحسن الخلق، كما تعطي الجسم حقه من إشباع الحاجات والغرائز بالطرق التي شرعها الله، وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف:

«إن لبدنك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً... فأعط كل ذي حق حقه»^(١).

انطلاقاً من هذا المفهوم فقد أولى الصادق الجسد في تربيته اهتماماً بالغاً ووجه إلى العناية به، كما اهتم بالجانب المعنوي والروحي بطريقة متوازنة وأعطى كلا حقه في تكامل وتوازن.

فهو يرى أنّ الإنسان لا يمكن أن تتوافر فيه عناصر الحياة السليمة والطاقات الحيويّة إلا إذا تهيأت معالم التربية الصحية فيه «فالإنسان المريض، ضعيف الإرادة، واهي الأعضاء، مضطرب التفكير، عصبي المزاج، لا يستفيد منه المجتمع الإنساني كما يستفيد من الأصحاء الأقوياء»^(٢).

هذا ما أثر عن الصادق في هذا الصدد بقوله: «من لم يرغب السلامة ابتلي بالخذلان... فالعافية نعمة يعجز الشكر عنها»^(٣).

وقد عرض الإمام جعفر إلى بعض المناهج الصحية في وصاياه ونصائحه ومنها أن يريح الإنسان جسمه وروحه، لأنّ الراحة تقي الإنسان من الإصابة بكثير من الأمراض، فقال:

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، ح ١٩٦٨.

(٢) عفيف عبد الفتاح طbare، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧، ص ٤٣٠.

(٣) محمد الحسين المظفر، الإمام الصادق، مؤسسة النشر لجامعة المدرسين، قم ج ٢، ص ٩٣.

«النوم راحة الجسد، النطق راحة الروح والسكوت راحة العقل»^(١).

فقد تضمن هذا الكلام بعض أصول المبادئ الصحية، فالنوم عنصر من عناصر الصحة للإنسان ولا يستقيم البدن بدونه. والنطق راحة للروح، فإن الله خلق البيان للإنسان ففيه راحة لروحه وقضاء لمهامه. وأما السكوت في المواضع التي لا حاجة فيها إلى النطق ولا ضرورة تدعو له، فهو راحة الفكر.

فهو يرشد إلى طرق المحافظة على الجسد من خلال صيانتها من العبث ووقايتها من المرض والضرر وذلك من خلال الاعتدال في الطعام فقال: «لو اقتصد الناس في المطعم لاستقامت أبدانهم»^(٢).

كما أنه ينهي عن كثرة النوم والأكل والشرب لأنها تسبب كثيراً من الأمراض الجسمية والنفسية كقوله:

«كثرة النوم تتولد من كثرة الشراب، وكثرة الشراب يتولد من كثرة الشبع، وهما يثقلان النفس عن الطاعة ويقسيان القلب عن التفكير والخشوع»^(٣).

وفي هذا دلالة واضحة على تأثير الجسم على الروح وتأكيد الإمام على الصحة الجسمية للفرد وتكامل نموه لكي يعيش حياة سعيدة.

ومن العناصر المهمة في تكوين الحياة الصحية وازدهارها، رعاية النظافة التي تجعل الفرد بمأمن من التلوث والأمراض، وقد حض الإمام الصادق المسلمين على الاعتناء بهذا الجانب في حياتهم، وقد أثر عنه كثير من الوصايا في هذا الصدد منها قوله:

«من غسل يده قبل الطعام وبعده بورك له في أوله وآخره وعاش ما عاش في سعة وعوفي من بلوى في جسده»^(٤).

فغسل اليدين قبل الطعام تطهير وتعقيم لهما من الجراثيم المحتملة التي تتعلق بهما، وغسلهما بعد الطعام من النظافة التي هي الإيمان.

ومثل ذلك وجوب غسل الفاكهة قبل الأكل، قال الإمام: «إن لكل ثمرة سمّاً فإذا أتيتم بها فأمسوها الماء واغمسوها في الماء»^(٥).

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، جامعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، ط ٢، ١٤٠٤، ج ٤، ص ٤٠٢، ح ٥٨٦٥.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٧٣، ص ١٨٩.

(٤) الكليني، فروع الكافي، ج ٦، باب الوضوء قبل الطعام، ح ١.

(٥) محمد بن الحسين الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١٧، ص ١١٥.

وبما أنّ «الجسم هو الوعاء الذي يحلّ فيه العقل والروح والنفس بقواها المختلفة وهو المجال الذي تظهر فيه أنشطة كل هذه القوى المعنوية»^(١)، فجاءت تربية الصادق بكثير من توجيهاته الوقائية للمحافظة على الجانب الجسمي وصحته ومما قاله:

«لا تدخل الحمام إلا وفي جوفك شيء يطفئ عنك وهج المعدة، وهو أقوى للبدن ولا تدخله وأنت ممتلئ من الطعام»^(٢).

فتدخل في دائرة وصاياه الصحية بعض الآداب الجزئية التي تسهم في صحة البدن كقوله: «الخلال بعد الطعام يشدّ اللثا ويحبّل الرزق ويطيب النكهة»^(٣).

وقد كان للصادق رأي في ما قد يصيب البدن من تعب أو مرض، وفي طريقة علاجه وهو يدرك ما يحمله الدواء من تأثيرات جانبية سلبية، فيقول: «إجتنب الدواء ما احتمل بدنك الداء»^(٤).

فاجتناب الدواء إذا لم يكن ثمة ضرورة لاستعماله فإنه يعود على البدن بالصحة. لأنّ كثيراً من الأمراض يدفعها الجسم إذا كانت فيه مناعة وقوة، ويجعله في مأمن من تأثيراته السلبية.

وأخيراً نشير إلى كلام جامع من الإمام يدلّ على اهتمامه البالغ بتربية الروح والجسد معاً. إذ قال لرجل طلب منه أن يوصيه، فقال: «أوصيك بتسعة أشياء فإنّها وصيتي لمن يريد الطريق إلى الله، والله أسأل أن يوفقك لاستعمالها، ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم فاحفظها وإياك والتهاون بها.

أما اللواتي في الرياضة فإياك أن تأكل ما لا تشتهيّه فإنه يورث الحمق والبله، ولا تأكل إلا عند الجوع، فإذا أكلت فكلّ حلالاً وسمّ الله تعالى واذكر حديث النبي ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء أشدّ شراً من بطنه، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٥).

وأما اللواتي في الحلم فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشراً، فقل له: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة. ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقوله فأسأل الله

(١) علي خميس الغامدي، الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، دار الطيبة، مكة المكرمة، ٢٠٠٣، ص ٢٠١.

(٢) الطبرس، مكارم الأخلاق، ص ٥٣.

(٣) القرطبي، بهجة المجالس، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت، ص ٧٩.

(٤) الكليني، فروع الكافي، ج ٦، باب كثرة شرب الماء، ح ٢.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، ح ٢٣٨٠.

المغفرة، وإن كنت كاذباً، فأسأل الله أن يغفر لك. ومن وعدك بالخيانة فعده بالنصيحة والوفاء.

وأما اللواتي في العلم، فاسأل العلماء ما جهلت وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة، وإياك أن تعدل بذلك شيئاً وخذ بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا فرارك من الأسد ولا تجعل رقبتك للناس جسراً^(١).

وهكذا نرى أن الإمام قد عني في بنائه للإنسان وفي تربية أتباعه، بكل ما يحفظ لهم الصحة النفسية والعقلية والبدنية ليجعل منهم أشخاصاً متكاملين، سعداء، أقوياء فعالين وقادرين على تحمل المسؤوليات في حياتهم.

(١) زين الدين العاملي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٥، ص ١٤٩.

العوامل المؤثرة في التربية عند الإمام

كما ذكرنا سابقاً، أشار الإسلام إلى تحديد أثر كل من الوراثة والبيئة في تكوين شخصية الإنسان.

وتنطلق هذه العوامل في فكر الصادق من صميم الإسلام وتوجيهاته فقد اهتم بأثر الوراثة والبيئة في حياة الإنسان وتربيته. وقد روي عنه في هذا الصدد: «وتجب على والده - أي الطفل - ثلاث خصال: اختيار لوالدته، وتحسينه اسمه، والمبالغة في تأديبه»^(١).

ومعنى اختيار والدته يقوم على مبدأ الوراثة والبيئة معاً.

بمعنى أنّ صفات الصلاح والشقاء يكون للطفل نصيب منها وهو في بطن أمه. كما أنّ شؤون الزوجة وأسررتها لها أثر عميق في تكوين الطفل وتربيته. «فالاختيار قد يكون على أساس الأصل الطيب من الناحية الوراثة، كما قد يكون أيضاً من الناحية الخلقية والدينية حتى ينشأ الأطفال في رعاية أم حسنة الأخلاق والدين، تحسن تربيتهم وتنشئتهم نشأة صالحة»^(٢).

لذلك عندما يستشير رجل الصادق في زواجه يقول له: «انظر أين تضع نفسك، ومن تشركه في مالك، وتطلعه على دينك وسرك، فإن كنت لا بد فبكراً تنسب إلى الخير وإلى حسن الخلق»^(٣).

وكما أوصى الإمام باختيار الزوجة الصالحة المتدينة، فكذلك أوصى أيضاً باختيار الزوج الصالح ذي الدين والخلق الطيب ونهى عن غيره لما له من التأثير الكبير في الأولاد بقوله: «من زوّج كريمته من شارب الخمر فقد قطع رحمها»^(٤).

(١) محمد الحسن الحارثي، تحف العقول عن آل الرسول، مؤسسة النشر لجماعة المدرسين، قم، ١٤٠٤، ص ٣٢٢.

(٢) محمد عثمان نجاتي، الحديث النبوي وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٠، ص ٢٦٢.

(٣) محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ٤، ١٤٠٦، ج ٧، ص ٤٠١، ح ١٦٠١.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، مرجع سابق، ج ١٤، ص ١٤.

وهكذا يعالج الإمام تربية الأفراد بتكوين الأسرة الصالحة لكونها تقوم على أسس متينة وقواعد عملية صحيحة في اختيار شريك الحياة والتي من أهمها الاختيار على أساس الدين وأساس الأصل والشرف ذلك أن السجاياء الخلقية والصفات الحميدة والرذيلة في الوالدين تهتئ استعداداً في الأبناء، فالآباء والأمهات الذين يمتازون بصفات الشجاعة والكرم والتضحية والخدمة ينجبون أبناء ذوي فضيلة وإباء وكرم على عكس غيرهم.

وهذا معنى كلام الصادق بدلالته على أهمية الوراثة: «ولا يطيب ثمر إلا بفرع ولا فرع إلا بأصل، ولا أصل إلا بمعدن طيب»^(١).

ولا يحصر الإمام صفات الولد بما يرثه عن آبائه القريبين فقط، بل قد يرث صفات أجداده البعيدين وحتى الإنسان القديم إذ قال: «إن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق خلقاً جمع كل صورة بينه وبين آدم، ثم خلقه على صورة إحداهن فلا يقولن أحد لولده هذا لا يشبهني ولا يشبه شيئاً من آبائي»^(٢).

على صعيد آخر يؤمن الإمام جعفر إيماناً راسخاً بأن البيئة أقوى تأثيراً من الوراثة في بناء الإنسان وأن الصفات الموروثة وفضائل الأسرة لا تقاوم ضغط هذه البيئة. لذلك ينصح بزيارة الأخيار وتجنب الفجار قائلاً:

«إذا زرت فزر الأخيار ولا تزر الفجار، فإنهم صخرة لا ينفجر ماؤها وشجرة لا يخضر ورقها وأرض لا يظهر عشبها»^(٣).

فيكتسب الإنسان كثيراً من عاداته وأخلاقه وقيمه واتجاهاته الفكرية من البيئة الاجتماعية والثقافية التي ينشأ فيها، وإذا استقرت عادات الإنسان وأخلاقه نتيجة الممارسة المتكررة فإنه يصبح من الصعب بعد ذلك تغييرها إلا بمجهود شاق وإرادة قوية، وقد لا تتغير إذا ما استحكمت في المرء فصارت سجية فيه.

وقد أشار الإمام إلى هذه الحقيقة قائلاً:

«لا تصاحب الفاجر فيعلمك من فجوره... ومن يصاحب صاحب السوء لا يسلم»^(٤).

وغير ذلك من توجيهات توضح اهتمام الإمام بالبيئة الاجتماعية والمخالطة مع الآخرين، إلى جانب الوراثة، فهما أصل السلوك عنده ولا يخفى أمرهما في عملية التربية.

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٦٣.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٨٤، ح ٤٧٠٩.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٣.

(٤) أبو سعد السمعاني، الأنساب، دار الجنان، بيروت، ١٤٠٨، ج ٣، ص ٥٠٨.

تربية الطفل ورعايته في فكر الصادق

إنَّ تربية الطفل فرع من تربية الفرد الذي يسعى الإسلام إلى إعداده وتكوينه ليكون عضواً نافعاً وإنساناً صالحاً في الحياة.

وقد أمر الله تعالى الوالدين بتربية الأبناء، وحضّهم على ذلك، وحملهم مسؤوليتها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(١). «فوقاية النفس عن النار بترك المعاصي وفعل الطاعات، ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب، فيجب على الرجل تعلّم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء»^(٢) وتعليم ما لا يستغنون عنه من الأدب.

انطلاقاً من هذا التوجيه القرآني عني الإمام الصادق في منهجه التربوي بتربية الأطفال والناشئين عناية خاصة، واضعاً المسؤولية فيه على عاتق الآباء والأمهات، فأرشدتهم إلى أن يقوموا بأداء هذه المهمة بوجه صحيح، حتى يتيحوا لأولادهم فرصة كافية لإبراز المواهب التي أودعها الله فيهم لينشأوا نشأة سوية.

فالطفل يحتاج إلى توازن ميوله وطاقاته كما أنّه يفتقر إلى تربة صالحة ينشأ فيها ويتعرّع عليها.

فلا بدّ من بذل الجهد والعمل الدؤوب في تأديب الأطفال وتصحيح أخطائهم على الدوام وتويعدهم الخير.

وقد أخذ الصادق بالاعتبار أنّ بناء الشخصية السويّة تأخذ ثمراتها النهائية من الطفولة، ورغم أنّ الإمام يرى بأن عملية التربية تستمر إلى نهاية حياة الإنسان وأنها لن تتوقف، إلا أنّ هذه المرحلة أخذت عنده طابعاً مميزاً في تعاليمه وإرشاداته لأن كل إنسان مهما كان عمره متعلماً، غير أنّ ذلك لا يعني أنّ دور الطفولة لا يمتاز بكونه المرحلة المهمة في عملية التربية أكثر من غيره وذلك لإعداد الناشئ للحياة وتكييفه معها»^(٣).

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) الألوسي، روح المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ج ٩، ص ٣٥١.

(٣) علي محمد الحسين الأديب، منهج التربية عند الإمام علي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٩، ط ٢، ص ٣٥.

هذا ما أشار إليه أبو عبد الله حينما ينصح ابنه قائلاً: «يا بني إن تأدبت صغيراً انتفعت كبيراً ومن عني بالأدب اهتم به، ومن اهتم به تكلف علمه، ومن تكلف علمه اشتد في طلبه، ومن اشتد في طلبه أدرك منفعته»^(١).

فالإمام جعفر ينظم أطوار نمو الأبناء وتربيتهم ضمن ثلاث مراحل، لكل مرحلة متطلباتها الخاصة وأساليبها التربوية المميزة وهذا ما قال فيه:

«دع ابنك يلعب سبع سنين، ويؤدب سبع سنين، وألزمه نفسك سبع سنين فإن أفلح وإلا فلا خير فيه»^(٢).

في هذا التوجيه التربوي يسمي الإمام السنوات السبع الأولى في حياة الطفل طابع اللعب. «وهذا التأكيد يعني بوضوح عدم تقبله للتدريب الجاد»^(٣). فالطفل يستحق في هذه المرحلة من والديه الرعاية والعناية والاهتمام بالاستجابة لرغباته في الحدود التي لا تؤذيه ولا تضره.

أما المرحلة الثانية فيسميها الصادق طابع التأديب أو تنشئة القائمين على مجرد التدريب، ذلك لأن الطفل في هذه المرحلة ينتقل إلى مرحلة الفهم والإدراك ويجب أن يخضع لمنهج تربوي دقيق على أساس مراقبة الوالدين وإرشاداتهما.

أما المرحلة الثالثة والتي تعتبر أكثر أهمية - فإنها تتسم بطابع الإلزام وفيها إشارة دقيقة إلى طبيعة هذه المرحلة ومتطلباتها التربوية. فتبدأ في هذه الفترة - الطاقات والغرائز الكامنة في الإنسان بالتفتح ويتطلع المراهقون إلى الاستقلال، فمن الضروري للآباء أن يلزموهم أنفسهم ويحترموا مشاعرهم ويأخذوا بأرائهم ويستشيروهم.

يبدو أن التفات الإمام في تربيته للأولاد بهذه المراحل الثلاث، مأخوذ من تقرير جدّه رسول الله ﷺ كما يقول وربّما يعتبر تفسيراً لحديثه الشريف: الولد سيد سبع سنين وعبد سبع سنين ووزير سبع سنين»^(٤).

فحينما يسير الآباء والأمهات على هذا النهج في تأديب أبنائهم، يستطيعون أن يكونوا جيلاً صالحاً ومهيئاً للقيام بأعباء مسؤولياتهم وتكاليفهم في الحياة.

وقد حث الإمام الصادق على الاهتمام بعقيدة الطفل وتلقينه إياها منذ صغره لينشأ

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ج ١٦، ص ٢٢٤.

(٢) الكليني، فروع الكافي، ج ٦، باب تأديب الولد، ح ١.

(٣) محمود البستاني، دراسات في علم النفس الإسلامي، دار البلاغة، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٠، ص ٦٠.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٢٧، ح ٢٧٦٢٨.

عليها، فالصبي في أول نشوئه يحفظه حفظاً «ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً، فابتدأه حفظ، ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيمان والتصديق به»^(١).

هذا ما أشار إليه الإمام: «إذا بلغ الغلام ثلاث سنين يقال له سبع مرات قل: «لا إله إلا الله ثم يترك، حتى يتم له ثلاث سنين وسبعة أشهر وعشرون يوماً، فيقال له: قل: محمد رسول الله ﷺ ثلاث مرات، ويترك حتى يتم له أربع سنين ثم يقال له سبع مرات: صلى الله على محمد وآله»^(٢).

وكذلك يوجه أبو عبد الله الآباء والأمهات إلى بعض الخطوات التي تهدف إلى بناء الأساس العبادي في الأطفال بقوله: حينما «يتم له خمس سنين يقال له: أيهما يمينك وأيتهما شمالك؟ فإذا عرف ذلك حوّل وجهه إلى القبلة ويقال له: اسجد، ثم يترك حتى يتم له ست سنين، فإذا تمّ له ست سنين: صلى وعلم الركوع والسجود حتى يتم له سبع سنين. فإذا تمّ له سبع سنين، قيل له: اغسل وجهك وكفيك فإذا غسلهما، قيل له: صل، حتى يتم له تسع، فإذا تمت علم الوضوء»^(٣).

من البديهي أن «الطفولة ليست مرحلة التكليف وإنما هي مرحلة إعداد وتدريب وتعويد للوصول إلى مرحلة التكليف عند البلوغ، ليسهل عليه أداء الواجبات والفرائض»^(٤)، ويتربى كذلك على طاعة الله والقيام بحقه.

فهذه الوثيقة التربوية تمثل مدى اهتمام الإمام بالتربية الإيمانية في الأولاد وفق برامج منظمة كما أنّ فرز هذه المراحل ينطوي على نتائج مثمرة من حيث عملية التعليم والتدريب عليه بنحو يتساوى مع النمو الإدراكي والجسدي للطفل.

وقد لفت الإمام جعفر أنظار المربين إلى رعاية القدرة والاستطاعة في الأطفال حين يشجعونهم على العبادات وذلك لازدياد رغبة الناشئين إليها كقوله:

«إنّا نأمر الصبيان أن يجمعوا بين الصّلاتين: الأولى والعصر وبين المغرب والعشاء الآخرة، ما داموا على وضوء قبل أن يشتغلوا»^(٥).

ويؤكد المعنى ذاته في حديث آخر:

«الغلام يؤخذ بالصيام إذا بلغ تسع على قدر ما يطيقه فإن أطاق إلى الظهر أو

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٩٤.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ١، ح ٨٦٣.

(٣) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٤) محمد نورالدين سويد، منهج التربية النبوية للطفل، دار ابن كثير، دمشق، ط ٥، ٢٠٠٤، ص ٢٥٢.

(٥) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٨، ح ٣٨٢.

بعده صام إلى ذلك الوقت، فإذا غلب عليه الجوع والعطش أفطر^(١).

وهكذا فإن من أظهر المسؤوليات التي اهتم بها وحض عليها ووجه الأنظار إليها مسؤولية الوالدين تجاه أولادهم وحقهم في التعليم والتوجيه والتربية، فهي في الحقيقة مسؤولية كبيرة وشاقة تتبلور على أساسها شخصيته، وتتوضح بها مسيرته، ويتحدد من خلالها مصيره في هذه الحياة.

كذلك نرى بعض التوجيهات التربوية من الإمام إلى الدعاة والذين يقومون في ساحة التبليغ للدين الإسلامي ونشر تعاليمه، بأنهم لا بد أن يهتموا بتربية المراهقين والشباب أكثر من الآخرين.

فرجل من أصحابه حضر يوماً عنده، فسأله الإمام: «كيف رأيت مسارعة الناس إلى هذا الأمر ودخولهم فيه؟»، قال: واللّه إنهم لقليل، فقال الصادق: «عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى كل خير»^(٢).

لقد صرح الإمام في حديثه هذا بشكل واضح إلى نقاء الباطن وحب الخير والفضيلة في جيل الشباب وذكر الفرد - وهو مبلغ للدين والمربي في المجتمع - بأن الشباب أكثر استعداداً للخيرات واتصافهم بالخصال الإنسانية أسرع من غيرهم.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٣١٩.

(٢) الكليني، الكافي، ج ٨، كتاب الروضة، ص ٩٣، ح ٦٦.

طرائق التربية والتعليم في مدرسة الصادق

عني المربون المسلمون بطرائق التعليم ولكن لكل منهم أسلوباً خاصاً يعتمد عليه في تعليمه ونظرة خاصة يرى الأمور من خلالها.

هذه الطرق التي انتهجها المربون في التعليم ليست منفصلة عن ثقافة العصر ونظمه الاجتماعية؛ لأن التعليم نشاط اجتماعي ينعكس على كافة الجوانب الاجتماعية وما فيها من قيم ومعايير ونظم.

وقد استخدم الإمام الصادق بعض طرق التعليم، فسلكتها لإيصال المعارف الإسلامية في كافة مجالات الحياة من العقائد والعلم والأخلاق والآداب إلى المتعلمين، ووظفها توظيفاً فاعلاً يتلاءم مع الأهداف التي خطّط لتحقيقها في منهجه التربوي. وفيما يلي طائفة من أهم الطرق التي اعتمدها الصادق في منهجه التربوي:

أ - طريقة الوعظ :

تعتمد التربية الإسلامية على الوعظ كطريقة تعليمية «تقوم على توضيح الأمور النافعة والضارة للمتعلمين وتعظّمهم وترشدهم إلى الخير وتحثهم على التحلي بمكارم الأخلاق»^(١).

وقد أولى الصادق اهتماماً بالغاً بالمواعظ ووجه جميع جهوده لوعظ الناس وتهذيبهم وغرس النزعات الكريمة في نفوسهم. فقدّم تراثاً غنياً لكل مسلم، من الحكم والمواعظ التي حاول من خلالها، التأثير على النفوس، وتنمّي مداركها المعنوية وترفع مستوى إيمانها وعملها، وتأكيد على هذا الأسلوب يرجع إلى اهتمامه بتعميق مسؤولية الإنسان في دينه وربطه بالدار الآخرة من حيث تجسيدها لنتائج المسؤولية.

فنرى في كثير من مواعظه تذكير الناس بالدار الآخرة وتحذيرهم من عذاب الله وعقابه كقوله :

«مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر، لأمنهما جميعاً ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر، لسعد في الدارين»^(٢).

(١) محمد عطية الإبراشي، التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٢) ورام بن أبي فراس، مجموعة ورام، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٢.

لقد انطلقت تلك الجمل الوعظية في صيغ لغوية هادفة، لها دلالتها اللفظية وأبعادها الحركية في الواقع النفسي والاجتماعي.

وقد يطرد الإمام بمواعظه القلق والاضطراب من النفس الإنسانية، كقوله: «إذا بلغك عن أخيك ما يسوؤك فلا تغتم، فإنه إن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها»^(١).

ربما يضيق صدر الإنسان من كلام الآخرين في حقه، فيشعر بالحزن والاضطراب. فالإمام يرشد الفرد إلى التفكير في حقائق الأمور ويبين له بأن كلام الناس في حقه لا يخلو من أمرين: إما أن يكون حقيقياً وإما غير حقيقي.

فإذا كان كلامهم صحيحاً والخطأ فيه، فهي عقوبة عاجلة له، أما إذا كان غير صحيح وليس كما يقولون، فهو افتراء عليه وتكتب له حسنة بها.

ولم تكن عظات الإمام لفئة خاصة أو طائفة معينة، بل شملت كل الناس، وقد تنفع أي شخص حتى المقتدرين وأصحاب المناصب، فكل وعظ منه كان يتناسب مع ظروف كل فرد وثقافته كما قال أبو جعفر المنصور الخليفة للإمام: حدثني عن نفسك بحديث أتعظ به ويكون لي زاجر صدق عن الموبقات فقال الإمام:

«إملك نفسك عند أسباب القدرة، فإنك إن تفعل ما تقدر عليه كنت كمن شفى غيظاً وتداوى حقداً أو يحب أن يذكر بالصلوة. واعلم بأنك إن عاقبت مستحقاً لم يكن غاية ما توصف به إلا العدل والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر. قال أبو جعفر: وعظت فأحسنمت وقلت فأوجزت»^(٢).

ب - طريقة الرسائل :

تعتبر الرسائل إحدى طرق التعليم، فالطالب يرسل مسائله إلى أستاذه ويتلقى منه الأجوبة عنها مكتوبة.

وقد كان يطلق على هذه الرسائل اسم كتب «المسائل» التي فيها أجوبة لمسائل أرسلها أو وجهها مباشرة طلبة الأئمة أو المشاهير الشيوخ»^(٣).

وقد كانت لأبي عبد الله مراسلات إلى مختلف الأقطار تتضمن مجمل نصائحه

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٤.

(٢) الصدوق، الأمالي، مؤسسة البعثة، قم، ١٣٨٧، ص ٧١١.

(٣) عبدالله الفياض، تاريخ التربية عند الإمامية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣، ص ٢٣٣. وليس أدل على ذلك مما نجده في كثير من التراجم في كتب الرجال، حيث تتكرر العبارة التالية: له مسائل عن أبي عبد الله (ع).

التي يدعو فيها تلاميذه إلى سبيل ربه، وكانت تهبط عليه أسئلة من المسلمين في البلدان النائية يسألونه إيضاح ما أشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم، «ومنها كتاب المسائل للحلي عن الإمام الصادق»^(١).

وأحياناً بادر الإمام بنفسه بكتابة رسائل فيما يحتاج إليه تلاميذه سواء في ذلك ما يتعلق بأمورهم الدينية أم حياتهم الدنيوية. ومنها على سبيل المثال: رسالة طويلة بليغة إلى أتباعه «أمرهم بمدارستها والنظر فيها، وتعاهدها والعمل بها، فكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم، فإذا فرغوا من الصلاة نظروا فيها»^(٢). وهذه مقتطفات منها:

«أما بعد فاسألوا الله ربكم العافية، وعليكم بالدعة والوقار والسكينة، وعليكم بالحياء والتزهر عما تنزه عنه الصالحون قبلكم...»

فاتقوا الله وكفوا ألسنتكم إلا من خير، وإياكم أن تذلقوا ألسنتكم بقول الزور والبهتان، والإثم والعدوان، فإنكم إن كففت ألسنتكم عما يكرهه الله مما نهاكم عنه، كان خيراً لكم عند ربكم. وعليكم بالصمت إلا فيما ينفعكم الله به، من أمر آخرتكم ويأجركم عليه...

وعليكم بحب المساكين المسلمين، فإن من حقرهم وتكبر عليهم، فقد زلّ عن دين الله، واعلموا أن من حقر أحداً من المسلمين ألقى الله عليه المقت، فاتقوا الله في إخوانكم فإن لهم عليكم حقاً أن تحبّوهم فإن الله أمر نبيه بحبهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله، ومن عصى الله ورسوله ومات على ذلك مات من الغاوين...

إياكم أن يبغى بعضكم على بعض فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير الله بغيه على نفسه، وصارت نصرة الله لمن بغى عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله.

إياكم أن يحسد بعضكم بعضاً، فإن الكفر أصله الحسد.

إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم يدعو الله عليكم ويستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله ﷺ قال: «إن دعوة المظلوم مستجابة».

إياكم أن تشره نفوسكم إلى شيء مما حرّم الله عليكم، فإن من انتهك ما حرّم الله عليه حال الله بينه وبين الجنة»^(٣).

(١) آغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣، ج ٥، ص ٢٢١.

(٢) الكليني، روضة الكافي، ص ٥ - ١٤.

(٣) الكليني، روضة الكافي، ص ٥ - ١٤.

فهذه الرسالة للإمام بمثابة رسالة الحقوق التي ذكرت فيها حق الله وحق الناس .
وكأن الإمام أراد أن يجسّد الإسلام وبما فيه من الآداب والأخلاق من خلال رسائله لطلابه .

ج - طريقة المناظرة والحوار :

لقد كانت المناظرة والحوار من مميزات طرق التربية الإسلامية و«تقوم هذه الطريقة على أساس النقاش الذي يعتمد على طرح الأسئلة وتلقي الأجوبة للوصول إلى حقيقة من الحقائق لا تحتل الشك والنقد ولا الجدل»^(١).

فقد سلك القرآن الكريم الطريقة الحوارية مع المسلمين وغير المسلمين بشكل يؤثر على العقل والوجدان وبأسلوب يعتمد على الإقناع بالمناقشة التي تكشف عن الحق . لذلك كانت المناظرة والحوار إحدى الطرق التعليمية في الإسلام . ولأن الإسلام دعوة للتفكير وتحرير العقل اهتم علماء المسلمين عناية كبرى بالمناظرة والحوار في طرق تعليمهم «لما لها من الأثر الكبير في شحذ الذهن وتقوية الحجة ، والتمرن على سرعة التعبير ، وترتيب الأفكار ، وتجديد نشاطها كما تساعد التلاميذ على تنمية قدراتهم العقلية»^(٢).

وكذلك كانت المناظرة من أبرز طرائق التعليم عند الإمام الصادق ، حيث كان إماماً في الحوار ولقد أكد في قوله وعمله أن العالم المرّبي لا بد أن يفتح عقله وقلبه وعلمه لكل إنسان يطرح مشكلة أو يثير شبهة وإن اختلف معه في الأسس والمبادئ الفكرية .

فكان يجلس في بيت الله الحرام ويحاور كبار الملاحدة والزنادقة وذوي الملل والنحل ، بعقل منفتح وصدر واسع .

وقد يبدأ الإمام بالكلام وطرح السؤال حتى يسوق ذهنية الفرد إلى الحقيقة التي أراد أن يثبتها ، كما روي أنه :

جاء أحد الزنادقة إلى الإمام وهو في بيت الله الحرام ولما فرغ من طوافه وصلاته ، قال أبو عبد الله له : «أتعلم أن للأرض فوقاً وتحتاً؟» قال : نعم . قال الإمام : «فهل دخلت تحتها؟» قال : لا . قال الإمام : «ما يدريك ما تحتها؟» قال : لا أدري إلا أنني أظن أن ليس تحتها شيء . قال أبو عبد الله : «فالظن عجز ، فلم لا تستيقن؟» ثم أردف الإمام يقول : «أفصعدت إلى السماء؟» قال : لا ، قال : «أفتدري ما فيها؟» قال : لا . قال الإمام : «عجباً لك لم تبلغ المشرق ، ولم تبلغ المغرب ، ولم تصعد إلى

(١) محمد منير سعد الدين ، تاريخ التربية عند المسلمين ، مرجع سابق ، ص ٢٦٧ .

(٢) عبد الله الدائم ، التربية عبر التاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٧٨ .

السماء، ولم تجز هناك، فلم تعرف ما خلقهنّ وأنت مع ذلك جاحد بما فيهن؟»
«أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل، إفهم
عنا فإننا لا نشك في الله أبداً»^(١).

وهكذا فإن الإمام بقوله: «ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم»، ضمن دفاع
عن دينه ومعتقده، يعلم قواعد ومنهجية للفكر الإسلامي من الناحية العقديّة من خلال
الحوار.

ويجيز الإمام لتلاميذه المناظرة، إذا كانوا مهيتين لها مع العلم وقوة الاحتجاج،
لأن المناظر لا بدّ «أن يكون عالماً مطلقاً ذا قوة وملكة على رد الفروع إلى الأصول،
وعارفاً بقواعد وأدلة الأحكام»^(٢)، فالإمام يربّي تلاميذه على الحوار، ويمدّهم بالحجج
والبراهين وأساليب الدفاع حتى كان يحيل المخالفين إليهم رغم إصرارهم على المناظرة
معه شخصياً.

ومن أمثلة ذلك، المناظرة التي وقعت بين تلاميذ الإمام ورجل من أهل الشام
الذي دخل على الإمام و«قال: بلغني أنك عالم بكل ما تسأل عنه فصرت إليك
لأناظرك، فقال الإمام: في ماذا؟ قال: في القرآن. فقال الصادق: «يا حمران»^(٣) دونك
الرجل».

فقال الرجل: إنما أريدك أنت لا حمران فقال أبو عبد الله: «إن غلبت حمران
فقد غلبتني» فأقبل الشامي يسأل حمران حتى ضجر وملّ وعرض وحمران يجيبه، فقال
أبو عبد الله: «كيف رأيت يا شامي؟!» قال: رأيته حاذقاً ما سألته عن شيء إلا أجابني
فيه، ثم أراد الشامي أن يناظر في العربية والفقه والكلام فيناظر مع التلاميذ الآخرين
للإمام الصادق والإمام كان حاضراً. وفي الأخير قال الشامي للإمام: كأنك أردت أن
تخبرني أن في أصحابك مثل هؤلاء الرجال. قال: «هو كذلك»^(٤).

د - طريقة الإملاء:

تقوم هذه الطريقة التعليمية بدور هام في مجال التدريس و«عندما تطورت الحركة

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب حدوث العالم، ح ١.

(٢) عبد الصاحب الحسيني العاملي، الأخلاق عند الرسول وأصحابه، مؤسسة الأعلمي، بيروت،
١٩٦٩، ص ٣١٢.

(٣) حمران بن أعين الشيباني مولا هم يكني أبا الحسن كوفي تابعي من رجال محمد الباقر وجعفر
الصادق فكان منه حملة القرآن وعالماً بالنحو واللغة أخذ النحو والقراءة عن أبي الأسود الدؤلي
وهو من عائلته مشهورة في الكوفة ولهم منزلة (محسن الأمين، أعيان الشيعة ٢٣٤/٦)

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٤٠٧.

العلمية واستخدم الورق، أصبح الإملاء من أعلى مراتب التعليم^(١) وسميت بعض الكتب في ذلك - الأمالي - «فيملّي الأستاذ ما يريد تعليمه، ويكتب الطلاب خلف المدرّس، وبعد الانتهاء يعرج على الشرح والإيضاح والتفسير للفقرات الغامضة، ويدون الطالب هذه الشروح على هامش الأوراق التي كتب عليها الأصول»^(٢).

فقد استخدم الإمام جعفر هذه الطريقة في تعليمه وأملّى على تلاميذه في مختلف العلوم، وله كتاب يسمّى - أمالي الصادق - ومنها إملاء الإمام على تلميذه مفضل بن عمرو في أربعة مجالس سميت بتوحيد المفضل.

هـ - طريقة الوصايا :

إنّ الوصية طريقة تعليمية مستوحاة من القرآن الكريم وقد استفاد أبو عبد الله من هذه الطريقة كثيراً عندما قام بوصايا متعددة لتلاميذه تتناول كافة الجوانب المتعلقة بشخصية الإنسان المسلم.

ومنها وصيته لولده موسى الكاظم: «يا بني اقبل وصيتي، واحفظ مقالتي، فإنك إن حفظتها تعش سعيداً، وتمت حميداً».

يا بني: إنه من رضي بما قسم له استغنى، ومن مد عينه إلى ما في يد غيره مات فقيراً، ومن لم يرض بما قسم الله عزّ وجلّ اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه... قل الحق لك أو عليك تستشّر من بين أقرانك»^(٣).

وليس من الغريب أن نرى كثيراً من علماء الأمة يغتنمون فرصة الاتصال بالإمام ويطلبون منه أن يزودهم بوصاياه؛ لأنّهم يجدون فيها توجيهاً للخير والسعادة، فهذا سفيان الثوري وهو من علماء الأمة يتردد على الإمام ويطلب منه أن يوصيه ما ينفعه.

فقال الإمام: «يا سفيان لا مروءة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا سؤدد لسبيّ الخلق ولا خلّة لبخيل ولا إخاء لملول»، قال: زدني، فأضاف الإمام قائلاً: «كفّ عن محارم الله تكن عابداً، وارض بما قسم الله تكن غنياً وشاور في أمورك الذين يخشون الله تعالى»، ثم قال: زدني فقال الإمام: «يا سفيان من أراد عزّاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة...»^(٤).

(١) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٧، ج ١، ص ٣١٦.

(٢) أحمد شلبي، التربية الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٣٧٤.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٣.

(٤) أبو سعد السمعاني، الأنساب، ج ٣، مرجع سابق، ص ٥٠٧.

و - طريقة الدعاء :

من الطرق التي سلكها الإمام جعفر في التربية والتعليم الأدعية التي اعتمدها قبله جدّه الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين في تربية الأمة . وقد كان لها بالغ الأثر وعظيم المنفعة في حياة المسلمين . فعبّر التوجه المستمر والانقطاع الكامل إلى الله تصبح النفس الإنسانيّة أكثر قدرة على تذويب السلبات وعلى تقبّل الفضائل والخصال الحسنة .

وها هي أدعية الإمام الصادق مدرسة قائمة بنفسها يتخرّج منها الداعي وقد ملئ علماً وورعاً، وعندما يتأمل ما ورد عنه من مناجاة يكتشف فيها المعاني الفكرية والتربوية التي تشدّ الإنسان إلى اكتساب الفضائل وتجعله قريباً من ذاته قادراً على إرغامها باتجاه معاكس للهوى والشهوات، وفيما يلي نشير إلى أهم هذه المفاهيم :

- تعريف العقيدة وعرض مفاهيمها وتركيز مبادئها في النفوس كتعريف الله تعالى بصفاته وعظمته وشدّ المسلم بكل وجوده وجوارحه إلى الله سبحانه كما ورد في دعائه :

«يا من يرحم من لا يرحمه العباد ويا من يقبل من لا تقبله البلاد، ويا من لا يحتقر أهل الحاجة إليه، ويا من لا يخيّب الملحّين عليه فلك العلو الأعلى فوق كل عال والجلال الأمجد فوق كل جلال»^(١).

- توجيه الناس إلى حبّ الله تعالى بتوكيد النظر في نعم الله وآلائه وتوكيد حمده وشكره له . وقد تمثّل هذا في أحد أدعيته :

«... يا رب كم من نعمة بها عليّ، قلّ عندها شكري، ... فيا من قلّ عند نعمته شكري فلم يحرمني ... يا ذا المعروف الذي لا ينقضي معروفه أبداً، ويا ذا النعماء التي لا تحصى عدداً ... يا سيدي ما اهتديت إلا بك، ولا علمتُ إلا بك، ولا قصدت إلا إليك، ولا أقصد ولا أرجو غيرك ...»^(٢).

- تنمية الإحساس بالخطأ والاعتراف بالذنب مع توفير جوّ يشعر بالراحة والتخلّص من التبعات بالاستغفار إلى الله، كدعائه قائلاً :

«سائل ببابك، مضت أيامه، وبقيت آثامه، وانقضت شهوته وبقيت تبعته، فارض عنه وإن لم ترض عنه فاعف عنه، فقد يعفو السيد عن عبده وهو غير راضٍ عنه»^(٣).

(١) محمد باقر شريف القرشي، الصحيفة الصادقية، دار الأضواء، ١٩٩٣، ص ٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٨ و ٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

- تربية الأخلاق وتقويم السلوك وتنمية مشاعر الخير في النفس الإنسانية كما يدعو ربه بقوله:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُسَلِ وَالْهَمِّ وَالْجَبْنِ وَالْبَخْلِ وَالْقَسْوَةِ... اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مَوَاسَاةَ مَنْ قَتَرْتَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ بِمَا وَسَّعْتَ عَلَيَّ مِنْ فَضْلِكَ»^(١).

- بعث السكينة والاطمئنان والثقة في نفس الإنسان بأنَّ الله تعالى يستمع إليه إذا شكّا، ويمدّه إذا ضعف، ويعينه إذا احتاج، فيدعوه:

«كَمْ مِنْ كَرِبٍ يَضْعَفُ عَنْهُ الْفُؤَادُ وَتَقْلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ وَيَشْمَتُ بِهِ الْعَدُوُّ وَتُعَيِّنُنِي فِيهِ الْأُمُورُ أَنْزَلْتَهُ بِكَ وَشَكْوَتُهُ إِلَيْكَ، رَاغِبًا فِيهِ عَمَّنْ سِوَاكَ فَفَرَجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ...»^(٢).

وهكذا استخدم الإمام هذه الطريقة لكي تضيفي جواً مناسباً على عملية التوجيه تؤصّل في الإنسان معاني الخير والصلاح، والتي لم تتوفر في النظريات التربوية المعاصرة التي استنتجها علماء النفس.

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٢، ص ٧٩.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، ص ٥٧٩.

الفصل الثاني

التربية العقدية والعبادية في مدرسة الإمام الصادق

المبحث الأول : البناء العقدي

المبحث الثاني : البناء العبادي

تمهيد

حينما نتحدث عن الفكر التربوي الإسلامي لا بدّ أن نركّز على العقيدة الإسلامية والعمل بها .

فأهمية الأساس العقدي في التربية تأتي من ارتباط هذا الأساس القوي بكل شؤون الحياة، لما لها من سلطان على النفس والفكر والإرادة الإنسانية .

كما أن الأساس العبادي في التربية يعمل على تقوية صلة العبد باللّٰه ومن خلال الشعائر والعبادات، فالعقيدة تمثل الجانب النظري من الدين وقد اضطلعت بمهمة ضبط المسار الفكري للإنسان، أمّا العبادة فهي تمثل الجانب التطبيقي وهي تُعنى بالمسار العملي في الحياة .

فهما متلازمتان، بحيث لا تنفصل الأولى عن الثانية .

فبقدر ما يكون هذان الأساسان متينين تكون الأمة قوية متماسكة ملتزمة بالسلوك الإسلامي، وهذا المفهوم السليم يتجلى في تربية الإمام الصادق، فهي تشمل الإيمان والعمل، وترتبط كلاً منهما بالآخر ارتباطاً عضوياً مؤكداً أنّ العمل ليس إلا تجسيدا للإيمان وانعكاساً له . وقد استهدف أبو عبد الله في منهجه التربوي، ربط الإنسان برّبهِ الإله الواحد، عقلاً وقلباً؛ لأنّه يرى أن رسوخ العقيدة باللّٰه في النفوس، تسرع بها إلى العمل بأوامره والابتعاد عن نواهيه .

من هنا فقد أولى التربية العقيدة اهتماماً كبيراً في مدرسته، وبجهد المتواصل كان يراقب الناس في أفكارهم وعقائدهم ليصونهم تجاه التيارات المنحرفة والخاطئة، ثم يسعى إلى تسليح المجتمع عبادياً وروحياً من خلال تنشئة أفراده على أداء الفرائض والشعائر والذكر والدعاء

وبكل هذا يرمي إلى بناء القواعد المؤمنة الواعية المتزوّدة بالعقيدة الصحيحة وصفاء الروح والعمل الصالح .

وفيما يلي نشير إلى أهم جهود الإمام في هذا الصدد .

المبحث الأول

البناء العقدي

- العقيدة وأهميتها
- موقع العقيدة الإسلامية في فكر الإمام التربوي
- تكوين العقيدة الصحيحة في منهج الإمام التربوي
- تحصين الأمة من التيارات المنحرفة والخاطئة

المبحث الأول

البناء العقدي

العقيدة وأهميتها:

أصل العقيدة في اللغة من «عقد: نقيض الحلّ، نقول: عقد الحبل أي شدّه، وعقد البيع إذا أمضاه ووثقه، وعقدة اللسان ما غلظ منه، وعقدة كل شيء إبرامه وعقد قلبه على شيء: لزمه وتعقّد الإخاء: استحكم»^(١).

وفي الاصطلاح هي «ما انعقدت قلوبنا وعقولنا على معرفته معرفة غير قابلة للتشكيك، وما انعقدت عواطفنا عليه انعقاداً يصرف أفعالنا وحركاتنا، وحبنا وبغضنا، بطريقة شعورية أو بطريقة لا شعورية، فمتى بلغ شعورنا بالشيء إلى حد أصبح يحرك عواطفنا ويوجه سلوكنا حمل اسم عقيدة»^(٢).

وفي تعريف آخر: «هي الأمور التي يصدق بها قلبك، وتطمئن إليها نفسك، وتكون يقيناً عندك، لا يمازجه ريب ولا يخالطه شك»^(٣).

فإنّ العقيدة تكون الأساس المطلق للإرادة والرغبات الإنسانية على اختلافها وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسلوك «فسلوك الإنسان وتصرفاته في الحياة مظهر من مظاهر عقيدته فإذا صلحت العقيدة صلح السلوك واستقام وإذا فسدت فسدت واعوج»^(٤).

ولا ضمان لصلاح العقيدة إلّا بعقد الصلة وتقويتها بين الإنسان وخالقه عزّ وجلّ.

إنّ العقيدة الصحيحة هي الموجهة لرسالة الإنسان في هذه الحياة، فالإيمان ثمرة من ثمرات البناء العقدي وناتج مرغوب للجهود التربوية التي قام بها أنبياء الله ورسله عبر تاريخ الإنسانية الطويل.

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ٣، مادة عقد، ص ٣٠٩.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨، ص ٣٢.

(٣) عثمان جمعة ضميرية، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة، ١٩٩٦، ص ٣٣٠.

(٤) سيد سابق، العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٦٨، ص ٣٠٩.

وإذا تأملنا آيات القرآن نجد أنّ الرسل والأنبياء يُعَنّون عناية كبيرة بسلامة عقيدة أبنائهم، فمن ذلك: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

وهذا الإيمان هو الركن الأساس الذي بدأ الإسلام به في تكوين شخصية المسلم، والإنسان الذي يسلك في هذه الحياة ولديه المعتقد الديني الصحيح، يكون إنساناً سويّاً يتمتع بوعي وبصيرة وسعة في الأفق وطمأنينة في القلب.

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٢.

موقع العقيدة الإسلامية في فكر الإمام التربوي

يبدأ الإمام الصادق رسالته التربوية من تكوين العقيدة السليمة ووجوب تعليمها، فهو يرى أنّ غرس مفاهيم الإيمان بالله وعقيدة التوحيد في النفوس هو أمثل طريقة لإيجاد عناصر صالحة تستطيع أن تقوم بدورها كاملاً في الحياة.

وممّا حفظ عنه من ضرورة تعلّم الإنسان في مجال العقيدة قوله: «وجدت علم الناس كلهم في أربعة: أولها: أن تعرف ربك والثاني: أن تعرف ما صنع بك والثالث: أن تعرف ما أراد منك والرابع: أن تعرف ما يخرجك عن دينك»^(١).

هذه أقسام تحيط بالمفروض من المعارف: لأنه «أول ما يجب على العبد معرفة ربه جل جلاله فإذا علم أن له إلهاً وجب أن يعرف صنيعه إليه، فإذا عرف صنيعه إليه، عرف به نعمته، فإذا عرف نعمته وجب عليه شكره، فإذا أراد تأدية شكره وجب عليه معرفة مراده ليطيعه بفعله، وإذا وجبت عليه طاعته وجبت عليه معرفة ما يخرج به عن دينه ليجتنبه، فيخلص به طاعة ربه وشكر إنعامه»^(٢).

فنرى الإمام يبين أن الإيمان بالله والتعرف إليه ليس مجرد كلام، بل هو سلوك وتقوى، وتجنب الذنوب والتمسك بما يحب الله تعالى، وشكره واستغفاره.

فإذا «عرف الإنسان ربه، وقوى صلته به، فإن هذه المعرفة، بفاطر السموات والأرض ستثمر ثماراً طيبة، وستترك في النفس آثاراً طيبة، وبالتالي ستوجه السلوك نحو الخير والحق، وهو ما يُحبه الله عزّ وجلّ ويرضاه»^(٣).

ومن هنا دعا الصادق تلاميذه إلى معرفة الله كأساس البناء العقدي للفرد المسلم وكشف لهم عن جليل آثارها فقال: «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عزّ وجلّ ما

(١) الطوسي، الأمالي، ص ٦٥١، ح ١٣٥١.

(٢) محمد بن نعمان المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، دار مفيد، طهران ج ٢ ص ٢٠٣.

(٣) محمد تيسير سليمان العلي، الصلة بالله وأثرها في تربية النفس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧، ص ٤٥.

مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة هذه الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤونه بأرجلهم، ولنعموا بمعرفة الله عز وجل وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنات مع أولياء الله، إن معرفة الله أنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم»^(١).

وإذا تأملنا تعاليم مدرسة الإمام التي تتناول موضوع العقيدة نجد أن الإمام يركّز تربيته العقدية على أساس إيجاد الوعي والبصيرة في الأمة اعتماداً على كتاب الله.

فالعقيدة عندما تستند إلى العلم والإدراك والاستدلال والقناعة التامة تتأصل في النفوس ولا تزول من القلوب فقال الإمام: «من عرف دينه من كتاب الله زالت الجبال قبل أن يزول ومن دخل في أمر بجهل خرج منه بجهل»^(٢).

على هذا الأساس يبيّن الإمام تربيته على محورين:

الأول: تكوين العقيدة الصحيحة.

الثاني: تحصين الأمة عن التيارات المنحرفة والخاطئة.

(١) الكليني، فروع الكافي، ج ٨، ص ٢٤٧، ح ٣٤٧.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٠٣.

تكوين العقيدة الصحيحة في منهج الإمام التربوي

احتل الجانب التربوي العقديّ مساحة كبيرة من اهتمامات الإمام الصادق، فهي بالنسبة له، الوسيلة الفاعلة التي تدفع الإنسان لحمل رسالته على الأرض، ذلك لأن «تهذيب سلوك الأفراد عن طريق غرس العقيدة الدينية هو أسلوب من أعظم الأساليب التربوية»^(١).

وهذا الأساس يقوم على مرتكزات ودعائم، سماها العلماء أركان الإيمان أي ما عليها يقوم كيان المسلم الإيماني، وهذه الأركان جاءت صريحة في حديث الرسول ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(٢).

وعند التأمل في النصوص الواردة عن الإمام يظهر لنا أنه بذل جهداً واسعاً في ترسيخ هذه الأركان التي تتمثل في الأمور التالية:

- المعرفة بالله عزّ وجلّ وبأسمائه الحسنی، وصفاته العليا، والمعرفة بدلائل وجوده، ومظاهر عظمته في الكون.
 - المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة، وما فيه من قوى الخير التي تتمثل في الملائكة.
 - المعرفة بكتب الله تعالى التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل.
 - المعرفة بأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى وقادة الخلق إلى الحق.
 - المعرفة باليوم الآخر، وما فيه من بعث وجزاء، وثواب وعقاب، وجنة ونار.
 - المعرفة بالقدر الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير.
- فإن «كلّ ركن من هذه الأركان ذو صلة وثيقة بسائرهما بحيث تكون في النهاية كلاً متكاملًا، يؤثر بمجموعة المترابط في حياة الإنسان»^(٣).

(١) سيد سابق، العقائد الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، ج ٧.

(٣) محمد قطب، ركائز الإيمان، دار الشروق، بيروت، ٢٠٠١، ص ٤٢٩.

فيستَمي الفرد مؤمناً حين يؤمن بهذه الأمور كلّها إيماناً راسخاً خالصاً، وفيما يلي نستعرض الاتجاهات الرئيسة في فكر الإمام جعفر لتكوين هذه العقيدة الصحيحة وتأصيلها في نفوس الناس .

أ - معرفة الله وتوحيده :

لقد استهدف الإمام جعفر غرس الإيمان بالله وتوحيده في نفوس تلاميذه، ذلك لأن «معرفة الله هي أساس البناء التربوي الأصيل ومركز غذاء الروح وصفاء الفطرة الإنسانية»^(١).

فيرى الإمام أن أشرف أنواع العلوم بل أفضل الفرائض هو المعرفة بالله وصفاته والإقرار بها فيقول: «إن أفضل الفرائض وأوجبها على الإنسان معرفة الرب والإقرار له بالربوبية»^(٢).

وعندما سئل أي الأعمال أفضل؟ قال «توحيدك لربك»^(٣).

فقام أبو عبد الله بتعميق الوازع الديني في نفوس المتعلمين عن طريق تبين هذه المعرفة الشريفة وترسيخها، باستخدام الأدلة الفطرية والحسيّة والعقلية، وتعريف الله بصفاته وأسمائه - حسب مستويات الناس - حتى يستطيع الفرد المسلم أن يظل صامداً أمام الغشاوات التي تتعرض لها مرآة النفس من ظلمات الشهوات والغرائز المنحرفة، وكذلك تجاه الشبهات والتيارات التي تواجهه في الحياة .

وإليكم أهم هذه البراهين وهي كما يلي :

* دلالة فطرية :

إنّ الفطرة الإنسانية هي «الخلقة التي خلق الله عليها الإنسان أول ميلاده قبل أن يتغيّر صفوها بفعل شياطين الإنس والجن»^(٤).

وقد فطر الله تبارك وتعالى الإنسان على معرفته والإيمان به وأصبح هذا الإيمان جزءاً من ماهيته لا يستطيع الانفكاك منه، وهذا المعنى أكدّه الله تعالى بقوله :

﴿ فَأَقَمَٰ جَهَٰكُمُ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾^(٥).

(١) علي خميس الغامدي، الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص ٦١.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤، ص ٥٥.

(٣) الطوسي، الأمالي، ص ٦٨٧، ح ١٤٥٨.

(٤) نبيل عبد اللطيف، الإنسان كما فطره الله، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠، ص ١٨.

(٥) سورة الروم، الآية ٣٠.

وعندما سئل الإمام الصادق عن معنى هذه الآية الشريفة قال: «فطرهم جميعاً على التوحيد»^(١).

وفي هذا الكلام تأكيد على أنّ الفطرة ليست غرساً من غراس البشر يغرسه المربون في نفوس وقلوب الأجيال وإنما هو غرس ربّاني جبلي يملكه كل إنسان من غير تربية ومن غير تعليم، كما قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(٢).

أي إن الإقرار بوجود الله مركوز في جيلة الإنسان وكيانه، فيكون دور المربين هو تعهد الفطرة والمحافظة على سلامتها وخيريتها.

ومن هذا المنطلق، اهتم الإمام الصادق بإحياء بذور الفطرة في الناس ولفت الأنظار إلى أن هناك معرفة فطرية عامة لا يفقدها أحد، سواء فيها العالم والجاهل، والمؤمن والكافر، فوصف الله بأنه تعالى «معروف عند كل جاهل»^(٣).

ومما يدل على هذه المعرفة الفطرية بوجوده سبحانه أن الإنسان عند مواجهته للحوادث المهيبة، ويأسه من الأسباب المعروفة عنده، يوقن أن هناك خالقاً عظيماً يقدر على نجاته لو شاء، فاستشهد به الإمام حين سأله رجل: ما الدليل على الله؟ ولا تذكر لي العالم والعرض والجوهر؟ فقال له: هل ركبت البحر؟

قال: نعم. قال: هل عصفت بكم الرياح حتى خفتم الغرق؟ قال: نعم.

قال: فهل انقطع رجاؤك من المركب والملاحين؟ قال: نعم.

قال: فهل تتبععت نفسك أن ثم من ينجيك؟ قال: نعم.

قال: فإن ذاك هو الله. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾^(٤).

فقد ذكر الصادق السائل بالميثاق المعهود بين فطرة البشر وخالق البشر الذي يظهر في حالة الشدة في صورة الالتجاء إلى الله تعالى.

ويشير بأن الإنسان في مثل هذا المأزق الحرج يجد نفسه تتعلق بقوة غيبية عليا، يؤمن بأنها أقوى قوة في الوجود وبأنها قادرة على أن تخلصه من هذه الشدة، فيلجأ إليها ويطلب منها النجاة، و«هذا الاندفاع الفطري للتعلق بالله تعالى والإيمان بقدرته

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب فطرة الخلق، ح ٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، ح ٢٦٥٨.

(٣) الصدوق، التوحيد، ص ٥٨.

(٤) سورة النحل، الآية ٥٣، الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، مطبعة العاني، بغداد، ج ١، ص ٦٦٣.

على النجاة من الشدائد هو دليل على وجود الله وهو ما يسمى بفطرة التدين^(١). وعلى الرغم من أنّ الإنسان مفطور على الإيمان بالله، لم تكن هذه الفطرة جبراً لازماً، إذ مكّنه الله من حرية الاختيار ما بين الكفر والإيمان وهذا جلّي في قول الإمام عندما سئل:

«من خلقه الله كافراً أيسطيع الإيمان، وله عليه بتركه الإيمان حجة؟»

قال: «إن الله خلق خلقه جميعاً مسلمين، أمرهم ونهاهم، والكفر اسم يلحق الفعل حين يفعله العبد... فعرض عليه الحق فجحدته فبأنكاره الحق صار كافراً^(٢)».

فقد صرح الإمام بأن الله تعالى خلق عباده على فطرة التوحيد، وأمرهم بما يقربهم إليه زلفى، وقد اختارت شرائع من الخلق الكفر والإلحاد وجحدوا الحق، وذلك بإرادتهم واختيارهم.

وهكذا عقيدة التوحيد في مدرسة الصادق أمر مركوز في طبيعة الإنسان وفطرته، وقد تحجبها الغفلة والبيئة والتقليد أحياناً، ولكن الإمام يرى بأن جذور هذه المعرفة عميقة في النفس، فلذا يحاول أن يردّ كل فرد إلى فطرته السليمة حتى يعرف ربّه من تلقاء نفسه.

* دلالة حسية :

أعمق المعرفة بالله تعالى هي الحاصلة من النظر في الآفاق والأنفس، وهو ما حضّ عليه القرآن الكريم ومنه قوله سبحانه: ﴿سَرُّهُمْ أَيْتَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٣).

و «كان بالإمكان لهذا الاتجاه الحسي في البحث عن نظام الكون أن يقدم دعماً باهراً للإيمان بالله سبحانه وتعالى بسبب ما يكشفه من ألوان الاتساق ودلائل الحكمة التي تشير إلى الصانع الحكيم»^(٤).

ولم يغفل الإمام المربّي عن الملاحظة والنظر في هذه الآيات الدالة على القدرة الإلهية فقال: «ومن صلاح دينه - الإنسان - معرفة الخالق بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق»^(٥).

وقد ينقل المتعلمين من عالم الآفاق إلى عالم الإنسان الذي يرى في صنعه

(١) عبد الهادي الفضلي، التربية الدينية، دار المعارف للطبوعات، بيروت، د.ت، ص ١٢

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ج ٥، ص ١٩.

(٣) سورة فصلت، جزء من الآية ٥٣.

(٤) محمد باقر الصدر، موجز في أصول الدين، مطبعة شريعة، ٢٠٠١، ص ١٢٥.

(٥) كاظم مظفر، توحيد المفضل، ص ٤٠.

عجائب، فقال: «والعجب من مخلوق يزعم أن الله يخفى على عباده وهو يرى أثر الصنع في نفسه»^(١).

وهو يبين الطريق الموصلة إلى معرفة الله سبحانه بدلالات حسية تقود إلى الإيمان به وحده فيستدل باستقامة النظام الكوني ووحدته على وجود الله وتوحيده قائلاً:

«ولعمري لو تفكروا في هذه الأمور العظام لعاینوا من أمر التركيب البين ولطف التدبير الظاهر ووجود الأشياء مخلوقة بعد أن لم تكن، ثم تحولها من طبيعة إلى طبيعة وصنعة بعد صنعة ما يدلهم على الصانع، فإنه لا يخلو شيء منها من أثر تدبير وتركيب يدل على أن له خالقاً مدبراً وتأليف بتدبير يهدي إلى واحد حكيم»^(٢).

فالصادق يعتمد في كلامه على عنصري **الملاحظة والتفكير**، وهذه الطريقة من المحسوس إلى المعقول هي طريقة القرآن الكريم في الوصول إلى الحقيقة.

وبما أن الإيمان يزيد برؤية آيات الله في إبداع مخلوقاته وجميل صنعه، ينبّه الإمام الأفراد إلى الدقة والتأمل فيما حولهم من ظواهر ومخلوقات ويشرح لهم عجائب الصنع الإلهي ولطائف التدبير فيها، ليضع منظاراً إيمانياً أمام أعين المتعلمين بحيث يستطيعون رؤية الله وعظمته في كل شيء، كما روي أن رجلاً جاء إلى الإمام فقال: يا جعفر بن محمد دلني على معبودي. فقال له أبو عبد الله: إجلس. وإذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها.

فقال له أبو عبد الله: «ناولني يا غلام البيضة. فناوله إياها، فقال له أبو عبد الله: هذا حصن مكنون له جلد غليظ وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهب مائعة، وفضة ذائبة، فلا الذهب المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهب المائعة، فهي على حالها، لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها مفسد، فيخبر عن فسادها، لا يدري للذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس أترى لها مدبراً؟»^(٣)

وهكذا يوجه الإمام نظر من يريد تربيتهم إلى جمال الإبداع الإلهي، ويفتح بصائرهم على القدرة المعجزة والخلائق العجيبة من الصانع الحكيم، وذلك حسب مراحل نموهم ومداركهم ومستوى ثقافتهم وتعليمهم.

فما يملك القلب إزاء ذلك إلا أن يخشع ويهتز لعظمة الله، وما تملك النفس تجاه هذا إلا روح الخشوع والعبودية لرب العالمين.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه والمكان نفسه

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب التوحيد، ح ٤.

* دلالة عقلية :

لئن كان وجود الخالق من الأمور البديهية المركوزة في فطرة الإنسان منذ نشأته الأولى، إلا أن الصادق يرى أن يستخدم بعض البراهين النظرية العقلية كوسيلة للتعرف على صدق هذا الإحساس الفطري، لإزالة ما يمكن أن يعرض للنفس من الشكوك والشبهات.

فحرص على تأصيل معرفة الله وتوحيده، على أساس العلم والبصيرة والوعي، فسلك في تعاليمه مسلك القرآن العقلي واستدل بالأدلة الحاسمة ردًا لكل أنواع الإنكار أو الشك أو الظن.

ذلك لأن «العقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولم يكن الشعاع ما لم يكن بصر»^(١) واليقين بالمعرفة الناتجة عن العقل وأدواته أول نصير للعقيدة الإسلامية.

وهذا ما أشار إليه الإمام بقوله: «فبالعقل عرف العباد خالقهم وأنهم مخلوقون، وأنه المدبر لهم وأنهم المدبرون، وأنه الباقي وهم الفانون»^(٢).

فقد اعتبر الصادق العقل أداة من أدوات المعرفة وأنه مكلف بالتعرف على خالقه. وعندما سئل ما الدليل على أن لك صانعاً؟ يخاطب عقل السائل ويوجهه إلى معرفة الصانع عبر سبر الحالات الممكنة العقلية. وهذا ما نصه:

قال: «وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إما أكون صنعتها أنا، أو صنعتها غيري. فإن كنت صنعتها، فلا أخلو من أحد معنيين، إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة فقد استغنت بوجودها عن صنعتها، وإن كانت معدومة، فإنك تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئاً، فقد ثبت المعنى الثالث أن لي صانعاً وهو رب العالمين»^(٣).

فقد زحرت تعاليم الصادق بكثير من هذه الأدلة القائمة على العقل والتفكير الموضوعي، لإقامة الحجة على الناس.

وقد يشير إلى التغيير المستمر في هذا الكون الفسيح، وبما أن «التغير لا ينفك عقلاً عن معنى الحدوث»^(٤)، يستدل الإمام به على وجود الخالق العظيم فيقول ما نصه:

(١) محمد عز الدين توفيق، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٨ نقلاً عن الراغب الأصفهاني.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ٣٤.

(٣) عبد القادر محمود، رائد السنة والشيعة، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٤) الحبكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، مرجع سابق، ص ١٣٩.

«إن الأشياء تدل على حدوثها، من دوران الفلك بما فيه، وهي سبعة أفلاك، وتحرك الأرض ومن عليها، وانقلاب الأزمنة، واختلاف الوقت، والحوادث التي تحدث في العالم: من زيادة، ونقصان، وموت، بأن لها صانعاً ومدبراً، ألا ترى الحلو يصير حامضاً، والعذب مرّاً، والجديد بالياً، وكلُّ إلى تغير وفناء»^(١).

هذا الكلام يبيّن أن كلّ هذه التغيرات الكونية لا بدّ لها قطعاً من سبب حقيقي كامل القدرة، ينتهي إليه معنى الخلق والإبداع.

وقد يحتج الإمام بدليل التسخير والاضطرار، فيرى بأنّ كل مضطر مخلوق ولا بدّ له من مدبّر فقال: «أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان فلا يشتبهان، ويرجعان، قد اضطرا، ليس لهما مكان إلا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعا؟ وإن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً، أو النهار ليلاً؟! اضطرا إلى دوامهما، والذي اضطرها أحكم منهما وأكبر.

إن الذي تذهبون إليه، وتظنون أنه الدهر، إن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم، وإن كان يردهم لم لا يذهب بهم؟ لم السماء مرفوعة والأرض موضوعة؟ لم لا تسقط السماء، على الأرض، لم لا تنحدر الأرض فوق أطباقها، ولا يتماسكان ولا يتماسك من عليها؟»^(٢)

كما يستدل الصادق على وجود صانع الكون ومدبره بسمات الافتقار والحاجة في الموجودات. فكون الإنسان وغيره من الأشياء فقيراً ومحتاجاً ذاتياً دليل واضح على أنه معلول ومخلوق.

وقد نراه يأتي بأوجز بيان في البرهان مع الوفاء بالقصد، وذلك حين يسأل عن الدليل على الواحد فيقول: «ما بالخلق من حاجة»^(٣).

فإننا نجد الناس في حاجة مستمرة في كل شأن من شؤون الحياة، وهذه الحاجة تدل على وجود مآل لهم في حوائجهم إلى غني عنهم بذاته.

وبما أن التوحيد هو الأصل الأصيل الذي تقوم عليه المعرفة الدينية فقد بذل الإمام جهده طوال حياته في تثبيت أركان هذا المعتقد العقلي والديني ومنها ما احتج على الزنديق الذي ادّعى اثنين فقال:

«لا يخلو قولك: إنهما اثنان، من أن يكونا قديمين قويين، أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً، فإن كانا قويين لم لا يدفع كل واحد منهما

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٦٦.

(٢) الصدوق، التوحيد، ص ٢٩٥.

(٣) الحراني، تحف العقول، ص ٣٧٧.

صاحبه ويتفرد بالتدبير؟ وإن زعمت أن أحدهما قوي والآخر ضعيف، ثبت أنه واحد كما نقول، للعجز في الثاني»^(١).

وليست هذه الأدلة كلها إلا لتزويد الناس بالبراهين المقنعة التي تقوي جانب العقيدة وتؤدي إلى الإيمان الراسخ والثابت لهم، وصحيح أن الصادق لم يعرض أدلته بالأسلوب المعقد الذي نجده في الكتب الفلسفية والكلامية وهذا يزيد من قيمة طريقته التي اتخذها من المنهج القرآني، فهو يستخدم الأدلة القائمة على التفكير الفطري الذي لا يعتريه ريب ولا يداخله شك، وبراغي مستوى عقل السائل وثقافته ثم يختار له الإجابة الواضحة والسهلة والتي تكون أكثر ملائمة لفكرة المخاطب.

* تعريف الله بأسمائه وصفاته :

إن أسماء الله الحسنى هي الوسيلة التي تعرّف الله بها إلى خلقه، وهي النوافذ التي تفتح أمام الإنسان أفقاً فسيحة تشاهد فيها أنوار الله وجلاله. والمنهج المعرفي الذي سلكه الإمام الصادق في التعرف على الله لا يقتصر على التدليل لوجود الخالق فحسب، بل يتعداه إلى تبين أسماء الله وصفاته العليا للناس.

ذلك لأن الإنسان يقيم علاقاته مع الله من خلال هذه الصفات، ويدعوه ويتضرّع إليه في إطار معرفته له.

وعلى ضوء هذا التصور نرى أن الإمام جعفرأ يستغل أي فرصة - ولو بلسان الدعاء - لتعليم صفات الباري لتلاميذه ورفع مستواهم في معرفة الله.

كما جاء في دعائه المنشور: «يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة»^(٢).

نستشف مما ورد في هذا الدعاء مدى سعة رحمة الله بعباده ومحبته لهم، ومدى مغفرته لذنوبهم وعفوه عن معصياتهم، حتى عن أولئك الذين لا يعبدونه حق عبادته، ولا يسألونه عطاء ولا يعترفون بجميله، وهذا ما يدعو إلى مزيد تعلق بالخالق المنان، وإلى مزيد من المحبة والامتنان لعطاياه.

إن العقيدة الإسلامية تتميز بالحيوية «فهي تضيف على الخالق صفات تجعله قريباً من الإنسان أو معه بحيث يراه في كل لحظة يراقب تصرفاته ويحاسبه عليها ويكافئه»^(٣).

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب التوحيد، ح ٥.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣٦.

(٣) محفوظ علي عزام، الأساس العقائدي للتربية، المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية، جمعيات الشبان، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٤٣٨.

هذا ما أشار إليه الإمام بقوله: «كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد وهو أقرب إليهم من حبل الوريد يسمع كلامهم ويعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان ولا يشغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان، تشهد بذلك آثاره وتدل عليه أفعاله»^(١).

فتأكيد الإمام على تعريف الباري تعالى بصفاته وأسمائه نابع من آثارها التربوية في الإنسان، فكلما ازدادت معرفة الفرد بهذه الصفات ازداد حباً لله وذكرًا وخشوعاً له، من هنا نجد كثيراً من المواقف التي يلفت الإمام أنظار الناس إلى معرفة حقيقية لله تعالى ومنها كلامه: «يا من يشكر اليسير ويعفو عن كثير وهو الغفور الرحيم»^(٢).

هذه الصفة الإلهية التي يريد الإمام تعميقها في النفوس، توحى بأن الله تبارك وتعالى يتقبل القليل من الطاعة ويعطي الكثير من الثواب، فهذه المعرفة تعدّ دافعاً قوياً للتوجه إلى العمل الصالح والإحسان.

وكذلك لم يغفل الإمام عن الصفات التي تترك انعكاساتها المباشرة على سلوك الفرد ومنهجية حياته ومنها وصف الباري بالسميع والبصير الذي ورد في كثير من الآيات القرآنية فقال الصادق: «من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى»^(٣).

فهاتان الصفتان - السميع والبصير - تلقيان في قلوب المؤمنين السكينة من حيث كون يد العناية والحماية الإلهية معهم في كل حال، ومن جهة أخرى فإنهما تنطويان على تحذير خفي للمؤمنين ليراقبوا أقوالهم وأعمالهم؛ لأن الله محيط بها علماً.

وهكذا يرى الإمام لأسماء الله الحسنى وصفاته طابعاً عقدياً، فيرى بها تكميل المعارف الإلهية عند أبناء المجتمع، إلى جانب أثرها التربوي في تكامل النفوس الإنسانية من روح مراقبة الله وحبّه.

فهو لم يكتف بإيجاد القناعة الإيمانية في العقل فحسب، بل يغذيها برعاية العواطف ومشاعر الحب والخوف والإجلال عن طريق تعريف الله بصفاته وأسمائه، ذلك لأن الإيمان بالله لا يستقرّ ويثبت لدى الإنسان إلا بقوة من دعائتي العقل والعاطفة معاً.

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ح ٢٣٢٥.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الدعوات، ح ٢٨.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٧٢، ح ٣.

ب - الإيمان بالملائكة :

من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بالملائكة ، قال الله تعالى في صفة عقيدة المؤمنين :

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ^(١)

إنَّ «عالم الملائكة عالم كبير واسع من الغيب الذي حجب الله عنا علمهم ، وليس لنا سبيل إلى هذا العالم الواسع والعجيب إلا من خلال الوحي ، وهو من الغيب الذي أمرنا الله تعالى أن نؤمن به» ^(٢).

قال الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ^(٣).

فالصادق يلقي الضوء على هذه الآية الشريفة مثبتاً ضلال من يكفر بالملائكة ، ويصرح بأن قوله تعالى «يدلّ على وجوب الإيمان بالملائكة والرسول وأن عداوتهما كفر» ^(٤) ذلك لأنهم يقومون بدور الوساطة والسفارة بين الله وأنبيائه ، ويوحون لهم شريعة الله للناس ولهم عمل في عالم الأرواح ، وعمل في عالم الطبيعة ، ولهم صلة خاصة بالإنسان .

وقد أشار أبو عبد الله إلى أمر تسبيح الله تعالى وتقديسه للملائكة ، وقد رمى بذلك إلى زيادة معرفة الناس بحقيقتهم حتى يدركوا من الكون ما لم يدركه الغافلون وهو ما عبّر عنه بقوله :

«ما في السموات موضع قدم إلا فيها ملك يسبحه - الله - ويقدّسه ولا في الأرض من شجر ولا مدر إلا وفيها ملك موكل بها يأتي الله كل يوم بعملها» ^(٥).

وقد اقتضت حكمة الله أن يسخر الملائكة لكثير من الوظائف يقومون بها في الناس ، كمراقبة أعمال البشر ، ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ^(٦) والمحافظة على الناس : ﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ^(٧) وقبض أرواحهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُم مَلَائِكَةُ ﴾ ^(٨).

وقد تحدّث الإمام عن أعمال الملائكة وعلاقتهم بالإنسان تثبيتاً للاعتقاد بوجودهم

(١) سورة البقرة، جزء من الآية ٢٨٥.

(٢) محمد مهدي الآصفي، الكلمة الطيبة في القرآن، المشرق، طهران، ٢٠٠٤، ص ٦٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ٩٨.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣٩، ح ٥.

(٦) سورة ق، الآية ١٨.

(٧) سورة الطارق، الآية ٤.

(٨) سورة النساء، جزء من الآية ٩٧.

ومكانتهم، فقال: «وَكَلَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ملائكة بالدعاء للصائمين ولم يأمرهم بالدعاء لأحد إلا استجاب لهم فيه»^(١).

ج - الإيمان بالكتب السماوية:

إنَّ الإيمان بالله يقتضي الإيمان بما أنزل الله على رسله من الكتب السماوية. ذلك لأنَّ «الرسالات هي الكتب السماوية التي تضمنت رسم الله للعقائد والعبادات وأصول الحلال والحرام، ومن هنا طلب الإسلام الإيمان بالكتب سواء ما أنزل على محمد وما أنزل على إخوانه السابقين»^(٢).

فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣).

لقد اشتركت الكتب السماوية كلها في بيان أصول الدين كما نرى كثيراً مما أنزله الله في الكتب الأولى قد جاء في القرآن بالتصريح أو من غير تصريح.

وقد أشار الصادق إلى هذا الأمر بقوله: «إن الله تبارك وتعالى أعطى محمداً شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام: التوحيد والإخلاص، وخلع الأنداد والفطرة الحنيفية السمحة...»^(٤).

والقرآن آخر الكتب السماوية أنزله الله على خاتم أنبيائه ورسله واقتضت مشيئة الله أن ينسخ هذا الكتاب الشامل الكامل ما سبقه من الكتب جميعاً ويهيمن عليها. وقد تكفل الله بحفظه من أي تحريف أو تبديل أو زيادة أو نقص. «فوجود الكتاب الرباني في الأمة من بعد الرسول بمثابة استمرار الرسول نفسه فيهم، من حيث التعرف على أصول الدين وأحكام الشريعة، وسائر مواعظها وآدابها»^(٥).

فقد وجه أبو عبد الله الأمة الإسلامية إلى دور القرآن وحقيقته وأهميته، فقال ما نصّه: «لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه، ولكنهم لم يبصروه»^(٦).

وقوله: «القرآن عهد الله إلى خلقه، فينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده»^(٧). فحُضِّ في كثير من تعاليمه على التمسك بالكتاب العزيز؛ لأنه هو المصدر الأول

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٤، كتاب الصيام، ح ١٠.

(٢) محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٠.

(٣) سورة النساء، جزء من الآية ١٣٦.

(٤) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الشرائع، ح ١.

(٥) الحبيكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، مرجع سابق، ص ٥٤٠.

(٦) الزمخشري، ربيع الأبرار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩٢.

(٧) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب قراءة القرآن، ح ١.

لتحصيل المعرفة الدينية، فهو مدرسة حيّة تنظم حياة المسلم في الدنيا كما تبين سعادته في الآخرة، وإليكم بعض تعاليمه في هذا الصدد:

* التربية على التمسك بالقرآن الكريم:

إنّ القرآن هو صراط الله الذي رسمه لعباده وهو السبيل الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى الله تعالى ويتطابق بشكل دقيق مع فطرة الإنسان، فالإيمان بأنّ القرآن من عند الله هو الذي يجعله مقوماً لحياة الفرد والمجتمع.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

فعلى هذا يرى الصادق أن معرفة القرآن، هي أصل الحركة والتكامل للإنسان وأنّ الكمال الذي يحصل للفرد بالتفاعل مع القرآن لا يحصل له بغيره. وبالقرآن يتسنى للإنسان أن يعرف موقعه في الوجود وعوالمه وما كان المقصود من خلقه، فيقول: «من لم يعرف الحق من القرآن لم يتنكب الفتن»^(٢).

والقرآن تبيان لكل شيء يحتاجه الإنسان إليه في حياته، فشريعته «صالحة لكل زمان ومكان لما اتصفت به من مرونة وشمول، فهي تحدد الأسس والمبادئ فيما يتغير بتوالي العصور وفيما يختلف بين الشعوب»^(٣).

فقد أشار الإمام إلى هذه الخصوصية التي تؤدي إلى ضرورة تفاعل الناس مع القرآن في كل العصور، فعندما سئل: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ فقال: «لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غصّ إلى يوم القيامة»^(٤).

هذا التوجيه التربوي إضافة إلى بيان صفة الخلود للقرآن يضمن تأثيره الهائل والمتصل في النفوس. فكلّما التقى الإنسان القرآن وجلس إليه، ترك القرآن في نفسه انطباعاً وأثراً جديداً غير الذي تركه في نفسه من قبل، وقام عن القرآن بفائدة جديدة، وزاده هدىً على هدى كما سلب منه شكاً أو ريباً.

وفي ضوء هذا يُعرّف الصادق كتاب الله بأنه ضابط لتمييز الحق من الباطل من الأقوال والآراء، فيقول: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله عزّ وجلّ ولكن لا تبلغه عقول الرجال»^(٥).

(١) سورة الإسراء، ٩.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٤٢.

(٣) عمر أحمد عمر، فلسفة التربية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٦٢.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٦، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٥) الكليني، الأصول الكافي، ج ١، باب الرد إلى الكتاب والسنة، ح ١.

فيربي تلاميذه على هذه القاعدة، ليعرفوا الصواب والخطأ من الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ، فيؤكد على أن: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»^(١). والصادق يزن الحديث بالقرآن، فالصحيح ما وافقه، وغيره ما خالفه. فكان السابق إلى منهج يعد اليوم «أهم المناهج الفكرية المعاصرة ألا وهو منهج التناص أو مقارنة النص بالنص - مقارنة نص الحديث بنص القرآن - واكتشاف مدى قيمته العلمية من خلال استنطاقه في عملية التناص المذكورة»^(٢). وهذا من أبرز قواعده التربوية للبناء العقدي، وكان هدفه تربية عقل إسلامي يعتمد القرآن الكريم.

ولم يكتف الصادق في تعاليمه بوصف القرآن والدعوة إلى التدبر فيه بل يؤكد على التمسك العملي به، ذلك لأنه كتاب التربية، وكل كلمة فيه هي توجيه تربوي لإنشاء الإنسان الصالح، فحضّ تلاميذه على الاعتبار والعمل به بقوله: «عليكم بالقرآن، فما وجدتم آية نجا بها من كان قبلكم، فاعملوا به، وما وجدتموه هلك من كان قبلكم فاجتنبوه»^(٣).

وعندما لبى الصادق نداء جده رسول الله ﷺ في هذا الصدد^(٤)، فإنه كان يدرك خطورة النصوص المخالفة للقرآن الكريم، تلك التي أقبل إليها المسلمون المنفتحون على الثقافات الجديدة كما هو حالنا اليوم من خلال الانفتاح المحموم الذي نعيشه على الثقافات العالمية المعاصرة التي تتعارض بمجملها مع القرآن الكريم.

د - معرفة أنبياء الله ورسله :

إن النبوة ظاهرة ربانية تنير حياة الإنسان وتكملها، والنبي هو حامل رسالة الله إلى عباده، وهي وحدها القادرة على إنقاذهم من مهاوي الضلالة لو أخذوا بها. «ولو ترك الله سبحانه وتعالى بني آدم دون رسل يهدونهم إلى سبل الخير والفضيلة لعاشوا حياة الغاب تتحكم فيهم شهواتهم وغرائزهم، لا يعرفون للفضائل أو الأخلاق الحميدة أو المسؤولية الاستخلافية، سبيلاً»^(٥).

من أجل ذلك أرسل إليهم الأنبياء والرسل لهدايتهم إليه - سبحانه - والأخذ

(١) المصدر نفسه، باب الأخذ بالسنة، ح ١.

(٢) عمر بن عبد العزيز، الفكر السياسي للإمام جعفر الصادق، دار المحجة، بيروت، ١٩٩٧، ص ٩٥.

(٣) محمد بن مسعود، تفسير العياشي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩١، ج ١، ص ١٦، ح ٦.

(٤) قال رسول الله ﷺ: «إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن» (المتقي الهندي، كنز العمال، ج ٢، ص ٢٨٩، ح ٤٠٢٧).

(٥) عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

بأيديهم إلى الطريق المستقيم. من ثم يرى الصادق أن أفضل الفرائض وأوجبها على الإنسان بعد معرفة الرب معرفة الرسل والشهادة لهم بالنبوة، فيقول: «بعث الله أنبياءه ورسله ونبيه محمداً ﷺ فأفضل الدين معرفة الرسل وولايتهم»^(١).

وقد اعتبر الإمام أن الاعتقاد بأنبياء الله ورسله ناتج عن الإيمان بالله ومعرفة صفاته، فعندما يسئل من أين أثبت الأنبياء؟

قال: «إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً، لم يجوز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه، فيباشروهم ويباشروه ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم. فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعز وهم الأنبياء وصفوته من خلقه»^(٢).

لقد أمرنا الله أن نؤمن بجميع الرسل؛ لأن كل الرسالات الإلهية تنبع من مصدر واحد وتتفق في توحيد الله والأمر بعبادته وفي أسس الدين ومبادئه، قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾^(٣).

انطلاقاً من تعاليم القرآن، ينبه أبو عبد الله إلى أن الإيمان بواحد من الرسل لا ينفك عن الإيمان بجميع الأنبياء الصادقين، فوجب الإيمان بهم جميعاً، ولا يصح إيمان من أنكر نبوة واحد من الرسل قائلاً: «إعلموا أنه لو أنكر رجل عيسى بن مريم وأقر لمن سواه من الرسل لم يؤمن»^(٤).

وقد «اقتضت حكمة الله أن يجعل الأنبياء أكمل البشر خلقاً وأفضلهم علماً وأشرفهم نسباً وأعظمهم أمانة حتى يكونوا أسوة كاملة للبشر»^(٥) فلذا لم يكتف أبو عبد الله بترسيخ العقيدة بالأنبياء فحسب، بل يصفهم بالخصائص التي تجعلهم أهلاً لحمل الرسالة، وذلك لغرس حبهم في النفوس والسير على نهجهم كقوله: «إن الصبر والصدق والحلم وحسن الخلق من أخلاق الأنبياء عليهم السلام»^(٦).

(١) محمد كاظم قزويني، موسوعة الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ١٢، ص ١٦٣.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب الحجة، ح ١.

(٣) سورة الشورى، الآية ١٣.

(٤) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب خصال المؤمن، ح ٣.

(٥) محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، د.ن، مكة المكرمة، ص ٤٠.

(٦) محمد حسين الطباطبائي، سنن النبي، المكتبة الإسلامية، قم، ١٣٩٦، ص ٥٩.

وكقوله: «ولا يفرض الله عز وجل على عباده طاعة من يعلم أنه يغويهم ويضلهم، ولا يختار لرسالته ولا يصطفي من عباده من يعلم أنه يكفر به، ويعبد الشيطان دونه، ولا يتخذ على خلقه حجة إلا معصوماً»^(١).

وبما أن محمداً ﷺ خاتم الرسل والأنبياء وامتازت رسالته بأنها أكمل الرسالات وأكثرها شمولاً فقد تركزت جهود الإمام في تربيته الإيمانية على ضرورة اتخاذ الرسول ﷺ قدوة واتباع سنته، فنذكر مقتطفات منها فيما يلي:

* التربية على اتخاذ الرسول ﷺ قدوة واتباع سنته:

إن النفس البشرية عامة تحاول أن تتشبه بأقوى شخصية حولها، وذلك لتقتدي بها وتسير على هداها، وتقلدها في كل حركاتها. والتربية الإسلامية طلبت أن يشد المسلم إلى شخص الرسول ﷺ إذ هو القدوة السامية، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وهو أفضل رسل الله أجمعين.

وعلى هذا الأساس دعا الإمام الصادق جميع المسلمين إلى اتباع سنة الرسول ﷺ واتخاذ قدوة، بقوله: «واتبعوا آثار رسول الله ﷺ وسنته فخذوا بها، ولا تتبعوا أهواءكم وآراءكم فتضلوا، فإن أضل الناس عند الله من أتبع هواه ورأيه بغير هدى من الله»^(٢).

فكان يربي تلاميذه على هذا النهج، ويسعى لتوعية كل من غفل عن هذه الأسوة الحسنة، فقام بإحياء سنة جدّه في منهجه التربوي بثلاث طرق:

أولاً: بيان سيرة النبي ﷺ والدعوة إلى التأسي والافتداء بها:

يقتضي الإيمان برسول الله ﷺ، اتخاذ قدوة واتباع سنته ﷺ، «وحقاً كان رسول الله ﷺ بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن وتعاليمه وآدابه وتشريعاته»^(٣). فهو القدوة الرائعة لجميع الناس.

ولقد سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»^(٤).

فالإمام يرسم سلوك النبي ﷺ وآدابه لتلاميذه فيقول: «كان رسول الله ﷺ أكثر

(١) الصدوق، التوحيد، ص ٤٠٧.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٣٨، ح ٣٣١٥٢.

(٣) عبد الرحمن النحلوي، أصول التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٤) الطبري، جامع البيان، دار الفكر، بيروت، ج ٢٩، ص ٢٤ - ح ٢٦٧٨٣.

ما يجلس تجاه القبلة^(١) . . . لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه^(٢) . . . وكان يداعب الرجل، يريد به أن يسره ولا يقول إلا حقاً^(٣).

وكان يقسم لحظاته بين أصحابه فينظر إلى ذا، وينظر إلى ذا بالسوية^(٤) . . . وإذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس إليه حين يدخل^(٥) . . .

وعندما كان يأمر تلاميذه بشيء، أو ينهاهم عن شيء يستشهد بسيرة رسول الله ﷺ كما يقول: «أدوا الأمانة فإن رسول الله ﷺ كان يؤدي الخيط والمخيط»^(٦).

ويدعو نفسه والآخرين إلى التأسّي برسول الله ﷺ قائلاً: «كان رسول الله ﷺ إذا جاء شهر رمضان زاد في الصلاة وأنا أزيد، فريدوا»^(٧).

كما أنه يعود تلاميذه على أن يجعلوا سيرة الرسول ﷺ معياراً في حياتهم، كقوله: «إياك أن تطمح نفسك إلى من فوقك، فإن خفت شيئاً من ذلك فاذكر عيش رسول الله ﷺ فقد كان قوته الشعر وحلواه التمر ووقوده السعف إذا وجده.

وإذا أصبت بمصيبة فاذكر مصابك برسول الله ﷺ فإن الخلق لم يصابوا بمثله أبداً»^(٨).

ومن طبيعة الإنسان، حينما تقع عليه مصيبة، أن يتصور أنها أكبر فاجعة حلت به وأنه لم يقع في مثلها أحد، فيعسر عليه حلّها. أما إذا ما نظر إلى شخص مصاب بهذا البلاء نفسه أو أعظم منه، خاصة عندما يكون هذا الشخص ذا درجة رفيعة فيهن الأمر عليه.

والإمام الصادق كمرّب للنفوس يرشد الناس إلى تذّكر المصائب والشدائد في حياة النبي ﷺ حتى يستشعروا السكينة في نفوسهم وترتفع معنوياتهم ومستوى استقامتهم.

ثانياً: القيام بنشر أحاديث الرسول ﷺ والتحديث عن آبائه عن جده:

- (١) محمد حسين الطباطبائي، سنن النبي، مرجع سابق، ص ٥٠.
- (٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٧١.
- (٣) محمد حسين الطباطبائي، سنن النبي، ص ٤٩.
- (٤) المصدر نفسه، ص ٤٧.
- (٥) المصدر نفسه، ص ٥٥.
- (٦) المصدر نفسه، ص ٦٥.
- (٧) محمد بن الحسن الطوسي، الاستبصار، دار الكتب الإسلامية، قم، ط ٤، ١٤٠٦، ج ١، ص ٣٣١، ح ١٧٩٣.
- (٨) الكليني، فروع الكافي، ج ٨، ص ١٦٨، ح ١٨٩.

اهتم الإمام برواية الأحاديث النبوية التي أخذها عن آبائه، ونادى «ما من معنى إلا وفيه كتاب أو سنة»^(١).

فنهلت الأمة من مناهل علمه، ورأت موقفه موقف المربي الذي بذل جهداً كبيراً في نشر أحاديث جده رسول الله ﷺ بين تلاميذه خاصة والمسلمين عامة، حتى يأخذوا حقيقة الإسلام من مصدريه الرئيسين: الكتاب والسنة.

قال أبان بن تغلب في جعفر بن محمد: ما سألته عن شيء إلا قال: قال رسول الله ﷺ^(٢). ويؤيد هذا الأمر كثير من مروياته، منها:

قال جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر^(٣) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي»^(٤).

وفي رواية أخرى قال جعفر بن محمد عن محمد بن علي بن الحسين عن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «من زهد في الدنيا علمه الله تعالى بلا تعلم، وهواه بلا هداية وجعله بصيراً، وكشف عنه العمى»^(٥).

ثالثاً: اعتبار السنة ضابطاً لتمييز الحق والباطل من الأقوال:

جعل الصادق السنة القاعدة الثانية إلى جانب القرآن لتمحيص الروايات، فقد سئل عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به، قال: «إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله ﷺ، وإلا فالذي جاءكم به أولى به»^(٦).

وفي رواية أخرى قال: «فاتقوا الله فلا تقولوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا ﷺ»^(٧).

في ضوء هذه الأحاديث، نقف على القاعدة الفكرية للحكم على الأحاديث المشتملة على بعض المفاهيم التي تتنافى مع روح القرآن والسنة النبوية.

فقد أوصى الصادق تلاميذه بأن لا يقبلوا كل ما يرويه الرواة عنهم ووضع لهم

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٩، ح ٤.

(٢) عبد الحليم الجندي، الإمام الصادق، مؤسسة أنصاريان، قم، ١٤١٥، ص ٢١٠.

(٣) جابر بن عبد الله الخزرجي الأنصاري السلمي (١٦ - ٧٨)، صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، غزا تسع عشرة غزوه وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم، روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً (الزركلي، أعلام، ١٠٤/٢).

(٤) ابن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٤٤١، ح ٤٣١٠.

(٥) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٢.

(٦) الكليني، الأصول الكافي، ج ١، باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب، ح ٢.

(٧) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٠، ح ٦٢.

قاعدة يرجعون إليها ليتأكدوا من صحة ما ينسب إليهم. وهذا هو الخط الذي يحمي عقائد المسلمين من الانحراف بما يضعه الوضعون من الأحاديث الموضوعة.

هـ - المعرفة باليوم الآخر :

الإيمان باليوم الآخر أهم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله تعالى، ولا يكاد يذكر الإيمان بالله في القرآن حتى يقرن به الإيمان باليوم الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١).

ذلك «أن الإيمان بالله يحقق المعرفة بالمصدر الأول الذي صدر عنه الكون، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه الوجود، وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن الإنسان أن يحدّد هدفه ويرسم غايته»^(٢).

ومن ثم فقد عني الإمام الصادق في تربيته العقدية بهذا الأساس، ورأى أن الإيمان باليوم الآخر من مقتضيات الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء، ولو لم يتلق المرء تبعات سعيه لكانت حياته عبثاً، كما قال: «ولولا المعاد لذهبت مظالم العباد وتساوى أهل الصلاح والفساد، ولتساوى الأشرار مع الأنبياء والشهداء، ثم إن لطف الله يستحيل عليه الانقضاء؛ لأن الموجب للابتداء هو المانع عن الانتهاء»^(٣).

ولترسيخ هذه العقيدة أشار إلى شواهد قرآنية تدل على إحياء جمهرة من الذين أماتهم الله كقوله: «وقد رجع إلى الدنيا ممن مات خلق كثير منهم أصحاب الكهف أماتهم الله ثلاثمائة عام وتسعة، ثم بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث، ليقطع حجتهم، وليريهم قدرته، وليعلموا أن البعث حق»^(٤).

وممّا لا شك فيه «أن الإيمان بيوم الحساب وبمبدأ الثواب والعقاب الإلهي يغيّر من نمط تفكير الفرد ونظراته إلى الكون، ويحدث تغييرات جذرية في أعماق الإنسان»^(٥). حيث يوقظ الشعور بالمسؤولية في الفرد، فيعصمه عن المعاصي وهو الضابط الذي يصون الأخلاق ويضمن تنفيذ الشريعة في الحياة.

فالصادق يحاول أن يبدّل هذا الإيمان إلى العقيدة الحية في أعماق النفوس، فيذكّر طلابه في مواقف متعددة بها، ويستخدمها لتربيتهم على الصعيدين النفسي والخلقي.

(١) سورة البقرة، جزء من الآية ١٧٧.

(٢) سيد سابق، العقائد الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٥٩.

(٣) عبد القادر محمود، الإمام الصادق رائد السنة والشريعة، مرجع سابق، ص ١٨٩.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٢٥٦، ح ٦١.

(٥) محمد تقي الفلسفي، المعاد بين الروح والجسد، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،

١٩٩٣، ص ٤٢.

وقد شكّا إليه رجل الوسواس، فقال له: «أذكر تقطّع أوصالك في قبرك ورجوع أحبابك عنك إذا دفنوك في حفرتك وأكل الدود لحملك، فإن ذلك يسلي عنك ما أنت فيه»^(١).

قال الرجل: فوالله ما ذكرته إلا سُلّي عني ما أنا فيه من همّ الدنيا. هكذا يعالج الإمام همّ الدنيا بذكر هموم الآخرة وما فيها. وبما أنّ الموت بداية الحياة الآخرة الذي لا بدّ منه، فالمؤمن يذكر الموت دائماً فيكثر من الخير ابتغاء ثوابه ويتعدّد عن الشر خوف عذابه.

وقد يشير الإمام إلى الآثار العقدية والنفسية والخلقية لذكر الموت بأنّه «يميت الشهوات في النفس ويقلع منابت الغفلة، ويقوي القلب بمواعيد الله ويرقّ الطبع ويكسر أعلام الهوى ويطوي نار الحرص ويحقر الدنيا»^(٢).

إن الاعتقاد باليوم الآخر يشمل الاعتقاد بمجموعة من الحقائق التي وردت في الكتاب والسنة كفتنة القبر وعذابه ونعمه والبعث والحشر والحساب والجنة والنار... والصادق يلفت الأنظار إلى بعض هذه المراحل، لتحقيق الإيمان التام البصير بالمرجع الذي تنتهي إليه حياة الإنسان؛ ومنها كلامه في توصيف لحظة خروج الروح من الجسد بأنّها «للمؤمن كأطيب ريح يشمه، فينعس لطيبه، وينقطع التعب والألم كله عنه، وللکافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب وأشد»^(٣).

فنرى في تعاليم الإمام كثيراً من هذه الحقائق وتفصيلها التي ذكرها مستنداً إلى ما جاء في الكتاب والسنة، مبتدئاً ببيان أمر ملك الموت وأعوانه، وسكرات الموت ومقدماته، وما يراه المؤمن والكافر عند الموت، وما يجري على الميت في القبر، وسؤاله وضغطه، والبرزخ، وما يلحق الرجل بعد موته من الأجر، وأحوال يوم القيامة ومواقفها، وكيفية الحشر والحساب، والصراط وأوصاف الجنة والنار^(٤). بهذا كله يقوي الإمام الوازع الديني والنفسي الذي يرغب في الخير ويصد عن الشر.

و- المعرفة والإيمان بالقدر:

إنّ الإيمان بالقدر خيره وشره جزء من الإيمان بالله ويتفرع عنه، والمقصود

- (١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٤٣٥، ح ٢٥٧٠.
- (٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٣٣، ح ٣٢.
- (٣) محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ١١، ص ٢٣.
- (٤) وقد ورد تفصيلها في موسوعة الإمام الصادق لمحمد كاظم القزويني، واختص مجلد كامل (١١) بهذا البحث.

بالقدر «هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة، والسنن التي ربط الله بها الأسباب بمسبباتها»^(١).

فلا يكون شيء في الكون كله إلا ما قدر الله. «ولا يخرج عن ذلك شيء لا أفعال الإنسان ولا غيرها، كما لا يخرج عن ذلك ما يصيب الإنسان وما يقع في الكون من الأحداث وبهذا كله يتحقق الإيمان المطلوب بالقضاء والقدر الذي أمر به القرآن وجاءت به السنة النبوية المطهرة»^(٢).

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بهذا الوعي والإيمان بقوله:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

فالإمام الصادق في تربيته العقدية اهتم بهذه الركيزة الإيمانية، فهو يسعى في تعاليمه إلى إثبات هذه العقيدة في نفوس أبناء المجتمع، وذلك بالتأكيد على شموليتها لكل الأحداث قائلاً: «ما من قبض ولا بسط إلا ولله فيه مشيئة وقضاء وابتلاء»^(٤).

بهذا الكلام يوضح الإمام الحضور الدائم المتصل لله في كل مساحة الكون ودائرة القضاء والقدر، لا يغيب عنه شيء وله قيمومة ورعاية دائمة، وهو الحي القيوم.

وهذا الإيمان يجعل صاحبه في حياته بين مرتبتي الصبر على المكاره والشكر على المحامد، إلا أن للإيمان بالقدر مراتب، أدناها الإقرار بالقضاء الإلهي، فهو شرط للإيمان، ولكن «هناك درجة التسليم والرضى بقدر الله وهي مرتبة الإحسان التي يصل إليها الإنسان حين يتعمق إيمانه ويرسخ، فيعرف أن لكل قدر حكمة وأن قدر الله كله خير للمؤمن المستقيم على الطريق»^(٥).

فلفت الإمام أنظار تلاميذه إلى هذه المرتبة الشريفة بقوله: «الرضا بمكروه القضاء أعلى درجات اليقين»^(٦).

فهو يرسم لهم طريق الوصول إليها من خلال التعرف على صفات الله العظيمة كعدله وحكمته، فيقول: «إن الله تبارك وتعالى لا يفعل لعباده إلا الأصلح لهم ولا يظلم الناس شيئاً»^(٧) وهكذا يكون المؤمن مستقر النفس وهو موقن تمام اليقين أن تدبير

(١) سيد سابق، العقائد الإسلامية، مرجع سابق، ص ٩٥.

(٢) عبد الكريم زيدان، الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في سلوك الإنسان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٣.

(٣) سورة التوبة، الآية ٥١.

(٤) الصدوق، التوحيد، ص ٢٥٤.

(٥) محمد قطب، ركائز الإيمان، مرجع سابق، ص ٤١٩.

(٦) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٥٢.

(٧) المصدر نفسه، ج ٦٥، ص ٣٤١، ح ١٢.

اللَّهُ له أفضل من تدبيره لنفسه ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أي شخص به .
وهذا ما ركّز عليه الإمام مرةً بالموعظة والإرشاد ومرةً بالقدوة، فقد روي عنه :
«حين توفي ابن له فخشي عليه الجزع، فخرج هادئاً سالماً فقال له قائل : وخشينا
عليك، فقال الإمام : «إنا ندعو الله فيما نحبّ فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما
يحبّ»^(١).

والأمر الذي يجب إمعان النظر فيه هو أنّ اهتمام الإمام بترسيخ الإيمان الصحيح
بالقضاء والقدر لا يتعارض مع رأيه في حرية الإنسان واختياره، ذلك لأنّ الله تعالى
مكّن الإنسان أن يمارس اختياره في وسط نظام محكم ومتقن من القضاء والقدر في
الحياة الاجتماعية وفي الكون. فلا يضرّ الاختيار بحتمية القضاء والقدر، ولا يمس
القضاء والقدر من حرية الإنسان في الاختيار على الإطلاق.

فالإمام جمع بين الرضاء بالقضاء والتسليم بالقدر، وتحمل الإنسان مسؤولية عمله
والحساب عليه محذراً تلاميذه من الوقوع في شبهة القعود عن تغيير الواقع والتواكل
وتصور الجبر فقال لتلميذه زرار بن أعين : «يا زرار أعطيك جملةً في القضاء والقدر
ثم قال : إنّه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم ولم يسألهم
عما قضى عليهم»^(٢).

هذا الكلام يلقي الضوء على أن الله تبارك وتعالى لا يؤاخذ الإنسان فيما يجري
من أمور خارجة عن حدود إرادته، فلا يحاسبه على ما نزل فيه بمحض القضاء إنما
يؤاخذ فيما يفعله من أعمال بإرادته، فالمسلم عندما يتم له التصور الصحيح لمفهوم
القضاء والقدر لا يخلط بينه وبين مواقع المسؤولية الإنسانية.

فما يجري بمحض القضاء والقدر فإنّه يستقبله بالتسليم والرضا، ويعلم أنّه عين
الحكمة، وأما ما يقع في دائرة المسؤولية الإنسانية فإنّه يباشر فيه الأسباب وفق ما أمر
الله، ويحاسب نفسه ويحاسب الآخرين.

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٣٥.

(٢) عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص ١٠١.

تحصين الأمة من التيارات المنحرفة والخاطئة

وقفنا على جهود الصادق لبناء الشخصية الإسلامية على العقيدة الصحيحة بأسلوب نافذ إلى العقول والقلوب معاً. فهو أكد على أهمية الإيمان بالأركان الستة والتبصر بها، على الوجه الذي دلّ عليه كتاب الله وسنة الرسول ﷺ واتجه بكل إمكاناته إلى تربية طلابه على الفهم العميق لمبادئ الدين الإسلامي. فلم تقتصر جهوده في بناء شخصية المسلم على تبين العقيدة الصحيحة فحسب، بل قام بصيانة الناس من التيارات المنحرفة وإيضاح الأخطاء الفكرية، «فكان [بحق] مرجع عصره في ردّ الشبهات»^(١).

ولطالما عمل الإمام على إزالة اللبس وإيضاح الصورة أمام الفرد المسلم ليتمكن من فهم العقيدة، ويتمكن بالتالي من تطبيق تعاليمها؛ لأنّ نقاء الحركة الإنسانية ونضوج فعلها يعتمد على مدى وضوح الرؤية العقديّة في فكر الفرد وعمق وعيه بذلك.

ومن هنا سعى المغرضون إلى تشويه المفهوم العقديّ وزعزعة الروح الإيمانية، من خلال تشكيكها، إمّا بأفكار ومفاهيم مختلفة أو محرّفة أو خاطئة.

ولم تلبث الحياة الإسلامية أن شهدت هذه الفتن بين جماعات المسلمين ولم تكن مدرسة الصادق غائبة عن هذه المعركة، ولم يكن لها أن تكون على الحياد، فيتوجه الإمام إلى الناس مريباً مرتقياً بهم من البلبلة الفكرية إلى صفاء العقيدة الإسلامية. فقام بتفنيد الأفكار الباطلة وإزالة الشبه وكشف القناع عن الحقائق وتوضيح الأمر للجاهل والمضلل حتى يشكل صمام الأمان لعقيدة الأمة.

فنرى جهوده لمواجهة هذه التيارات الفكرية في ثلاثة ميادين:

- أ - مواجهة الإلحاد والزندقة.
- ب - تحذير الأمة من الأفكار المنحرفة.
- ج - صيانة الناس من التصورات الخاطئة.

أ - مواجهة الإلحاد والزندقة:

كما ذكرنا سابقاً، من المظاهر التي سادت في عصر الإمام الصادق انتشار

(١) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ٧٩.

الزندقة^(١)، حيث ظهرت طوائف من المغرقيين بالكفر والإلحاد قاموا بإثارة الشبهات لإفساد المسلمين وتضليلهم فأخذوا يهاجمون العقيدة والأخلاق مهاجمة صريحة، ويقعدون للمسلمين كلّ مرصد، ويجدون لهديم تعاليم الدين الحنيف بكلّ الوسائل المتاحة.

وإزاء الحملات المسعورة التي كان يشنها هؤلاء الزنادقة على الإسلام والمسلمين، فإن الإمام الصادق لم يكن ليقف مكتوف الأيدي، فدخل في تلك المعارك الفكرية وجاء بخطة متينة للكشف عن زيف مناقشاتهم. ولقد ناظر رؤساءهم بمناظرات عديدة في مجال العقيدة بأسلوب هادئ، رصين، مدعوم بالحجج والبراهين التي لم تدع لهم مخرجاً، وسجّلت بعض مصادر الحديث والتاريخ نماذج من تلك المناظرات التي تبين للناس ما ينير طريقهم ويزيل الشك عنهم.

وها نحن نعرض أمثلةً منها فنروي ما حصل حين حضر عبد الكريم بن أبي العوجاء مجلس الإمام الصادق فابتدأه الإمام بالقول: «أمصنوع أنت أو غير مصنوع؟ فقال ابن أبي العوجاء: بل أنا غير مصنوع.

فقال الإمام: فصف لي لو كنت مصنوعاً كيف كنت تكون؟

فبقي عبد الكريم ملياً لا يحير جواباً، وولع بخشبة كانت بين يديه وهو يقول: طويل، عريض، عميق، قصير، متحرك، ساكن، كل ذلك صفة خلقه.

فقال له الإمام: فإن كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها، فاجعل نفسك مصنوعاً لما تجد في نفسك ممّا يحدث من هذه الأمور^(٢).

كان ابن أبي العوجاء واقفاً على أنّ الاعتراف بالمصنوعية يلزمه الإذعان بوجود الصانع تعالى فأنكر كونه مصنوعاً، ولكنّ الإمام ألزمه بالاعتراف بذلك بما سأله عنه، وهو أنه لو كان مصنوعاً، فما هي صفاته؟

فتوقف عن الجواب، إذ رأى أن له جميع آثار المصنوعية.

ولعل في الرواية التالية التي سنسوقها أبلغ دليل على مدى حجة الإمام الصادق في إفحام الدهريين والرد عليهم لإبعاد الناس عن شبهاتهم فقد بلغه أنّ الجعد بن درهم^(٣) جعل في قارورة تراباً وماءً، فاستحال دوداً وهواماً، فقال: أنا خلقت هذا؛ لأنني سبب تكوينه.

(١) شرحنا حول هذه الطائفة في الفصل السابق.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب التوحيد، ح ٢.

(٣) الجعد بن درهم... نحو ١١٨، من الموالي، مبتدع سكن الجزيرة الفراتية وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة، قيل: كان زنديقاً شهد عليه ميمون بن مهران، فطلبه هشام بن عبد =

فقال الإمام: «ليقل كم هو الذكران والإناث إن خلقه وليأمر الذي سعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره»^(١).

فإن هذه الحركة «شغلت حيزاً رئيساً في الفكر الديني... وكان لها أثرها العميق في المجتمع بما أصدرته من صراع فكري أثر في معتقدات الناس وبالتالي في قيمهم وحضارتهم»^(٢).

حتى كان لهم الظهور والاعتراض جهاراً على الإسلام في المسجد الحرام، وإذا لم يكن للصادق يومئذ القوة التي تمكنه من دفع الزنادقة عن دخول ذلك الحرم الشريف، فكان لديه قوة العلم التي دفع بها شبهاتهم كما روي أن أحد رؤسائهم قال للإمام:

«إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهزلون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أساسه ونظامه.

فأجابه أبو عبد الله: «إن من أضله الله وأعمى قلبه استوخم الحق ولم يستعذبه وصار الشيطان وليه وربّه يورده مناهل الهلكة ولا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه على تعظيمه وزيارته، وجعله قبلة للمصلين له فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال...»^(٣).

وهكذا نرى أنّ الزنادقة كانوا يستهزئون بشعائر المسلمين علناً لكي يشككوا في مبادئ الإسلام، ويؤثروا في أصحاب النفوس الضعيفة، الذين يهتزون وتلتوي أعناقهم أمام أول هبوب للريح، وقد يرجع السبب إلى هشاشة بنيانهم النفسي والديني، لذا فقد سعى الإمام دوماً إلى تقوية هذا البنيان وتدعيمه، وحماية أصحابه من الوقوع في الشبهات، فنراه أحياناً يجتمع مع هؤلاء الزنادقة ويسمح لهم بالكلام، ويستمع إلى أباطيلهم وترهاتهم، ثم يزيّف عقائدهم، ويفنّد أفكارهم ومزاعمهم.

فرغم أن الإمام يعلم أغراضهم الفاسدة ويشير في بداية كلامه إلى قلوبهم العمياء،

= الملك، فظفر به وسيره إلى خالد القسريّ في العراق فقتله. (الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ١٢٠).

(١) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٦، ط ٣، ج ٢، ص ١٠٥.

(٢) جرجس داود، الزندقة والزنادقة في الأدب العربي من الجاهلية وحتى القرن الثالث، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٧١.

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ح ٢٣٢٥.

وولاية الشيطان عليهم، إلا أنه يوضح مكانة الكعبة وحكمة مناسكها لدفع تأثيراتهم المخربة على الآخرين.

ويمكن القول بأن الإمام يرمي إلى تبصير الناس وتحصينهم عن طريق إبطال حجج الملحدين. لذلك نراه يحارب في هذا الميدان على أكثر من جبهة وأكثر من صعيد.

وعلى خط موازٍ عمل الصادق على تمكين تلاميذه من المشاركة في مثل هذه النقاشات والحوارات التي تساعد على إغناء ثقافتهم وتقوية حججهم ليتوصلوا إلى إقناع الطرف الآخر بوجهات نظرهم المستمدة من الإسلام وتعاليمه، إنما كان كل ذلك يتم تحت إشرافه شخصياً ومتابعته البناء، فعندما ذكر تلميذه مفضل بن عمرو أن قوماً يزعمون أن هذا العالم من فعل الطبيعة، علّمه الإمام قائلاً: «سلمهم عن الطبيعة، أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال، أم ليست كذلك؟

فإن أوجبوا لها العلم والقدرة، فما يمنهم من إثبات الخالق. فإن هذه صنعتها. وإن زعموا أنها تفعل هذا الأفعال بغير علم ولا عمد وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأن الذي سمّوه طبيعة هو سمة في خلقه الجارية على ما أجزاها عليه»^(١).

فيحاول الإمام أن يفتح بصائر تلاميذه وينمي عقولهم لإقناعهم بالعقيدة السليمة، حتى يكونوا قادرين على الدفاع عن دينهم دفاعاً قوياً ويشعروا بالاعتزاز بإيمانهم الثابت بالإسلام.

ب - تحذير الأمة من الأفكار المنحرفة :

لا يكفي تزويد الأمة بعقيدتها النقية بل لا بد من توفر الوعي بالأفكار المنحرفة والهدامة التي تدخل في الوسط الإسلامي، للتشويه والتحريف في المفاهيم الدينية. والإمام الصادق كمفكر مربٍ يرى حاجة المسلم إلى وقاية تربوية تحصّنه من الانحرافات العقدية التي يصادفها في حياته.

فهو يراقب عن كثب علاقة تلاميذه بمبادئ الإسلام سلباً أو إيجاباً، ويرصد المظاهر المنحرفة التي لا تمثل حقيقة الإسلام. فيتصدى لها من خلال العلم وتوعية أفراد الأمة بخطورتها ومن أهمها فكرة الغلو في عصره «التي تنشأ ضمن إطار التشيع وهي منحرفة عنه بل إن بعضها مروق عن الدين كله»^(٢) فنجمت عنها آثار خطيرة في عقيدة المسلمين.

(١) كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص ١٩.

(٢) محمد باقر الصدر، دور الأئمة في الحياة الإسلامية، تعليق محمد البعقوبي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٢٣٠.

فهم نسبوا بعض صفات الله إلى بعض البشر وبثوا الأحاديث الموضوعة وأسندوها إلى حملة العلم.

وكان للإمام دور فعال في التصدي لهم ودعم العقيدة الإسلامية وبما أن الناس متفاوتون في تأثرهم بالأفكار الفاسدة - حسب مستوياتهم - نرى أساليب مختلفة اتبعها الإمام لحماية الأمة من الانغماس في خبث عقائدهم، ومن الانخداع بما يظهره من حسن النوايا وما يخفونه من مكر ودهاء، لذا فقد كان الإمام تارة يعلن براءته منهم بكل وجوده فيقول:

«سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء برئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ودين آبائي، والله لا يجمعني وإياهم يوماً إلا وهو عليهم ساخط»^(١).

وعندما سمع أن أبناء هذه الطائفة يقدسون الإمام نفسه ويصفون عليه صفات إلهية عارضهم بشدة ولعنهم قائلاً:

«لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا»^(٢).

وطوراً يأمر بقطع أواصر العلاقة بينهم وبين أتباعه كي لا يكون مجال لترك أي أثر لأفكارهم الهدامة في عقول المسلمين ونفوسهم، فقال: «لا تقاعدوهم، ولا تواكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تصافحوهم»^(٣).

والغلوّ خطر يتدرّج بدخوله في العقيدة خطوة خطوة «فالتعظيم الزائد عن الحد آفة من آفات القلب البشري حين يتوجه بالحب إلى شخص معين، أو شيء معين، فينقلب التعظيم إلى تقديس، وينقلب الحب إلى عبادة»^(٤).

من ثم اهتم الإمام الصادق بالتربية الوقائية للشباب في هذا الصدد فنبّه الآباء إلى مسؤولياتهم الخطيرة ومهماتهم في تحصين الأجيال بأخذ الاحتياطات والتدابير اللازمة حتى لا يقعوا في فخ هذه الأفكار الباطلة، فقال:

«احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم، الغلاة شر خلق الله يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباده»^(٥).

وهذا كلّ نموذج من خطاب عقديّ، إصلاحي، يتوخّى الإمام به صيانة المسلمين من الإفراط في تعظيم وتقديس الصالحين.

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب كراهية القول في الأئمة بالنبوة، ح ٦.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ج ٢٥، ص ٢٩٧.

(٣) حسين الشاكري، نشوء المذاهب والفرق، ص ١٤٤.

(٤) محمد قطب، لا إله إلا الله عقيدة وشرعية ومنهاج حياة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٥٦.

(٥) الطوسي، الأمالي، ص ٦٥٠.

وحقاً لم نر هجوماً قط من الإمام جعفر على طائفة أو مذهب، كهجومه على فكرة الغلاة، وإذا لم يأخذ الملحدين بالشدة فتحاً لأبواب الهداية لهم، فهو صارم في صدد المغالين في الإمام علي (كرم الله وجهه) أو في نفسه، وأسلوبه في مواجهتهم، من أهم الجهود التربوية التي بذلها للحفاظ على الأمة بعامة والناشئة منها خاصة ووقايتهم من الانحراف.

ج - صيانة الناس عن التصورات الخاطئة:

كان العالم الإسلامي في عصر الصادق شاهداً لظهور التصورات الخاطئة التي تمس العقيدة الإسلامية، ومنها فكرة إخراج العمل عن دائرة الإيمان، بأن الإيمان اعتقاد بالقلب ولا تضرّ معه معصية^(١).

فهذه الفكرة ذهبت إلى تعطيل الفرائض وتجاوز كل القيم في المجتمع، لذلك قام الإمام برفض هذه الادعاءات، ومن احتجاجاته على هذه الطائفة ما ذكره لأحد تلاميذه عندما سأل عن قولهم في الكفر والإيمان فقال: إنهم يحتجون علينا ويقولون: كما أن الكافر عندنا هو الكافر عند الله، فكذلك نجد المؤمن إذا أقرّ بإيمانه أنه عند الله مؤمن، فأجاب الإمام:

«سبحان الله، وكيف يستوي هذان والكفر إقراراً من العبد، فلا يكلف بعد إقراره ببينة فإذا اتفقنا فالعبد عند الله مؤمن والكفر موجود بكل جهة من هذه الجهات الثلاث من نية أو قول أو عمل، والأحكام تجري على القول والعمل في أكثر من يشهد له المؤمنون بالإيمان ويجري عليه أحكام المؤمنين وهو عند الله كافر، وقد أصاب من أجرى عليه أحكام المؤمنين بظاهر قوله وعمله»^(٢).

في هذا التوجيه التربوي أبرز الإمام جعفر عدة أمور منها:

- أن الكفر إقرار من العبد وبعد إقراره لا يحتاج إلى بينة.

- أن الإيمان هو دعوى من العبد كسائر الدعاوي، فيحتاج في قبولها وإثباتها إلى بينة، وبينة الإيمان هي النية والعمل والقول فتكون دعوى الإيمان هذه مقبولة من العبد بالقصد والنية وعمل الجوارح وتجري عليه أحكام الإسلام بظاهر القول والعمل.

- قد يكون العبد كافراً عند الله ولا صحة لدعواه الإيمان بسبب نفاقه، على الرغم من جواز إجراء أحكام المؤمنين عليه لظاهر قوله وعمله.

فراح الإمام يعرّي زيف هذه التفسيرات الباطلة للناس والتي استندت على فهم مقلوب من الدين.

(١) شرحنا حول هذه الفكرة التي سميت بالمرجئة في الفصل السابق.

(٢) محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ١٢، ص ١١١.

وكذلك برزت التصورات الخاطئة التي تدور حول مسؤولية الإنسان عن أفعاله الإرادية وقد تمثلت باتجاهين^(١):

فالشائفة الأولى اتجهت إلى نفي إرادة الإنسان وحرية في سلوكه وأنكرت أن يكون للفرد دور في أفعاله أو أن يكون له قدرة تؤثر في مقدورها، بل الفاعل على الحقيقة لأفعال العباد والمريد لها هو الله الذي لا مشيئة إلا مشيئته وقدرته.

أما الطائفة الأخرى فهم أصحاب الإرادة الحرة الذين رأوا أن الإنسان موجود لأفعاله على الحقيقة وهو مستقل في هذا الإيجاد والله تعالى فوّض إليه اختيار ما يعمل.

أدرك الإمام خطورة الاتجاهين على العقلية الإسلامية وعلى فهمها للقرآن والسنة، وأنهما يسيئان إلى الخالق عزّ وجلّ. ذلك أن تصوّر الجبر في حياة الإنسان يمسّ عدل الله تعالى ويسمح بعقوبة الإنسان من جانب الله على ما لا قدرة له عليه، كما أن تصور التفويض واستقلال الفرد يمسّ توحيد الله ويقطع علاقة الإنسان بالله في حياته اليومية وعمله وتحركه. كما ذكر الإمام: «القدرية أرادوا أن يصفوا الله عزّ وجلّ بعدله فأخرجوه من قدرته وسلطانه»^(٢)!

فالإمام عرض نقاط الضعف والخلل في تلك النظريات المستوردة، وقام من موقع الدفاع عن التوحيد والعدل وتصحيح تصورات الناس، فقال:

«رجل يزعم أن الله عزّ وجلّ أجبر الناس على المعاصي، فهذا قد ظلم الله في حكمه فهو كافر. ورجل يزعم أن الأمر مفوض إليهم، فهذا قد وهن الله في سلطانه فهو كافر. ورجل يقول: إن الله عزّ وجلّ كلف العباد ما يطيقون، ولم يكلفهم ما لا يطيقون وإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله، فهذا مسلم بالغ والله الموفق»^(٣).

يقف الإمام من هذه القضية موقفاً حاسماً واضحاً لتعلقها بأمر العقيدة تعلقاً جوهرياً ولتأثيرها على صحة إيمان العبد أو عدمه وذلك حتى لا يبقى لأحد حجة أو شبهة بعد هذا البيان.

(١) وقد برزت النظرية الجديدة بعد عصر الصادق مع تفسير الشيخ أبي الحسن الأشعري (المتوفى ٣٣٠هـ) في هذا الصدد وهم القائلون بالكسب الذين يرون أن الله يخلق الفعل ويقدره، بينما يكتسب العبد هذا الفعل المخلوق له بقدرته الحادثة والضابط لعملية الخلق والكسب هو إرادة العبد أو اختياره.

(٢) الصدوق، التوحيد، ص ٣٨٢.

(٣) الحراني، تحف العقول، ص ٣٧١.

وفي هذه المسيرة يهتم الإمام بتنزيه الله تعالى عن نسبة العمل القبيح إليه ويؤكد على حرية الاختيار للإنسان بين الطريقتين المتمثلين بالخير والشر في هذه الحياة.

وعندما سأل رجل عنه فقال: العمل الصالح من العبد هو فعله، والعمل الشر من العبد هو فعله؟ أجاب الإمام: «العمل الصالح من العبد بفعله، والله به أمره، والعمل الشر من العبد بفعله، والله عنه نهاه. ثم سأل: أليس فعله بالآلة التي ركبها فيها؟ قال: نعم. ولكن بالآلة التي عمل بها الخير، قدر على الشر الذي نهاه عنه...»^(١).

إن الإنسان الذي يعمل الخير هو في الوقت نفسه قادر على عمل الشر، وهذا أمر واضح، وبهذا الاعتبار استحق الثواب، كما أنه لو فعل المحرم استحق عليه العقاب.

فرغم الاهتمام الكبير من الصادق في رفض هذه التصورات الخاطئة، إلا أنه ومن أجل وقاية الأمة من الوقوع في الشبهات العقدية والفكرية، فقد نهى عن الخوض في هذه المسائل لغموضها ومحدودية إدراك الإنسان لها.

فقال ما نصّه: «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً، وأراد منا شيئاً، فما أراد بنا طواه عنا، وما أراد منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراد بنا عما أراد منا»^(٢).

فالإمام يوجّه الأنظار بأننا لسنا مسؤولين عما يجري الله بنا؛ لأنّه فوق استطاعتنا ولكننا مكلفين في جانب الطاعة والمعصية لله والذي عرض لنا في أوامره ونواهيه الواضحة، والخوض في غيره ممّا خفي عنا، فإنّه من متاهات العقول.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٩.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٠.

المبحث الثاني

البناء العبادي

- مفهوم العبادة وأهميتها في مدرسة الصادق
- الالتزام بالنظرية والتطبيق في فكر الإمام
- تعليم فقه العبادات في مدرسة الصادق
- تربية الروح بمظاهر العبادة عنده
- التركيز على الاعتدال في العبادة في مدرسته

المبحث الثاني

البناء العبادي

لا ينفصل البناء العقدي في التربية الإسلامية عن البناء العبادي؛ لأن «الدين الإسلامي دين عملي واقعي لا يكتفي بإعطاء الإنسان القواعد النظرية الكلية في الحياة فحسب، بل إنه يربي الإنسان تربية عملية. فما الفرائض - أي الصلاة والصوم والحج والزكاة - إلا وسائل عملية لتربية الإنسان تربية إنسانية كاملة»^(١).

ولذلك بُني الإسلام عليها، كما قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»^(٢).

فالإنسان حين يتصل بخالقه وتقوى عبوديته لله من خلال تأديته الفرائض والنوافل والشعائر، فإن الروح تسمو وتزكى ويظهر صفاءها الفطري ويتحقق لها غذاؤها الكامل، ولحاجة الإنسان المستمرة إلى الطاقة الروحية تنوعت العبادات المأمور بها من الله، فالصلاة عبادة مستمرة طوال الحياة، شعيرة تغذي روح مؤدّيها، والصوم والزكاة والحج والذكر كلها عبادات فالشعائر يحتاجها الإنسان لتكسبه التوازن الروحي والاستعلاء على الشهوات، وتمده بالطاقة الروحية التي تجعله فاعلاً في أداء رسالته في الحياة باقتدار.

ومن ثم كانت العبادة ركناً أساسياً في بناء الشخصية المتكاملة التي يريد الله عز وجل، وبنائها في التربية يعدّ مكملاً لبناء العقيدة، و«لا بد لكي يظل غرس العقيدة قوياً في النفس، من أن يسقى بماء العبادة، بمختلف صورها وأشكالها، فبذلك تنمو العقيدة في الفؤاد وتترعرع وتثبت أمام عواصف الحياة وزعازعها»^(٣).

والإمام الصادق في منهجه التربوي لم يكتف ببناء العقيدة الإسلامية في المتعلمين فحسب، بل اهتم بالحث على العبادة إلى جانبها؛ وفيما يلي نستعرض بعض جهوده في هذا الصدد.

(١) محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ح ٢١.

(٣) محمد سعيد رمضان البوطي، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث، مكتبة الفارابي، دمشق،

١٤١٠، ص ٤٠.

– مفهوم العبادة وأهميتها في مدرسة الصادق :

العبادة في اللغة: هي «التذلل، والخضوع، والانقياد، والطاعة، والتعبد: التمسك»^(١).

وفي الاصطلاح: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»^(٢)، فهي طاعة الله تعالى وخضوع له، والتزام بكل ما شرع ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلانيةً، في الحركات والسكنات، في الليل والنهار.

فالعبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذلّ والخضوع، وقد أضاف البعض إليهما عنصراً ثالثاً بأن العبادة في الشرع «عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»^(٣).

فمن عرف ربه وامتلأ قلبه بمحبته والشوق إليه وخشيته، فإنه يلتزم بما شرعه الله، أمراً ونهيّاً.

إذن العبادة ليست قاصرة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة.. ومداول العبادة لا بدّ أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر. «فالإسلام يوسع معنى العبادة حتى تشمل الحياة كلها.. فأى عمل يتوجه الإنسان به إلى الله فهو عبادة.. وكلّ عمل يتركه تقرباً لله واحتساباً، فهو عبادة..»^(٤).

وعليه فالإمام جعفر يعتبر أنّ حقيقة العبادة هي التذكير الدائم بالله بقوله: «أفضل الوصايا وألزمها أن لا تنسى ربك وأن تذكره دائماً ولا تعصيه، وتعبدته قاعداً وقائماً»^(٥).

وبما أنّ التذكير بالله يعمر القلب بعظمته، ويوجه قوى النفس إلى البر والخير ومنعها من الإثم والشر، فالإمام يذكر أنّ طاعة الله علامة الذكر ومعصيته علامة الغفلة، فمن أطاع الله وأدى ما طلبه منه فهو لا بدّ ذاكرٌ لخالقه، ومن يتخلف عن تأدية أوامر الله وارتكب المعاصي والذنوب فلا بدّ أن يكون غافلاً وجاحداً لنعم الله.

وقد أثر عن الصادق: «من أشد ما فرض على خلقه ذكر الله كثيراً، ولا أعني سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان منه، ولكن ذكر الله عند ما أحلّ وحرّم، فإن كان طاعة عمل بها، وإن كان معصية تركها»^(٦).

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة عبد، ص ٢٧٥، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص ٣٢٢.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٨، ج ١٠، ص ٢٤٩.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢، ج ١، ص ٢٢.

(٤) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٥) الطباطبائي، تفسير الميزان، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٣٢٨.

(٦) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب اجتناب المحارم، ح ٤.

فالعبادة هي خضوع لله على وجه التعظيم، فمن أطاع الله وتوجه إليه بالعبادة وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمر الله، فهو الذي يعمل على تربية روحه وتطهيرها مما يعلق بها أحياناً من أدران.

وبهذا المعنى الشامل تصبح العبادة هي الصلة الدائمة بين المسلم وربّه. ومن مظاهرها أداء الفرائض والشعائر التعبدية التي تعتبر وسيلة لتربية الإنسان وتوجيهه نحو الأهداف القرآنية.

والإمام الصادق كعالم تربوي اعتمد على هذه الوسيلة في مدرسته بتعليم الفرائض والنوافل وآدابها، وقد حث تلاميذه على تلاوة الأدعية والأذكار وشدد عليها عبر تبين أسرارها النفسية والخلقية والاجتماعية فقال:

«الصلاة قربان كل تقى، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، واستنزلوا الرزق بالصدقة، وحصّنوا أموالكم بالزكاة»^(١).

كما أنّ الإمام ذاته كان معروفاً بكثرة عبادته وشدة تعلقه بالله سبحانه، وهذا البعد الروحي والعبادي لشخصية الإمام، لم يكن لتربية نفسه فحسب، بل يقصد به تركيز المعنى للاتصال الدائم بالله في ذهنية الأمة، من خلال ترغيب الفرد في الإلمام بهذا الجانب والانخراط فيه.

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٢.

الالتزام بالنظرية والتطبيق في فكر الإمام

إنَّ التربية في مدرسة الإمام الصادق فكر وعمل، ويشترط أن يكون العمل فيها قريباً للعقيدة، ذلك لأنها منبثقة من القرآن الكريم الذي يعبر عن العقيدة بالإيمان، وعن الشريعة بالعمل الصالح ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾^(١).

إن الإيمان والعمل يشكّلان وحدة مترابطة في التربية القرآنية، «فإن العملية التربوية لا يمكن لها أن تقوم إلا في ظل الالتحام بين الفكر والعمل، أو بين النظرية والتطبيق»^(٢) وهذا غاية ما يدعو إليه الإمام الصادق.

فاهتمامه بتربية المتعلمين على الشعائر والعبادات تنبع عن هذا المبدأ العام في تربيته كما قال: «الإيمان لا يكون إلا بعمل والعمل منه ولا يثبت الإيمان إلا بعمل»^(٣).

فقد عبّر أبو عبد الله عن العمل كوسيلة لتثبيت العقيدة التي لا بدّ أن يؤدي إلى الممارسة العملية أو التطبيق.

والنفاق أصلاً يرتكز على جذور الفصل بين القول والفعل، وبين الاعتقاد والسلوك. ومن ثم ينبغي ترجمة الإيمان في واقع الحال، إلى أفعال تلمسها الحواس، وهي «المقياس الذي تقاس به تربية الإنسان، يقاس به إيمانه، تقاس به أخلاقه، يقاس به علمه»^(٤).

من هنا اعتبر الإمام العمل مقياساً للقرب من الله والبعد عنه بقوله: «إنما تفاضل القوم بالأعمال»^(٥).

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.

(٢) سعيد اسماعيل علي، مكانة العمل في الفكر التربوي، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٢٠.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١٦٨، ح ٢٠٢٢٠.

(٤) محمد فاضل الجمالي، تربية الإنسان الجديد، الدار التونسية، تونس، ١٩٦٧، ص ١٢٣.

(٥) الطبرسي، مجمع البيان، مرجع سابق، ج ٩، ص ٣٥١.

وكم من أشخاص وفئات كانوا أولي أفكار وأنظار يحملونها في أدمغتهم غير أنهم لم يسعوا لإخراجها إلى عالم الوجود، فلم يترتب عليها أثر، ولم ينتفع بها أحد فبقوا بعيدين عن الفضل.

وعندما سئل الصادق: من أكرم الخلق على الله؟ قال: «أكثرهم ذكراً لله، وأعملهم بطاعة الله»^(١).

ومن المعلوم أن كل عمل وعبادة إنما يعدّ ثمراً ومنتجاً إذا كان دائماً غير منقطع، لذلك جعل الشارع كثيراً من الفرائض مستمرة، لأن العمل الذي يؤتى به حيناً آخر لا يثمر للعامل ولا يزيده إلا ضعفاً.

فالبدء بالعمل سهل ميسور والاستمرار فيه قد يكون صعباً في كثير من الأوقات، والنتيجة الكاملة إنما تتوقف على الاستمرار كما ورد في الحديث الشريف: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ»^(٢).

فأوصى أبو عبد الله طابعه قائلاً:

«إياك أن تفرض على نفسك فريضة فتفارقها اثني عشر هلالاً»^(٣).

يشدّد الإمام بهذا القول على مداومة الأعمال العبادية حتى تصبح عادة متأصلة في نفس الإنسان، ولكي تتمكن روح العبودية والخضوع لله من السيطرة على حياته.

(١) الحرائي، تحف العقول، ص ٣٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين، ح ٧٨٣.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب استواء العمل، ح ٦.

تعليم فقه العبادات في مدرسة الصادق

ذكرنا سابقاً أنَّ الإمام جعفر الصادق كان من أبرز فقهاء عصره وهو مؤسس لمدرسة فكرية تربوية، ومن فروعها مدرسة فقهية متكاملة في تاريخ الأمة الإسلامية، والتي عرفت باسم المذهب الجعفري.

فبينتهي فقه الإمامية إليه لما انتشر عنه من العلم وحفظ عبره من الحديث، حتى إنَّ «أكثر ما ورد في كتبهم الحديثية مروي عنه»^(١).

وقد ضبط أصول الاستنباط، كما تكلم في أصول الفقه بعد أبيه الباقر وأملاها على تلاميذه، فرواة فقهه كانوا ملازمين له يتدارسون الأحاديث والقرآن وما يستنبط منهما وما يتفرع من الأحكام عليها، والأصول الأربعمئة^(٢) التي دونها تلاميذه تتضمن أصول المذهب الجعفري وفقهه «الذي يعتمد على المصادر القطعية من القرآن والأخبار»^(٣).

هذا كله له دلالة واضحة على أنَّ من أهم جهود الإمام التربوية في مدرسته كان تعليم الفقه وأحكام التشريع ومنها فقه العبادات والفرائض، وعندما نتأمل النصوص الواردة عنه نرى كثيراً من المسائل التي طرحها الإمام في المجتمع آنذاك، والتي تختص بتعليم الشعائر العبادية وكيفية أدائها من الصلاة والصيام والحج وغير ذلك كما اهتمت مدرسته بالتربية والإعداد العلمي والعملية في هذا الصدد، ولعلَّه من المفيد أن نذكر بعضاً من تلك المسائل التي تدل على اهتمام الإمام بهذا الأمر.

(١) محمد حسين المظفر، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ١، ص ١٩٠.

(٢) وهي الأحاديث المروية عن الإمام الصادق والتي دونها عنه أربعمئة تلميذ في أربعمئة مؤلف، ومنها ظهرت الكتب الأربعة التي تعتبر كتب الحديث الرئيسة عند الإمامية، وهي: «الكافي» للمحدث أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي (ت ٣٢٨ هـ) و«من لا يحضره الفقيه» للمحدث أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت ٣٨١ هـ) و«كتابي الاستبصار» و«التهذيب» لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٣٨٥ هـ).

(٣) سعد رستم، الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات، الأوائل للنشر، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٢٦١.

سئل الصادق عن رجل نسي أن يركع في الصلاة؟ قال: «عليه الإعادة»، ثم يقول: «لا تعاد الصلاة إلا من خمسة: الطهور، الوقت، القبلة، الركوع والسجود»^(١).

وفي مجال آخر: سئل الإمام عن رجل أكل وشرب بعدما طلع الفجر في شهر رمضان؟ قال: «إن كان قد قام، فنظر، فلم ير الفجر، فأكل، ثم عاد فرأى الفجر فليتم صومه، ولا إعادة عليه، وإن قام فأكل وشرب ثم نظر إلى الفجر فرأى أنه قد طلع، فليتم صومه ويقضي يوماً آخر؛ لأنه بدأ بالأكل قبل النظر، فعليه القضاء»^(٢).

ومنها كلامه في كيفية الإحرام في الحج بأن: «الإحرام من المواقيت التي وقتها رسول الله ﷺ لا ينبغي لحاج ولا معتمر أن يحرم قبلها ولا بعدها».

وعندما سئل عن رجل مرّ على الميقات فنسي أو جهل، ولم يحرم حتى أتى مكة، فخاف إن رجع إلى المواقيت أن يفوقه الحج؟ قال: «يخرج من الحرم ويحرم ويجزئه ذلك»^(٣).

وقد ورد في الكتب الفقهية كثير من مثل هذه الأسئلة وإجابة الإمام عنها، «حتى يتعدّر «إحصاء مسائل جعفر في الفقه لأنه مذهب بكامله»^(٤)، فهو كان مرجع الناس في هذه المشكلات الفقهية ممّا يعرفنا مدى اهتمام الإمام بتعليم الناس أداء العبادات والفرائض على أساس ما ورد في القرآن والسنة النبوية؛ لأنه يرى أن الحج والصلاة والصيام وغير ذلك... قادرة على رفع الإنسان إلى مراتب عالية من الصفاء والسموّ والاتصال بالله، طالما التزم بالطريق التي أمر الله بها.

(١) محمد جواد مغنية، فقه الإمام جعفر الصادق، ج ١، نشر قدس قم، د.ت، ص ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٤) عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص ٦٨.

تربية الروح بمظاهر العبادة

إنَّ الجانب العملي لتربية الروح يتمثل في ممارسات وأعمال وخبرات وتجارب تمرَّ بها الروح عملياً، لتتزكى وتزداد صفاءً، فتقترب من الله تعالى، فلذلك «تعتبر العبادات تربية عملية للروح يتم من خلالها تطبيق وتنفيذ الجانب النظري من تربيته»^(١).

فقد طرح الإسلام منظومة تشريعية تطال باهتمامها كل تصرفات وممارسات الإنسان كما طرح منظومة عقديّة مستوعبة وواسعة.

وفي التزام الإنسان بأحكام الشريعة يتجلّى تحقيق معنى العبودية التي جعلها الله تعالى شأنه غاية لخلق الإنسان. ومن هنا جاءت الشريعة، ووزعت العبادات على مختلف حقول الحياة وحثت على الممارسة العبادية.

ذلك أن «السالك إلى الله وإن كانت جميع أعماله عبادة وبأهداف إلهية، ولكنّه بحاجة ماسّة يومياً إلى أن يفرّغ شيئاً من وقته للمناجاة مع الله والتكلم معه، والتوجه الحضوري إليه، وليس كالتوجه العام الثابت في كل الأعمال»^(٢).

فالتربية بممارسة الأعمال أو أداء الفرائض تعود المرء على النظام في الحياة وعلى ضبط النفس وعلى الحياة الاجتماعية التعاونية وعلى التضحية في سبيل الجموع كلها، وهي تتطلب مراعاة وممارسة يومية تلازم حياة الإنسان.

وفيما يلي نستعرض بعض اهتمامات الصادق في هذا المجال وما أشار إليها من الأغراض التربوية التي تكمن في العبادات باعتبارها وسائل فعالة في بناء شخصية المسلم.

أ - تقوية الصلة بالله عن طريق الصلاة:

إن الصلاة تأتي في مقدمة العبادات التي تصقل الروح وتربّيها على محبة الاتصال بالله والوقوف بين يديه. وهي أعظم العبادات أجراً وأهم ما أكده الأنبياء في رسالاتهم،

(١) عبد الله الزهراني، الوسطية في التربية الإسلامية، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ٢٠٠٣، ص ١١٥.

(٢) كاظم الحسيني الحائري، تركية النفس، دار الحوراء، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٨٩.

فجاء توجيه الصادق إلى هذا الأمر بقوله: «أحب الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة، وهي آخر وصايا الأنبياء»^(١).

وأداء الصلاة أرقى مراتب العبادة، وأجلى مظاهر الشكر وأصدق تعبير عن مشاعر الوفاء والإخلاص، وأخص مراسم إعلان العبودية والارتباط بالله، فالدروس الروحية والأخلاقية والاجتماعية التي يحصل عليها الإنسان من الصلاة هي وسائل تربوية فعالة في الحياة. على هذا يقول الصادق:

«ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة. ألا ترى أن العبد الصالح عيسى بن مريم قال: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾»^(٢). «فالصلاة في الإسلام بما تحتويه من مراقبة لله وقيام وسجود له، وما تشتمل عليه من معاني القربى له، تربط المصلي بخالقه وتشعره بعلو مكانته في نظر نفسه حتى يرى من آثار الكرامة ما يستقذر معه الإتيان بالقبائح»^(٣).

والله سبحانه يصف الصلاة بقوله جل شأنه:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٤)

فإذا أدت هذه الفريضة بإخلاص تمنع صاحبها أن يمارس أي قول أو عمل قبيح فاحش، وقد نبّه الصادق أحد تلاميذه على هذا الأمر العظيم بقوله: «اعلم أنّ الصلاة حُجزة الله في الأرض، فمن أحب أن يعلم ما أدرك من نفع صلاته فليُنظر، فإن كانت حجزته عن الفواحش والمنكر، فإنما أدرك من نفعها بقدر ما احتجز»^(٥).

وكذلك أولى الإمام جعفر في تربيته العبادية بأداء الصلاة في أول وقتها؛ لأنّ ممارستها في أوقات معينة مرتبة ببناء الإرادة وتعود النفس على أداء عمل معين في وقت معين وقد ورد عنه: «فضل الوقت الأول على الآخر كفضل الآخرة على الدنيا»^(٦).

ولا بد في الصلاة من حضور القلب وهو «مصطلح في تربية الروح يعني طرد الخواطر التي تشغل الإنسان عن عبادة ربّه»^(٧) لأن الصلاة لا تؤدّي أغراضها إذا كان

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢١٠، ح ٦٣٨.

(٢) سورة مريم، جزء من الآية ٣١.

(٣) الحويزي، تفسير نور الثقلين، ج ٣، مؤسسة اسماعيليان، قم، ١٤١٢، ص ٣٣٥.

(٤) عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الصلاة في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥، ص ٣٢.

(٥) سورة العنكبوت، جزء من الآية ٤٥.

(٦) الصدوق، معاني الأخبار، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٣٦١، ج ١ ص ٢٣٧.

(٧) الكليني، فروع الكافي، ج ٣، باب مواقيت الصلاة، ح ٦.

(٨) عبد الحليم محمود، التربية الروحية، دار التوزيع والنشر، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٢٧.

المصلي حاضراً بجسده وهيكله في موضع الصلاة، وغائباً بروحه ووعيه عمن يناجيه ويعبده فلهذا قال أبو عبد الله: «إني لأحب للرجل منكم المؤمن إذا قام في صلاة فريضة أن يُقبل بقلبه إلى الله ولا يشغل قلبه بأمر الدنيا، فليس من مؤمن يُقبل بقلبه في صلاته إلى الله إلا أقبل الله إليه بوجهه»^(١).

فينصح الصادق تلاميذه نصائح غاية في الأهمية في تحصيل إقبال القلب في الصلاة فيقول: «إذا صليت صلاة فريضة فصلها لوقتها صلاة مودع يخاف أن لا يعود إليها أبداً، ثم اصرف ببصرك إلى موضع سجودك فلا تعلم من يمينك وشمالك لأحسنت صلاتك واعلم أنك بين يدي من يراك ولا تراه»^(٢).

أما صلاة الجماعة فإنها من أوثق الأسباب لترابط المسلمين وتآلفهم واجتماعهم على صعيد المحبة والألفة، من هنا فقد أولاهها الصادق المزيد من اهتمامه بها متأسيًا برسول الله ﷺ لتكسب المسلمين وحدة وقوة ومنعة، ويتميز بها الصالح من الطالح والمطيع من العاصي.

قال الإمام: «إنما جعل الجماعة والاجتماع إلى الصلاة، لكي يعرف من يصلي ممن لا يصلي، ومن يحفظ مواقيت الصلاة ممن يضيع. ولولا ذلك لم يتمكن أحد أن يشهد على أحد بصلاح لأن من لم يصل في جماعة فلا صلاة له بين المسلمين؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يصل في المسجد مع المسلمين إلا من علة»^(٣).

فالصلاة بصورة جماعية تكون مظهراً من مظاهر التعبد الجماعي، ذلك أن المسلمين يتوجهون بقلب واحد وشعور واحد نحو قبلة واحدة ورب واحد ليستشعروا جميعاً وحدة التوجه البشري إلى الله إضافة إلى أن الخطب والتوجيهات في الجماعة تنمي ثقافة الجماعة الدينية، ولمثل هذه الأسباب ورد عن الإمام الصادق: «إن على الإمام أن يخرج المحبوسين في السجن يوم الجمعة إلى الجمعة ويوم العيد إلى العيد، ويرسل معهم من يحفظهم، فإذا قضوا الصلاة والعيد ردهم إلى السجن»^(٤).

على صعيد آخر حضّ الصادق تلاميذه على التوافل عامةً وصلاة الليل خاصةً، فقال: «لا تدع قيام الليل، فإن المغبون من حرم قيام الليل»^(٥).

هكذا يعتبر الصادق الصلاة مدرسة إصلاحية للتربية ويريد بكل توجيهاته أن يجعل

(١) المفيد، الأمالي، جماعة المدرسين، قم، د.ت. ص ١٥٠، ح ٧.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٨١، ص ٢٣٣.

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣٩، ح ٣٢٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣١، ح ٣٢٦٥.

(٥) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٢، ص ١٢٢، ح ٤٦٢.

طلابه في هذه المدرسة التي تقوّي إرادة الإنسان، وتعوّده ضبط النفس والمحافظة على المواعيد، ولا يقف أثرها ودورها الإصلاحي في حدود الدائرة الفردية بل يتعداها إلى مجالات المجتمع المختلفة، فتصنع من المصلي إنساناً صالحاً يعيش في ساحة الحياة فيملاًها بأنشطة الخير والإحسان.

ب - تطهير النفس والمال بالزكاة:

الزكاة أحد أركان الإسلام وفريضة من فرائضه التي جعلها الله سبحانه وتعالى في كثير من الآيات مقرونة بالصلاة قال سبحانه:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(١).

«وإذا كانت الصلاة عماد الدين، فالزكاة قنطريته وحصنه المتين وعصب المادة في بنية الأمة»^(٢).

فقال الصادق في مكانتها: «ما فرض الله على هذه الأمة شيئاً أشدّ عليهم من الزكاة وما تهلك عامتهم إلّا فيها»^(٣).

هذا لأنّ «الإنسان محبّ للمال عادة وحريص على جمعه، ويصعب عليه إنفاقه، وبخاصة إذا كان في سبيل الله ولا يلمس عوضاً مادياً آخر يقابله»^(٤).

وللزكاة خاصة والصدقات والإنفاق عامة آثار كبيرة من الناحية النفسية والاجتماعية. أما النفسية، فهي تطهير لنفس الإنسان من الشحّ والأدران وسمو بها في مدارج الكمال الإنساني قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾^(٥).

ومن الناحية الاجتماعية فهي الرباط الإسلامي بين الأغنياء والفقراء والتي يتحقق بها الإخاء ابتغاء مرضاة الله.

فيرى الصادق أنّ الزكاة هي تربية عملية من جانب الله تعالى تستأصل مرض الأنانية من نفس الغني، والحسد والطمع من نفس الفقير. فقال: «إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء»^(٦).

كما أنها أهم وسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي وعلاج ناجح لفساد المجتمع من الناحية الاقتصادية يُقرّب المسافة بين الغني والفقير، ويطهر المجتمع من الحقد

(١) سورة البقرة، الآية ٤٣.

(٢) كامل موسى، أحكام العبادات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٤، ص ٢٨٠.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٣، باب فرض الزكاة، ح ٣.

(٤) وهبة الزحيلي، أخلاق المسلم علاقته بالخالق، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٣، ص ٣٦٢.

(٥) سورة التوبة، جزء من الآية ١٠٣.

(٦) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٩، ص ١٢، ح ١١٣٩٢.

والكراهية، ويجعله متآلفاً متعاوناً يشعر أفراداه بالطمأنينة والاستقرار.
وقد وضح الصادق غاية تشريع هذه العبادة المالية ودورها في تنشيط الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وإقرار العدل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي بقوله: «ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولا استغنى بما فرض الله عز وجل له وإن الناس ما افتقرُوا، ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا الا بذنوب الأغنياء»^(١).

وهكذا يربّي الصادق تلاميذه على الاهتمام بدفع الزكاة، وينبّههم على أنها تكشف عن صدق الإيمان والإخلاص لله في الاستجابة لأمره، وتنمي روح الفضيلة وتحفظ أمن المجتمع واستقراره.

ج - كمال الانقياد والعبودية بالحج :

إنّ الحج مدرسة لتربية الروح من أول عمل يقوم به الحاج حتى آخره، تجتمع فيه العبادات كلّها من صلاة وصدقة وذكر وصبر على طاعة الله وغير ذلك.
فإن الله تبارك وتعالى فرض على الناس في الحج أعمالاً لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار وحلق الرأس، وغير ذلك... ليظهر كمال الرقّ والعبودية منهم.

ذلك لأنّ «كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد»^(٢).

في الحج يطأ الحاج أرضاً طيبة طاهرة سارت عليها أقدام الأنبياء الكرام، فتتجدد في نفسه أحداث التاريخ، وخواطر الأولياء، «فيدفعه هذا الإحساس المتدفق، والشعور المنبعث في نفسه إلى أن يسلك الطريق، ويتبع المنهج نفسه، ويتحلى بالسيرة نفسها»^(٣).

فيقول الصادق: «إن الله تعالى جعل الحج... لتعرف آثار رسول الله ﷺ وتُعرف أخباره ويُذكر ولا يُنسى»^(٤).

والحج يرمز إلى الوحدة بين المسلمين، إذ تمحي فيه الفوارق التي بينهم ويتساوى الغني والفقير والأمير والحقير، يطوفون حول الكعبة باتجاه واحد، ويتجهون إليها في صلاتهم فيعلمون أنهم أبناء أمة واحدة.

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٧، ح ١٥٧٩.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٥.

(٣) عبد العال سالم مكرم، أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨ ص ٨٤.

(٤) الصدوق، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٦، ج ٢، ص ٤٠٥.

ولقد أُلْمِح الإمام الصادق إلى بعض المصالح التي تترتب على هذه الفريضة التي تعود بالخير العميم على المسلمين، فقال:

«إن الله تعالى خلق الخلق... وأمرهم ونهاهم ما يكون من أمر الطاعة في الدين ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل في الحج الاجتماع من المشرق والمغرب، ليتعارفوا وليتربح كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكاري والجمال»^(١).

وتحدث الإمام في بعض الأحيان عن حكمة مناسك الحج لتوعية الناس وتبصيرهم بأسرارها الكامنة، فعندما سأله سفيان الثوري أن: يا ابن رسول الله ﷺ، لم جعل الموقف من وراء الحرم؟ ولم يُصَيَّر في المشعر الحرام؟

فقال: «الكعبة بيتُ الله، والحرمُ حِجابه، والموقفُ بابه. فلما قصده الوافدون أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم في الدخول، أدناهم من الباب الثاني وهو المزدلفة.

فلما نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهدهم رحمهم، فلما رحمهم، أمرهم بتقريب قربانهم، فلما قربوا قربانهم، وقضوا تفثهم وتطهروا من الذنوب التي كانت حجاباً بينه وبينهم، أمرهم بزيارة بيته على طهارة.

قال له: فلم كره الصوم أيام التشريق؟ قال: «لأنهم في ضيافة الله ولا يحب للضيف أن يصوم»^(٢).

د - ضبط الأهواء والشهوات بالصيام:

إن الصيام من بين العبادات، خاصة عملية تدريب للإنسان على مقاومة شهواته والسيطرة عليها، ففيها يتمتع الإنسان باختياره عن كثير من اللذائذ المباحة تعويداً على المجاهدة في طاعة الله ومران على المشاق في طريق العبودية. و«استمرار هذا التدريب مدة شهر كل عام بلا شك سيؤدي إلى تعليم الإنسان قوة الإرادة وصلابة العزيمة، لا في التحكم بشهواته فقط، إنما في سلوكه العام في الحياة وفي القيام بمسؤولياته وأداء واجباته ومراعاة الله تعالى في كل ما يقوم به من أعمال»^(٣).

فالإمام جعفر يلفت الأنظار إلى هذا الغرض التربوي الكامن في حقيقة الصوم فيوسّع رؤية الناس بأن ثمرته لا بد أن تنعكس التزاماً بالتقوى في كل الجوارح قائلاً:

«إذا أصبحت صائماً فليصم سمعك وبصرك من الحرام، وجارحتك وجميع

(١) المصدر نفسه، والمكان نفسه.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٤.

(٣) محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ط ٧، ٢٠٠١، ص ٢٩٤.

أعضائك من القبيح ودع عنك الهذي وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصيام، والزم ما استطعت من الصمت والسلوك، إلا عن ذكر الله ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك...»^(١).

ويشرح الإمام تعبيره عن وقار الصيام في توجيهاته الأخرى كقوله: «إذا صام أحدكم، فلا يجادلن أحداً ولا يجهل ولا يسرع إلى الحلف والإيمان بالله، وإن يجهل عليه أحد فليتحمل»^(٢).

تبدو صلة الصوم بالأخلاق صلة وثيقة لا تخفى على أحد، «فالصوم انضباط وكف للبطن والفرج عن شهواتهما، كما أنه انضباط للجوارح وكف لها عن الآثام، والأخلاق في تفسيرها الصحيح ليست إلا انضباطاً في السلوك وضبطاً وتهذيباً للشهوات»^(٣).

وقد أشار الصادق إلى الفوائد النفسية والاجتماعية لفريضة الصوم عندما تحدث الحكمة من تشريع الصوم بقوله: «أما العلة في الصيام ليستوي به الغني والفقير وذلك لأن الغني لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه، فأراد الله عز وجل أن يسوي بين خلقه وأن يذيق الغني مسّ الجوع والألم ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع»^(٤).

فالشعور بالألم يدع الشخصية متحسّسة بشدائد الآخرين ويدفعه إلى التفكير بمدد يد المساعدة إليهم، وكذلك عندما يشعر الغني بالجوع والعطش في الصيام فإن مجرد هذا الإحساس كاف بالتنازل عن الذات والتوجه نحو الآخرين فيبعث في نفسه مشاعر الرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين مما يقوي في المجتمع روح التعاون والتضامن الاجتماعي.

هـ - التعليم الذاتي بتلاوة القرآن الكريم:

لقد حرص الإمام جعفر على ربط تلاميذه بالقرآن الكريم وجعله جزءاً من حياتهم، ومنهجاً كاملاً يستضيئون بنوره ويهتدون بتعاليمه. فحضر على تعلّم القرآن وتعليمه. كقوله: «ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلّم القرآن أو يكون في تعليمه»^(٥).

ذلك لأن ما يزيد المسلم من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، استمرار الاتصال بكلام الله رب العالمين ف «إن في القلب حاجة لا يسدها إلا ذكر الله والتلذذ بكريم

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٩٢.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٤، باب أدب الصائم، ح ٤.

(٣) علي عبد الحليم محمود، تربية الناشئ المسلم، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٢، ص ٢٢٩.

(٤) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٧٣، ح ١٧٦٦.

(٥) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٨٩.

خطابه، وإنّ فيه وحشة لا يزيلها إلّا الأنس بكتابه، وإنّ فيه قلقاً وخوفاً لا يؤمنه إلّا السكون إلى ما بشر الله به عباده، وإنّ فيه فاقة لا يغيثها إلّا التزود من حكم القرآن وأحكامه»^(١).

فقال أبو عبد الله: «من قرأ القرآن فهو غني ولا فقر بعده»^(٢).

ومن هذا المنطلق فقد كان يشجّع طلابه أن يلتزموا بقراءة خمسين آية في كل يوم^(٣) وأن لا يمنعهم أي شغل أو عمل من قراءة القرآن، فقال: «ما يمنع التاجر منكم المشغول في سوقه إذا رجع إلى منزله أن لا ينام حتى يقرأ سورة من القرآن»^(٤).

ويعلمهم في الوقت نفسه آداب القراءة ومنها: أن يدعوا الله ساعة يأخذون الكتاب العزيز للتلاوة هكذا: «اللهم فاجعل نظري فيه عبادة وقراءتي فيه فكراً، وفكري فيه اعتباراً واجعلني ممّن اتّعظ ببيان مواعظك فيه، واجتنب معاصيك... ولا تجعل نظري فيه غفلة ولا قراءتي هذراً...»^(٥).

فإنّ القصد الأهم من التلاوة هو التدبر في كلام الله والتعلّم منه، والذي يعتبر التعليم الذاتي، وهو التعلّم المستمر الذي يلازم الإنسان طيلة حياته. فاتصال الفرد بالقرآن ومعانيه وما فيه من الحكم البالغة، دعوة إلى هذا النوع من التعليم في كل زمان ومكان.

على هذا ينبّه الصادق تلاميذه أن لا تكون قراءتهم قراءة سطحية فلا بدّ أن يشغل القارئ قلبه بمعاني ما يلفظ من القرآن ويفكر، ويتأمل فيه حتى تكون قراءته قراءة واعية وعميقة. وعندما سأله رجل من كلابه أقرأ القرآن في ليلة؟ قال: «لا، إنّ القرآن لا يقرأ هزيمة»^(٦) ولكن يرتّل ترتيلاً، فإذا مرتت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وسل الله عزّ وجلّ الجنة، وإذا مرتت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار»^(٧).

يوجه الإمام بهذا أن لا تغفلوا عن معاني الآيات الكريمة وأهدافها السامية وأمرها ونواهيها ووعظها وزجرها ولا يجب أن يكون هدفكم ختم القرآن في أيام معدودة أو الإسراع في قراءة السورة والبلوغ إلى آخرها، كأن آيات الجنة ونعيمها وآيات جهنم وعذابها لا تعنيكم!!

(١) سلمان بن عمر السندي، تدبر القرآن، البيان، الرياض، ١٤٢٣، ص ١٨.

(٢) الصدوق، معاني الأخبار، مؤسسة النشر الإسلامية، إيران، ١٤٠٣، ص ٢٧٩.

(٣) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٨٥١.

(٥) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٢٠٧.

(٦) السرعة في القراءة.

(٧) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب كم يقرأ القرآن، ح ٢.

و - إظهار الافتقار إلى الله بالدعاء :

الدعاء تعبير حيّ عن معنى العبودية والخضوع والخشوع الذي يتمثل في العبادة، فهو يهزّ أعماق الإنسان بالشعور بوجود الله وحضوره في كل ملتقى للإنسان في ما يهمه من أمور الحياة وفي ما يثيره من شؤون الآخرة. وحقيقة الدعاء «استدعاء العبد ربه العناية واستمداده إياه المعونة وحقيقة إظهار الافتقار إليه وهو سمة العبودية وإظهار الدّلة»^(١).

وبما أنّ النصوص الإسلامية مليئة، بترغيب الناس إلى هذه العبادة، فإن الإمام جعفر كمربّ للأمة أشاد بفضل الدعاء، وأهاب بتلاميذه أن لا يتركوه في جميع أمورهم، فقال: «عليكم بالدعاء فإنكم لا تقرّبون بمثله، ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها أن صاحب الصغار هو صاحب الكبار»^(٢).

ولأن الدعاء ضمان للنفس من الغفلة والطغيان فقد كان الإمام يحض طلابه على ملازمته في كل حال بقوله: «ادع ولا تقل: إن الأمر قد فرغ منه، إن عند الله عزّ وجلّ منزلة لا تنال إلا بمسألة»^(٣).

وللدعاء عند الصادق سجل خاص منطلق من القرآن والسنة يحوي فنونه وآدابه والأساليب التي ينبغي للمؤمن أن يلتزم بها حال الدعاء، والقواعد التي عليه أن يراعيها عند المناجاة بين يدي رب العزة وجبار السموات والأرض. ومنها قوله: «لا يستجيب الدعاء بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فاقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة»^(٤).

فبكل هذه التوجيهات التربوية يريد أبو عبد الله أن يكون الدعاء عند طلابه أصلاً إيمانياً متيناً، بعيداً عن العادات والتقاليد الموروثة حتى تصبح عبادة واعية لله تعالى.

وتحريضه على الدعاء كمظهر من مظاهر العبادة، لا ليتجمد الفرد، بل لكي يتحوّل إلى طاقة مبدعة في الواقع العملي، فينشط ويندمج بالحياة الإنسانية بكل قوة ووعي وثبات وعزم إيماني.

وكذلك عاش الإمام مهتماً بالعبادات كلّها من الفرائض والنوافل، فهي عنده عمل تربوي غائي ومنهج تثقيفي فاعل يستطيع رفع المستوى الروحي للإنسان المؤمن إلى أعلى درجات اليقين والإيمان، ولذلك دعا تلاميذه إلى ممارستها، وحضهم على

(١) فخر الدين الخطيب الرازي، شرح أسماء الله الحسنى، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ١٩٧٦، ص ٨٣.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، كتاب الدعاء، ح ٦.

(٣) المصدر نفسه والمكان نفسه، ح ٣.

(٤) فضل بن حسن الطبرسي، مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضي، ط ٦، ١٩٧٢، ص ٢٧٠.

الالتزام بآدابها - الظاهرية والباطنية - وركّز على ضرورة القيام بها، فهي وسيلة يعبر بها الإنسان عن فقره وحاجته إلى الخالق العظيم.

التركيز على الاعتدال في العبادة:

رغم اهتمام الإمام الصادق بترقية الروح بالفرائض والعبادات وتشجيع تلاميذه على المداومة والتدريب عليها، إلا أنه لم يغفل عن مبدأ الوسطية في تربية هذا الجانب المهم من جوانب الشخصية المسلمة.

ذلك لأن «العدل في العبادات من أكبر مقاصد الشرع»^(١).

ولقد امتاز الإسلام بيسر تكاليفه وسماحة أحكامه ودفع الحرج أو المشقة عن الناس في أمورهم كلها كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٢).

وقد «سمّي هذا الدين الحنيفيّة السمحة لما فيها من التسهيل والتيسير»^(٣) حيث نهى الرسول ﷺ عن الزيادة في العبادة بما يحتمل النفس فوق طاقتها، حيث جاء في الأثر: «خذوا من العمل ما تطيقون فإنّ الله لا يملّ حتى تملّوا»^(٤).

من هذا المنطلق يريد أبو عبد الله أن يجعل هذا الأساس منهجاً للحياة ولذلك يرشد أتباعه بالاعتدال في أداء العبادة تحذيراً عن الإفراط والتفريط فيقول: «اجتهدت في العبادة وأنا شاب، فقال لي أبي: يا بنيّ دون ما أراك تصنع فإنّ الله عزّ وجلّ إذا أحبّ عبداً رضي عنه باليسير»^(٥).

يؤكد الإمام بهذا القول على كراهة إجهاد النفس في العبادة ويحض على الاعتدال وعدم التشدّد فيها، لأن «تحميل النفس من التكاليف ما يشق عليها، يجعلها تبغض ذلك العمل، ويؤدي بها إلى الانقطاع عن أدائه»^(٦).

لذلك يوصي تلاميذه بأن: «لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة»^(٧) أي استعينوا على طاعة الله عزّ وجلّ بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة وهذا مظهر من مظاهر النهي عن الإفراط في مدرسة الإمام.

(١) ابن تيمية، حقيقة الصوم، دار اعتصام، د.ت.، ص ٤٢.

(٢) سورة البقرة، جزء من الآية ١٨٥.

(٣) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٥٢١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، ح ١٩٦٩.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢١٣.

(٦) عبد الله الزهراني، الوسطية في التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٧) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الاقتصاد في العبادة، ح ٢.

وكذلك نرى تحذير الصادق عن التفريط في العبادة الذي يمثل في تعاليمه كالنهى عن تأخير الصلاة عن وقتها أو تخفيفها، فعندما قيل له: الرجل تكون له حاجة يخاف فوتها، أيخفف الصلاة؟ قال: «أو لا يعلم أنّ حاجته إلى الذي يصلّي إليه؟»^(١). وبكل هذا يسعى أن يلزم أتباع مدرسته بالتجنّب عن الإفراط والتفريط، والذي يؤدّي إلى بناء الشخصية السّوية.

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٤٩.

الفصل الثالث

التربية العلمية والعقلية في مدرسة الإمام الصادق

المبحث الأول : البناء العلمي

المبحث الثاني : البناء العقلي

تمهيد:

تحرص التربية الإسلامية، أشد الحرص، على تربية المسلم تربية علمية، وحريصة على بناء شخصيته وسلوكه بناء علمياً إسلامياً وتؤكد عدم الفصل بين الدين والعلم، بل وتوثق الصلة بينهما، وتوظفهما معاً لصالح الإنسان في دنياه وأخراه. جاء في الحديث: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة»^(١).

ولقد اهتم الإمام الصادق بتربية تلاميذه على هذا المنهج، واعتنى الإمام الصادق كأشد ما يكون الاعتناء بنشر العلم والثقافة وبلورة الفكر الإسلامي بشتى أنواع العلوم، فأشاد بفضل العلم وأثنى على رواده وحث على طلبه ووضع المناهج لآداب المتعلمين، كما عني بصورة خاصة بالتفقه في الدين ومعرفة أحكام الشريعة الإسلامية، التي يسمو بمعرفتها الإنسان المسلم وتزدهر بها شخصيته. وإن جهوده في نقل التراث الفكري العلمي إلى الأجيال من بعده فائقة الأثر، بالغة القيمة. وكان من خير نتائج هذه الجهود أنه ترك وراءه مدرسة فكرية خاصة، يقتدي بها الناس من بعده. ترك تعاليم من عنده لطلابه، ومنهجاً محدداً للباحثين على طريقته، وحلولاً لكل مسألة عرضت له، للمهتمين بترائه.

فلا جرم أنه كان كثير العلم واسع الاطلاع، ولم يقتصر علمه على حقل واحد كالفقه أو العقيدة مثلاً، ليكون سبباً لمخاطبة وجذب فئة محدودة من الناس، بل كانت الروايات المستفيضة من تعليمه ومناظراته ورسائله في مختلف المجالات ولذلك «تناولت مدرسته العلمية مجموعة العلوم الدينية وغيرها من العلوم الطبيعية، وتربى فيها كبار العلماء في مختلف فروع المعرفة الإسلامية والبشرية؛ بحيث نجد الحضارة الإسلامية أصبحت مدينة لعلوم الإمام ومعارفه ومنهجه التعليمي والمعرفي»^(٢).

لقد أعطى الإمام الصادق العقل المنزلة الأولى، وتحدث عن اقترانه بالعلم والدين في العديد من مروياته، وكشف عن أبعاد هذه العلاقة المستحكمة بين العقل والعلم والدين، وكان يعتمد في دروسه وأبحاثه وحواراته على الأدلة العلمية ونادى بتحكيم

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب ١٠، ح ١.

(٢) عبد الرحيم الموسوي، المنهج الإصلاحي عند الإمام الصادق، دراسات وبحوث مؤتمر الإمام الصادق، المجمع العالمي لأهل البيت، إيران، ١٤٢٣، ص ١٧٥.

العقل وحرية البحث العلمي . فكان كمرّب ومعلم كبير قد اهتمّ بتنمية كامل الشخصية الإنسانية، وركز على الجانب الفكري، انسجماً مع النهج القرآني الذي يدعو للقراءة، ويحضّ على طلب العلم، ويؤكد على التفكير والتأمل، ويرفض الجهل والتقليد، ويرفع من شأن العلماء وقدرهم .

وقد عرفنا في ما سبق جهود الصادق في البناء العقدي والعبادي للشخصية الإسلامية وسنتحدث في هذا الفصل عن الجانب الآخر من المجال المعرفي في البناء العلمي والعقلي التي تتجسد في الشخصية الصادقية (بعون الله تعالى) .

المبحث الأول

البناء العلمي

- أهمية العلم وحث الإمام الصادق عليه
- مدرسته العلمية وخصائصها
- الإفادات التربوية حول العالم والمتعلم
- الأساليب التعليمية عند الإمام جعفر بن محمد

المبحث الأول

البناء العلمي

أهمية العلم وحث الإمام على طلبه :

يؤكد الدين الإسلامي على المعرفة والعلم كقيمة أساسية في الحياة تجذب الإنسان إليها وتحمله المسؤولية، والإسلام في طليعة الأديان التي تحث على التعلم والتعليم، ويضع فرقاً عظيماً بين العالم والجاهل، كما قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقد اشتهر عن رسول الله ﷺ قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(٢). ولأنه لا يمكن للإنسان أن يصل إلى أهدافه السليمة في بناء مجتمعه إلا على أساس من الوعي العلمي القائم على الفهم، والتعقل لحقائق الأمور ومن ثم فقد جعل الإسلام التسليح بالعلم ضرورة فردية واجتماعية.

فالعلم يثير في الإنسان الوعي والرؤية الواضحة، فيحرسه من الانحراف، ويحصنه من الضلال، ويوفر عليه ما يحمي حياته من الأخطار، ويؤمن لمجتمعه رفاهية وسلاماً. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع»^(٣).

فمن مبادئ التربية الإسلامية تعظيم العلم والمعرفة، وكان للإمام الصادق اهتمام خاص بقيمة العلم وفضله وأثره في حياة الناس تمشياً مع الدين الإسلامي فقال: «العلم أصل كل حال سني ومنتهى كل منزلة رفيعة»^(٤).

فالعلم في نظر الإمام حاكم، يمنح الإنسان الوعي لكل حالة من أحواله، فيعرف الخطأ من الصواب، والباطل من الحق، فيسيطر على انفعالاته ونزواته، فقال: «العلم حياة القلوب، ومصابيح الأبصار، توصل به الأرحام، ويعرف به الحلال والحرام،

(١) سورة الزمر، جزء من الآية ٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب السنّة، ح ٢٢٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، ح ٣٦٤١.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار، مرجع سابق، ج ٢ ص ٣١.

يعطيه الله السعداء ويحرمه الأشقياء . .»^(١).

وقد ذكر الصادق مكانة العلم ومن تحلّى به ببيان فضل العالم على العابد كقوله: «عالم أفضل من ألف عابد وألف زاهد»^(٢).

وقد قام بدور إيجابي في بعث الحركة العلمية وتطويرها ابتغاء تحرير المسلمين من رواسب الجهل والجمود، ولذلك حث المسلمين على طلب العلم، بقوله: «لو علم الناس ما في طلب العلم، لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج»^(٣).

وفي دعوته لطلب العلم ركّز على مرحلة الشباب، فقال مخاطباً تلاميذه: «لست أحب أن أرى الشاب منكم إلا غادياً في حالين: إما عالماً أو متعلماً، فإن لم يفعل فرط، وإن فرط ضيع، وإن ضيع أثم . .»^(٤).

ولا شك أن قيمة العلم بقيمة فائدته، فكلما كانت فائدة العلم أعلى وأهم كان ذلك العلم أشرف وأعظم، ومن الواضح أن أوجب الأشياء في حياة الإنسان هي معرفة الدين، فهو أهم العلوم وأشرفها.

ورد عن النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٥).

وقد غنّى الإمام الصادق بهذا الأمر فكان يحث أصحابه ومريديه على التفقه في الدين في مثل قوله: «عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا أعراباً»^(٦)، فإنّه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يترك له عملاً»^(٧).

وعندما سئل عن معنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٨).

فقال: «إن الحكمة هي المعرفة والتفقه في الدين، فمن تفقه منكم، فهو حكيم، وما من أحد يموت من المؤمنين أحب إلى إبليس من فقيه»^(٩).

(١) أبي فراس، مجموعة ورام، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٢) الحراني، تحف العقول، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

(٣) القزويني، محمد كاظم، موسوعة الإمام الصادق، ج ٤، ص ٣٣.

(٤) الطوسي، الأمالي، ص ٣٠٣ ح ٦٠٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم ح ٧١.

(٦) أي لا تكونوا كالأعراب جاهلين بالدين غافلين عن أحكامه معرضين عن تعلمها.

(٧) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب فرض العلم ح ٧.

(٨) سورة البقرة، جزء من الآية ٢٦٩.

(٩) محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ٤، ص ٤٩.

فليس للإنسان البصير أن يعيش غير مسؤول ولا يعذر الجاهل بجهله، وقد نبه الصادق تلاميذه على هذا الأمر بقوله: «أحسنوا النظر في ما لا يسعكم جهله، وانصحوا لأنفسكم وجاهدوها في طلب معرفة ما لا عُذَرَ لكم في جهله، فإنّ لدين الله أركاناً لا ينفع من جهلها شدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته»^(١).

(١) محمد بن نعمان المفيد، الإرشاد، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٩٧.

مدرسته العلمية وخصائصها

كان من أبرز الفعاليات التي بذلها الإمام في نشر العلم وإشاعته بين الناس تأسيسه مدرسة علمية لبث الوعي في الأمة وإصلاح شؤونها.

وكان كبار العلماء وطلاب العلوم على اختلافها يترددون على مدرسته، ولم يختص بعلم دون آخر، ولم يقتصر على منهج واحد، فكان كل وارد يجد عنده ما يطلبه، وكل سائل يأخذ عنه أحسن الجواب.

وقد كان لمدرسته طابع خاص انفردت به عن بقية المؤسسات، وهو الاستقلال الذاتي المتميز بعدم الارتباط بأي جهاز رسمي، فقد كانت تتمتع بالحرية الواسعة في مناهجها التعليمية أو في مجالاتها الفكرية، ولم تتلق من السلطة الحاكمة أي دعم اقتصادي أو مادي، وإنما كانت منفصلة عنها، ومبتعدة في سلوكها عن جميع المؤثرات الخارجية، فهي تسير بالروح الإسلامية المشرقة وهدفها خدمة الأمة، لذلك أصبحت الوفود تنهال على هذه المدرسة من جميع الأقطار، لأنهم وجدوا في شخصية الإمام الصادق العلم والمصادقية والتفاني في خدمة العلم.

لقد عملت مدرسة الإمام على الانطلاق الفكري، ونشر الوعي العلمي، وجندت جمهرة كبيرة من العلماء للقيام بتثقيف المسلمين، وتهذيبهم، وتقديمهم في مختلف الميادين العلمية، فقد تميزت هذه المدرسة بمنهجها العلمي السليم، وعمقها الفكري واتجاهها العقدي التربوي والإصلاحي، «ولم تكف أطروحتها في الإعداد العلمي الاعتماد على حشو الذهن بالمعلومات فقط، وإنما خرّجت هذه المدرسة شخصيات كبرى ونماذج مثلى عرفت بالعطاء السخي للأمة بحيث أصبح الانتماء إلى مدرسة الإمام وجامعته يعدّ من المفخر»^(١).

فلذا كان تلامذة الإمام الصادق يفتخرون بانتمائهم إلى تلك المدرسة العظيمة، ويرون ما اقتبسوا من علومها اعتزازاً به ونشراً له.

وفيما يلي عرض موجز لشؤون هذه المدرسة في عهد الإمام الصادق.

(١) عبد الرحيم الموسوي، المنهج الإصلاحي عند الإمام جعفر الصادق، مرجع سابق، ص ١٧٦.

* مركزها:

لقد اختار الصادق المدينة مهبط الوحي فجعل فيها مدرسته، «وقد ازدهرت المدينة بها، واستعادت نشاطها في توجيه الركب الإسلامي نحو الخير والسعادة»^(١).

أما مكان التدريس، فكان الجامع النبوي الذي كان مزدهراً بمحاضرات الإمام ودروسه التي شملت جميع أنواع العلوم، «ففيه كان حملة الحديث ورواد العلم يزدحمون لاستماع دروس الإمام وتسجيل أبحاثه»^(٢).

وفي بعض الأحيان كان الصادق يلقي دروسه في بيته، «فيحكي لنا المفضل بن عمر الجعفي»^(٣) أن الإمام كان يلقي دروسه على تلامذته في جميع الفنون الإسلامية في داره^(٤) وذات مرة روى أحد تلامذة الإمام الصادق أنه زار إمامه في منزله، فقال له الإمام: «أمعك شيء تكتب؟ قال: نعم، قال: أكتب...»^(٥).

وحينما انتقل الإمام الصادق إلى الكوفة أيام أبي العباس، واستمر بقاء الإمام فيها سنتين، اشتغل فيها بالعلم والتعليم، وكان المسجد مكانه الذي يلقي فيه دروسه على تلاميذه ومريديه. و«شاهد الإمام في مسجد الكوفة بين جمع كبير من أتباعه يعظهم»^(٦).

* طلابها:

لما فتح الإمام مدرسته لجميع المسلمين التحق بها جمع غفير من رواد العلوم على اختلاف نزعاتهم وميولهم.

وكان الإمام الصادق، يلقي دروسه يومياً على أكثر من أربعة آلاف طالب، أتوا من أطراف البلاد الإسلامية، من اليمن ومكة المكرمة والبصرة والكوفة ومن مصر وإيران... ومن الأقطار الأخرى. فكان مجلسه يكتظ بمختلف الطبقات من رواد العلم وحملة الحديث، وكان هؤلاء ينشرون في أوساط الأمة الإسلامية ما تعلموه منه، وأخذوه عنه.

(١) سليمان بن إبراهيم القندوزي، ينباع المودة، مرجع سابق، ج ٣، ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٣) المفضل بن عمر أبو عبد الله المفضل الجعفي الكوفي من خاصة أصحاب الإمام جعفر بن محمد ومن وكلائه، له كتاب يوم وليلة وكتاب الفكر المعروف بتوحيد المفضل الذي أملاه الإمام عليه (الخوئي: معجم الرجال الحديث، ص ٣٠٣).

(٤) محمد الخليل، أمالي الصادق، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٥، ج ١، ص ٢٨.

(٥) عبد الله فياض، تاريخ التربية عند الإمامية، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٦٦.

وقد فتح الإمام الصادق أبواب مدرسته على مصراعيها أمام الجميع ولم يقتصر دوره العلمي على تلامذته من أتباع مذهبه، وإنما كان همه إيصال الفكر الرسالي إلى الأمة جمعاء. ولذلك كانت مدرسته تستوعب مختلف الاتجاهات.

فعندما نقرأ أسماء الرواة الذين رووا عنه أو الذين تعلموا عنده نجدهم لا ينطلقون من لون واحد، بل كانوا يتحركون في ألوان متعددة، تلتقي عند الإنسان الذي يستطيع أن يجمع الألوان عند لون الحقيقة الذي يستطيع أن يفتح على الجميع.

* أنواع علومها:

وقد حض الإسلام على الخوض والاختصاص بجميع أنواع العلوم والمعارف خصوصاً التي تتطور بها الحياة الفكرية والاجتماعية. «والدين الإسلامي لا يخص دعوته لتعلم العلوم الدينية فحسب، وإنما يخص فرض العين بها، ويرغب في تعلم كل علم فيه إسعاد الحياة، ولا تفترق علوم الدين عن غيرها مما يحتاج إليه النوع من إسعاد الحياة ويضطر إليه، إلا في رجحان العلوم الدينية على غيرها، وعينية الوجوب فيها على كل أحد وكفائته في غيرها»^(١).

فإن العلم الذي حث الإسلام على طلبه لا يتقيد بنوع خاص، وإنما يشمل جميع أنواع العلوم والفنون، هذا لأن «غرض التربية عند المسلمين يتمثل في إعداد المرء للحياة الدنيا والآخرة»^(٢) ومن ثم يرى الإمام الصادق بأن لا شيء بعد التفقه في الدين وتطبيق أحكامه أفضل من معرفة العلوم والآداب الطبيعية وقوانينها، لذلك كان من الطبيعي أن يؤكد وحدة الدين والعلم. فقال: «لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاثة يفرغ إليهم في أمور دنياهم وآخرتهم، فإن عدموا ذلك كانوا همجاً: فقيه عالم ورع، وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة»^(٣).

واللافت للنظر حقاً هو صيغة التكامل والشمول التي تميز بها الصادق في تناول العلوم الدينية والعلوم الدنيوية، وعدم الفصل بينهما، حتى إنه يجعل الأمير والفقيه والطبيب على سواء، ويستخدم نتائج العلوم الطبيعية للاستدلال على عظمة الإله وقدرته، وفي التدليل على صدق التبليغ عنه.

ومن ثم أطلت «عين جعفر على حقائق العلم فرآها في علوم الدنيا وعلوم الدين، فلم يدع واحداً منهما ليلقي نفسه على الآخر، وإنما قدم ما حقه التقديم، ولم ينس

(١) أمير محمد القزويني، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، مرجع سابق ص ٢٠٠.

(٢) عبد الرحمن عثمان الحجازي، المذهب التربوي عند ابن سحنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٥.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٢.

نصيبه من الدنيا، وأخذ يسبق إلى مسائل العلم المادي لأنه رآها معينة على علوم الدين ولا غنى للدنيا عنها، وكثير من مسائل العلم يشترك فيه الدين والدنيا فلا انفصال، وقد صار له في كل ناحية منها خبرة تدل على أنه قد غاص إلى قرارها أو كاد^(١).

وعلى هذا تناولت محاضرات الصادق ودروسه جميع الفنون العلمية التي لها الأثر التام في التقدم الاجتماعي، حتى قال بعض علماء الغرب: «يصح لنا القول بأن الصادق إن لم يكن هو الرائد المجدد في جميع العلوم، فهو دون أدنى شك في طليعة أولئك المجددين»^(٢).

والعلوم التي تناولتها مدرسة الإمام بالبحث والتدريس هي علوم الفلك، والطب، والحيوان، والنبات، والكيمياء، والفيزياء، فضلاً عن العقيدة والفقه والأصول وعلوم القرآن وتفسيره وعلم الحديث.

ولم يقتصر الإمام في أبحاثه على الناحية العلمية، بل توسّع في محاضراته، فشملت أصول الآداب والقيم الاجتماعية، من مكارم الأخلاق، والإصلاح الشامل في جميع المجالات.

وهذا التعدد في العلوم يدل على مدى عظمة مدرسة الإمام واتساع نطاقها العلمي، حتى شملت هذه العلوم.

* مراعاة التخصص في العلوم:

اعتنى الإمام بالتخصص العلمي في مدرسته؛ لأن للاختصاص دوراً كبيراً في إنماء الفكر الإسلامي وتطويره يمكنه من استيعاب الطاقات الكثيرة الوافدة على مدرسة الإمام من سائر أنحاء العالم الإسلامي، وبالتخصص تتنوع العطاءات، ويكون الإبداع وعمق الإنتاج، ولذا وجه الإمام أنظار تلاميذه إلى التخصص العلمي، وتصدّى للإشراف على كل تلك التخصصات.

فحاول إعطاء كل مجموعة من تلامذته علماً معيناً يختص به ولأن الإمام الصادق علم استعداد كل منهم، ورعى مواهبهم، فوجهها إلى ما يجلو فيها القدرة ويصقل الإمكانية، ونتج من ذلك مجموعة كبار العلماء.

فكلف أبا بن تغلب^(٣) بالفقه، وأمره أن يجلس في المسجد، فيفتي الناس، وكان فقيهاً يزدهم الناس على أخذ الفقه عنه.

(١) عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٢) مجموعة من الباحثين، الإمام الصادق في نظر علماء الغرب، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٣) انظر إلى ترجمته في ص ٨١.

ووكل حمران بن أعين^(١) بالأجوبة عن مسائل علوم القرآن، وقد كان أحد حملة القرآن الذين يحتج بهم في القراءات، وكان عالماً بالنحو واللغة. وسمح لزرارة بن أعين^(٢) بالمناظرة في الفقه وهشام بن الحكم^(٣) وصاحب الطاق^(٤) بالمناظرة في العقائد والكلام. وتخصّص في حكمة الوجود وأسرار الخليقة المفضّل بن عمر^(٥) الذي أملى عليه الإمام الصادق كتابه الشهير المعروف بتوحيد المفضّل. وتخصّص في علم الكيمياء جابر بن حيان الكوفي^(٦) فنشط كل منهم حسب اختصاصه في التأليف والمناظرة، وبمرور الأيام تبوّأ رجال المدرسة مواقعهم بكفاية عالية وتمكّن باهر. ولذلك سبقت مدرسة الإمام الصادق على المدارس الأخرى في تأسيس الاختصاص بالدراسات العلمية.

* التأليف والتدوين :

كان من أهم إنجازات الإمام الصادق هو التأليف والتدوين الذي حرص عليهما طلابه، فاستجابوا إلى هذه الدعوة التي تحمل في أعماقها إنارة الفكر الإنساني وإشاعة العلم وبسطه بين الناس، وقد أقبل أصحابه على التأليف وتدوين علومه حتى بلغ عدد أهم ما ألفوه أربعمئة كتاب التي سميت بالأصول.

(١) انظر إلى ترجمته في ص ١٠٨.

(٢) زرارة بن أعين واسمه عبد ربّه أخو حمران بن أعين وكان نحوياً، من أصحاب أبي جعفر محمد بن علي والصادق أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام والتشيع (ابن النديم، الفهرست، ص ٢٧٦).

(٣) هشام بن الحكم الشيباني بالولاء، الكوفي، أبو محمد، (نحو ١٩٠ هـ) متكلم مناظر، كان [إمام] الإمامية في وقته. ولد بالكوفة؛ ونشأ بواسط، وسكن بغداد، وانقطع إلي يحيى بن خالد البرمكي، فكان القيم بمجالس كلامه ونظره. وصنف كتباً منها: الإمامة والقدر والردّ علي الزنادقة و... لما حدثت نكبة البرامكة استتر. وتوفي على أثرها بالكوفة. ويقال: عاش إلي خلافة المأمون المؤيد الأموي (الزركلي، الأعلام ٨/ ٨٥).

(٤) أبو جعفر الأحول اسمه محمد بن نعمان، من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق وكان متكلماً حاذقاً وله من الكتب الإمامة وكتاب المعرفة. (ابن النديم، الفهرست، ص ٢٢٤) طائفة من المسلمين تسميه «المؤمن الطاق» نسبة إلى «طاق المحامل» حيث كان متجره وطائفة أخرى تسميه «شيطان الطاق» فأما الإمام الصادق فيناديه بعبارة بارعة ترضي الجميع «يا طاقي» أو يقول «صاحب الطاق».

(٥) انظر إلى ترجمته ص ١٧٢.

(٦) انظر إلى ترجمته ص ٨٢.

وقد ذكر ابن النديم في الفهرست جملة منها عند حديثه عن مصنفى الشيعة وعلمائهم، منها كتب القراءات لأبان بن تغلب^(١). وكتاب المعرفة لصاحب الطاق^(٢). وقد ذكر سبعة عشر مؤلفاً لهشام بن الحكم في مختلف العلوم والفنون^(٣). إضافة إلى هذا كان الإمام يصحح ما يكتبه الكبار من تلاميذه من الكتب العلمية، فقد روى «أن لعبيد الله^(٤) كتاباً عرضه على الإمام الصادق وصححه، واستحسنه عند قراءته»^(٥).

وقد عهد الإمام لبعض تلاميذه بدراسة بعض الكتب خصوصاً ما يتعلق بالفقه فقد روى زرارة بن أعين أن الصادق أمره بدراسة - صحيفة الفرائض - وهو من الكتب الفقهية التي عنيت ببيان سهام الفرائض من الموارث^(٦).

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(٤) عبید الله بن أبي شعبة الحلبي، أبو علي كوفي. كان يتجر هو وأبوه وإخوته إلى حلب، فغلب عليهم النسبة إلى حلب، وآل أبي شعبة بالكوفة، وكان جميعهم الثقات مرجوعاً إلى ما يقولون وكان عبید الله كبيرهم ووجههم وصنف الكتاب المنسوب إليه وهو أول من صنف من أصحاب أبي عبد الله. (النجاشي، رجال، ٣٧/٢).

(٥) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٦) باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٥.

الإفادات التربوية حول العالم والمتعلم

نستخلص من أقوال الصادق مجموعة من الإفادات التربوية حول العالم والمتعلم وذلك من خلال تحديد العلاقات المثالية التي نشد قيامها بين المعلم والمتعلم . وقد تكلم الإمام عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها كل من المعلم والمتعلم . فإن للعالم المعلم آداباً في نفسه ومع تلاميذه كما أنّ للمتعلم آداباً مع معلمه ، وفيما يلي نشير إلى مجمل آراء الصادق في هذا المجال .

أ - شخصية العالم المعلم في فكر الصادق :

المعلم هو العنصر الأساسي في العملية التعليمية ، ولا يمكن أن يصلح حال التعليم إلا إذا صلح حال المعلم ديناً وخلقاً وعلماً .

والمعلم الصالح يستطيع أن يتلافى كثيراً من النواقص التي تعتري التعليم في المنهج والوسائل التعليمية وغيرها ، والذي يرجع إلى تراثنا الإسلامي الذي يستمد أصوله من الكتاب والسنة يجد ما يؤكد بوضوح مبدأ الإيمان بأهمية المعلم ، وينبه إلى الدور الخطير الذي يقوم به في بناء الفرد ، وإصلاح أحوال المجتمع ، وحمل رسالة الدين وفهمها وتفهمها للناس ، ويرفع من شأن العلم والعلماء ، ويجعل العلماء ورثة الأنبياء ويعتبر عملهم من أجل تعليم الناس وإفادتهم من خير الأعمال الصالحة .

فشخصية المعلم في الإسلام لها أثر عظيم في عقول التلاميذ ونفوسهم ، وقد يكون التلاميذ انعكاساً لشخصية المعلم . فهم يتأثرون بفعله وانفعاله . و«كان أسلافنا من علماء المسلمين يتلقون عن أساتذتهم ليس العلم فحسب وإنما الخلق والدين والأدب والسلوك»^(١) .

من هنا كان المعلم عند الإمام الصادق مرآة الصلاح ومعيار الخير لمن يترسمون خطواته ، فيوصيه بإصلاح نفسه حتى لا يروا منه إلا الحسن والصلاح ، فيروي عن جده الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « . . . واعلم أن المتلبس بالعلم منظور إليه ومتأسياً بفعله وقوله وهيئته ، فإذا أحسن سمته وصلحت أحواله ، وتواضعت نفسه ،

(١) عجيل جاسم النشمي ، الانفصام بين النظرية والتطبيق ودور الفكر الغربي ، لجنة الاستشارية العليا ، الكويت ، ١٩٩٥ ، ص ٢١ .

وأخلص لله تعالى عمله، انتقلت أوصافه إلى غيره من الرعية، ونشأ الخير فيهم، وانتظمت أحوالهم...»^(١)

ولأن التلميذ لا يذكر إلا واسم شيخه مقروناً به فإن كان سيئاً فسيلحق السوء بشيخه.

كما خاطب الإمام الصادق تلاميذه: «فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل هذا جعفري، ويسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وإن كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر»^(٢).

وقد حدّد الإمام مجموعة خصائص ينبغي أن يتصف بها العالم المعلم من مقومات الشخصية والمهنية كما يلي:

* المقومات الشخصية للعالم المعلم:

وهي السمات التي يجب أن يتحلّى بها المعلم في نفسه التي تجعله قدوة عليا في السلوك ومنها:

١ - الإخلاص:

لا شك أن الإخلاص، المقوم المهم من مقومات شخصية المعلم بسببه تصلح وتزكو عبادة المعلم التعليمية، وبفقده تذهب بركة علمه وفائدته، فالمخلص في تعليمه يصبح متحرراً من كافة القيود البشرية ينعم بحرية الإيمان بالله فلا يخشى إلا الله.

قال الإمام الصادق: «إذا رأيت العالم محباً لديّاه، فاتهموه على دينكم، فإن كل محب لشيء يحوط ما أحب»^(٣). «فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخسستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها»^(٤) ولذلك قال الصادق: «من تعلم لله عزّ وجلّ وعمل لله، وعلم لله، دعي في ملكوت السماوات عظيماً»^(٥).

أي إنّ على العالم أن يخلص في تعليمه، ويجعله خالصاً لوجه الله تعالى حباً له سبحانه ورغبة فيما عنده من عظيم الأجر والثواب الذي لا يتأتى إلا بتطهير النفس

(١) زين الدين الشامي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٥، ص ١٦٢.

(٢) عبد الحليم الجندي، الإمام جعفر الصادق، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب المستأكل بعلمه، ح ٤.

(٤) الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج ١ ص ٨٨.

(٥) الطوسي، الأمالي، مرجع سابق، ص ٤٧.

وتنوير القلب والدعوة إلى الحق بصدق السريرة واستقامة السيرة، لأن «مدار الأعمال على النيات، وبسببها يكون العمل تارة خزفة لا قيمة لها، وتارة جوهرة تعلم قيمتها لعظم قدرها»^(١).

٢ - العمل بمقتضى العلم:

قال الإمام الصادق: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه، زلت موعظته من القلوب كما يزل المطر عن الصفا»^(٢) ومن صفات العالم الناجي أن يعمل بعلمه، ولا يخالف فعله قوله، فروح العلم هو العمل الصالح و«أن المنزلة التي احتلها العلماء في الإسلام لم يحتلوها لمجرد علمهم، بل لما يترتب على هذا العلم من آثار حيث يكون العالم أقدر على القيام بمهام الاستخلاف من الجاهل»^(٣).

ومن جعل نفسه للناس معلماً ومرشداً، فليبدأ بتعليم نفسه وإرشادها قبل تعليم غيره وإرشادهم. أثر عن الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بقوله: «من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه، قبل تعليم غيره...»، فإن معلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»^(٤) ولذا أكد الصادق على العالم ضرورة العمل بما يعلم، ليحتفظ بتأثيره في النفوس وينال ما يستحقه من الثواب عليه في الدنيا والآخرة. كما في قوله: «لن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به لأن العلماء همتهم الرعاية والسفهاء همتهم الرواية»^(٥).

٣ - نشر العلم:

العلم الذي يختزنه العالم في نفسه، ليس ملكاً له، بل هو لكل من يطلبون الهدى، فليس من حقه أن يقبع في زاوية ليحجب علمه عن الناس، فهو مسؤول عنه أمام الله تعالى الذي يقول في كتابه الكريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾^(٦).

وقد روى الصادق عن الإمام علي كرم الله وجهه: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا»^(٧).

(١) زين الدين الشامي، منية المريد، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٢) الكليني، أصول الكافي، باب استعمال العلم، ح ٣.

(٣) عبد الغني عبود، الفكر التربوي عند الغزالي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٧٤.

(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة، دار المعرفة، بيروت، د. ت، الحكمة ٧٣.

(٥) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢ ص ٣٧.

(٦) سورة البقرة، الآية ١٥٩.

(٧) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٦٧.

فلا يمكن للعالم أن يكون حيادياً إزاء الجهل، بل لا بدّ له أن يبذل العلم عند وجود المستحق، فقال الصادق: «إن لكل شيء زكاة، وزكاة العلم أن يعلمه أهله»^(١). وفي كلام آخر أشار إلى ثواب التعليم بقوله: «من علّم خيراً فله مثل أجر من عمل به، قيل: فإن علّمه غيره يجري ذلك له؟ قال: إن علّمه الناس كلهم، جرى له، قيل: وإن مات؟ قال: وإن مات»^(٢).

من هنا يحذّر الإمام صاحب العلم من التقاعس عن نشر العلم بقوله: «إنّ من العلماء من يحبّ أن يخزن علمه ولا يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأول من النار»^(٣)، لأنّ انتفاع الناس بالعلم لا يكون إلا بنشره، وما فائدة السراج إذا أُطبق عليه. فالإمام يؤكد مسؤولية العالم في التعليم فالعلم ملك للناس جميعاً وأداة لتطوير حياتهم.

٤ - ترك الفتوى من غير علم:

ومما اعتبره الصادق منافياً لروح المعرفة العلمية هو القول بغير علم، إذ ما يستدعيه التزام الإنسان بالمعرفة العلمية أن لا يتجاوز حدود علمه فيما يؤمن به من فكرة أو يتعبد به من عقيدة، والتزام الإنسان بهذا المبدأ يكشف عن إخلاصه للعلم واحترامه لعقله، وفي الوقت نفسه يكشف عن رغبة الإنسان في الالتزام بالحق الذي يفرض عليه أن لا يتكلم خارج إطار ما يعرف ويعلم، وفي هذا الشأن يقول: «حق الله على خلقه أن يقولوا ما يعلمون، ويكفّوا عما لا يعلمون، فإذا فعلوا ذلك فقد أدّوا إلى الله حقه»^(٤).

فهذا المبدأ له أهميته ومكانته في حياة المعلم والمربي لقد رسم الصادق للعالم طريق النجاة والكرامة بقوله: «للعالم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلمه أن يقول: الله أعلم»^(٥). فجواب من لا يعلم بأنّ الله أعلم تسليم لله تعالى بالعلم، وذود للنفس عمّا يشينها من الباطل، فهو قيمة دينية وخلقية رفيعة تريخ باله، وتزيده ثقة بنفسه واحتراماً في عين الناس.

وهذا ما أراده الصادق الذي انتقل من التذكير إلى التحذير، فقال: «واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً»^(٦).

(١) الحرّاني، تحف العقول، ص ٥٦٤.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب ثواب العالم والمتعلم، ح ٣.

(٣) الصدوق، الخصال، مرجع سابق، ص ٣٥٢، ح ٣٣.

(٤) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب فضل العلم، ح ١٢.

(٥) المصدر نفسه باب النهي عن القول بغير العلم، ح ٥.

(٦) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٦.

وفي هذا التحذير أمر بالفرار من الإفتاء بغير علم، ونهى عن خسران الدنيا والآخرة بالتعالم، لأنّ «قول العالم: لا أدري لا يضع منزلته، بل يزيدها رفعة، ويزيده في قلوب الناس عظمة وتفضلاً من الله تعالى عليه، وتعويضاً له بالتزامه الحق، وهو دليل واضح على عظمة محلّه وتقواه وكمال معرفته»^(١).

والفتوى بغير علم ليست منقصة في حق العلماء فحسب، وإنما هو من المهلكات، يقول الإمام الصادق ما نصّه: «إياك وخصلتين مهلكتين: أن تفتي الناس برأيك، وأن تقول ما لا تعلم»^(٢).

وهكذا كان الصادق يخشى على المسلمين الانزلاق إلى الهوى والانغماس في حب النفس الذي يخرج بها عن الصراط المستقيم، ويهوي بها في ظلمات النقص والبوار.

٥ - عدم التباهي والتفاخر بالعلم:

إنّ العلم لا ينفع صاحبه ولا طالبه ما دام يقترب بالكبر في نفس العالم، فالمتكبر تعافه النفس، وتنفر منه، ويذهب ما عنده من العلم أو الرغبة فيه سدى.

من هنا فقد أهاب الصادق بالعلماء ألا يباهوا ولا يفخروا بالعلم نأياً بهم عن الخسران المبين، فقال: «من تعلم علماً ليما ري به السفهاء أو يباهي به العلماء أو ليقبل بوجوه الناس إليه فهو في النار»^(٣).

وحذر العلماء مما يسوؤهم ويعرضهم للخسران المبين، فقال: «آفات العلماء ثمانية أشياء: الطمع، والبخل، والرياء، والعصبية وحب المدح، والخوض فيما لم يصلوا إلى حقيقته، والتكلف في تزيين الكلام بزوائد الألفاظ، وقلة الحياء من الله والافتخار، وترك العمل بما علموا»^(٤).

ولو اجتنب العلماء هذه المساوئ، لبلغوا المنزلة الرفيعة ونالوا الكرامة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

* المقومات المهنية للعالم المعلم:

المقصود بالمقومات المهنية الأعمال التي يقوم بها المعلم خلال مزاولته للتعليم بهيئة وكيفية خاصتين تزيدان من تأثير حضوره ومن استيعاب الطالب. فعندما يهذب المعلم روحه ونفسه ويؤدبها يترك أثراً أكثر لدى المستمع من النواحي المعنوية والتعليمية والتربوية. ومن جملة تلك الآداب:

(١) زين الدين الشامي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٢) محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ٤، ص ١٧٤.

(٣) الصدوق، معاني الأخبار، ص ١٨٠ ح ١.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٥٣.

١ - البدء بالبسملة:

من أهم المقومات المهنية للمعلم بدء تعليمه بالبسملة والاستعانة بالله؛ لأن الدين الإسلامي هو دين التوحيد، وكل شيء فيه يدور حول محور التوحيد، لذلك فإن الاستعانة بالله واللجوء إليه أمر ضروري للقيام بأي عمل، ذلك لأن إرادته تعالى إذا لم تشأ أمراً فلن يكون، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْخُلَ رَبُّكَ إِذَا سَأَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾^(١)

كما أن أي عمل يتم دون ذكر اسم الله، فسيكون الشيطان شريكاً فيه بشكل من الأشكال، ويؤدي ذلك إلى بطلانه وخرابه.

روي عن الإمام الصادق قوله: إذا توضأ أحدكم أو شرب أو أكل أو لبس وكل شيء يصنعه له أن يسمي، فإن لم يفعل؛ كان للشيطان فيه الشرك^(٢).

بدء العمل باسم الله يعد نوعاً من التقدير والشكر لله على نعمه، كما إنه طلب منه تعالى أن يعين على أداء العمل وإتمامه. روي عن النبي ﷺ قوله: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله فهو أبت^(٣)».

وروي عن الإمام الصادق قوله: «وربما ترك في افتتاح أمر بعض أتباعنا بسم الله الرحمن الرحيم؛ فيمتحنه الله بمكروه وينبئه على شكر الله تعالى والثناء عليه، ويمحو فيه عنه وصمة تقصيره عند تركه باسم الله^(٤)».

وكان الإمام بنفسه يلتزم بالبسملة دوماً عند بدء درسه أو خطبه أو رسائله وما يمليه. كما يقول: «لا تدع بسم الله الرحمن الرحيم وإن كان بعده شعر^(٥)».

٢ - الوضوء والطهارة:

لقد حض الإسلام دوماً على الوضوء والطهارة، إلى درجة أنه من المستحب أن ينام الإنسان وهو على طهارة وتزداد أهمية هذا الأمر في مجال التربية والتعليم. نرى الصادق كان ينصح تلاميذه حين يريدون الإقبال على التجربة وتحصيل العلم بالوضوء والطهارة بقوله: «من ذهب في حاجة على غير وضوء فلم تقض حاجته، فلا يلومن إلا نفسه^(٦)».

(١) سورة الكهف، الآية ٢٣ - ٢٤.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٢٦ ح ١١١٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ج ٢، ص ٦٠.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٠٥.

(٥) الكليني، أصول الكافي، ص ٦٧٢، ح ١.

(٦) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣ ص ١٥٧، ح ٣٥٧٨.

فإنّ الوضوء والطهارة بحدّ ذاتهما هما نوع من التزكية، ومن أجدر بهما من المعلم. وقد ذكر الإمام مالك بن أنس أن الإمام الصادق كان إذا ذكر حديثاً لرسول الله ﷺ كان يلتزم على الطهارة^(١).

٣ - التواضع واحترام الدرس:

ومن جملة الآداب التعليمية مراعاة حرمة العلم وطالبه. فقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «وقرّوا من تعلمونه العلم»^(٢).

وقرّر الإمام الصادق بهذا بقوله: «تواضعوا لمن تعلمونه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين، فيذهب باطلكم بحقكم»^(٣).

وهذه دعوة حازمة جازمة للعالم أن يلين لتلاميذه والمتعلّمين على يديه، ويلطف بهم، ويعطف عليهم، «لأنّ التواضع من السنن الأكيدة، وإن كان لازماً لكل من الناس خصوصاً للمؤمنين لكن للمتعلّمين أوجب، لأنهم بمنزلة الأولاد مع ما هم عليه من ملازمة العالم واعتمادهم عليه في طلب العلوم النافعة»^(٤).

وقد روي أن سفيان الثوري^(٥) سأل الإمام الصادق عن خطبة النبي ﷺ في مسجد الخيف، وكان الإمام يستقل مركباً ليتوجه إلى مكان ما، فوعده الإمام بإجابه بعد عودته من شأنه، لكن سفيان أصرّ على ذلك، عندئذٍ ترجل الإمام عن مركبه وقال: «اكتب باسم الله...»^(٦) وتصرّف الإمام هذا يدل على مدى احترامه للعلم والتعليم، مما جعله يترجل عن مركبه ويذكر له خطبة النبي ﷺ.

٤ - المحبة وعدم العنف:

المحبة هي المبدأ التربوي الذي لا يستقيم تعليم ولا تربية من دونه، فالطلاب بحاجة إلى المحبة واللفظ والرعاية، كي يطمئنوا إلى معلمهم فيحبوه ويثقوا به ويُقدّروا مكانته، ومتى نمت هذه العلاقة استطاع المعلم أن يفعل الشيء الكثير في ميدان التعليم.

وليس من أخلاق المعلم المسلم العنف والخشونة في تعليمه، لأنّها تؤدي إلى ابتعاد التلاميذ عنه وعدم التفاتهم إليه إذا كان فظاً غليظ القلب.

(١) أمين الخولي، مالك بن أنس، هيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤، ص ٧٧.

(٢) جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١، ج ٢، ص ٧١٦، ح ٩٦٢٨.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب صفة العلماء، ح ١.

(٤) أمير علاء الدين القزويني، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

(٥) انظر إلى ترجمته ص ٥٠.

(٦) علي حسيني زاده، النظرة إلى التعليم الديني، مركز البحث في الحوزة والجامعة، قم ٢٠٠٠، ص ١٩٠.

أشار الإمام الصادق إلى هذا الأدب بقوله:

«على العالم إذا علّم ألا يعنف، وإذا علّم أن لا يأنف»^(١).

فينبغي أن يحسن العالم خلقه لمن يعلمهم، ويتلطف بهم إذا لقيهم ويظهر لهم البشر والموودة. ووصف الإمام مالك الصادق نفسه في مجلس درسه فقال: «لقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير التبسم...»^(٢).

وكانت العلاقة بين الإمام وتلاميذه حميمة جداً، حتى إنه إذا دخل عليه أبان بن تغلب - مثلاً - ثنى له الوسادة، وصافحه مستقبلاً ومودّعاً، وقال في وفاته: «أما واللّه لقد أوجع قلبي موت أبان»^(٣). وكذا يقول لأبي حمزة الثمالي: «إني لأستريح إذا رأيتك»^(٤).

وشمل لطفه حتى معارضيهِ والمنحرفين عنه رحمة لهم وشفقة عليهم ورغبة فيهم، فكان يخاطبهم برقيق القول من قبيل: يا أخا مصر يا أخا الشام.

٥ - العدل بين الطلاب:

من الآداب الأخرى التي ينبغي مراعاتها في التعليم، ولها آثار تربوية وتعليمية كبيرة. أن يراعي المعلم العدل بين تلاميذه في الجوانب كلها، العدل في النظرات نحوهم، وفي السؤال والجواب والتشجيع والجزاء وغير ذلك. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يراعي العدل حتى في النظر إلى أصحابه عند الحديث معهم.

والمعلم الذي لا يراعي العدالة بين تلاميذه، يفقد مكانته عندهم، وإذا انعدم احترام الطلاب لمعلمهم فلن يصغوا إلى كلامه ودروسه، مما سيقلل من استيعابهم.

من هنا فقد عني الإمام الصادق بهذا الأدب، وعندما سُئل عن هذه الآية:

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾^(٥) قال: ليكن الناس عندك في العلم سواء^(٦).

وفي كلام آخر إلى المعلم الذي سأله عن التعليم قال: «... أن يكون الصبيان عندك سواء في التعليم ولا تفضل بعضهم على بعض»^(٧).

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٩٣.

(٢) تقي الدين أحمد بن تيمية، قاعدة جليّة في التوسل والوسيلة، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، ص ٥٢.

(٣) عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٤) محمد المظفر، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٥.

(٥) سورة لقمان، جزء من الآية ١٨.

(٦) زين الدين العاملي، منية المريد، ص ١٨٥.

(٧) الطوسي، الاستبصار، ج ٣، ص ٦٥ ح ٢١٤.

فيرشد الصادق المعلم إلى أمر تربوي عظيم تبتني عليه صيانة قدر الإنسان وكرامته ويشترط لجواز شغله أن يكون التلاميذ عنده سواء وأن لا ينظر إلى الفواصل المالية والفروق المعيشية والمظاهر الترفيهية فيهم، فيحذّره عن عواقبه كما ينصه:

«من العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف، ولا يرى له في المساكين وضعاً، فذاك في الدرك الثالث من النار»^(١).

٦ - مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين :

الفروق الفردية «هي تلك الخصائص والصفات التي يتميز بها كل إنسان عن غيره من بني البشر سواء كانت هذه الخصائص تتعلق بالنواحي الجسمية أم العقلية أم الاجتماعية أم الأخلاقية»^(٢).

ولا شك في وجود هذه الفروق بين الأفراد، ولا يتشابه اثنان تشابهاً تاماً، «فقد اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ وجود فوارق فردية بين البشر لكونها من أهم الوسائل الدافعة للإنسان نحو الرقي والتطور المستمر»^(٣) وفي كتاب الله عزّ وجلّ الذي هو هداية ومنهج للحياة إشارات عديدة للفروق الفردية وضرورة العناية بها، قال تعالى:

﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ خَلْقًا أَلْسَمَتْهُ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَلْنَا أَلْسِنَكُمْ وَالْوَنُكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَلْعَلَمِينَ﴾^(٤)

وهناك في القرآن دعوة صريحة إلى ضرورة تحمل كل نفس ما تستطيع حمله وعدم تكليفها فوق ذلك: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٥)

وعملًا بالقاعدة نفسها ورد في الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ونكلّمهم على قدر عقولهم»^(٦).

وفي هذا الحديث مبدأ تربوي مبني على الاعتراف بما بين الناس من فروق في العقول. «ولما كان لكل متعلم قدرات واستعدادات خاصة به. لذا نرتب على المعلم أن يسير معه بقدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله»^(٧).

(١) الصدوق، الخصال، ص ٣٥٢.

(٢) فاروق عبد السلام، مدخل إلى القياس التربوي والنفسي، دار البشائر، بيروت ١٩٩١، ص ١١٢.

(٣) عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السّنة النبوية، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٤) سورة الروم، الآية ٢٢.

(٥) سورة البقرة، جزء من آية ٢٨٦.

(٦) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٦ ج ٦، ص ٢٧٤.

(٧) محمد منير سعد الدين، تاريخ التربية عند المسلمين، مرجع سابق، ص ١١٧.

فلم يغفل الإمام الصادق عن مراعاة الفروق الفردية في التربية العملية عند المتعلمين إذ أمر بعض تلامذته بالمناظرة، ونهى بعضهم عنها، فقد رأى أحد تلامذته صاحب الطاق وهو يناظر المخالفين في المدينة فنبهه على أن الإمام ينهى تلاميذه عن الكلام فالتفت صاحب الطاق إليه وقال:

أوأمرك أن تقول لي؟

قال: لا، ولكنه أمرني ألا أكلّم أحداً.

قال: اذهب فأطعه فيما أمرك.

وسمع الصادق بالواقعة من التلميذ فتبسّم، وقال له: «إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير، أما أنت إن قصوك لن تطير»^(١).

وعاش الصادق يمنع كلاً من تلاميذه عن الخوض في علم ما إذا شعر أنه لا يفلح فيه، ويسمح به للمقتدر عليه انطلاقاً من معرفته ما يمتاز به بعض الناس من بعض في هذا المضمار أو ذاك.

ومما يؤكد هذا المنهج ما رواه أبو زهره أنّ الإمام كان يخلو بجابر «أنّه كان يدارسه، ويختصه بالانفراد به في الدراسة مما يدلّ على أنّ ما كانا يتدارسانه لا يطيقه كل الناس لدقة حقائقه وعمق ما يحتاج إليه من تفكير»^(٢).

ب - شخصية المتعلم في فكر الصادق:

حدّد الإمام الصادق خصائص أو سمات المتعلّم فيما يخص من الناحية الشخصية والسلوكية التي تجسّد من العلاقة المثالية بين العالم والمتعلم، وتعاليمه كان على رأسها التوجيه المعنوي الذي يعتبر اليوم أساساً أولياً لكل روح علمية خالصة، فهو لا ينسى أن ينبّه على موضوع بالغ الأهمية وهو تزكية النفس قبل التعلم، لأنّ العلم نور لا يقذفه الله تعالى في القلب المنجس بالكدورات النفسية والأخلاق الذميمة، فيقول الصادق:

«ليس العلم بكثرة التعلم، وإنّما هو نور يقذفه الله تعالى في قلب من يريد الله أن يهديه»^(٣).

والمقصود بالعلم في كلام الإمام هو المعرفة، والعلم غير المعرفة. العلم طائفة من المعلومات تشغل الذاكرة وليس لها علاقة بالسلوك أما المعرفة فلها علاقة مباشرة بسلوك الإنسان وأخلاقه. وفي الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٤)

(١) الحرائي، تحف العقول، ص ٣٠٨.

(٢) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٥.

(٤) سورة فاطر، جزء من الآية ٢٨.

نجد العلاقة بين المعرفة والسلوك والأخلاق بشكل واضح، والمقصود بالعلماء في هذه الآية أصحاب المعرفة، «فإن العلم لا يتم تحصيله إلا بالتعلم ولكن قول جعفر الصادق لا يراد به ظاهره إنما يراد به حسن الانتفاع وصدق العمل»^(١).

وبهذا يعلم» أن العلم ليس هو مجرد استحضار المعلومات الخاصة وإن كانت هي العلم في العرف العامي وإنما هو النور المذكور الناشئ من ذلك العلم الموجب للبصيرة والخشية لله تعالى»^(٢).

ولذلك اهتم الصادق بهذا الأمر بالغ الأهمية بقوله:

«فإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك»^(٣).

فهو لا يكتفي بالحث على تحصيل العلم بل يأمر إلى جانب ذلك بالتخلق بالأخلاق الفاضلة، فالتقوى والأخلاق أولاً ثم العلم، فلا أثر لعلم بغير تقوى ولا ثمر لدين بغير علم.

إذن فلا بد لكل «متعلم أن يطهر نفسه أولاً من رذائل الأخلاق، والأوصاف بأسرها وإذا لم يجرد لوح نفسه عن النقوش الروية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة»^(٤).

فقد ورد عن الصادق توصيات عامة، يوصي بها المتعلمين وما ينبغي أن يتصفوا به تجاه المعلمين، منها ما رواه عن جدّه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مخاطباً لطلبة العلم: «يا طالب العلم، إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء. وهيمته السلامة، وحكمته الورع، ومستقره النجاة. وعافيته العافية، وجيشه محاوراة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، وماؤه المودعة، ودليله الهدى، ورفيقه محبة الأخيار»^(٥).

ويبدو واضحاً من خلال هذا النص معظم الصفات التي يجب أن يتصف بها المتعلم.

- (١) محمد غزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨، ص ١٧٠.
- (٢) زين الدين العاملي الشامي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، مرجع سابق، ص ٦٩.
- (٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٦.
- (٤) محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، ج ١، دار التفسير، قم، ١٤٢٣، ص ٩٢.
- (٥) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب فضل العلم، ح ٢.

وفيما يلي جملة من هذه الصفات التي أوردتها الإمام، والتي ينبغي لطالب العلم التحلي بها كي ينجح في دراسته وحياته العلمية:

١ - الإخلاص:

وينبغي للمتعلم أن يخلص لله تعالى في طلبه للعلم، وأن يتوخى في ذلك مرضاة الله تعالى، وأن يتجرد من الهوى ومن حظوظ النفس، وقد أعلن ذلك الإمام الصادق بقوله: «من أراد الحديث لمنفعة الدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خيري الدنيا والآخرة»^(١).

وقد كان يحث تلاميذه واللاذنين به والطائفين حول رحابه على الإخلاص وأن لا يكون في طلبهم للعلم شيء من المراء والمباهاة والمفاخرة. والوصول إلى جاه أو مال أو لمجرد التفوق على الأقران، بل لنشر العلم والفضيلة، فكان يقول:

«لا تطلب العلم لثلاث: لتراي به، ولا لتباهي به، ولا لتماري به»^(٢).

وأهاب الإمام بطلاب العلوم ألا يتباهوا ولا يفخروا على غيرهم بما عندهم من طاقات علمية ذلك لأن «الذين مقصودهم من وراء الدراسة أمور نفسية نستطيع أن نقول أن غاية مطلوبهم الجهل»^(٣)، وقد بين الصادق بوضوح أصناف طلاب العلوم، مصوراً لدوافعهم النفسية، فقال: «طلبة العلم ثلاثة: فاعرفهم بأعينهم وصفاتهم - وهم:

- صنف يطلبه للجهل والمراء.

- صنف يطلبه للاستطالة والختل.

- وصنف يطلبه للفقہ والعقل.

فصاحب الجهل والمراء: مؤذ ممار، متعرض للمقال في أندية الرجال، بتذاكر العلم، وصفة الحلم، قد تسربل بالخشوع، وتخلّى عن الورع، فدقّ الله من هذا خيشومه^(٤)، وقطع منه حيزومه^(٥).

وصاحب الاستطالة والختل: ذو خبّ^(٦) وملق^(٧)، يستطيل على مثله من أشباهه،

(١) عبد علي الحويزي، تفسير نور الثقلين، مؤسسة اسماعيليان، قم، ١٤١١، ج ٤ ص ٥٦٩.

(٢) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٣) روح الله الخميني، الأربعون حديثاً، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط ٦، ١٤١٩، ص ٤٢١.

(٤) خيشوم أقصى الأنف، ودقّ الخيشوم الكناية عن الذلّ والهوان، (ابن منظور، لسان العرب، مادة خشم).

(٥) وسط الصدر، (المصدر نفسه، مادة حزم).

(٦) الخداع والخبث، (المصدر نفسه، مادة خب).

(٧) رجل ملق: يعطي بلسانه ما ليس في قلبه، (المصدر نفسه، مادة ملق).

ويتواضع للأغنياء من دونه، فهو لحلوانهم هاضم، ولدينه حاطم، فأعمى الله على هذا خبره، وقطع من آثار العلماء أثره.

وصاحب الفقه والعقل: ذو كآبة، وحزن وسهر، وقد قام الليل في حندسه^(١) يعمل ويخشى، وجلاً داعياً، مشفقاً، مقبلاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه، فشدَّ الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه^(٢).

وسلَّط الإمام الضوء على نفسيات طلاب العلوم، وأنَّ من يطلب العلم منهم لغير الله فهو في ضلال مبين، وأمَّا من يطلب العلم لوجه الله، فهو على هدى، وأعطاه الله يوم القيامة أمانه.

٢ - الحلم:

ومن آداب المتعلم متابعة العالم وملازمته في طلب العلم والصبر على ما لم يحط علمه به من ذلك، فقد أوصى الصادق تلاميذه بالتحلي بالحلم في كثير من وصاياه لهم فقال: «عليك بالحلم فإنَّه ركن العلم»^(٣).

فقد أثير عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جمع شيء أفضل من حلم إلى علم»^(٤) لذلك أدب الصادق تلاميذه بهذا الأدب تصديقاً لما ورد في حديث النبي ﷺ بقوله:

«أطلبوا العلم وتزيّنوا معه بالحلم والوقار»^(٥).

فنرى شخصية المتعلم في فكر الصادق بأنَّه يملك العلم ولكن مع سعة الصدر عندما يواجه التحديات.

٣ - التواضع:

ينبغي على طالب العلم التواضع للعالم المعلّم لأنَّ التواضع هو دليل على شرف النفس وسمو الذات، «فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع»^(٦) وقد أكّد الصادق على ضرورة التحلي به للإنسان المسلم بصورة عامة ولطالب العلم خاصة بقوله: «وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم»^(٧).

(١) الحندس: الظلمة، (المصدر نفسه، مادة حند).

(٢) زين الدين الشامي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٣) الصدوق، الأمالي، ص ٧١١.

(٤) سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، دار الحرمين، د.ت، ج ٥، ص ١٢٠.

(٥) الصدوق، الأمالي، ص ٤٤٠ ح ٥٨٥.

(٦) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٧٦.

(٧) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٤١.

وأوصى الصادق تلاميذه بقوله: «اطلبوا العلم بوجوهه، فانبرى إليه بعض أصحابه، فقال: ما وجوهه؟ فأجابه: بمناهجه ووجوهه قائلاً: «التواضع للعالم، والقبول منه، والصمت أمامه، والاستماع إليه، وحفظ العلم، والعمل به...»^(١).

٤ - تعظيم العالم:

يجب على المتعلم تعظيم العالم وتوقيره «وأن يحافظ على شرائط الخضوع والأدب للمعلم ولا يردّ عليه شيئاً بالمواجهة ويكون محباً له بقلبه ولا ينسى حقوقه»^(٢). ولذلك ما حضّ الإمام الصادق على طلب العلم إلاّ وحضّ على العناية بشأن العلماء والعطف عليهم فقال:

«من أكرم فقيهاً مسلماً لقي الله يوم القيامة وهو عنه راض، ومن أهان فقيهاً مسلماً لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان»^(٣).

وقال: «إني لأرحم ثلاثة، وحقّ لهم أن يُرحموا: عزيز أصابته مذلة بعد العزّ، وغنيّ أصابته حاجة بعد الغنى، وعالم يستخفّ به أهله والجهلة»^(٤).

وقال: «ثلاثة يشكون إلى الله عزّ وجل: مسجد خراب لا يصلّي به أهله، وعالم بين جهال، ومصحف معلق قد وقع عليه غبار لا يقرأ فيه»^(٥).

٥ - طلب العلم بالجد والاجتهاد والسؤال:

ينبغي على طالب العلم أن يجتهد في تحصيل العلوم، فعليه المبادرة إلى التفهم والسؤال. وكان الإمام الصادق يحضّ تلاميذه على المبادرة إلى السؤال عمّا جهلوه، ويوجههم لأهمية السؤال وآدابه ممّا يعود نفعه علمياً وتربوياً على نفس التلميذ وأوصى بقوله: «إذا كنت لا تعلم، عليك أن تسأل ولا تتجمّد عند جهلك، لأنّ جهلك ليس عذراً لك أمام الله، ما دمت تستطيع أن تحوّل جهلك إلى علم. ودواء العي السؤال»^(٦).

وقال: «إنما يهلك الناس لأنهم لا يسألون...»^(٧). أي يهلكون لأنهم جهلوا تكاليفهم وعقيدتهم، فانحرفوا من موقع جهلهم، وكانوا القادرين على أن يسألوا العلماء

(١) باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٠٨.

(٢) محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، مرجع سابق، ج ١، ص ١٤٤.

(٣) كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٢.

(٤) الصدوق، الخصال، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د.ت، ص ٨٧.

(٥) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب قراءة القرآن في المصحف، ح ٣.

(٦) كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ٤، ص ٥٨.

(٧) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١، ص ١٩٨.

وأهل المعرفة، ولكنهم أحجموا عن ذلك ولم يتحسّسوا أهمية الأمر. وقال أيضاً: «إن هذا العلم عليه قفل ومفتاحه المسألة»^(١). وأوصى المتعلمين بترك الحياء في طلب العلم؛ لأنه يؤدي إلى الجهل فقال ما نصه: «لا تدع طلب العلم لثلاث: رغبة في الجهل، وزهادة في العلم، واستحياء من الناس»^(٢).

وكان الإمام يستقبل من يسأله بالترحيب والتودد وانبساط الوجه والخلق العالي وقد يحسنهم على بعض الأسئلة تشجيعاً لهم على طلب العلم.

ولكن يُلزم الإمام طالب العلم بأن يكون سؤاله طلباً للمعرفة وإزاحة الجهل وليس له أن يسأل تعنتاً وحجاً لظهور الأمر الذي يتنافى مع واقع العلم. فقال: «فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة، وإياك أن تعدل بذلك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلاً...»^(٣).

دخلت على الإمام امرأة، فسألته عن مسائل في الحرام والحلال، فتعجّب تلاميذ الإمام من حسن تلك المسائل، فقال لهم الإمام: «أرايتم مسائل أحسن من مسائلها؟»^(٤).

٦ - كتابة الدروس والمحافظة على الكتب:

من آداب المتعلم اهتمامه بكتابة الدروس وقد ورد عليها كثير من الآثار فمنه عن النبي ﷺ أنه قال: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»^(٥)، فينبغي لطالب العلم أن يحمل معه أدوات الكتابة، فقد روي أنه جاء رجل إلى أبي عبد الله ومعه أناس من أصحابه فسأله حديثاً فأخبره به «فكتب القوم الحضور عنه ذلك الحديث»^(٦).

وروي أنّ الإمام نظر إلى فتى على ثيابه أثر المداد وهو يستره لئلا يراه الإمام، فقال له الصادق: «يا هذا إنّ المداد على الثياب من المروءة»^(٧).

وكان الإمام يحث تلاميذه على كتابة العلم؛ لأنه مفتاح للتأليف وسبب لتطور

(١) الكاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ٤ ص ٥٩.

(٢) محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٣) زين الدين العاملي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، ص ١٥٠.

(٤) محمد باقر مجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٢١.

(٥) نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٩٦.

(٦) عبد الله فياض، تاريخ التربية عند الإمامية، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٧) باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، ج ١، ص ١٢٤.

الفكر وتقدم للطالب في ميادين العلم وقد أكد دعوته الملححة على هذه الجهة في غير موطن كقوله: «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا»^(١)، وقال: «إن القلب يتكل على الكتابة»^(٢).

وحت تلاميذه على تدوين دروسه ومحاضراته وذلك خوفاً عليها من الضياع والاضطراب. فقال للمفضل بن عمرو: «اكتب وبث علمك في إخوانك، فإن مت فأورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمن هرج لا يأنسون فيه إلا بكتبهم»^(٣). كما أوصى تلاميذه بالمحافظة على الكتب بقوله: «احتفظوا بكتبكم، فإنكم سوف تحتاجون إليه»^(٤).

ولأن الكتاب يعتبر من أعظم الوسائل التربوية وأحسن وسيلة لنقل العلوم والحقائق أو الآراء والأفكار من جيل إلى جيل، فهي مادة أساسية للمعرفة وبمنزلة الكنوز التي يتركها السلف للخلف. فقد اهتم الإمام الصادق بهذا الأمر ورسم لنا منذ اثني عشر قرناً ما للكتب من قيمة علمية وأدبية بقوله:

«... وكذلك الكتابة التي تقيّد أخبار الماضين للباقيين، وأخبار الباقيين للآتين، وبها تخلد الكتب في العلوم والآداب وغيرها، وبها يحفظ الإنسان ذكر ما يجري بينه وبين غيره من المعاملات والحساب، ولولاه لانقطع أخبار بعض الأزمنة عن بعض، وأخبار الغائبين عن أوطانهم، ودرست العلوم، وضاعت الآداب، وعظم ما يدخل على الناس من الخلل في أمورهم ومعاملاتهم، وما يحتاجون إلى النظر فيه من أمر دينهم، وما روي لهم ممّا لا يسعهم جهله...»^(٥).

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ١، باب رواية كُتِبَ الحديث، ح ٩.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٥٢.

(٣) زين الدين العاملي، منية المريد، ص ٢٤١.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ح ٣٣٢٦٢.

(٥) كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص ٣٩.

الأساليب التعليمية عند الصادق

كان الإمام الصادق يستخدم بعض الأساليب في تعليم تلاميذه، ومنها:

أ - استخدام الوسائل التعليمية :

للسبل التعليمية دور مهم في شرح العملية التعليمية ولمزيد من الفهم عند الطالب، فأهم وسائل المعرفة عند الإنسان وأكثرها شيوعاً هي الحواس الظاهرية، وخاصةً لدى المبتدئين. والحواس الظاهرية لا تدرك إلا المحسوسات، أما غير المحسوسات فإنها تدرك عن طريق العقل والذهن، والعقل والذهن يدركان عبر مقدمات حسية. وعليه فكلما ازدادت المقدمات الحسية وكانت أكثر وضوحاً كلما كان الإدراك العقلي والذهني أفضل وأسرع. من هنا ينبغي أن يقدم المحتوى المضمون التعليمي العقلي أو الذهني بأساليب مختلفة منها استخدام وسائل التوضيح التعليمية المحسوسة والملموسة.

فنرى الإمام الصادق يستخدم بعض هذه الوسائل المحسوسة، فعندما سئل: متى وقت الصلاة؟ فأقبل يلتفت يميناً وشمالاً كأنه يطلب شيئاً فأخذ عوداً فنصبه بحيال الشمس ثم قال: «إنَّ الشمس إذا طلعت كان الفيء طويلاً ثم لا يزال ينقص حتى تزول، فإذا زالت، زادت، فإذا استتبت فيه الزيادة فصلَّ الظهر ثم تمهَّل قدر ذراع وصلَّ العصر»^(١).

في هذه الرواية نجد أن الإمام الصادق استخدم عوداً من الخشب منصوباً ليعلم الرجل كيفية تحديد وقت الصلاة.

وتؤدِّي وسائل التوضيح التعليمية أدواراً متعددة في رفع المستوى التعليمي والفهم، ومن جملة ذلك: تؤمن للفكر أساساً يمكن لمسه، ويخفف على الطلاب استخدام المفاهيم المجردة، وتزيد من رغبة التلاميذ في التعلم، وتسترعى انتباههم أكثر، وتقل وتوصل المعاني والمفاهيم بشكل أسرع وأوضح.

إضافة إلى أن الوسائل التعليمية ليست بالضرورة أن تكون متطورة، بل يمكن استخدام وسائل تعليم بسيطة كما رأينا ذلك في سيرة الإمام.

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٢، ص ٢٧ ح ٧٥.

ومنه ما روي أن أبا عبد الله تلا هذه الآية:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(١)

فأخذ قبضة من حصى فقبضها بيده فقال: «هذا الإقتار الذي ذكره الله في كتابه ثم أخذ قبضة أخرى وأرخى كفّه كلّها ثم قال: هذا الإسراف، ثم أخذ قبضةً أخرى فأرخى بعضها وأمسك بعضها وقال: هذا القوام»^(٢).

كما رأينا فإن الإمام استخدم ببساطة الوسائل التعليمية المتوافرة، وعلم تلامذته ما يريد بأسلوب عيني.

ب - تشجيع الطالب والثناء عليه:

من الأساليب التعليمية الأخرى عند الإمام تشجيع طلابه على فهمهم، الذي يشكل عاملاً مؤثراً في رفع مستوى تلقّيهم.

فقد روي عن الإمام الصادق أنّه قال لبعض تلامذته: أي شيء تعلمت منّي؟ قال له: يا مولاي ثمان مسائل، قال له: قصّها عليّ لأعرفها قال: الأولى رأيت كل محبوب يُفارق عند الموت حبيبه فصرّفتُ همّتي إلى ما لا يُفارقني بل يؤنسني في وحدتي وهو فعل الخير، فقال الإمام: أحسنت والله. الثانية، قال: رأيت قوماً يفخرون بالحسب وآخرين بالمال والولد وأن ذلك لا فخر ورأيت الفخر العظيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ﴾^(٣) فاجتهدت أن أكون عنده كريماً قال: أحسنت والله. الثالثة، قال: وفي كل مرة، قال الإمام: أحسنت والله، وأثنى عليه قائلاً: «والله إن التوراة والإنجيل والفرقان وسائر الكتب السماوية ترجع إلى هذه الثمان المسائل»^(٤).

من هنا فقد كان الإمام يستخدم التشجيع الكلامي مع تلامذته على علم تلقّوه منه أو اقتبسوه عنه، إلى درجة يمكننا القول معها أن التشجيع الكلامي عند الإمام كان ملازماً لسيرته.

وقد أشاد الإمام كثيراً بكبار تلامذته تقديراً لخدماتهم في طريق الإسلام كقوله في زراة بن أعين^(٥): «لولا زراة لظننت أن أحاديث أبي ستذهب»^(٦). وقال في حق هشام بن الحكم: «هذا ناصرنا بيده ولسانه وقلبه»^(٧).

(١) سورة الفرقان، الآية ٦٧.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥٦٠، ح ٢٧٨٧١.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٣. (٤) أبي فراس ورام، تنبيه الخواطر، ج ١، ص ٣١١.

(٥) انظر إلى ترجمته ص ١٧٥.

(٦) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٤٢، ح ٣٣٤٣١.

(٧) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٩٦.

ج - التضاد أو المقارنة :

إن أسلوب التضاد أو المقارنة من جملة الأساليب المؤثرة في التعليم، وتساعد على بقاء المطلب في ذهن المتلقي . فبشكل عام عندما يكون هناك ارتباط منطقي بين عنصرين، فإذا عرفنا أحدهما أو تصورناه، فإننا سنعرف الثاني بسهولة . والارتباط المنطقي بين الشيئين إما أن يكون عن تشابه أو تعارض يمكن أن يساعد الطالب على التعلم والفهم .

نجد نماذج لهذا الأسلوب في سيرة الإمام الصادق كقوله : « لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار »^(١) .

الصغيرة والكبيرة من الذنوب في هذه الرواية متضادان، وقد أدرجهما الإمام في جملة واحدة لبيان حكمهما . كما إنه قد استخدم علاقة التشابه أيضاً، ذلك لأن حكم الموضوعين متشابه، أي أن الأصلين هنا ينتفيان، فالإصرار على الصغيرة ينفي صغر الذنب حتى يصبح كبيرة، والاستغفار من الكبيرة ينفي أصل الذنب الكبير ليغفر . وعليه فإن الإمام قد استخدم في جملة هذه علاقتي التشابه والتضاد معاً ونتيجة ذلك أن يبقى المطلب في الأذهان بسهولة .

د - التمثيل والتشبيه :

للمثيل والتشبيه دور مهم وأساس في التعليم، وخاصة في التعليم العام، فالقرآن الكريم استخدم التمثيل كثيراً في مجال تربية الإنسان، ويذكر القرآن بنفسه الهدف من ذكر الأمثلة، ألا وهو تذكير البشر، فيقول: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٢)

ذلك لأن التمثيل والتشبيه يقرب الأمور المعقولة والذهنية والمجردة من الأمور العينية، وعلاوة على ذلك فإن هذا الأسلوب يشكل نوعاً من التعلم ذي المعنى، فهو يقدم للطلاب محتوى تعليمياً جديداً يُضاف لما لديهم ويرسخه، كما إنه يمثل طريقة تعلم أفضل وأسهل .

شكا رجل للإمام الصادق الفقر، فقال له : « اصبر فإن الله سيجعل لك فرجاً، ثم سكت ساعة ثم أقبل على الرجل فقال : أخبرني عن سجن الكوفة كيف هو؟ فقال : أصلحك الله، ضيق منتن وأهله بأساً حال، قال : فإنما أنت في السجن فتريد أن تكون فيه سعة أما علمت أن الدنيا سجن المؤمن »^(٣) .

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الإصرار على الذنب، ح ١.

(٢) سورة الزمر، الآية ٢٧. (٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب المؤمن صنفان، ح ٦.

فنرى أن الإمام قد شبه الدنيا بالسجن، وبَيَّن له أن الموطن الحقيقي للمؤمن هو الجنة، وأن الجنة قياساً مع الدنيا كالدنيا قياساً بالسجن، بل أفضل من ذلك. كما شبه الحدود الإلهية في الحلال والحرام بحدود البيت قائلاً: «إنَّ للدين حدوداً كحدود بيتي هذا، وأوماً بيده إلى جدار فيه»^(١). وفي مجال آخر قال: «مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله»^(٢).

هـ - تنظيم المعلومات وتقسيمها:

من الأساليب التي نجدها في التربية العلمية للإمام الصادق تنظيمه للنصوص التعليمية وتقسيمها إلى بنود أبجدية ذات تأثير كبير على فهم الطالب وحفظه لتلك النصوص، ونجد أن الإمام لم يغفل عن هذا الأسلوب، خاصةً عندما يكون الدرس كبيراً ومفصلاً.

ويعتقد المعلمون اليوم «أن مثل هذا التنظيم والتقسيم له آثار تعليمية كسهولة التعلم والحفظ، ولا يتعب الطالب. كما إن له آثاراً تربوية أخرى منها: أنه يصوغ ذهن الطالب على النظام والانضباط المنطقي، حتى يُصبح ذهنه منطقياً ومنظماً بشكل غير مباشر ودون عناء منه»^(٣).

ويبدو من كلام الإمام الصادق الآتي اهتمامه بهذا الأمر في إعداده لتلاميذه قبل إثني عشر قرناً. عندما سأله سائل فقال: كم جهات معائش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات؟

فقال: «جميع المعائش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم ممّا يكون لهم فيه المكاسب أربع جهاتٍ من المعاملات... فأول هذه الجهات الأربع: الولاية وتولية بعضهم على بعض... ثم التجارة في جميع البيع والشراء بعضهم من بعض، ثم الصناعات في جميع صنوفها، ثم الإجازات في كل ما يحتاج إليه من الإجازات. وكل هذه الصنوف تكون حلالاً من جهة، وحراماً من جهة، والفرض من الله على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال منها والعمل بذلك الحلال واجتناب جهات الحرام منها»^(٤).

نجد أن الإمام قدم في البداية إطاراً أساسياً يضم الجواب الكامل على سؤال السائل، ثم بدأ بشرح كل وجه من الوجوه الأربعة، وجهات الحلال والحرام فيها.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٧٠.

(٢) الحراني، تحف العقول، ص ٢٩٦.

(٣) علي حسيني زاده، النظرة إلى التعليم الديني، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٤) الحراني، تحف العقول، ص ٥٣٠.

و - الترقيم والأعداد:

ومن الأساليب التعليمية التي استخدمها الإمام الصادق تبين الدروس في أطر عديدة ثنائية وثلاثية ورباعية و... وهو أسلوب خاص لا يمكن أن يُصاغ كل نص به، بل تُصاغ به النصوص المتناسبة مع هذا الإطار.

واستفاد الإمام الصادق من هذا الفن في سيرته التربوية والتعليمية لتلامذته كثيراً، ليزيد به من تأثير كلامه ونفوذه في أذهان الأفراد. فنجده يعرض المواعظ في أطر ثلاثية العدد كقوله: «من تعلّق قلبه بالدنيا، تعلّق منها بثلاث خصال: همٌّ لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال»^(١).

وأحياناً في مواعظ عديدة رباعية كقوله: «من أعطي أربعاً لم يُحرّم أربعاً: من أعطي الدعاء لم يُحرّم الإجابة، ومن أعطي الاستغفار لم يُحرّم التوبة، ومن أعطي الشكر لم يُحرّم الزيادة، ومن أعطي الصبر لم يحرم الأجر»^(٢).

وأحياناً أخرى في أطر خماسية وسداسية أو أكثر منها كقوله: «خمس من لم تكن فيه خصلة منها، فليس فيه كثير مستمتع: الدين والعقل والأدب والحرية وحسن الخلق»^(٣).

ز - أسلوب الاستجواب:

يعتبر الاستجواب من الوسائل المساعدة على التعلّم وتنمية الملكات والقدرات العقلية، فهي وسيلة ناجحة في تحريك العقول والأفهام وتهيئتها للتلقّي والتعلّم ومشاركتها الذاتية الفعّالة فيها. فلذلك من الأساليب التي كان لها مكانتها الخاصة في التربية العلمية للإمام الصادق أسلوب السؤال والجواب، حيث كان الإمام يطرح ابتداءً السؤال، ويطلب من تلاميذه التفكير فيه والإجابة عنه، فقد يجيب التلميذ بجواب صائب فيؤكّده الإمام ويؤيّدّه، وقد تكون إجابته ناقصة فيكملها الإمام. وأحياناً يكون الجواب غير صائب، فيصححه الإمام. وأحياناً كان التلميذ يسكت معترفاً بجهله الإجابة، فيبادر الإمام إلى الإجابة بنفسه.

والهدف من استخدام هذا الأسلوب هو تحفيز الطالب على المعرفة، ودفع الطالب ليكون فعّالاً في تلقّي المعلومات، ولفت انتباهه نحو الأستاذ، وليتعلّم بشكل أفضل وأعمق.

(١) الصدوق، الخصال، ص ٨٨.

(٢) الصدوق، معاني الأخبار، ص ٢٢٤.

(٣) عبد الحميد بن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧، ج ١٨، ص ١٨٥.

قال الإمام الصادق لتلميذه يوماً: «أندري من الشحيح؟ قال: هو البخيل، فقال: الشح أشد من البخل، إن البخيل يبخل بما في يده، والشحيح يشح على ما في أيدي الناس وعلى ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئاً إلا تمتى أن يكون له بالحل والحرام لا يشبع ولا ينتفع بما رزقه الله»^(١).

وفي موضع آخر يسأل الإمام تلامذته: «أندرون من الفتى؟ قالوا: الفتى عندنا الشباب، قال لهم: أما علمتم أن أصحاب الكهف كانوا كلهم كهولاً فسمّاهم الله فتية بإيمانهم، من آمن بالله واتقى فهو الفتى»^(٢).

ف نجد الإمام كيف يستعرض نصوصه التعليمية من خلال السؤال ليلتفت الطالب إلى جهله بالمسألة أولاً، ثم يرفع من حوافزه للتعلم والاطلاع حتى يركّز جميع حواسه على تلقّي المعلومات ثانياً، وليشارك الطالب بنفسه في تلقّي العلوم بفعالية ثالثاً، وليتم تناول وتوضيح زوايا أكثر من الموضوع والمسألة، وليكون التعليم أعمق وأرسخ.

وأحياناً نجد أن الإمام يسعى لتحقيق أهدافه التعليمية هذه من خلال طرح عبارات مبهمة وغير مستأنسة، ليدفع الطالب إلى المشاركة في الأسئلة والبحث.

ومن ذلك قوله لتلامذته يوماً: «اتقوا الحالقة فإنها تميت الرجال، قالوا: ما الحالقة؟ قال: قطيعة الرحم»^(٣).

وكان بإمكانه أن يقول لهم مباشرة اتقوا قطع الرحم، لكنه لم يفعل ذلك ابتداءً، بل طرح فكرته تلك بكلام مبهم، ليجد السؤال في ذهن المخاطب ليكون التعلم أفضل ويكون تأثيره أرسخ وأبقى.

ح - التعليم العملي:

يطلق اسم التعليم العملي على التعليم الذي يقوم خلاله الأستاذ بأداء ما يريد إفهامه للطالب ليراه ويتعلمه، أو أن يطلب الأستاذ من التلميذ القيام بذلك بنفسه ليتعلمه من خلال التجربة.

ويسمّى النوع الأول التعليم بالمشاهدة أيضاً، بينما يسمّى النوع الثاني التعليم العملي أو التعليم من خلال التطبيق وقد سمّينا كلا الأسلوبين في هذه الدراسة التعليم العملي.

وبما أن هذا النوع من التعليم يرتبط بحواس الإنسان، لذلك يكون أكثر عمقاً

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٦٣، ح ١٧١٥.

(٢) الطباطبائي، تفسير الميزان، مرجع سابق، ج ١٣، ص ٢٨٣.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢١٠، ح ٤.

ورسوخاً. من هنا فإن المعلومات التي تدرّس بشكل نظري ويمكن شرحها بشكل عملي سيكون تعلمها بشكل أفضل وتبقى راسخة في الأذهان أكثر.

ولقد استعمل الإمام الصادق أسلوب التعليم العملي من بين أساليبه التربوية مع تلامذته، ذات يوم فقال لأحد أصحابه: «تحسن أن تصلي؟» قال له: يا سيدي أنا أحفظ كتاب الحريز^(١) في الصلاة. قال الإمام: «لا عليك قم صلّ» فقام بين يديه متوجّهاً إلى القبلة، فاستفتح الصلاة وركع وسجد. فقال الإمام: «لا تحسن أن تصلي، ما أقبح بالرجل أن يأتي عليه ستون أو سبعون سنة فما يقيم صلاة واحدة بحدودها تامّة» فقال: فعلمني الصلاة. فقام أبو عبد الله مستقبل القبلة منتصباً، فأرسل يديه جميعاً على فخديه... فقال: «هكذا صلّ»^(٢).

كان الإمام يستطيع أن يعلمه فيقول له صلّ هكذا دون أن يريه ذلك عملياً، لكنه لم يفعل ذلك، بل صلى أمامه عملياً، ثم قال له: «هكذا صلّ» لأن مثل هذا التعليم نادراً ما يُنسى.

كما إن بعض الأمور لا يمكن تعليمها للغير بشكل شفهي ونظري، بل لا بد أن يُمارسها الطالب عملياً ويجريها.

ورد عن الصادق أن رجلاً أتاه فقال: يا ابن رسول الله؟ أخبرني عن أعظم أسماء الله تعالى، وكان بين يديه حوض وكان يوماً بارداً فقال الإمام للرجل: «أدخل في هذا الحوض واغتسل حتى أخبرك به، فدخل الرجل في الحوض واغتسل فبقي فيه ساعة، فلما أراد الخروج أمر الإمام غلمانه أن يمنعه من الخروج، فبقي فيه ساعة، فتألم من البرد فقال: ربّ أغثني! فقال الإمام: هذا ما سألت عنه فإنّ العبد إذا اضطر يدعو الله بهذا الاسم فيغيثه الله تعالى»^(٣).

ط - التدريب والتقييم:

تربية الإمام الصادق تعتمد على الممارسات العملية والتقييم التي تُعرف بواسطتها استعداد التلاميذ ومبلغ تحصيلهم من العلم.

وكثيراً ما يدع الصادق تلاميذه يخوضون في النقاش والتباحث في مواضيع علمية

(١) حريز بن عبد الله السجستاني، أبو محمد الأزدي، من أصحاب الإمام الصادق من أهل الكوفة، أكثر السفر والتجارة إلى سجستان فعرف بها، له كتب ومنها كتاب الصلاة والزكاة تعدّ كلّها في الأصول. (الخوئي، معجم الرجال، ٢٤٩/٤ - ٢٥٠).

(٢) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٢، ص ٨١، ح ٣٠١.

(٣) علي حسني زاده، النظرة إلى التعليم الديني، مرجع سابق، ص ١٤٢.

شتى ويُقبل عليهم ويصغي إليهم، وربما تدخل فيما بينهم، أو نبههم إلى مواطن الصحة والسقم في البحث العلمي، وكان يصنعهم بعينه.

فنرى الإمام الصادق يوجه أصحابه إلى مجادلة أحد المخالفين الذين يفدون على المدينة من الشام، فبعد المناقشة قام الإمام بتقييم تلاميذه فيعلق على طريقتهم أو قدرتهم كما يلي:

التفت أبو عبد الله إلى حمران بن أعين^(١) فقال: «تجري الكلام على الأثر فتصيب»، والتفت إلى هشام بن سالم^(٢) فقال: «تريد الأثر ولا تعرفه»، ثم التفت إلى الأحول^(٣)، فقال: «قياس رَوَّاع، تكسر باطلاً بباطل، إلّا أنّ باطلك أظهر»، ثم التفت إلى قيس الماصر^(٤)، فقال: «تتكلم وأقرب ما تكون من الخبر عن رسول الله ﷺ أبعد ما تكون منه، تمزج الحق مع الباطل وقليل الحق يكفي عن كثير الباطل، أنت والأحول قفازان حاذقان»^(٥).

فالمصادق يبين لهم جوانب النقص والكمال في نقاشهم ويشجعهم على إكمالها وهذه النقطة في غاية الأهمية في عملية التعليم وهي الوسيلة الهامة أيضاً لتنمية العلم وتقدمه.

فكأن الإمام يخاطب الذي يُحاول أن يستفيد من الباطل لكي يتغلب على الخصم، ما الفرق بينك وبينه؟ إنّه جحد حقاً وجحدت مثله، فهو جحد الحق في النتائج، وأنت جحدت الحق في الوسيلة.

ويؤكد أن الدعوة إلى الحق ينبغي أن تعتبر الحق هو العنصر الأساسي في الوسيلة والعنصر الأساسي في النتيجة، لأنك عندما تأخذ من الباطل حجة على حَقِّك، فإنّ معنى ذلك أنّك توحى بضعف الحق عن مواجهة التحديات التي تواجه إليك، ولذلك تلجأ للاستعانة بالباطل في مقام تأكيد صوابية رأيك.

وهكذا، فإنّ الإمام يريد أن يوحى لنا بأنّ على الإنسان ألا يظلم الآخر عندما يستعين في الحوار معه بأمور غير حقيقية في سبيل تركيز الفكرة، لأنّ القضية الأساسية هي أن نُعطي الإنسان الحق كلّهُ، لينطلق الحقُّ بكُلِّهِ في عقله ووجدانه.

(١) انظر إلى ترجمته في ص ١٠٨.

(٢) هشام بن سالم الجواليقي، مولى بشر بن مروان، أبوالحكم، كان من سبي الجوزجان، كوفي، روى عن أبي عبد الله، له كتاب يرويه جماعة، ثقة ثقة (الخوئي، معجم الرجال ٣٢٤/٢٠).

(٣) انظر إلى ترجمته في ص ١٧٦.

(٤) قيس بن ماصر من المتكلمين، تعلّم من علي بن الحسين وصحب الإمام الصادق (المصدر نفسه ١٥/١٠٢).

(٥) عبد الحليم الجندي، الإمام جعفر الصادق، مرجع سابق، ص ٢١٨.

ولقد يُلاحظ المرء من ذلك تعدد طرقهم، وتفاوت علمهم، ونفاذ بصيرة الإمام إلى خصائصهم، ودوره في تصويب وتدريب كل منهم، وهو لا يتركهم دون تشجيع، وأحياناً كان الإمام يشي على بعض تلاميذه ويكبر جهادهم في تنفيذ شبهات الخصم كما يقول لأبان بن تغلب: «يا أبان ناظر أهل المدينة فأني أحب أن يكون مثلك من رواتي ورجالي»^(١).

فجلوس الإمام فيما بين أصحابه عند المناظرة، وإحالة الكلام والمناظرة من أحدهم إلى الآخر كما يأمرهم ثم تقويم مناظرة كل منهم ومدى قدرته على محاجة الخصم ودحض مزاعمه، ليعطي إشارة واضحة منه أنهم في دورة تدريبية، ولا بد من إكمال نقص قدراتهم، واتخاذ أساليب أخرى، أو إقراره لهم بحسن المناظرة كما مر.

على صعيد آخر نلاحظ أن الإمام الصادق في تربيته العلمية يُطالب من تلاميذه أن يعرضوا عليه معلوماتهم ومناقشاتهم حتى يقوم مستوى ما تعلموا منه فيقول لأحد تلاميذه: «أي شيء تعلمت مني؟ قصها عليّ لأعرفها»^(٢)، أو يقول لهشام بن الحكم بعد مناظرته مع عمرو بن عبيد^(٣): «ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو؟ وكيف سألته؟ وعندما قال هشام: إني أجلك وأستحييك ولا يعمل لساني بين يديك قال الإمام: إذا أمرتكم بشيء فافعلوه...»^(٤).

(١) تقي الدين داود الحلبي، كتاب رجال، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، د.ت، ص ٢١.

(٢) أبي فراس ورام، تنبيه الخواطر، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١١.

(٣) عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء، (٨٠ - ١٤٤هـ) أبو عثمان البصري، شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها وأحد الزهاد المشهورين. له رسائل وخطب وكتب منها «التفسير» و«الرد على القدرية» توفي بمران قرب مكة ورثاه المنصور العباسي (الزركلي، أعلام ٨١/٥).

(٤) باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق ج ٢، ص ١٤٧.

المبحث الثاني

البناء العقلي

- مكانة العقل في مدرسة الصادق

- العلاقة بين العقل والدين

- العلاقة بين العقل والسلوك الأخلاقي

- سبل تنمية العقل عند الإمام الصادق

المبحث الثاني

البناء العقلي

العقل آية من آيات الله العظام، ولطف من أروع ألطافه التي منحها الإنسان، فهو أساس المعرفة البشرية، ووعائها ووسيلة إدراكها وتوظيفها، وبدونه لا يمكن أن تحصل المعرفة ولا أن يقوم العلم، ولا أن تتم عملية التعلم والتعليم.

وقد كرم الله عز وجل الإنسان بالعقل، وميزه به عن سائر المخلوقات، وفرض عليه أن يفكر، حتى ينمو، ويستمر في الرقي والتقدم، بدلاً من أن ينحدر ويهبط إلى مستوى الحيوانات، ونجد في القرآن الكريم يسقط عن المعطلين لعقولهم صفة الإنسانية؛ لأن الميزة التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان هي العقل كما يقول تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

وقد تحدّث الإمام الصادق عن هذه الميزة بقوله:

«فأما من عُدِمَ العقل، فإنه يلحق بمنزلة البهائم، بل يجهل كثيراً مما تهتدي إليه البهائم، أفلا ترى كيف صارت الجوارح والعقل وسائر الخلال التي بها صلاح الإنسان، والتي لو فقد منها شيئاً، لعظم ما يناله في ذلك من الخلل، يوافي خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئاً منها، فلم كان كذلك؟ إلا أنه خلق بعلم وتقدير»^(٢).

وفي الحقيقة «الإسلام دين يحترم العقل، ويجعله مناط التكليف، ومحور الثواب والعقاب»^(٣). والتنمية العقلية وإذكاء العقل هو الهدف الأسمى فيه، وهذا يعني احترام الإنسان وتقديره؛ لأن أهم ما في الإنسان عقله، «وهو القوة الدافعة التي تجعل الإنسان يتعلم ويفكر وتجعله يميّز الحق والباطل والخير والشر والصواب والخطأ والهدى والضلال والحسن والقيح والنافع والضار»^(٤) ولذلك فإن التربية الإسلامية قد أولت التربية العقلية درجة كبيرة من الاهتمام.

(١) سورة الأنفال - الآية ٢٢.

(٢) محمد الخليلي، أمالي الصادق، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٣) يوسف القرضاوي، التربية الإسلامية ومدرسة حسن البناء، بيروت، دار القرآن الكريم ١٤٠٠، ص ٢٤.

(٤) سيد سابق وآخر، التربية العقلية في الإسلام، جامعة الدول العربية، ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية، مكة المكرمة، ١٤٠٠ ص ٧.

والمقصود «التربية العقلية والاهتمام بالنمو العقلي، الكشف عن القدرات العقلية وإنمائها، سواء في ذلك القدرة على التفكير أم التذكر أم التخيل، أم اتباع التعليمات، أم القدرة على التفكير الابتكاري... فوظيفة التربية في هذا الجانب، إنماء القدرات العقلية إلى أقصى حد ممكن...^(١) حتى يستطيع الإنسان أن يحكم على الأشياء حكماً قوامه الصدق والعدل، ويمكن أن يفهم البيئة التي تحيط به.

وفي ضوء هذا التصور عن التربية العقلية نجد أن مدرسة الصادق قد تبنت هذه الحقيقة وجعلتها منهجاً تربوياً تربي عليه الناس، ولعل أولى الجوانب التي تؤكد النزعة العقلية في تربية الصادق، تلك المكانة الرفيعة التي يحتلها العقل في مدرسته، وكثرة دعوته إلى التفكير والتدبر وإنكار التقليد وجمود الفكر.

(١) إبراهيم مطاوع، أصول التربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٦٦.

مكانة العقل في مدرسة الصادق:

إنَّ للعقل في مدرسة الصادق مكانة سامية؛ فهو حجة إلهية على العباد في باطن نفوسهم، وبه تستكمل الحجج على العباد، كما أنَّ الأنبياء والهداة حجج الله في الظاهر فقال:

«إنَّ لله حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل، وأما الباطنة فالعقل»^(١).

بيِّن الإمام أنَّ العقل هو متمم الحجة على الإنسان لأنَّه هو الذي يحركه لاتباع الدستور الإلهي الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام وهو الذي يدفع الإنسان لقطف ثمار حركة الأنبياء عبر سلوك فعال وبناء ومنتج. «إذا كان العقل هو وسيلة الإنسان للإدراك وحمل المسؤولية، فإن الوحي المنزل على الأنبياء والرسل من لدن الخالق العظيم، مقصود به هداية الإنسان وتكميل إدراكاته وتحديد مسؤولياته من هذه الحياة وترشيد توجهاته فيها... ولذلك الوحي والعقل ضروريان ومتكاملان لتحقيق الحياة الصحيحة في الأرض»^(٢).

فالعقل المسلم يستمد قوته وتوازنه وثبات خطواته واستقامته بما لديه من علم الوحي، فهو عقل مؤمن راشد مطمئن غير مكابد ولا جاحد ولا مستكبر ولا متروك البقين إلى الظن ولا يترك الهداية إلى الضلالة، «فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيداً عن الوحي، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف وسوء الرؤية ونقص الرؤية وسوء التقدير وسوء التدبير»^(٣).

وأدلى الإمام بحديث ممتع عن أهمية العقل وتدبيره في شؤون الإنسان، وإيصاله إلى المراتب العالية فقال ما نصّه:

«دعامة الإنسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم، والحفظ والعلم، وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره، ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النور، كان عالماً،

(١) باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، ج ٤ ص ٣٠٤.

(٢) سعيد اسماعيل علي، مركزية القضية التربوية في فهم واقع الأمة وأسباب تخلفها، مجلة إسلامية المعرفة، سنة ٨، عدد ٢٩، ص ٤٠.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٧، ج ٣، ص ٢٢٦.

حافظاً، ذاكرًا، فطنًا، فهمًا، فعلم بذلك، كيف؟ ولم؟ وحيث؟ وعرف من نصحه، ومن غشه، فإذا عرف ذلك، عرف مجراه وموصوله، ومفصولة، وأخلص الوحداية لله، والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركا لما فات، ووارد على ما هو آت، يعرف ما هو فيه، ولأي شيء هو ها هنا، ومن أين يأتيه، وإلى ما هو صائر، وذلك كله من تأييد العقل...»^(١).

فقد شبه الإمام الإنسان بالبناء والعقل بالدعامة له، يعني إثبات الإنسانية للإنسان وتحققها وقيام معناها إنما هو بالعقل كما أنّ إثبات السقف وقيامه بالعماد^(٢).

فأعطى الإمام العقل المنزلة الأولى وكان يعتمد في دروسه ومحاضراته وحواراته على الأدلة العلمية ونادى بتحكيم العقل؛ لأنه يعد بمثابة المعيار الذي يميز بين الحق والباطل والأداة الكاشفة عن سبيل الرشاد من سبيل الغي فيقول الإمام علي كرم الله وجهه: «كفاك من عقلك ما أوضح لك سبيل غيِّك من رشذك»^(٣).

وبما أن العقل هو موجه الإنسان ودافعه ووسيلته في إدراك موقعه وغايته من الحياة يعتبر الصادق العقل أعلى مراتب الغنى بقوله:

«لا غنى أخصب من العقل ولا فقر أخط من الحمق»^(٤). وإن المتأمل في مدرسة الصادق يلاحظ المزيد من الاهتمام بالتربية العقلية حتى وصف تلاميذه بأولي النهى بقوله:

«إن أصحابي أولو النهى والتقى فمن لم يكن من أهل النهى والتقى فليس من أصحابي»^(٥).

وذلك لأنّه يدرك أن مواقف التعليم لا قيمة لها إن لم تكن هناك رعاية للتربية العقلية التي هي محور العملية التعليمية.

وقد صرح الصادق بأن الله تبارك وتعالى فضّل بعض خلقه على بعض في هذه الموهبة، فالناس متفاوتون في قدرة العقل على الإدراك، فعندما قيل للإمام ما بال الناس منهم من إذا كلمته يستدلّ بأول كلامك على آخره ثم يجيبك ومنهم من إذا كلمته يصمت حتى يستغرق في كلامك فيجيبك، ومنهم من إذا كلمته يقول: أعد عليّ؟ فأجاب الإمام:

- (١) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ٢٣.
- (٢) محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٣١٠.
- (٣) سيد رضي، نهج البلاغة، مرجع سابق، ص ٦٠٦.
- (٤) الكليني، أصول الكافي، كتاب العقل والجهل، ج ١، ص ٢٩.
- (٥) سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ٢، ص ٢٠٧.

«إن الله قسّم العقل على ثلاثة أجزاء، فمن الناس من ابتدئ بالعقل قبل خلقته فهذا الذي يستدلّ بأول الكلام على آخره ثم يجيب، ومنهم من عجن عقله بالنطفة التي خلقهم الله منها فهو الذي يصمت على ما يستغرق في الكلام ثم يجيب، ومنهم من ركّب فيه العقل بعد كمال خلقته فهو الذي اذا كلّّمته يقول أعد عليّ»^(١).

وقد أُلحح الإمام بكلامه هذا إلى تفاوت المتعلمين، وفقاً لتفاوت عقولهم، ولفت الأنظار إلى مبدأ أساسي وجوهري في العملية التربوية وهو مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين.

(١) أبو طالب المكي الحارثي، قوت القلوب، القاهرة، د.ت، ص ٨٠.

العلاقة بين العقل والدين

كما ذكرنا سابقاً أن تربية الصادق بنيت على التأصيل القوي للعقل في حياة المسلم وعلى هذا قرنت بين الدين والعقل . فقال : «من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة»^(١) .

ويعتبر أن العقل هو بوابة الدين ، وحينما يفتقد الإنسان هذه البوابة فإنه يفتقد السبيل لمعرفة ووعي الدين ، فيعرّف العقل بأنه : «ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان»^(٢) .
فالتدين لا بد أن يسبق بعملية التعقل وإلا تحول الدين إلى خرافة ومجرد ممارسات وشعائر فارغة من أي معنى ، فقال الإمام :
«لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون كامل العقل»^(٣) .

فنرى بأن الإيمان الأتم في نظر الإمام هو الإيمان الذي يستضيء بنور العقل .
والإيمان ليس بديلاً عن العقل ، بل هو والعقل عيانان يبصر بهما الإنسان الحقيقة ويكتشف بهما المجهول ويستكمل بهما المعرفة ومن هنا يبقى للعقل حتى بعد مجيء الرسالة وتعرّف الإنسان على كلمة الوحي دوره في إمداد الإنسان بالمعرفة وتصحيح معتقاداته .

فهذه العلاقة المستحكمة بين العقل والدين يكشف الصادق عن أبعادها عندما يقول :
«إن أول الأمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلا به ، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه ونوراً لهم ، فبالعقل عرف العباد خالقهم ، وأنهم مخلوقون ، وأنه المدبر لهم ، وأنهم المدبرون ، وأنه الباقي وهم الفانون ؛ واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه ، من سمائه وأرضه ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وبأن له ولهم خالقاً ومدبراً لم يزل ولا يزول ، وعرفوا به الحسن من القبيح ، وأن الظلمة في الجهل ، وأن النور في العلم ، فهذا ما دلهم عليه العقل»^(٤) .

وعندما سئل رضي الله عنه : فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟

(١) الحويزي، تفسير نور الثقلين، مرجع سابق، ج ٥، ص ٣٨٢، ح ٢٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مرجع سابق، ج ١٨، ص ١٨٦.

(٣) الطوسي، الأمالي، ص ١٥٣.

(٤) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ٣٤.

قال: «إن العاقل لدلالة عقله الذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته، علم أن الله هو الحق، وأنه هو ربه، وعلم أن لخالقه محبة، وأن له كراهية، وأن له طاعة، وأن له معصية، فلم يجد عقله يدلّه على ذلك^(١)، وعلم أنّه لا يوصل إليه إلا بالعلم وطلبه، وأنّه لا ينتفع بعقله، إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الذي لا قوام له إلا به»^(٢).

فقد أشار الإمام الصادق إلى اقتران العقل بالعلم والدين، وأفصح أن العقل إذا ما توافر لدى الإنسان والتمزم به فإنه لا مناص من أن يهديه إلى العلم، والعلم إذا ما حصل عليه الإنسان لا مناص من أن يهديه إلى خالقه ويعرفه عليه.

فإنّ هذا الاعتراف لم يمنع الصادق من نظريته لإمكانات العقل، من التنبيه إلى قصوره ومحدودية إمكانات إدراكه خاصة في الأمور الغيبية، بل وضع المنهج الصحيح لاستخدام العقل دون إغراق فيما فوق طاقته. فهو يسعى إلى رعاية العقل وصيانته من الانحراف، وتبدأ التربية العقلية بتحديد مجال النظر العقلي، ومنها رأيه بأن العقل يقف عند حد معين من معرفة الخالق، بل من معرفة نفسه فلا يحدده، في قوله:

«إن العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار ولا يعرفه بما يوجب له الإحاطة بصفته... إنما كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه، وهو أن يوقنوا ويقفوا عند أمر الله ونهيه ولم يكلفوا الإحاطة بصفته كما أنّ الملك لا يكلف رعيته أن يعلموا أطويل هو أم قصير وإنّما يكلفهم الإذعان بسلطانه والانتهاة إلى أمره»^(٣).

(١) أي لم يجد عقله يدلّه على ما يحبه الله وعلى ما يكرهه الله حتى يعرف العصيان من الطاعة.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ٣٤.

(٣) كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص ١١٨.

العلاقة بين العقل والسلوك الأخلاقي

استخدام العقل والتفكير السليم على أساس المنهج العلمي يتصل الإنسان بمنظومة القيم الأخلاقية ويكون له خير معين في بناء شخصيته، وقد أشار خاتم الأنبياء ﷺ إلى هذا الأمر عندما قال: «رأس العقل بعد الإيمان بالله عز وجل إدارة الناس»^(١).

أي إن العقل له علاقة مع المعرفة بالله من جانب والسلوك مع الآخرين من جانب آخر، ولا تكون الأخلاق السليمة والسلوك الصحيح إلا بالعقل وبعد النظر والحكمة. فركز الإمام الصادق هذه العلاقة بين العقل وسلوك الإنسان وربط ربطاً محكماً بينهما عندما تبين بأن حسن الأخلاق مع الناس دليل على وفور العقل وكماله بقوله: «أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً»^(٢).

وقد برز رأي الصادق في تأثير العقل على سلوك الإنسان عندما يتحدث عن أوصاف العاقل التي تشمل الأخلاق الفاضلة أو العادات الحميدة.

فقال: «لا يعد العاقل عاقلاً حتى يستكمل ثلاثاً: إعطاء الحق من نفسه على حال الرضا والغضب. وأن يرضى للناس ما يرضى لنفسه، واستعمال الحلم عند العثرة»^(٣).

وعندما يتحدث الإمام عن جنود العقل والجهل، فإنه يعدّ جيوش العقل والجهل خمساً وسبعين، يعتبر أكثرها من الفضائل أو الرذائل الأخلاقية بقوله: «اعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده، تهتدوا... إن الله عز وجل خلق العقل... ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً... وخلق الجهل فأعطاه خمسة وسبعين جنداً... الخير وهو وزير العقل وجعل ضده الشر وهو وزير الجهل، والإيمان وضده الكفر، والرجاء وضده القنوط، والعدل وضده الجور، والشكر وضده الكفران، والرأفة وضدها القسوة، والعفة وضدها التهتك، والتواضع وضده الكبر، والحلم وضده السفر، والصبر وضده

(١) جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير، مرجع سابق، ص ٣، ح ٤٣٧٠.

(٢) الحر العاملي وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٥٠، ح ١٥٩١٢.

(٣) الحرائي، تحف العقول، ص ٣١٨.

الجزع، والقنوع وضده الحرص، والمودة وضدها العداوة، والأمانة وضدها الخيانة، . . . والسخاء وضده البخل. فلا تجتمع هذه الخصال كلها من أجناد العقل إلا في نبي أو وصي نبي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان . . .»^(١).

والجدير بالذكر أن التعبير بالجند والجيش - في هذا الصدد - ذو معنى غني، يفصح أن القيم الخلقية هي الضوابط التي تبنى وتقوم وتصون شخصية الإنسان وتدعم دور العقل في بناء وتقويم الشخصية الإسلامية.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١، ص ١٠٩.

سبل تنمية العقل عند الصادق

بهذه المكانة العظيمة للعقل تهدف التربية في نظر الصادق إلى ضرورة تنمية ذكاء الإنسان وقدرته العقلية .

فبذل جهداً كبيراً لاستخدام الأساليب التربوية في شحذ العقل وإزالة أسباب الكسل والفتور عنه ؛ لأن «العقل لا بد أن يعمل وإلا أصابه الصدأ، وإذا أصابه الصدأ تبدل فقبل كل ما يعرض عليه دون تفكير أو تأمل»^(١).

وفي ما يلي نشير إلى أهم سبل تنمية العقل عند الصادق :

أ- تدريب العقل على حرية التفكير والابتعاد عن الجمود والتقليد :

من أولى خطوات التنمية العقلية، تحرير العقل المسلم من الجمود والتقليد الأعمى ، و«الإسلام لا يقبل من المسلم أن يلغي عقله ليجري على سنة آبائه وأجداده ولا يقبل منه أن يلغي عقله خنوعاً لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضي العقل والدين . . .»^(٢).

ولقد ذمّ القرآن الكريم هذه الظاهرة والتي لا يمكن أن تتأسس على أي مبرر عقلي غير رضى المقلّدين بمصادرة عقولهم وتعطيل قدراتهم المعرفية والفكرية، فقال عزّ شأنه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٣).

فنعى القرآن على المقلّدين وأنكر عليهم أن يغفلوا عقولهم ويهملوا أفكارهم وهو بهذا يريد أن يكون لهم شخصية كريمة تجعل لهم حياة مستقلة .

والإمام الصادق يسلك الطريقة القرآنية ذاتها في الاعتماد على العقل والمنطق، ويعتبر التقليد مذلة عقلية واستعباداً للنفس، ويحاجج في ذلك قرآنياً عندما سئل عنه في معنى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٤) قال : «أما والله ما دعوهم

(١) علي عبد الحليم محمود، التربية العقلية، دار التوزيع والنشر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٥١.

(٢) سعيد إسماعيل علي، اتجاهات الفكر التربوي الحديث، القاهرة، ١٩٩١، ص ٣٠.

(٣) سورة المائدة: الآية ١٠٤. (٤) سورة التوبة، جزء من الآية ٣١.

إلى عبادة، ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً، فعبدوهم من حيث لا يشعرون»^(١).

وفي تعبير آخر يقول: «والله ما صاموا لهم ولا صلوا، لكن أحلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتبعوهم»^(٢).

فالاتباع دون فهم، في الحلال والحرام، أو غيرهما، ترك لزمام النفس في قبضة الغير، وإهدار لحريتها وقدرتها، وتلك عبادة لغير الله.

ذهب الإمام الصادق إلى بيت أحد تلاميذه وكان بيتاً صغيراً جداً وكأنه كان من الذين يعلم الإمام أنّ حالته تقتضي أن يكون له بيت أفضل فقال له الإمام:

«لماذا تسكن في هذا البيت؟ من سعادة المرء سعة داره، فقال: يا ابن رسول الله؟ إنّ هذا بيت آبائي وأجدادي ولا أستطيع مغادرته، وبما أن أبي وجدي كانا فيه، فلا أريد مفارقتة فقال الإمام: لو كان أبوك جاهلاً فهل عليك أن تقيّد نفسك بجهل أبيك؟ اذهب وهبّ لنفسك بيتاً أفضل»^(٣).

ولقد حرص الصادق على التنمية العقلية من خلال استفزازه للعقل المسلم كي يعمل في تحصيل الوعي والمعرفة وحرية التفكير فقال لرجل من تلاميذه: «... إياك أن تنصب رجلاً دون الحجة فتصدق في كل ما قال، وتدعو الناس إلى قوله»^(٤).

المراد أن الإنسان ينصب رجلاً فيصدق في كل ما يقول برأيه من غير أن يسند إلى الدلائل العقلية أو النقلية.

أما «عامل التقليد لا يتخلّص في تقليد الأفراد مثلاً بل كثيراً ما يفقد شعب استقلاله وشخصيته تجاه شعب آخر ذي امتياز خاص في الحياة المادية ومن المجتمعات المتقدمة، فيبالغون في الانجذاب إليها من الناحية الشخصية ومن ناحية الحركات والسكنات وبصورة غير منطقية ويودّون تلقي كل شيء من ذلك»^(٥).

فقال الإمام: «لا تكوننّ إمعة»^(٦)، تقول: أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس»^(٧).

(١) الطباطبائي، الميزان، ج ٩، ص ٢٥٥

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٢٤٦.

(٣) مرتضى مطهري، التربية والتعليم في الإسلام، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٢٨.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٥٣.

(٥) محمد تقي مصباح، الأخلاق في القرآن الكريم، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٤، ج ١، ص ٢٩٤ (بتصرف).

(٦) الإمعة هو الذي لا رأي له ولا عزم فهو يتابع غيره على رأيه ولا يثبت على شيء (الحنكة، أخلاق إسلامي، ١/ ٧٦٤).

(٧) الصدوق، معاني الأخبار، مرجع سابق، ص ٢٦٦.

هذا التوجيه التربوي يوصي الناس بأن يكونوا في عقائدهم علماء أو متعلمين ولا يكونوا مقلدين أي من الذين لا يرون لأنفسهم حق التفكير والتحقيق فيما يكتبه أو يقوله الآخرون وهكذا تكون الدعوة للحرية الفكرية والحث على الاجتهاد وتوظيف العقل.

ويلاحظ أن الإمام الصادق في دعوته لبناء الفكر الحرّ، فإنه يحض على تهيئة العقل الاستدلالي لدى المرء، هذا العقل الذي لا يقبل فكرة دون بحث ولا يؤمن بعقيدة ما لم تحصل على برهان، ليكون هذا العقل الواعي ضماناً للحرية الفكرية، وعاصماً للإنسان من التفريط بها بدافع من التقليد أو الجمود الفكري.

وفي الواقع حركة الصادق جزء من معركة الإسلام لتحرير المحتوى الداخلي للإنسان «فهو كما حرر الإرادة الإنسانية من عبودية الشهوات، كذلك حرر الوعي الإنساني من عبودية التقليد، وبهذا وذاك أصبح الإنسان حراً في تفكيره وحرّاً في إرادته»^(١).

ب - حث العقل على التفكير والنظر والتدبر :

إن التفكير جهد يبذله العقل في سبيل اكتساب معارف وعلوم جديدة من معارف سابقة وموجودة ومرتكزة في الذهن. فهو يقوم بدور كبير في التنمية العقلية لأن «من أهم وظائف العقل البشري: التفكير والتأمل والنظر. وإذا تعطلت هذه الوظائف تعطل نشاط العقل ونموه وقدرته على العطاء ويتبع ذلك توقف النشاط البشري وجموده بل وفناؤه»^(٢).

فالعقل ينمو على أثر التفكير المنطقي، ويظهر كماله الباطني بصورة تدريجية، فقد دعا رسول الله ﷺ إلى التفكير الواعي المتبصر بما يهدي المسلم إلى سواء السبيل في الدين والدنيا فقال ﷺ: «عودوا قلوبكم الترقب وأكثروا التفكير والاعتبار»^(٣).

ولم يغفل الصادق في تربيته عن هذه القضية، عندما كان يدرّب تلاميذه على التدبر والنظر ويعتبر بأن: «كثرة النظر في العلم تفتح العقل»^(٤) فهو يرى التفكير من أعظم العبادات لأنها «عبادة حرّة طليقة من كل قيد إلا قيد واحد وهو التفكير في ذات الله»^(٥). فقال: «أفضل العبادة إدمان التفكير في الله وقدرته»^(٦).

(١) محمد باقر الصدر، المدرسة الإسلامية، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠، ص ١٢٧. (بتصرف)

(٢) عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السّنة النبوية، مرجع سابق، ٥١٦.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، ج ٣، ص ١٠٦، ح ٥٧٠٩.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١، ص ١٥٩.

(٥) مالك بدري، التفكير من المشاهدة إلى الشهود، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨١، ص ٦٩.

(٦) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب التفكير، ح ٣.

فالمراد بالتفكر في الله، النظر إلى أفعاله وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه، فإنها تدلّ على كمال علمه وحكمته.

ولا شك أن كثرة التدبر في آيات الله تؤدي إلى تفتيح الأذهان وتوسيع الأفكار والمعارف الصحيحة ما لا يمكن الوصول إليه بدون ذلك. وهذا التفكير وسيلة العقل في فهم قوانين الحياة وعلل الكون وسنن الله في خلقه، على هذا حث الصادق تلاميذه بالتفكير والتأمل في ما دعا الله عباده إليه، من آيات القرآن الكريم وآيات كونه العظيم والنفس البشرية، التي تنتج عنها تقوية الإيمان بالله وحده. فنشير إلى أهم مجالات التفكير عند الصادق:

* النظر في حكمة الكون ومخلوقاته:

إنّ النظر والتبصر الدقيقين والتفكير الواعي في الظواهر الكونية يعتبر وسيلة رئيسة في تربية الفكر الإنساني وتكوين العقلية العلمية التي لا تقبل نتائج بدون مقدمات، لقد سلك الإمام الصادق مسلك القرآن في دعوته إلى التفكير في الآفاق والأنفس واستخلاص الدروس والعبر منها. فهذه هي «الدعوة الواثقة بالحقيقة الكامنة في كل ما في السموات، وفي كل ما في الأرض التي لا تتطلب من الإنسان إلا أن ينظر ويتطلع ويفكر من دون حاجة إلى جهد كبير وأخذ ورد»^(١).

فزخرت رسالة التوحيد التي أملاها على تلميذه مفضل بن عمرو بالدعوة إلى التفكير في أسرار الكون بعبارات مختلفة مثل: تأمل، ... ففكر ... واعتبر وانظر وغير ذلك. والمتأمل في أبعاد مدرسة الصادق يلاحظ المزيد من الاهتمام بالتربية العقلية وتوجيهها التوجيه السليم نحو تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط.

فالكون عنده مادة حية للتفكير الذي يؤدي بأقرب طريق إلى الإيمان بوجود الله.

وكما أن القرآن لا يقتصر على دعوة الإنسان للتفكير في ذلك كله بل يحاول أن يخطو به الخطوات الأولى في هذا السبيل، ويدله على بدايات الطريق، فنرى الإمام يبين كثيراً من الأسرار الكبيرة التي تكون في نطاق الكون، ويذكر تفاصيل خلق الإنسان وأحوال السماء، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والفلك، والليل، والنهار، كذلك أسرار حياة الحيوانات لحثهم على التفكير والتعقل واستخدام طاقات عقلية كما يقول لتلميذه مفضل في هذا الصدد: «لألقين إليك من حكمة الباري جل وعلا وتقديس اسمه - في خلق العالم والسباع والبهائم والطيور والهوام وكل ذي روح من الأنعام والنبات والشجرة المثمرة وغير ذات الثمر

(١) محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، مطبعة الصدر، ١٤١٨، ص ١١٠.

والحبوب والبقول، المأكول من ذلك وغير المأكول - ما يعتبر به المعتبرون ويسكن إلى معرفته المؤمنون ويتحير فيه الملحدون»^(١). وهذا الإمام الصادق يتكلم على عالم الطبيعة وأسرارها، ويربي طلابه على تأملها قائلاً:

«انظر إلى شروق الشمس على العالم كيف دبر أن يكون؟ فإنها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف لا تعدوه، لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات، لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع في أول النهار من المشرق فتشرق على ما قبلها من وجه المغرب ثم لا تزال تدور، وتغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها»^(٢).

* النظر في حكمة التشريع:

إن منهج التربية عند الصادق يربي طاقة العقل أيضاً عن طريق توجيهه إلى النظر في حكمة التشريع الإلهي كحكمة تحريم الربا والخمر والزنا... ذلك «لأن التشريع منزل من عند الله ولكن القائمين به هم البشر وينبغي أن يكون البشر واعين لحكمة التشريع وإلا فلم يطبقوه على تمامه ولن يطبقوه على وضعه الصحيح»^(٣).

ولذلك نرى أن الإمام جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام دون وعي ويهتم ببيان بعض المقاصد من الأوامر والنواهي في الشريعة حتى يفهم الإنسان هذه الحكمة كما أَرَادَهُ اللهُ، ويستطيع تطبيقها في واقع حياته بصورة واعية.

فعندما سئل لم حرم الله الربا؟ قال: «لئلا يتمنع الناس بالمعروف»^(٤). وهذا حق؛ لأن الناس لو كانوا لا يقرضون إلا بالربا ما وجد تعاون بينهم، وعند عدم وجود التعاون يحصل التمانع بينهم، وإذا حصل التمانع أضررت الأنفس الشح.

وعندما سئل: فلم حرم الله الخمر، ولا لذة أفضل منها؟

قال: «حرّمها لأنها أم الخبائث، ورأس كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب له لَبّه ولا يعرف ربّه، ولا يترك معصية إلا ركبها، ولا حرمة إلا انتهكها»^(٥).

(١) كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص ٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٨١.

(٣) سيد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ترجمة الإمام الصادق، ص ٩٢.

(٥) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٢٥٣، ح ١١.

* النظر في السنن الإلهية:

ان المدخل الضروري والطبيعي لأي اعتقاد أو إيمان سليم وعمل صالح، إنما هو العلم بمفهومه الإسلامي الشامل للسنن الإلهية. وإن الله عز وجل يرشدنا بأن نجعل سنن الله في خلقه موضوع التفكير والتدبر، فأشار إليها القرآن بالإجمال لأن «العلم بهذه السنن من أهم العلوم وأنفعها»^(١) لما فيها من الهداية والموعظة كما جاء في الآية الشريفة:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُنَظِّقَ لَكُمْ سُنُنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(٢).

ولم يغفل الإمام الصادق عن هذا الأمر فجعل دراسة السنن والنظر فيها موضوعاً من موضوعات التدبر، عندما يتحدث عنها في تعاليمه ويدعو إلى التأمل في حكمة بعض هذه السنن الربانية، على سبيل المثال يلفت الإمام الأنظار إلى سنة الموت بقوله: «أفرايت لو كان كل من دخل العالم يبقون، ألم تكن الأرض تضيق بهم؟ فإنهم والموت والآفات تفنيهم أولاً بأول يتنافسون في المساكن والمزارع حتى تنشب بينهم في ذلك الحروب وتسفك فيهم الدماء، فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون، وكان يغلب عليهم المرض والشر، وقساوة القلوب؟ فلو وثقوا أنهم لا يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله...»^(٣).

وكذلك يدعو إلى التأمل في سنة الابتلاء بأنها تدفع الإنسان إلى الشكر والصبر إذا كان صالحاً وتردعه إذا كان ظالماً كقوله في الآفات والمكاره والمصائب:

«لكيلا يركنوا إلى المعاصي من طول السلامة فيبالغ الفاجر في ركوب المعاصي، ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البر، فإن هذين الأمرين جميعاً يغلبان على الناس في حال الخفض والدعة، وهذه الحوادث التي تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على ما فيه رشدهم فلو أخلوا منهما لغلوا في الطغيان والمعصية كما على الناس في أول الزمان...»^(٤).

ج - تعويد العقل التفكير العلمي:

من المؤشرات التي تؤكد حرص الإمام الصادق على الاهتمام بالتربية العقلية، تلك المواقف المربية التي كان الإمام يوجدها لتدريب الطاقة العقلية على طرق التفكير

(١) علي بن إبراهيم الوزير، دراسة السنن الإلهية والمسلم المعاصر، ص ٨.

(٢) سورة النساء، الآية ٢٦.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٤٠.

(٤) المصدر نفسه والمكان نفسه.

العلمي المستنير، والاستدلال المثمر للوصول إلى الحقائق وفهمها.

فهناك نماذج عديدة من جهود الصادق في تعويد تلاميذه على التفكير العلمي المنظم و«التفكير العلمي المنظم يعني الاستدلال العقلي الذي يقوم على الملاحظة والمشاهدة مع الفهم والتصور، والتحليل والتركيب والاستنتاج، وإصدار الحكم»^(١).

فنرى تدريب تلاميذه على خطوات التفكير العلمي كما يلي:

*** الخطوة الأولى الدعوة إلى استخدام الحواس للوصول إلى المعرفة (مرحلة الملاحظة والاستبطان)**

من خطوات التفكير العلمي هي استخدام الملاحظة العلمية باستخدام الحواس، سواء حواس البصر والسمع أم... «وذلك ليكون هذا الحسّ بعالم الواقع والشهادة مقدمة في عملية التفكير قبل إصدار الحكم في الوقائع والأحداث»^(٢) فالمعرفة الحسية ما هي إلا مرتبة من التفكير لدى الإمام الصادق حيث يتوصل الإنسان من حين ولادته بالمدرجات الحسية إلى المعارف العقلية، وذلك عن طريق استعمال الحواس، وتدرجه في إحساسه للأمور الجزئية إلى إدراك الأمور الكلية عن طريق تجريد العقل للجزئيات المدركة بالحس، ليتوصل إلى استنتاج المعاني الكلية وبالتالي تؤدي عملية التجريد هذه إلى تنمية العقل الإنساني التي تدعو إليه التربية العقلية.

فيلفت الصادق نظر المتعلمين إلى الحواس التي يستخدمها الإنسان للوصول إلى العلم والمعرفة في قوله:

«انظر إلى هذه الحواس التي خصّ بها الإنسان من خلقه وشرف بها على غيره، كيف جعلت العينان في الرأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكن من مطالعة الأشياء... وكان الرأس أسنى المواضع للحواس وهو بمنزلة الصومعة لها فجعل الحواس خمساً تلقي خمساً لكي لا يفوتها شيء من المحسوسات... فخلق البصر ليدرك الألوان، ولم يكن بصر يدركها لم يكن منفعه فيها. فخلق السمع ليدرك الأصوات فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن فيها إرب وكذلك سائر الحواس...»^(٣) لست أجد القلب يعلم شيئاً إلا بالحواس...»^(٤)

وهكذا «فإن الملاحظة العلمية تتطلب استخدام الحواس باعتبارها أبواب المعرفة

(١) علي عبد الحليم محمود، التربية العقلية، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٢) نايف معروف، الإنسان والعقل، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٥ ص ١١٤.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

والإدراك، فإذا استخدم الإنسان بصره لاحظ، وإذا دقق تأمل، ومتى تأمل فكر، ومتى فكر استغرق، والتفكير هو هدف العلم، والاستغراق في التفكير هو نهاية المعرفة»^(١).

*** الخطوة الثانية: إدراك العلاقة بين الظاهرة ومسبباتها (مرحلة الاستدلال العقلي)**
إن الملاحظة والتجربة - وإن كانتا ضروريتين للحصول على معرفة عن العالم الخارجي - إلا أنهما لا تكفيان لوحدهما. «فلو أننا اكتفينا بحواسنا الظاهرية لم نستطع التعبير عن العالم الخارجي، والإيمان بوجود الترابط بين الحوادث الطبيعية»^(٢).

يقول الإمام الصادق: «... الحواس الخمس وهي لا تنفع من الاستنباط إلا بدليل كما لا تقطع الظلمة بغير مصباح»^(٣).

من هنا فإنه يرى الحس بنفسه لا يفيد علماً بل لا بد له من مبادئ عقلية لا يعترئها ريب؛ لأن الحس يعطينا سلسلة مؤشرات متفرقة والعقل هو الذي يقوم بعملية الربط بينها، فقيمة عمل الحواس من قيمة ارتباطها بالعقل.

قال الإمام الصادق:

«فإنك لو رأيت حجراً يرتفع في الهواء علمت أن رامياً رمى به، فليس هذا العلم من قبل البصر، بل من قبل العقل لأن العقل هو الذي يميزه، فيعلم أن الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه...»^(٤).

فهو هنا يدلل بما تلمسه الحواس على لزوم وجود ما لا تلمسه، فهو يستعمل العقل والواقع معاً.

وعندما سأله زنديق: كيف يعبد الله من الخلق ولم يروه؟ قال الصادق:

«رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف. ثم الرسل وآياتها، والكتب ومحكماتها، واقتصر العلماء على ما رأوه من عظمته دون رؤيته»^(٥).

فالإنسان المفكر ينتقل من مرتبة النظر إلى الكائنات بعين البصر إلى مرتبة النظر

(١) أمينة أحمد حسن، النظرية التربوية في القرآن وتطبيقاتها في عصر الرسول، مرجع سابق ص ٢٥٠.

(٢) مهدي كلشني، القرآن ومعرفة الطبيعة، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٧٠.

(٣) الصدوق، الأمالي، ص ٤٣٣.

(٤) كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص ١١٧.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٦٤/ أبو طالب المكي الحارثي، قوت القلوب، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١١٥ قريب بهذا المضمون..

في الموجدات بعين الذهن المعتمد على الحواس، وإذ ذاك يتحقق له استنتاجه المقصود ويتم له استدلاله المراد فيصل إلى مبتغاه من الحق عن هذا الطريق.

* الخطوة الثالثة: استخدام التفكير المنطقي (مرحلة الاستنتاج)

هذه المرحلة مرحلة فكرية متقدمة تلي المرحلة السابقة إذ بها يستطيع الإنسان أن يربط بين الحقائق التي حصل عليها، ويمكن أن يحاول ضبط أفكاره وربطها والوصول إلى الكليات والحقائق الجديدة.

فقد نرى موارد عديدة من هذه الاستنتاجات للإمام الصادق، كما أنه دعا إلى استخدام العقل والإفادة من العمليات العقلية للتعرف على قدرة الخالق وعظمته والإيمان بوحدانيتها بقوله:

«لو رأيت تمثال الإنسان مصوراً على حائط فقال لك قائل: إن هذا ظهرها هنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع، أكنت تقبل ذلك؟ بل كنت تستهزئ به، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور، جماد، ولا تنكر في الإنسان الحي الناطق؟»^(١)

وضرب الإمام مثلاً على أساس المعرفة العقلية بين الأسباب والمسببات ويستنتج منها على وجود الخالق والمدير لهذا العالم.

كما نلاحظ أن حديثه عن الطبيعة بمظاهرها الحية بما يتخللها من قواعد ونواميس حياتية وما يحكمها من إرادة خفية دقيقة التنظيم والصنع، وكلامه عن السماء والأرض والسحاب والجبال والحيوانات المختلفة المتباينة كالفيل والطاووس والنملة وتحليله الأوضاع الاجتماعية والغرائز الإنسانية في رسالة التوحيد إلى المفضل، يعتبر في ذروة أنموذج التفكير العلمي المبدع المبني على دقة الملاحظة والإدراك الواعي.

ولنستمع له قليلاً في كلامه كعالم وباحث ومستنتج حيث يصف لنا السمك خلقاً وعيشاً ودلالة:

«... تأمل خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدّر أن يكون عليه، فإنه خلق غير ذي قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي لذا كان مسكنه الماء، وخلق غير ذي رئة لأنه لا يستطيع أن يتنفس وهو منغمس في اللجة، وجعلت له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها في جانبيه كما يضرب الملاح بالمجاذيف من جانبي السفينة، وكسي جسمه قشوراً متاناً متداخلة كتداخل الدروع والجواشن لتقيه من الآفات فأعين بفضل حس في الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعم من البعد البعيد. فينتجعه وإلا

(١) كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص ٤٧.

فكيف يعلم به وبموضعه؟ واعلم أن من فيه إلى صماخيه^(١) منافذ فهو يعب الماء بفیه ويرسله من صماخيه فتروح إلى ذلك ما يتروح غيره من الحيوان إلى تنسم هذا النسيم . ففكر الآن في كثرة نسله وما خص به من ذلك، فإنك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة، والعلة في ذلك أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان، فإن أكثرها يأكل السمك حتى إن السباع أيضاً في حافات الآجام عاكفة على الماء أيضاً كي ترصد السمك، فإذا مرّ بها خطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك والطير يأكل السمك والناس يأكلون السمك والسمك يأكل السمك كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة، فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك...»^(٢).

هذا هو أسلوب التفكير عند الصادق، ملاحظة وجمع بيانات، واستنتاج واعتبار من نتائج البحث، وتبصر في أعماق الصنع.

لكن الإمام لم يحتكر هذا النمط من التأمل الفكري لنفسه فقط وإنما أراد شيوخ ذلك بين تلاميذه لترتفع من أوساطهم حجب الجهل والظلام ولتحل بينهم مظاهر المعرفة والإدراك.

(١) الصمخ، خرق الأذن الباطن الذي يفضي إلى الرأس (ابن منظور، لسان العرب، مادة صمخ).

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٩.

الفصل الرابع

التربية الخلقية والاجتماعية في مدرسة الإمام الصادق

المبحث الأول : البناء الأخلاقي

المبحث الثاني : البناء الاجتماعي

تمهيد:

أجمع المربون على اعتبار التربية الأخلاقية الجانب الأصعب من التربية عموماً، كما اعتبروا أنها التربية الأكثر وجوباً في حياة الإنسان، حتى إنهم قالوا: «إن عملية التربية والعملية الأخلاقية شيء واحد ما دامت الثانية لا تخرج عن أنها انتقال الخبرة باستمرار من أمر سيئ إلى أحسن منه وأفضل»^(١).

وبما أن المجتمع يتكون من الأفراد، فإن لكل فرد فيه تأثيراً واضحاً على بقية أفراد المجتمع، ومن هنا أتى هذا الارتباط العميق لنجاح المجتمع وسعادته بالمستوى الأخلاقي لحياة أفراده؛ لأن الحياة الأخلاقية لكل فرد ستنعكس على المجتمع، سواء إيجاباً أم سلباً. «وإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ من البدء بالفرد وذلك بتكوينه إنساناً صالحاً خيراً لنفسه ولغيره معاً، وهذا يكون بتعليمه ما هو خير وما هو شر وأين تقع حدودهما في ميزان السلوك الإنساني»^(٢).

وقد أولى الإسلام التربية الخلقية بالغ الأهمية على صعيد كل من الفرد والمجتمع.

فحينما يشي الله على رسوله ﷺ بسمو أخلاقه فيقول جلّ من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣) وحينما يعمد الرسول ﷺ إلى الحديث عن جوهر الدعوة الإسلامية، فإنه يؤكد أنه بعث مؤدباً فيقول: «إنما بعثت لأتمم صالحى الأخلاق»^(٤) ثم يجعل المتخلقين بالأخلاق الفاضلة أحب الناس إليه وأقربهم منه درجة في قوله: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون»^(٥) هذا هو جوهر الدين الإسلامي، حيث جعل دعامته الأولى الأخلاق المتينة.

(١) جون ديوي، تجديد في الفلسفة، ترجمة مرسى قنديل، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ص ٢٩٩.

(٢) مقداد بالجن، دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٢.

(٣) سورة القلم، الآية ٤.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، ص ٩٠.

(٥) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الفضائل، ح ٢٣٢١.

والمتمأمل للقواعد الأساسية للأخلاق في القرآن الكريم يجد أن الحديث عن الأخلاق فيه متنوع ما بين الأخلاق الشخصية والأخلاق الاجتماعية، من هنا «إن التربية الخلقية تمثل روح التربية الإسلامية^(١)»، بل هي من أهم الأهداف التي تسعى التربية الإسلامية لتحقيقها وإبرازها بالشكل اللائق بها وها هو الإمام الصادق استجابة لأحكام الدين الإسلامي وتوجيهات القرآن الكريم، يجعل الأخلاق رسالته العليا في منهجه التربوي القويم ويربطها بالدين رباطاً لا انفصام له إلى حد أنها أضحت جوهر العملية التربوية ومعدنها الثمين.

فهو يعتبرها الهدف الأسمى الذي يُرمى إليه من تكوين الشخصية الإنسانية السوية، وقد تجلّى نصحه وتعليمه لنا في أقواله وأفعاله ومما قاله في هذا الصدد: «إن أجلت في عمرك يومين فاجعل أحدهما لأدبك لتستعين به على يوم موتك»^(٢).

فقد بدأ الإمام في منهجه بالجانب الأخلاقي وضبط سلوك الفرد ليعده في مرحلة لاحقة للبناء الاجتماعي حيث كانت آدابه وسلوكياته وتوجيهاته ومواقفه منابع ثرة للرؤية في هذا الاتجاه ومناهج للتربية

وقد عرفنا ممّا سبق كيف اهتمت مدرسة الصادق في بناء شخصية المسلم بالتربية العقدية والتربية العلمية (في المجال المعرفي)، وهنا سنتحدث عن التربية الخلقية والاجتماعية (في المجال السلوكي) الذي اعتبر من أهم المجالات التي اهتمت بها هذه المدرسة؛ لأنها تجسد التطبيق العملي لكل ما أخذ من دروس وما أسدي من نصائح لإرشاد الإنسان المؤمن في حياته وإيصاله قريباً من الكمال.

(١) محمد عطية الإبراشي، التربية الإسلامية وفلسفتها، مرجع سابق، ص ٢٢، (بتصرف).

(٢) الكليني، روضة الكافي، ج ٨، ص ١٥٠.

المبحث الأول

البناء الخلقي

- ماهية الخلق وأقسامه
- موقع الأخلاق في صرح الإمام التربوي
- أهداف التربية الخلقية في مدرسة الصادق
- مبادئ التربية الخلقية في فكر الإمام
- أساليب التربية الخلقية في مدرسة الصادق

المبحث الأول

البناء الأخلاقي

ماهية الخلق وأقسامه :

خلق الإنسان من جسد وروح، وقد جعل الله لكل منهما غذاء خاصاً وإذا كان الطعام والشراب من العناصر الأساسية لبناء هذا الجسد ونموه، فإن للروح أنواعاً خاصة من الغذاء منها: الإيمان والعلم والمحبة والصدق... إلخ ولعل أهمها على الإطلاق الالتزام بالمبادئ والأخلاق.

وكما يسعى الإنسان في سبيل إحياء مواهبه الفكرية، وإدراك الحقائق العلمية، ويحرز تقدماً جديداً في كل يوم، كذلك عليه أن يسعى في سبيل تزكية نفسه وتطهيرها بالفضائل الأخلاقية.

الخلق بضم اللام وسكونها: هو الدين والطبع والسجية، جمعه أخلاق^(١). وفي الاصطلاح «عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر ورؤية»^(٢).

والمقصود من هذا التعريف أن هيئة النفس التي يكون خلقها حسناً تصدر عنها الأفعال المحمودة، وهيئة النفس التي يكون خلقها سيئاً تصدر عنها الأفعال المذمومة، وذلك بطريقة مستمرة وليست عارضة أو مؤقتة؛ لأن «التخلق بالأخلاق الحسنة أو السيئة إنما يعني، تشبّع روح الإنسان بصفة ما، حتى تصبح تلك الصفة من ملكاته النفسية، بحيث يستطيع أن يمارس تلك الصفة بيسر، ومن دون تفكير، في تعامله مع الناس، إذن لا يمكن للإنسان أن يتصف بصفة الكرم بمجرد قيامه بالبذل والإنفاق أياماً، كما أنه بالكذب بضع مرات لا يكون قد تخلق بصفة الكذب المذمومة»^(٣).

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة خلق، ج ١٠، ص ٨٦.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥، ص ٤٨.

(٣) محمد تقي فلسفي، الأخلاق من منظور التعايش والقيم الإنسانية، ج ١، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٧.

وإذا كان الخلق صفة نفسية، فإن المظهر الخارجي له يسمى «سلوكاً» أو «معاملة» وبهذا يكون السلوك دليل الخلق ومظهره. إلا «أن الخلق ليس صفة للنفس في جملتها، لكن في جانب معين من جوانبها، وليس هذا الجانب هو جانب العقل والمعرفة، ولا جانب الشعور والعاطفة؛ وإنما هو جانب القصد والإرادة»^(١). وتنعكس الأخلاق على هذه الصفات المستقرة في النفس الإنسانية، فتظهر حسنها أو قبحها بما يميزها عن غيرها على اعتبار أن آثارها في السلوك قابلة للمدح والذم. والأخلاق تنقسم إلى قسمين: الأول: الأخلاق الفطرية والثاني: الأخلاق المكتسبة.

فبعض أخلاق الناس أخلاق فطرية، تظهر فيهم منذ أول حياتهم، ومنذ بداية نشأتهم. وبعض أخلاق الناس أخلاق مكتسبة من البيئة الطبيعية، أو من البيئة الاجتماعية، أو من توالي الخبرات والتجارب ونحو ذلك. ولذلك في الإصلاح التربوي قد يقبل بعض الناس بعض فضائل الأخلاق بسهولة، ولا يقبل بعضها الآخر إلا بصعوبة ومعالجة طويلة المدى، وقد تقل نسبة استجابته.

وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق تماماً في قوله: «إن الخلق منيحة يمنحها الله عز وجل خلقه، فمنه سجية ومنه نية. فقليل: فأيهما أفضل؟ فقال: صاحب السجية هو مجبول لا يستطيع غيره، وصاحب النية يصبر على الطاعة تصبراً فهو أفضلهما»^(٢). فقد عبّر الإمام بقوله هذا عن الأخلاق الفطرية بـ «السجية»، كما عبّر عن الأخلاق المكتسبة بـ «النية». ولم ينظر إلى الأخلاق على أنها كلها كسبية وإلا لأهمل جانب الفطرة الإنسانية، ومقتضياتها الخيرة عندما تنهياً لها عوامل الخير، كما لم ير أنها كلها وهبية وإلا لأهمل وظيفة العقل ودور الشرع في الإرشاد والهداية، فضلاً عن إلغاء ما للإرادة الإنسانية من دور مهم في هذا الصدد.

إضافة إلى أن الصادق يعتقد بأن بعض الصفات الرذيلة في خلق الإنسان كسبية تماماً ولم يجبله الله عليها، فليس لها جذور الفطرية بل يعلمها الإنسان طوال حياته من البيئة الاجتماعية. كما أشار إليها في قوله: «بني الإنسان على خصال فمهما بني عليه أنه لا يبنى على الخيانة والكذب»^(٣).

(١) محمد عبد الله، دراسات إسلامية من العلاقات الاجتماعية والدولية، دار القلم، ط ٢، الكويت ١٩٧٤، ص ٨٨.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب حسن الخلق، ح ١١.

(٣) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٩٤.

أما الخلق الطبيعي فإنه ذات نسب فطرية متفاوتة في الناس كتفاوت استعداد الناس لتعلم أنواع العلوم المختلفة. ولكن مع وجود التفاوت الواسع في هذا بين الناس، نلاحظ بأن هذه الطباع كلها قابلة للتغيير والتعديل وفق ما تكتسبه من محيطها ولا سيما التعليمي والتربوي؛ «لأن وجود الخلق بصفة فطرية يدل على وجود الاستعداد الفطري لتنميته بالتدريب والتعليم وتكرار الخبرات، كما أنه يدل على وجود الاستعداد الفطري لتقويمه وتعديله وتهذيبه، بالتدريب والتعليم وتكرار الخبرات»^(١).

وإن التغيير المستمر في تصرفات الإنسان وعاداته وسلوكه، سواء نحو الأفضل أم الأسوأ، هو خير دليل على وجود هذه القابلية وهذا الاستعداد الفطري لتقبل النصح والإرشاد والتوجيه أو رفضه. «ولو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله ﷺ: «حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ»^(٢).

وكذلك قول الصادق يدل على هذا الأمر «وَطَّنْ نَفْسَكَ عَلَى حَسَنِ الصَّحَابَةِ لِمَنْ صَحَبْتَ، فِي حَسَنِ خَلْقِكَ وَكَفِّ لِسَانِكَ، وَاكْظَمْ غِيظَكَ...»^(٣).

ولأن الأخلاق تكتسب بالتعلم والتهذيب والنصح المستمر حتى تصير ملكة، فالإنسان مطبوع على قبول الخلق بالتأديب والمواعظ إن سريعا أو بطيئا.

وقد تبلور اقتداء الإمام الصادق المتواصل بالمثل الأعلى للمربين النبي الأكرم ﷺ - فأشار إلى مبدأ الاستعداد الفطري في السجاي الأخلاقية عند الناس كنعمة إلهية عظيمة من الله بها على عباده، وبالتالي يتوجب عليهم شكره وحمده، كما يشجعهم دوماً على اكتساب المزيد من الفضائل الأخلاقية بالاستعانة بالله حيث قال: «فإن كانت فيكم منها (مكارم الأخلاق) فاحمدوا الله وارغبوا إليه في الزيادة منها»^(٤).

وهذه القابلية للتعديل والتحسين، تفتح الباب أمام التربية لتقوم بدور هام في التنشئة الأخلاقية للفرد.

(١) عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١، دار القلم، دمشق، ١٩٧٩، ص ١٨٤.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٥٠ والحديث أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق، وفيه أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في الفرز أن قال: «أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل».

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٤، باب الوصية، ح ٣.

(٤) الصدوق، الأمالي، ص ٢٩٠.

موقع الأخلاق في صرح الإمام الصادق التربوي

ذكرنا أن الدين الإسلامي يهتم غاية الاهتمام بالتربية الخلقية ويعطيها قدراً كبيراً من التوجيه، باعتبارها الأساس الأول الذي يشيد عليه البناء الاجتماعي السليم.

إن حقيقة هذه التربية في نظر الإسلام «هي تنشئة الفرد وتكوينه، إنساناً متكاملًا من الناحية الأخلاقية بحيث يصبح في حياته مفتاحاً للخير، ومغلاقاً للشر»^(١). ومجال الأخلاق في الإسلام هو «مجال الحياة كلها لأن الأخلاق إذا كانت نمطاً للعمل والسلوك في الحياة فإنها تشمل جميع النشاطات البشرية».

ولذا، فإننا نلاحظ أن الآيات القرآنية التي تشير إلى مجال التربية الأخلاقية تمثل في مجموعها ما يقرب من ربع عدد آيات الكتاب العظيم^(٢).

وعلى هذا الاعتبار، اتخذ الإمام الصادق الأخلاق أساساً ونبراساً لتعاليمه التربوية. وانطلاقاً من عناية القرآن الكريم بهذا الأمر وتشديده عليه، فقد عني الإمام كل العناية في بث الأخلاق الكريمة، وغرس الفضائل في نفوس المتعلمين؛ لأن الأخلاق - في نظره - تزين الإنسان في نفسه، وتحسن علاقته مع ربه ومع الآخرين، وبها كمال الدين. وقد ورد عنه في هذا قوله: «الخلق الحسن جمال في الدنيا ونزهة في الآخرة وبه كمال الدين والقربة إلى الله تعالى»^(٣).

فهو ينتهز كل فرصة مناسبة في الحضر والسفر، ليذكر الناس بواجباتهم، ويحثهم على السير في طريق مكارم الأخلاق، ويرببهم على التحلي بالصفات الإنسانية.

وقد ركز الإمام على أهمية حسن الخلق لتأثيرها في رفع الخطايا والنقائص فقال مخاطباً المسلم: «إن الخلق الحسن يميّت الخطيئة كما تميّت الشمس الجليلد»^(٤).

-
- (١) مقدار يالجن، علم النفس التربوي في الإسلام، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٩٧، ص ٣٥٩.
- (٢) قام الإمام الغزالي بتصنيف هذه الآيات على قاعدة الأخلاق النظرية والعملية بحيث اشتمل القسم الأول على ٧٦٣ آية بينما اشتمل القسم الثاني على ٧٤١ آية قرآنية وبذلك يصبح مجموع آيات كلا القسمين ١٥٠٤ آيات أي ربع آيات القرآن الكريم.
- (٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٩٣.
- (٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٤٩.

وهكذا، يعتبر الإمام الصادق حسن الخلق في الحياة الدنيوية - ولا سيما في العلاقات الاجتماعية - طريقاً لجلب محبة الله، فيقول: «ما يقدم المؤمن على الله عز وجل بعمل بعد الفرائض أحب إلى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه»^(١).

ففي المحيط الذي يشعر كل فرد منه بمسؤوليته، ويتخلقون بالأخلاق الحسنة، تكون أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم مصونة من الأذى والاعتداء، ويكون الناس فيه أقل عرضة للقلق والاضطراب والغضب والمخاصمة والجدل. وفي هذا قال الإمام: «لا عيش أهنأ من حسن الخلق»^(٢).

وهذا طبيعي لأن نجاح العلاقات الاجتماعية هو أساس الشعور بالطمأنينة والإحساس بالأمان وراحة البال.

وعلى صعيد آخر يرى الإمام الصادق أن الفضائل الخلقية مترابطة بعضها ببعض، مثلما إن الرذائل الأخلاقية ذات صلات وثيقة فيما بينها. لهذا غالباً ما يتعذر الفصل التام بينها. يقول الإمام: «إن خصال المكارم بعضها مقيد ببعض»^(٣).

إن مثل هذه الأصرة بين مجموعة الفضائل أو الرذائل الأخلاقية حصيلة اشتراكها في الجذور والعوامل المسببة لها، أو هي ثمرة الترابط بين نتائجها واستحقاقاتها، حتى إنه يمكن تصورها علي صورة شبكة مترابطة الأجزاء.

و للإمام علي (كرم الله وجهه) إشارة دقيقة إلى هذا المعنى حيث يقول: «إذا كان في الرجل خلّة رائحة فانتظروا أخواتها»^(٤).

والتبصر بهذه الروابط يمكنه أن يمد يد العون للمربي في بلوغ أهدافه التربوية لإصلاح السلوك وتهذيب الأخلاق لدى المتربي. ولهذا يشرح الإمام الصادق هذه النقطة في سياق برنامجه الأخلاقي، ويسرد المصاديق لها كي يدفع طلابه للتحلي بفضيلة خلقية رفيعة عن طريق سائر الفضائل المرتبطة بها. ومن ذلك قوله:

«إن الغنى والعز يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكل توطنّا»^(٥) فالعزة والغنى من وجهة نظر الإمام أمران متلازمان مع التوكل.

وهذا يعني أن القلب الذي تحوّل إلى مركز للتوكل على الله فإنه يشعر بالغنى وعدم الحاجة لغير الله تعالى، وكذلك فإن مثل هذا الإنسان يعيش العزة والقدرة لأنّه

(١) محمد مهدي نراقي، جامع السعادات، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٥.

(٢) الصدوق، علل الشرائع، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٦٠.

(٣) الطوسي، الامالي، ص ٣٠١، ح ٥٩٧.

(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة، قصار الحكم، ٤٤٠.

(٥) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب التفويض إلى الله والتوكل عليه، ح ٣.

يتحرّك مع موقع الاعتماد على القدرة المطلقة التي تسمو على جميع القدرات الأخرى ولا تقبل الضعف والتردد. وعلى هذا النحو يشير الإمام أحياناً إلى العلاقة بين الرذائل، ومثال ذلك قوله: «إياكم والخصومة في الدين فإنّها تورث النفاق وتكسب الضّغائن وتستجيز الكذب»^(١).

اعتبر الإمام في هذا الكلام، الخصومة، سبيل إلى نشوء النفاق والضعينة وجواز الكذب ويرى هذه الرذائل الأربع ذات علاقة وثيقة فيما بينها.

أجل، بما أن كثيراً من الخصال تمثل الجذر والقاعدة المنتجة للصفات الأخرى، لذا يهتم الإمام اهتماماً خاصاً بهذه الأمور الأساسية في تربيته الأخلاقية ليعين المتربّين في الالتزام بالسلوك الأخلاقي القويم.

فمن جملة أبرز وأهم الفضائل الأساسية التي كان الإمام يوليها أهمية كبرى في تربية تلاميذه صفة «الحرية»، فالصادق يرى أن الحرية حاجة أساسية من حاجات النفس لا بدّ من إشباعها ولا يستطيع الإنسان أن يكمل نفسه ويرقي أخلاقه ويصل إلى غايته إلّا إذا كان حرّاً.

الحرية من منظور الإمام أصل للكثير من الصفات الأخلاقية الحميدة، حتى إن التحلي ببعض الخصال والإيجابيات منوط بتوفر خصلة الحرية عند الإنسان. وهذا ما ذكره في حديثه: «خمس خصال من لم تكن فيه واحدة منها فليس فيه كثير مستمتع: الوفاء والتدبير والحياء وحسن الخلق والخامسة تجمع هذه الخصال كلّها وهي: الحرّية»^(٢).

إن الحرية يراد منها تارة التحرر من الشهوات والأهواء، وأخرى التحلل من التقليد والتبعية، وثالثاً الخلاص من القوة والسيطرة المعتدية، وأي معنى من هذه المعاني الثلاثة فإن الإنسان يفقد شخصيته وإرادته إذا فقد الحرية؛ لأن من تتحكم به العواطف والانفعالات، أو يسيطر عليه الغير يستحيل عليه التدبير والوفاء، وحسن الخلق والحياء، يستحيل عليه التدبير أن يملك من أمره غير الخضوع والتسليم.

ومن أجل هذا اعتبر الإمام الصادق الحرية أم الفضائل ورأس الأخلاق، وفقدانها أم الرذائل وأصل المشكلات الشخصية والاجتماعية.

ومن الصفات الأخلاقية المهمة الأخرى التي يعتبرها الإمام الصادق ينبوعاً للفضائل الأخرى هي صفة الحياء. والحياء عبارة عن: «ظاهرة تعبّر عن الخوف من الظهور بمظهر النقص وتعبر عن علوّ همة النفس إلى الكمالات ونفورها من النقائص

(١) ابن الأثير، المختار، دمشق، د. ت، ص ٢٢.

(٢) الصدوق، الخصال، ص ٢٨٤.

وكرهيتها لها، وحذرهما من أن تظهر أمام الناس ببعض مظاهرها»^(١).
 من هنا يرى الإمام أن هذه الصفة تختص بالإنسان وتمثل سبباً من أسباب تكريمه،
 وفي هذا يقول مخاطباً المفضل بن عمر: «انظر يا مفضل إلى ما خُصَّ به الإنسان دون
 جميع الحيوان من هذا الخلق الجليل قدره العظيم غناؤه، أعني الحياء»^(٢).
 فالحياء يحجز المرء عن الفواحش ويدفعه إلى التحلي بكل جميل ومن أجل ذلك
 قرّر رسول الله ﷺ بأن «الحياء خير كله»^(٣).

ويشرح الإمام الصادق كيف أن الكثير من السلوكيات الحسنة وحتى مراعاة
 الحقوق تظهر بفضل التزام الإنسان بسجية الحياء في حياته:
 «فَلَوْلَاهُ [أي الحياء] لَمْ يُقَرَّ ضَيْفٌ وَلَمْ يُوفَ بِالْعِدَاةِ وَلَمْ تُقْضَ الْحَوَائِجُ وَلَمْ يَتَحَرَّ
 الْجَمِيلُ وَلَمْ يُتَنَكَّبِ الْقَبِيحُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ حَتَّى إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأُمُورِ الْمُفْتَرَضَةِ أَيْضاً
 إِنَّمَا يُفْعَلُ لِلْحَيَاءِ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَوْ لَا الْحَيَاءُ لَمْ يَرْعَ حَقَّ وَالِدَيْهِ وَلَمْ يَصِلْ ذَا رَحِمٍ
 وَلَمْ يُوَدِّ أَمَانَةً وَلَمْ يَعِفَّ عَنْ فَاحِشَةٍ»^(٤).
 وهكذا يرى الإمام الحياء رأس كثير من مكارم الأخلاق ويشجع طلابه عليه
 فيقول:

«صدق الحديث وصدق الناس، وإعطاء السائل، ومكافأة الصانع، وأداء الأمانة،
 وصلة الرحم والتوّدّد إلى الجار والصاحب، وقرى الضيف ورأسهنّ الحياء»^(٥).
 وعلى هذا النحو يشير الإمام أحياناً إلى الجذور الأصلية للذائل ويعبر عنها
 بأصول الكفر فيقول ما نصّه: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد»^(٦)
 ربّما مصدر جميع المصائب الكبرى التي حدثت في العالم الإنسانية منذ صدر الخليقة
 هي هذه الصفات الثلاث.

وتشير نماذج من هذا القبيل إلى أن الإمام الصادق اهتم عبر نظامه التربوي
 الأخلاقي المستمد من النظام التربوي القرآني بتحري جذور الفضائل والذائل
 الأخلاقية، وبدأ بها في تربية طلابه وقد استعان بالمقارنات وظاهرة الترابط القائم بينها
 في هذا المجال.

(١) عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٨٩.

(٢) كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص ٣٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، باب شعب الإيمان، ح ٣٧.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨١.

(٥) الطوسي، الأمالي، ص ٣٠١.

(٦) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب أصول الكفر وأركانه، ح ١.

أهداف التربية الخلقية في مدرسة الصادق

تتوخى التربية الخلقية في الإسلام تحقيق الفضائل وفق مستويين:

أحدهما الحد الأدنى الواقعي ويرمي إلى الوصول بالطباع والأخلاق إلى حد الاعتدال أو نقطة التوازن بين الإفراط والتفريط. فالفضائل هي أوساط بين أطراف، والأطراف هي الرذائل. وبذلك جاء حديث الرسول ﷺ «خير الأمور أوسطها»^(١).

فالحكمة وسط بين السفه والبله، والحياء وسط بين الوقاحة والخرق، والشجاعة وسط بين رذيلتي الجبن والتهور، والعفة وسط بين الشره وخمود الشهوة، والسّخاء بين رذيلتي التقير والتبذير، وغير ذلك^(٢) أما الحد الأعلى الثاني فيرمي تطبيق هذه الفضائل إلى منتهى غاياتها ابتغاء مرضاة الله؛ فالعدل فضيلة والإحسان والتفضل مثالية، والسّخاء فضيلة، والإنفاق في سبيل الله بغير من ولا أذى مثالية. والشجاعة فضيلة، وبذل المسلم روحه في سبيل الله لنشر الدعوة الإسلامية مثالية.

ومما لا شك فيه أن وجود هذا الحد الأعلى المثالي في الأخلاق هو سمة الأصفياء، ووجوده ضرورة في الأمة؛ لأنه رصيد الخير الذي يشدها شداً، ويرتفع بها من هوة المطالب الدانية إلى ذروة المطامح العالية، ويشير إلى هذا الموضوع أحد علماء اللاهوت الغربيين عندما يفصل بين الأخلاق الدنيوية التي هي ضرورة اجتماعية تفرضها للمحافظة على الأمن، والأخلاق الإنسانية التي هي فيض إلهي تخلق في الإنسان نفساً قدسية. فهو يتحدث بها لنيل الكمالات المعنوية والسمو النفسي^(٣).

وكذلك في مدرسة الصادق، فالأخلاق الحميدة قسمان: الأول: محاسن الأخلاق، والثاني: مكارم الأخلاق. والمحاسن هي أساس العلاقات الاجتماعية وهي

(١) جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، الفتح، جدة، ١٣٦٥، ج ٤، ص ٢٠٨ وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلاً.

(٢) ابن مسكويه، أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت ص ٤٥ إلى ٤٨ (بتصرف).

(٣) محمد علي فروغي، سير الحكمة في أوروبا، نشر زوار، طهران، ١٤١٣، ج ٣، ص ١٨٣ في كلام هنري برجسن. (باللغة الفارسية)

الباعثة على نيل المنافع المادية وتحسين الحياة وأما المكارم فهي معيار الإنسانية، وبها يستقيم الطبع، وتزكو النفس، ويسمو الروح.

ولأن الإمام الصادق عندما يتكلم عن الأخلاق الحسنة بمعناها الجامع الشامل لبيان أهميتها وقيمتها في التعاليم الإسلامية، يعبر عنها بحسن الخلق، وعمّا يقابلها بسوء الخلق.

وعندما كان الإمام يريد توجيه الناس إلى السمو المعنوي وكمال النفس ليبين لهم القيم الإنسانية الرفيعة كان يحدثهم عن مكارم الأخلاق كما يحدثهم عن المحاسن دون أن يفصل بينهما؛ لأن مدرسته لا تقتصر على الأخلاق الحسنة فحسب بل تريد أن ترقى بالناس إلى المستوى الأعلى المثالي بالمكارم. وهذا معيار المحاسن والمكارم عند الإمام، فقد سئل ذات مرة: ما حد حسن الخلق؟ قال: «تلين جانبك. وتطيب كلامك، وتلقى أذاك ببشر حسن»^(١).

وجاء رجل، فقال له: يا ابن رسول الله ﷺ، أخبرني بمكارم الأخلاق، فقال: «العفو عن ظلمك. وصلة من قطعك. وإعطاء من حرمك، وقول الحق ولو على نفسك»^(٢).

فالبشاشة والتبسم واحترام الناس وأدب الكلام وعيادة المريض وتعزية المصاب وما شابهها من صور التراحم والتودد المطلوبة شرعاً وعرفاً هي من محاسن الأخلاق، وبها تطيب الحياة، إذ تشيع بين الناس مظاهر الفضيلة وتبادل الاحترام والأدب، ويفيض الوُد والمحبة على المجتمع وهذا يكاد يكون ميسوراً لجميع الناس، فكل امرئ يستطيع بالمراقبة والمران أن يتخلق بها ليتمتع بثمارها المفيدة.

أما مكارم الأخلاق، فلا يبلغها إلا من استطاع أن يتغلب على هوى النفس، ويحررها من أسر الشهوات.

وفيها قال الإمام الصادق: «فإن استطعت أن تكون فيك (المكارم) فلتكن، فإنها تكون في الرجل ولا تكون في ولده، وتكون في ولده ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في الحر...»^(٣).

ومن هذا المنطلق يمكن القول، مع علماء النفس، بأن تطبيق محاسن الأخلاق دليل على الوصول إلى مرحلة ال (أنا)، والتخلق بمكارم الأخلاق دليل على الوصول إلى مرحلة ال (أنا الأعلى) الشامخة.

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤١٢، ح ٥٨٩٧.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٦٨.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب المكارم، ح ١.

وما برح الإمام الصادق يدعو تلاميذه إلى قسمة الأخلاق مؤكداً أن المكارم أشد تأثيراً في ضمان النجاة وسعادة الإنسان، لأنها تحرّر الإنسان من عبادة الذات والطبيعة الحيوانية وتبعثه على الحب في الله والبغض في الله، وهما غاية التربية الإسلامية.

فقام بتعليم تلاميذه هذه المكارم وترسيخها في نفوسهم، لكي يكمل البناء الذي أرسى قواعده من قبل جدّه رسول الله ﷺ فقال ما نصّه:

«إن الله عزّ وجلّ خصّ رسله بمكارم الأخلاق، فامتحنوا أنفسكم؛ فإن كانت فيكم، فاحمدوا الله، واعلموا أن ذلك من خير، وإن لم تكن فيكم فاسألوا الله، وارغبوا إليه فيها»^(١).

وهكذا نلمس أن تربية الإمام الصادق تجعل «السمو بالأخلاق» وترقيتها، والتحلي بفضائلها وآدابها أهم مقاصد التربية المتكاملة، ترمي بها إلى ترسيخ هذه القيم وتكوين الخلق الفاضل القويم في نفوس المتعلمين.

(١) الصدوق، الأمالي، ص ٢٩٠.

مبادئ التربية الخلقية في مدرسة الصادق

تناولنا أهمية التربية الخلقية وأهدافها في مدرسة الصادق، ومن الطبيعي أن نتحدث بعد ذلك، عن المبادئ الرئيسة لهذه التربية التي نراها تسير بخطى عملية مترابطة ومتكاملة معاً، تشكل الإلزام الخلقي في الإنسان وتنمي فيه روح الاستقامة على الخير والصالح؛ وأهم هذه الخطى:

أ- تكوين بصيرة أخلاقية:

من أهم مبادئ التربية الخلقية عند الصادق تكوين بصيرة أخلاقية لدى كل مسلم. فهو يرى أن المعرفة لا بد أن تكون سابقة على السلوك، ليكون الإلزام الخلقي حقيقة واقعة في نفس الإنسان وهذه المعرفة تجعل الإنسان متمكناً من أنماط سلوكه وواعياً لأبعادها، وقادراً على القيام بما يجب عليه، ومن هنا قال: «العامل على غير بصيرة كسائر على سراپ بقية لا تزيده سرعة السير إلا بعداً»^(١).

«فمعرفة مبررات القانون، والاقتناع بعدالته يجذب النفوس إلى امثاله ويغريها بطاعته عن محبة وطوعية»^(٢).

وهكذا تنمية الروح الأخلاقية تحتاج إلى تعليم وتبصير ولا بدّ من وعيها وعياً نافذاً ليدرك الإنسان حكمة المبادئ الأخلاقية وليستطيع التمييز بين المحاسن والمساوي، وما يترتب على الفضائل من خير، وما يترتب على الرذائل من شرّ. «فالعلم والمعرفة شرط جوهري في تقرير خلقية السلوك، كما أنه دلالة على صحّة القصد الخلقي، فتغدو المعرفة بخلقية العمل سبيلاً إلى الالتزام به والشعور تجاهه بأنه واجب خلقي... كما أن المعرفة بالشر تكون سبيلاً إلى النفور منه والبعد عنه»^(٣).

ومن هذا المنطلق، فقد كان الإقناع الفكري من أهم الطرائق التي سلكها الإمام

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٢٢، ح ٣٦.

(٢) محمد عبد الله دراز، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، دار القلم، الكويت، ص ١٠٥.

(٣) محمد عبد الله عفيفي، النظرية الخلقية عند ابن تيمية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٨، ص ١٣٦.

متأسياً بالمنهج القرآني. والبناء الخلقي عنده، ليس مجرد مدح لبعض الأعمال ولا ذمّاً لبعض، وإنما هو تكوين معرفة صحيحة بالفضائل والردائل وتحليل للنتائج النفسية والاجتماعية لسلوك ما.

ولذلك نجد الإمام معلماً ومربياً يسعى لتكوين بصيرة علمية وقناعة عقلية بالقيم الخلقية عن طريق تبين هذه القيم وحدودها، وبيان حكمتها وآثارها، لِيختار الفرد المسلم أخلاقه في الحياة العملية في ضوء معايير العمل الصالح في الإسلام.

لقد غرس الإمام هذه المعرفة والوعي في تلاميذه ومحبيه بما نوره على ما يأتي:

* تعريف السلوك الأخلاقي بظواهره:

إنّ تبصير الفرد بالقيم والفضائل وإبعاده عن الرذائل يحتاج إلى معرفة الخير والشر في مجال التطبيق، لأن الأخلاق هي دراسة القيم في مجال السلوك البشري ولهذا «تتكون من خلال الممارسة والانخراط في مواقف الحياة حيث يكون التعامل مع الأفراد والجماعات، وحيث يكون اكتساب القيم والاتجاهات والعادات ذات الأثر الإيجابي البناء، كالتعاون والتساند الاجتماعي وحب الخير وكره الشر»^(١).

وهذا ما يلّمسه من يقرأ سيرة الإمام الصادق ومنهجه الذي اتّبعه في حياته، فهو يعرف كثيراً من الأخلاقيات بظواهرها السلوكية لتكوين معرفة صحيحة بها ولتفتح للإنسان طريق العمل بمصاديقها في مختلف نواحي الحياة كما نرى في تعريفه للتواضع حيث قال ما نصّه:

«التواضع هو أن ترضى من المجلس بدون شرفك وأن تسلم على من لقيت، وأن تترك المراء، وإن كنت محقاً»^(٢).

وكذلك في تعريفه للكبر حيث يقول: «الكبر أن يغمص الناس ويسفّه الحق»^(٣).

فيعرّف الإمام الكبر في عبارة موجزة بأنه تحقير الناس وازدراؤهم من جهة وعدم رؤية الحق من جهة أخرى.

وفي ضوء هذا الهدف يدلّ الإمام على الفضائل والردائل بعلاماتها كقوله: «للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده. وينشط إذا كان الناس عنده. ويتعرض في كل أمر للمحمدة»^(٤).

(١) منير المرسي سرحان: في اجتماعيات التربية، مكتبة الإنجلو المصرية، ط ٧، ١٩٩١، ص ٢٨.

(٢) شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د.ت، ج ٣، ص ٢٤٥.

(٣) الصدوق، معاني الأخبار، ص ٢٤٢.

(٤) الصدوق، الخصال، ص ١٢١.

«وللحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب، ويتملق إذا شهد، ويشمت بالمصيبة»^(١).

فالعلائم أفضل الطرق لمعرفة الصفات الباطنية، وبما يستطيع الإنسان أن يطلع على وجود هذه الصفات من نفسه فيقوم بمعالجتها.

فلا يكفي عند الصادق أن يريد الإنسان من أعماق نفسه عمل ما يجب عمله، بل يرى من الضروري أن يعرف ذلك بظواهره السلوكية؛ لأن «القوانين الأخلاقية ليست ترفاً عقلياً وإنما هي قواعد للعمل»^(٢) ولذا كان التركيز في منهج الإمام على الجانب التطبيقي أكثر من المفاهيم والتصورات الذهنية.

* تحديد السلوك الأخلاقي وتمييزه عن غيره:

إحدى الطرق لتكوين بصيرة أخلاقية هي تبين حدود السلوك الخلقي وتمييزه عما تشابه منه، لئلا تختلط الفضيلة بالرذيلة، والعدل بالظلم، والصواب بالخطأ.

فمن خلال جهود الصادق في تربية الأمة أخلاقياً، فإنه سعى إلى تصحيح المفاهيم الأخلاقية التي التبس بعضها ببعض أحياناً بتأثير التغير والتغير الاجتماعي الضارين في مسيرة الأمة، فقال محدداً مفهوم التعصب: «ليس من العصبية أن تحب أخاك ولكن العصبية أن ترى شرار قومك خيراً من خيار غيرهم»^(٣).

فحب الإنسان لأخيه والانتصار له عند الشدة بالحق ليس عصبية ولا صلة لهما بالعصبية؛ لأنهما واجب أخلاقي وشرعي أما إذا كانت النصره خارج الإنصاف، فهي عصبية ذميمة يأبأها الشرع ومكارم الأخلاق.

وكذلك يبين الإمام الفضيلة والرذيلة بتحديد مفهوم العصبية وتمييزها عن الغيرة الممدوحة.

كما حدّد الصادق السخاء بقوله: «ليس السخي المبذر الذي ينفق ماله في غير حق، ولكنه الذي يؤدي إلى الله عزّ وجلّ ما فرض عليه في ماله من الزكاة وغيرها والبخل الذي لا يؤدي حق الله عزّ وجلّ من ماله»^(٤).

وبهذا القول رفع الصادق ما بين السخاء والتبذير من الالتباس، وحدّد السخاء بأداء المفروض في المال إلى الله تعالى.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٥١.

(٢) أحمد محمود صبحي، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٩٢، ص ٣١.

(٣) حسن الأمين، دائرة المعارف الشيعية، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٤) الطوسي، أمالي، ص ٤٧٥.

وقوله: «إلى الله» تحديد آخر للسخاء من التبذير، فليس إخراج الزكاة وحده سخاء في رأي الصادق، وإنما لا بد أن يكون لله تعالى لا لشهرة، ولا لمصلحة خاصة، ولا لفساد في الأرض.

وهكذا يشير الإمام إلى دور النية والقصد في تحديد الفعل وتقويمه؛ لأنها روح العمل. فقال ما نصّه: «النية أفضل من العمل ألا وإن النية هي العمل»^(١).

فعلى أساسها تصنّف الأفعال وتوزن، فلا عبثة بالفعل ولا قيمة له ما لم يتم على أساس قصد سليم ونية مخلصّة وصادقة مهما يكن ضخماً ومهماً يبدو في وضعه المنظور خيراً وحسناً. وقد أثر عن الإمام من تفسير قول الله تعالى:

﴿لِبَلْوَاكُمْ أَتُكْمَلُكُمْ أَمْ لَا﴾^(٢) «ليس يعني أكثر عملاً ولكن أصوبكم عملاً وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والحسنة»^(٣). هذا يعني أهمية العمل تتعلق بكيفيته أكثر مما تتعلق بكميته، ومن مقتضيات ذلك أنّ «تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها»^(٤) فكم من الأعمال تعجب بظاهرها والناس يعدّون فاعلها صانعاً للمعروف، في حين أنّ قصد فاعله تخالف الصورة الظاهرة فينقلب هذا الشكل الخير إلى الرياء الذي هو شر مهلك.

فالإمام يؤكد على أهمية النية لتحديد السلوك الأخلاقي وتمييزه عن غيره من الأفعال، ويعلم تلاميذه هذا الموضوع الخطير الأثر في الحياة؛ لأنها تعبّر عن الموقف الداخلي وعن التوجه الذاتي والحقيقة الباطنة للإنسان فشرح قوله تعالى:

﴿كُلُّ يَوْمٍ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(٥) بأنها تعني على نيته^(٦).

* تبين آثار السلوك الأخلاقي ونتائجه:

لمعرفة الفضائل الأخلاقية معرفة صحيحة، لا بد أن تبرز ما فيها من كمال وجمال، ولا بد أن تورث اليقين بفوائدها وثمراتها الطيبات وخيراتها الحسان المادية والمعنوية، والدينية والأخروية. وكذلك معرفة الرذائل والنقائص الأخلاقية لا بد أن تبرز ما فيها من نقص وقبح، ولا بد أن تورث اليقين بمضارها ونتائجها السيئة. من هنا عرض الصادق، في سبيل تبصير تلاميذه بالسلوكيات الأخلاقية على

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الإخلاص، ح ٤.

(٢) سورة الملك، جزء من الآية ٢.

(٣) الطباطبائي، تفسير الميزان، ج ١٠، ص ١٨١.

(٤) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٥) سورة الإسراء، جزء من الآية ٨٤.

(٦) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢٣٠.

أنواعها، وما يترتب على الفضيلة من خير وما ينجم عن الرذيلة من شر؛ فعلى سبيل المثال قال له أحد تلاميذه: «قد عرفت حالي وسعة يدي وتوسعي على إخواني، فأصبح النفر منهم في طريق مكة فأتوسع عليهم فقال له: لا تفعل، إن بسطت وبسطوا أجحفت بهم، وإن هم أمسكوا أذلتهم، فأصبح نظراءك، أصبح نظراءك»^(١).

لقد نهاه الإمام عن صحبة من دونه في السفر وعلل له ذلك، ليعرف ما ينفع وما يضر وليعي أن جميل العشرة ليس أن يكلف رفيقه أو يذله.

وحت الصادق أتباعه على التحلي بالصفات الحميدة والسجيا المطلوبة بذكر فوائدها ونتائجها فقال: «قل الحق لك وعليك تستشار من بين أقبائك»^(٢).

فبين الإمام أثر اتباع الحق بين الناس الذي يؤدي إلى مكانة الثقة للمرء ومنصة المشورة عن الآخرين.

كما حذر تلاميذه من الأخلاق الذميمة مبيناً سوء أثرها في النفس والمجتمع فقال ناهياً عن المراء: «لا تمارين حليماً ولا سفيهاً فإن الحليم يغلبك والسفيه يؤذك»^(٣).

فالتبصير بعواقب الأفعال وآثارها أمر حيوي عند الإمام لإصلاح النفوس، حيث لم يعلم الفضائل والرذائل إلا بذكر ثمارها العاجلة والآجلة. ولكنه رغم ذكر الفوائد الدنيوية للفضائل، نبه تلاميذه إلى اختلاف الخلق الإيماني عن الخلق النفعي^(٤) لكي ينفذوا سلوكهم الأخلاقي إطاعة لأمر الله ويكون الدافع الأصلي فيهم ابتغاء لوجهه. فقال ما نصّه:

«عليكم بمكارم الأخلاق فإن الله عز وجل يحبها، وإياكم ومذام الأخلاق فإن الله عز وجل يبغضها»^(٥).

ومعلوم أن التخلق لغير الله تعالى مهما كان فإنه، ليس من المكارم على ما في الإسلام الحنيف.

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٧٩، ح ٢٤٤١.

(٢) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٩٥.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب المراء والخصومة، ح ٤.

(٤) أصحاب هذه النظرية يلزمون أنفسهم بالموازين الأخلاقية لاستزادة المنفعة لهم وليس دافعهم إلى السلوك الأخلاقي إلا النفع المادي والمصلحة الدنيوية؛ لأنهم عرفوا أن مصالحهم ومنافعهم الدنيوية تكمن في حسن الأخلاق، فاستخدموها وسيلة لإشباع رغباتهم ولتليل اللذائذ والأهواء النفسية. (محمد تقي فلسفي، الأخلاق من منظور التعايش والقيم الإنسانية، ج ١، باب الأخلاق النفعية، ص ٧٦).

(٥) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٠٠.

ب - تكوين عاطفة أخلاقية^(١) :

معرفة الأخلاق والفضيلة عند الصادق لا تبعث على التمسك بهما ما لم تمتزج بعاطفة أخلاقية تمنحهما الحياة التي تدفع الإنسان نحو عمل الخير وتردعه عن الشر .

هذه العاطفة، كحافز ذاتي في داخل الإنسان، توجه إرادته وتدفعه إلى ممارسة السلوك الأخلاقي وهذا ما سعى الإمام الصادق إلى تحقيقه في نفس الإنسان المسلم، فلم يكتف بالتوعية وحدها، بل شقّعها بتكوين الرغبة والاستعداد الكامل في نفوس تلاميذه للالتزام بالمبادئ الأخلاقية، وقد سلك في ذلك طرقاً منها :

* التذكير بالوازع الداخلي أو الحس الأخلاقي :

«لقد خلق الخالق العظيم الإنسان «وأودع في مدارك الأفكار وفي مشاعر الوجدان الفطرية ما تدرك به فضائل الأخلاق ورذائلها، ونستطيع أن نسمي ذلك «الحس الأخلاقي». وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح وينفرون منه، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون إليه»^(٢).

وقد وصف القرآن الكريم هذه الهداية التكوينية بأنها إلهام رباني بقوله : ﴿فَالْهَمُّهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٣). فالنفس الإنسانية منذ تكوينها وتسويتها ألهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها وطريق تقواها، وهذا هو الحس الفطري الذي تدرك به الخير والشر، الذي يسمّيه علماء النفس «الضمير».

وقد أرشدت السُّنة النبوية إلى وجود هذا الحس في النفوس الإنسانية وأرشدت المسلم إلى استفتاء قلبه في حكم السلوك الذي قد تميل نفسه إلى ممارسته، فقال النبي ﷺ، عندما سأله رجل عن البر: «استفت نفسك، البرّ ما اطمأنّ إليه القلب، واطمأنّت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس»^(٤).

وهذا يدل على أن في النفس الإنسانية قدرة على الإحساس بالبر والإثم. وقد جمع الرسول ﷺ فضائل الأخلاق تحت عنوان (البر) وجمع رذائل الأخلاق تحت عنوان (الإثم).

وكذلك الإمام الصادق الذي تخرّج من مدرسة جدّه، لم يغفل عن هذا الوازع في

(١) المقصود من تكوين العاطفة الأخلاقية، تنشئة الرغبة في الفضيلة والكراهية عن الرذيلة في داخل النفس.

(٢) عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، مرجع سابق، ج ١، ص ٦٧.

(٣) سورة الشمس، الآية ٨.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، ج ٤، ص ٢٢٨.

النفس الإنسانية فذكر تلاميذه به من حيث تنميته وحمايته في قوله: «إنك قد جعلت طبيب نفسك، ويّين لك الداء، وعرفت آية الصحة، ودلّلت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك»^(١).

ففي هذا الكلام، تبيان واضح للحس الأخلاقي الذي شبّهه الإمام بالطبيب الذي يعرف الداء والدواء. فبهذا الوجدان يهتدي الإنسان إلى معرفة أمراض نفسه، ويستطيع الوصول إلى سلامة روحه؛ لأنه إذا كان نقيّاً صافياً سليماً من العلل، يساعد الإنسان على تمييز مواقف الخير من غيرها، ويحمله على وقوفها واجتناب مواقف السوء.

فقد أشار الإمام إلى موقع هذا الوازع الداخلي في صيانة الإنسان عن الانحراف بقوله: «من لم يكن له واعظ من قلبه وزاجر من نفسه، ولم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه»^(٢) ومن البديهي أنّ الإنسان يحتاج إلى واعظ قبل كل شيء ليكون معه في كل حال ويعلم أسرارته الداخلية ويكون عليه ومعه دائماً.

فهذه الصرخة الإلهية في نفس الإنسان تقوّم شخصيته وتشكل محكمة عادلة ومنصفة داخله، وتراقب سلوكه ومواقفه بدقة وتؤبّخه وتؤنبه عند كل شطط وانحراف كما تمدحه عند كل خير وفضيلة. وعلى هذا ذكر الصادق الناس بهذا الوازع الداخلي الذي يشعرهم بقبح العمل القبيح وينفرهم منه ويشعرهم بحسن العمل الحسن فيرتاحون إليه، ترغيباً لهم في الخير وتنفيراً من الشر.

* تحريك عنصري الطمع والخوف:

للطمع والخوف أثر كبير في النفس الإنسانية وهما يتحركان بالترغيب والترهيب، فإذا رأى الإنسان المكافأة على عمل اندفع إليه طمعاً فيها، وإذا رأى العقوبة عليه ارتدع عنه خوفاً منها.

وقد اعتمد الصادق في منهجه التربوي اعتماداً كبيراً على تحريك هذين العنصرين لبعث الفضيلة ونبد الرذيلة من أعماق النفس الإنسانية مازجاً بين العقل والعاطفة لتمكين الروح من الاستقامة على الخير والحق والجمال.

وهذه أمثلة من ترغيبه وترهيبه، قال: «من ظلم مظلمة أخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده»^(٣).

وهذا تخويف من العقاب الذي يطال الظالم في الدنيا بأنه قد يكون في نفسه أو

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب محاسبة العمل، ح ٦.

(٢) الصدوق، الأمالي، ص ٥٢٦.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٣٠.

في ماله، إذ يقتصر الله سبحانه منه للمظلوم بمرض أو بلاء أو خسارة في ماله. وأحياناً يكون العقاب في أولاده ولأن الإنسان يحب نفسه وما يتعلق بها من مال وولد، أراد الإمام أن يبعد الناس عن ظلم بعضهم بعضاً بإخافتهم من عاقبة هذا الظلم. ورغب الناس في البر والفضيلة بلفت أنظارهم للتأثير المتقابل في الأعمال، ليحرك عواطفهم وأحاسيسهم إلى الالتزام به. فقال: «بروا آباءكم ببركم أبناؤكم... عفا عن نساء الناس تعف نساءكم»^(١).

كما يخوفهم من عواقب بعض الرذائل في مثل قوله: «من كشف الحجاب عن عورة غيره انكشف الحجاب عن عورات بيته، ومن سل سيف البغي قتل به ومن احتفر لأخيه بئراً سقط فيها»^(٢).

فالإمام كما رغب ورهب بالنتائج الدنيوية للأعمال أشار إلى الآثار الأخروية لها أيضاً كقوله: «إن المتكبرين يجعلون في صور الذرّ يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب»^(٣).

فهذا رعاية لوجود الفروق الفردية بين الناس ومنهم من يحرك بالعواقب الأخروية من النفوس المؤمنة الصادقة، ومنهم من يتأثر بالنتائج الدنيوية أشد تأثيراً من مستوى العام بين الناس. لهذا تشمل ترغيبات وترهيبات الإمام كلا الجانبين.

* تشجيع الناس على محاسبة النفس (المراقبة الذاتية):

يرى الصادق محاسبة النفس طريقاً إلى تكوين عاطفة أخلاقية تؤدي إلى الرغبة في الفضيلة وترك الرذيلة باستمرار. «فمن عوامل الرقي في بناء الذات، النقد البناء والمحاسبة الذاتية وهو أساس كل حركة ووجودهما ضمانة أكيدة للبناء والتكامل الذاتي»^(٤) ولا بد للإنسان أن يكون ناقداً لنفسه يزن أعماله وسلوكه بميزان الحق ويميز الحسن من السيئ منها، قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «ثمرة المحاسبة صلاح النفس»^(٥).

فالمراقبة هي الملاحظة الكاملة لكيفية الأعمال قبل صدورها، والمحاسبة هي دراسة نتائج الأعمال وآثارها بعد صدورها.

(١) الحراني، تحف العقول، ص ٣٥٩.

(٢) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٩٥.

(٣) سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ١٤، ص ١٣٣.

(٤) محسن الباقر، مقومات الشخصية الإسلامية، دار البيان العربي، بيروت، ١٩٩٠، ص ٧٣.

(٥) عبد الواحد الأمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، طهران، د.ن، ١٣٧٦، ح ٤٦٥٦.

ومن يراقب نفسه دائماً، ولا يغفل عن عمله، فيبادر لاجتناب المعاصي واجتثاث أثرها من روحه وقلبه قبل أن تتأصل جذورها في نفسه وتصير ملكة له تستقيم سيرته، وتزدهر حياته، وتثمر خيراً عميماً.

ولذا شجع الإمام الصادق تلاميذه ومريديه على هذه المحاسبة الواعية، وجعلها واجباً عليهم، فقال: «حق على كل مسلم يعرفنا أن يعرض عمله في كل يوم وليلة على نفسه، فيكون محاسب نفسه، فإن رأى حسنة استزاد منها، وإن رأى سيئة استغفر منها»^(١).

وبين الصادق أن من أهمل محاسبة نفسه أوشك أن يكون عن الخيرات ساهياً وبالقبائح لاهياً فلا تؤثر فيه مواعظ الآخرين، فقال: «من لم يجعل له من نفسه واعظاً فإن مواعظ الناس لن تغني عنه شيئاً»^(٢).

فهو يدعو لمراجعة الحسابات والموازنة يومياً استعداداً لمواجهة حساب الآخرة فقال: «إذا أويت إلى فراشك، فانظر ما سلكت في بطنك، وما كسبت في يومك، واذكر أنك ميت، وأن لك معاداً»^(٣).

على وفق هذه المحاسبة في كل يوم يرسم الصادق حقيقة الإنسان المؤمن خاصة والإنسان عامة بقوله: «من استوي يومه فهو مغبون. ومن كان غده شراً من يومه فهو مفتون. ومن لم يتفقد النقصان في نفسه دام نقصانه. ومن دام نقصانه، فالموت خير له»^(٤).

هذه النظرة تؤدي إلى تكوين الرغبة في الخير والتقدم في نفس الإنسان الذي يكون باستطاعته أن يحرك ويوجه ويؤثر.

ج - تكوين قوة الإرادة:

يرى الصادق أن التربية الخلقية لا تتم ولا تقوم لها قائمة، دون تربية قوة الإرادة، فهي من مبادئ التربية الخلقية في منهجه؛ لأن إرادة الإنسان هي المحرك الأول لقوة العمل وبقوة هذه الإرادة تكافح الغرائز والميول وتبتدئ الفضيلة ويتم التوازن، فهي المبدأ الأساس في البناء الخلقى للمسلم، ولا يستطيع الإنسان أن يطبق المبادئ الأخلاقية في كل المواقف والأحوال دون أن يملك قوة الإرادة.

فكثير من الناس يرون الاستقامة فضيلة، لكن لضعف إرادتهم في المواقف

(١) الحراني، تحف العقول، ص ٣٠١.

(٢) المفيد، الأمالي، ص ٢٨.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٦٧.

(٤) الصدوق، معاني الأخبار، ص ٣٤٢.

الضاغطة والمثيرة لا يستطيعون التغلب على الشهوات والأهواء، فكثيراً ما يعلمون الخير ويجتنبونه، ويعلمون الشر ويأتونه «فمعرفة الخير ليست كافية في الحمل على فعله، بل لا بد أن ينضم إليها إرادة قوية حتى يعمل على وفق ما علم»^(١).

ونعني بالإرادة القوية، إرادة تنفذ ما قصدت إليه مهما كلفها من المشاق، ومظاهر قوة الإرادة هي الشجاعة في مواجهة الحياة وألوانها المختلفة حلولها ومرها، والثبات على المبادئ التي يؤمن بها والاستمرار في تطبيقها مهما تكلفه من العناء والمشقة، أينما كان وحيثما وجد.

وقد جمع الإمام الصادق هذه المعاني كلها في كلمته البليغة: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النية»^(٢).

أي إذا كانت إرادة الإنسان في نفسه قوية، فإنها تمنح الجسد قوة بحيث يستطيع أن يقوم بما تفتح عليه الإرادة ولو كان ضعيفاً.

وقد عدّد في تعاليمه ما يدل على مزيد من الاهتمام بتكوين الشخصية القوية الإرادة، ومنها تركيزه على الأمور التالية:

* الدعوة إلى مخالفة الهوى وجهاد النفس:

لا شك أن جهاد النفس هو من أعظم الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حركته التكاملية، وقد جاء التعبير عنه في الحديث الصحيح المروي عن رسول الله ﷺ بأنه الجهاد الأكبر^(٣) وأهمية هذه الضابطة في جانبها الذاتي، إنما تنبع من تربية الإرادة الإنسانية وتقويتها. ولذلك يدعو الصادق إلى هذا الأمر بقوله:

«لا تدع النفس وهواها، فإن هواها رداها، وترك النفس وما تهوى أذاها وكف النفس عما تهوى دواؤها»^(٤).

وفي تربية الإرادة أبان الصادق أن النفس ورغباتها وأهواءها عدو الإنسان، فحذّر الناس منها وأمرهم بكبحها والسيطرة عليها بقوله:

«إحذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم، وحصائد ألسنتهم»^(٥).

(١) أحمد أمين، الأخلاق، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٨، ص ٣٦.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤٠٠، ح ٥٨٥٩.

(٣) قد سئل رسول الله ﷺ ما الجهاد الأكبر، قال: جهاد النفس، ثم قال: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه (الصدوق، معاني الأخبار، ص ١٦٠).

(٤) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب اتباع الهوى، ح ٤.

(٥) المصدر نفسه، والمكان نفسه، ح ١.

والمقصود أن الخضوع للأهواء والانقياد التام للميول النفسانية يضعفان الإرادة الخيرة في الإنسان وضعف الإرادة هو داعي الشقاء والهلاك ومنع النفس عن الهوى دواءها وعلاجها.

* الالتزام بالورع والتقوى:

التقوى من مادة الوقاية فهي قوة وجودية رادعة في نفس الإنسان، تمنحه سلوكاً إرادياً خاصاً يصونه عن المعاصي والردائل ويرشده إلى طاعة الله.

ولما سئل الصادق عن تفسيرها قال: «التقوى أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك»^(١).

يبدو أن التزام طاعة الله في كل ما أمر به وفي ما نهى عنه من الوسائل الناجعة في تقوية الإرادة الإنسانية ولذلك لم يدع الإمام فرصة إلا وأوصى أهله وتلاميذه فيها بالتقوى؛ فما من خطبة أو وصية له إلا ويستهلها بالحض على التقوى، ولا يميز في هذه النصيحة بين الصغير والكبير والقريب والبعيد، فيوصي بها الناس عامتهم وخاصتهم، لأنها أساس كل فضيلة وتكمن فيها قوة الإرادة وضبط النفس.

فعندما قال أحد تلاميذ الإمام له: إني لا ألقاك إلا في السنين، فأخبرني شيئاً آخذ به، فقال: «أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه»^(٢).

لقد سعى الإمام لتنمية قوة الإرادة لدى تلاميذه بتشجيعهم على الاجتهاد في طاعة الله والاجتناب عن المحارم وتحمل الضغوط النفسية وعدم الاستسلام لها في هذا الطريق.

* تقوية الثقة بالله والتوكل عليه:

اهتم الصادق بتقوية عناصر الإيمان بالله في نفوس أصحابه وتقوية ما يقتضيه الإيمان فيهم من الثقة بالله، وصدق التوكل عليه، وحسن الظن به؛ لأنه «من الوسائل الجذرية لاكتساب فضيلة قوة الإرادة»^(٣) وهو ما أشار إليه الرسول الخاتم ﷺ بقوله: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»^(٤).

فقد حض الإمام تلاميذه على التوكل والثقة بالله ولفت أنظارهم إلى ظواهر هذه

(١) القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ١٣، ص ٢٦٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٩.

(٣) عبد الرحمن حبنكة، الأخلاق الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٤) المتقي، كنز العمال، ج ٣، ص ١٠١.

الثقة السلوكية في حياة الإنسان، فقال: «من التوكل ألا تخاف مع الله غيره»^(١). أي هذه الثقة المطلقة بالله تهب الإنسان شجاعة واعية ومتانة أعصاب بل رباطة جأش فائقة، لا يخالطها تردد ولا تلجلج. فالتوكل على الله سبحانه اتصال بسبب غير مغلوب البتة، وهو السبب الذي فوق كل سبب. «فعندما يتجلى هذا المفهوم بمعناه الصحيح في واقع حياة الإنسان وعلى سلوكياته، فإن ذلك من شأنه أن يبعث على تقوية الإرادة وتحكيم دعائم المقاومة والشجاعة»^(٢).

وهذا ما أشار إليه الصادق تشجيعاً لتلاميذه: «من أُعطي التوكل أُعطي الكفاية، أتلتوت كتاب الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾»^(٣).

وصور الإمام لنا شخصية المؤمن بالصفات التي تجسد قوة إرادته، فقال ما نصّه: «المؤمن له قوة في دين، وحزم في لين، وورع في رغبة، وصلاة في شغل، وصبر في شدة، وقور في الهزائم، صبور في المكاره... لا يفضحه بطنه ولا يغلبه فرجه...»^(٤).

ومما لا شك فيه أن هذه الصفات التي يعددها الإمام الصادق تمثل مظاهر لقوة الإرادة، فالمؤمن قوي في دينه، حازم في لينه، وإذا انطلقت رغباته فإنه لا يندفع معها بل إنه يعيش الورع، وهو يحفظ مواقيت الصلاة، ولا يسهو عنها مهما كان من شغل، وهو صابر عند الشدائد والمكاره، كما أنه مالك بطنه وفرجه، لا تسيطر عليه شهواته. ولا تجد هذا كله إلا في الشخصية القوية الإرادة.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٥٨.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، نشر الجيل الشاب، قم، ٢٠٠١، ج ١، ص ١٢٨.

(٣) سورة الطلاق، جزء من الآية ٣. الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب التوكل، ح ٦.

(٤) الصدوق، الخصال، ٥٧١.

أساليب التربية الخلقية عند الإمام الصادق

كما سبق وذكرنا فإن المجال السلوكي من أهم المجالات التي اهتمت بها مدرسة الصادق؛ ولطالما اعتمد هذا الإمام المربي، أساليب تربوية متنوعة فيه، يسهم كل منها في بناء شخصية الإنسان المسلم بناءً سويًا.

فهو يربي المجتمع ويهديه ويعرفه على واجباته بصور شتى، ويعلم الناس السلوك الخلقي بشكل مباشر وغير مباشر، قد تكون هذه الأساليب كلامية شفاهية أحياناً، وقد تكون عملية في أحيان أخرى، وقد تتبدى سلبية حيناً، بينما تأتي إيجابية إصلاحية في حين آخر. وقد يلاحظ أنها عامة لكل الناس تارة وخاصة بتلاميذه تارة أخرى. وعلى العموم، فبالنظر إلى التنوع السلوكي والطابع المركب للأساليب التربوية في سيرة الإمام، يمكن استخلاص أساليب مبتكرة ومؤثرة اتكأ عليها في مناهجه الخاصة بالتربية الأخلاقية. وفيما يلي إشارات إلى طائفة من هذه الأساليب:

أ- الأسلوب العملي المباشر:

ذكرنا في فصل سابق أن الأسلوب العملي من أكثر الأساليب التربوية تأثيراً، في هذا الأسلوب يتأثر الشخص بالسلوك القويم والإيجابي الذي يشاهده من مربيه أو من قدوته الحسنة. وهو إذ يشاهد هذه التصرفات العملية عياناً، فإنه يعي الرسالة التربوية الكامنة فيها.

لقد استخدم الإمام الصادق هذا الأسلوب في كثير من الأحيان، ضارباً صفحاً عن الموعظة والشرح المباشر للسلوك السليم، بعرض أبهى أشكال الخلق الإسلامي على نحو عملي وفي الظرف المناسب، أمام الشخص الذي يروم تربيته؛ ومما أثير عنه في هذا الصدد ما رواه حماد البشير^(١)، قال:

كنت عند عبد الله بن الحسن^(٢) وعنده أخوه الحسن بن الحسن فذكرنا أبا عبد

(١) حماد البشير الطنافسي الكوفي، من أصحاب الباقر والصادق، (الخوئي، معجم رجال الحديث، ج ٦ ص ٢٠٣).

(٢) انظر إلى ترجمته، ص ٤٠.

اللَّهُ، فنال منه، فقامت من ذلك المجلس فأُتيت أبا عبد الله ليلاً فدخلت عليه وهو في فراشه . . . فخبرته بالمجلس الذي كنا فيه وما يقول حسن . فقال يا جارية: ضعي لي ماء فأُتي به فتوضأ وقام في مسجد بيته، فصلّى ركعتين ثم قال: «يا رب إن فلاناً أتاني بالذي أتاني عن الحسن وهو يظلمني وقد غفرت له، فلا تأخذه ولا تقايسه يا رب فلم يزل يلح في الدعاء على ربه ثم التفت إليّ فقال: انصرف رحمك الله، ثم زاره بعد ذلك»^(١).

عندما يسمع بعض الجهلة أحداً يغتاب صاحباً لهم ينقلون إليه الغيبة بدلاً من أن يدافعوا عنه، ظانين أنهم بهذا يقدمون خدمة لصاحبهم من جهة بإطلاعه على ما يُقال عنه، ويكشفون له، من جهة أخرى، مقدار ما يكتونه له من حبّ وصداقة. وكذلك هنا ربما كان يجول في خاطر الراوي أنه وضع يده على كنز ثمين، وإذا ما سارع إلى نقل ما دار في مجلس عبد الله بن الحسن إلى الإمام فسيحمد له الإمام موقفه، ولكن الإمام اعتبر هذا العمل مثيراً للفتنة ومن العيوب المعنوية، والسيئات الأخلاقية، فقبّح فعل التّمام عملياً.

فصلاة الإمام، وإعلان الصفح عن ذكره بسوء عقيب الصلاة، كل ذلك، يبيّن بأن الإمام أراد أن يلقّنه درساً أخلاقياً لن ينساه، وبهذا الخلق العالي قطع الإمام دابر الفتنة.

ونظير ذلك ما روي من كلام جدّه الإمام علي بن الحسين عندما قيل له: «إن فلاناً ينسبك إلى أنك ضالّ مبتدع». فقال له: «ما رعت حقّ مُجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أدّيت حقي حيث أبلغتني عن أخي ما لست أعلمه»^(٢).

ب - الإفادة من الاهتمامات الفكرية والعاطفية لدى المتلقي :

إذا غدا المشرف التربوي في غمرة التعامل مع تلاميذه والاتصال بهم شخصية مقبولة ومحبة لديهم، بحيث لا يتقبلون فقط اتباعه واحتذاء خطاه كأسوة لهم، بل وفوق ذلك يتواصلون معه تواصلاً عاطفياً عميقاً، وينظرون لرضاه القلبي عنهم كأمر على جانب كبير من الأهمية والجد، عندئذ يستطيع المربي الانتفاع من هذه الرابطة القلبية لحثهم على الفضائل لينهلوا من معينها، ونهيهم عن الرذائل ليقنعوا عنها.

وبالنظر لما كان يتمتع به الإمام الصادق من منزلة عظيمة لدى تلاميذه، وما يكنّه طلابه من حب ومودة قلبيّة عميقة له، فقد استفاد الإمام من هذا الأسلوب بنحو واضح في عملية التربية الأخلاقية، حتى إنه في كثير من الأحيان يستعيض عن البيان الدارج

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٨٨، ص ٢٨٥.

(٢) الطبرسي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٥، ص ٣٢٣.

والمألوف لإيجابية الأعمال وفضائلها، بالإشارة إلى منزلة هذه الأعمال الحسنة في نفسه وأهميتها لديه وحبّه الغامر لها ولفاعلها. وهكذا، فإن تلاميذه فضلاً عن تفتنهم إلى حسن ذلك الفعل، يتفاعل في نفوسهم الشوق إلى ممارسته نظراً لحبهم الحقيقي لأستاذهم. ومثال ذلك قوله رضي الله عنه:

«لئن أخذ خمسة دراهم وأدخل إلى سوقكم هذه، فأبتاع بها الطعام وأجمع نفراً من المسلمين أحب إليّ من أن أعتق نسمة»^(١).

كما يقرب لتلاميذه ومريديه حسن الصنيع والإفضال ليحملهم على هذا العمل الجميل فيقول ما نصّه -:

«لأن أطعم مؤمناً محتاجاً أحب إليّ من أن أزوره، ولأن أزوره أحب إليّ من أن أعتق عشر رقاب»^(٢).

وفي المقابل، كان الإمام يستعيز أحياناً عن الإشارة المباشرة لقبح الفعل، بقبحه في نفسه واشتمئزازه منه فيعرب عن بغضه لذلك الفعل السيئ، بل قد يعتبر قيام تلاميذه بذلك العمل القبيح ظلماً له هو، واستخفافاً به أو باعث إزعاج له، فيشير بذلك انتباههم لسلبية الفعل، ويُسعرهم بوجود صلة بين عملهم واستياء أستاذهم ومربيهم، عسى أن ينتقل هذا الانزعاج من الفعل المشين إليهم ولا يعاودوا اقترافه.

ومما روي في هذا الصدد، أن جماعة من أصحابه كانوا عنده، فقال: «ما لكم تستخفون بنا؟ فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ الله أن نستخف بكم أو بشيء من أمركم؟ فقال الإمام: إنك أحد من استخف بي فقال: معاذ الله أن أستخف بك؟ فقال الإمام: ويحك ألم تسمع فلاناً ونحن بقرب الجحفة وهو يقول لك: احملني قدر ميل فقد والله أعيتت. فوالله ما رفعت له رأساً، لقد استخففت به، ومن استخف بمؤمن فينا استخف، وضع حرمه الله عز وجل»^(٣).

يشدد الإمام هنا على أمر يشير بكل تأكيد حفيظة طلابه، وهو الاستخفاف بأستاذهم ومربيهم، ليشير لهم بذلك إلى قبح فعالهم ويدعوهم إلى العزوف عنها.

ج - أسلوب التعريض أو التلميح:

من أساليب التربية الأخلاقية، التعبير غير المباشر والإشارة غير الصريحة، إلى حسن الأعمال أو قبحها، والتي تترك في أحيان كثيرة تأثيراً طويلاً الأمد في نفس

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب إطعام المؤمن، ح ١٥.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٣٠٣، ح ٣٠٦١١.

(٣) الكليني، فروع الكافي، ج ٨، ص ١٠٣، ح ٧٣.

المتلقّي، إذ بالنظر للتعبير غير المباشر في هذا الأسلوب يضطر المتلقي للتفكير والتدقيق في الأمر واستخلاص النتائج الذهنية بنفسه حتى يتمكن بذلك من استيعاب مراد الأستاذ، الأمر الذي يكرّس التذكرة الأخلاقية في ذهنه لأمد طويل.

أضف إلى ذلك أن هذه الإشارة غير المباشرة إذا كانت تختص بخطأ أو زلة وقع فيها المتلقّي، فإن المربي سيشير من خلالها إلى الخطأ وينتقده، حافظاً للمتلقّي في الوقت ذاته كرامته الإنسانية ومبتعداً عن الحط من شأنه بسبب الفعل السيئ الذي صدر عنه. لذلك يترسّخ هذا التذكير في ذهن الفرد بسرور أكبر (مقارنة بالنقد الصريح) ويدركه بحلاوة أوفر ويحاول أن لا ينساه؛ ومثال ذلك ما صنعه الإمام الصادق مستخدماً هذا الأسلوب بصورة رائعة لتذكير أحد محبيه في الحادثة التالية:

كان رجل يعيش في عصر الإمام الصادق وعلى الرغم من أنه كان يعتبر نفسه من محبّي أهل البيت، إلّا أنه كان يشرب الخمر، ملوّثاً نفسه بهذا الإثم الكبير، التقاه الإمام يوماً مصادفة في زقاق منفرداً. فانتهاز الفرصة لكي ينتقده على ارتكاب هذا المنكر، ويحمله على الإقلاع عنه، فقال له:

«إن الحسن من كل أحد حسن، وإنه منك أحسن لمكانك منا، وإن القبيح من كل أحد قبيح، وإنه منك أقبح»^(١).

وبهذا الأسلوب الرائع لم يجعله للإمام هدفاً مباشراً للانتقاد، ولم يحتقره بلومه، بل أكّد احترامه له بسبب مودته لأهل البيت وأشار إلى فضله على غيره، ونوّه بأعماله الحسنة والسيئة على صعيد واحد، منتقداً شربه الخمر من دون أن يصرّح بذلك مباشرة، بلّ لمح إلى ذلك تلميحاً. فإن لمثل هذا النوع من الانتقاد تأثيراً في الناس الواعين أعمق بكثير من الانتقاد المباشر الصريح.

د - ردود الفعل السلوكية:

ليس من الضروري أن تكون ردود الفعل حيال الأخطاء شفهيّة كلامية، إنما يمكن التعبير عن عدم الرضى بتغييرات في السلوك والأحوال. ويبدو أن الإمام الصادق كان يصرّ أحياناً على ردود الفعل السلوكية في تربيته الأخلاقية، رغم أن استخدام الأسلوب الكلامي كان متاحاً له أيضاً.

وربما كان مرد هذا الإصرار إلى أن تأثيرات ردود الفعل السلوكية أعمق وأنفذ نقداً وأكثر دواماً إذا ما قورنت بالأسلوب الكلامي، فهي تحض المتلقي على التفكير والتدبر من ناحية، وتعبّر من ناحية ثانية عن المعتقد القلبي الراسخ لدى المربي.

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥١٣.

أضف إلى ذلك أن ردود الفعل السلوكية تعد ضرباً من التذكير غير المباشر لا يشتمل على الأضرار والأعراض السلبية للتوجيهات اللفظية المباشرة. طبعاً، يمكن أن تكون ردود الأفعال السلوكية مؤثرة حينما يكون المتلقي على معرفة بالنمط السلوكي للمربي ومدلولاته، فيشعر بأقل تغيير يطرأ على سلوكه ويحاول أن يكتشف أسبابه، من هنا يمكننا القول أن الإمام كان يستخدم هذا الأسلوب أكثر ما يستخدمه في تربية تلاميذه وخواصه كما قال إسحاق بن عمار^(١): دخلت علي أبي عبد الله الصادق. فنظر إليّ بوجه قاطب، فقلت: ما الذي غيّر عليّ؟ قال: «الذي غيّر لإخوانك، بلغني يا إسحاق أنك أقعدت ببابك بواباً يرّد عنك الفقراء. فقلت: جعلت فداك إني خفت الشهرة. فقال: «ألا خفت البلية»^(٢).

كان بوسع الإمام أن يذكر إسحاقاً بأخطائه منذ البداية وبصراحة، ويمنعه عن هذا الفعل الذي أتاه، بيد أنه لم يتصرف بهذه الطريقة، إنما أراد أن يدفع به إلى التفكير في فعلته عبر التحوّل الذي يلاحظه في سلوك الإمام معه ولو من خلال نظرة غاضبة، فيسأل عن سبب هذا التحوّل ويكون بذلك مستعداً لسماع كلام الإمام.

بالإضافة إلى ذلك يذكر الإمام أن تغيّر سلوكه مع تلميذه إسحاق هو حصيلة تغيّر سلوك إسحاق مع إخوانه في الدين، ليشير بذلك إلى قبح هذا الفعل ويؤكد - في الوقت نفسه - على أهمية وخطر هذه المسألة بالنسبة إليه.

هـ - انتهاز الفرص والظروف المناسبة:

لا ريب أن المربي الناجح يتحرّى دوماً الفرص المناسبة والمؤثرة لعرض الشذرات التربوية والأخلاقية اللازمة. فالتذكير الأخلاقي يؤثر في المتلقي بأفضل صورة ممكنة حينما يقترن بالمصاديق والمناسبات الخاصة ويرتبط بشؤون الحياة الفردية.

وكان الإمام الصادق يولي أهمية بالغة لهذا الجانب، ويستثمر كل فرصة مناسبة لمعالجة المشكلات الأخلاقية في المجتمع الإسلامي آنذاك. وحيث إنه كان يعتقد أن أي سلوك أو قول له جذوره في تفكير الفاعل ورؤاه العامة، فقد حاول إصلاح أفكار تلاميذه ورؤاهم وملاءمتها مع أسس التفكير القرآني وصولاً إلى إصلاح سلوكهم وأقوالهم.

وفي هذا السياق رويت عنه أحداث عديدة تتعلق بصدور بعض الأقوال والتصرفات المجافية للأدب الإسلامي عن بعض الناس في حضوره، وكيف كان رضي

(١) إسحاق بن عمار الساباطي من أصحاب الإمام الصادق، روى عن الباقر والصادق وموسى بن جعفر (الخوئي، معجم الرجال ٥٣/٣).

(٢) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٨٥.

الله عنه يسارع من فوره لتصحيح ذلك السلوك أو القول شارحاً جذوره، ليكون بذلك قد وجه الشخص المخطئ والآخرين في إطار ذلك الموقف وفي حدود تلك المناسبة حتى يصلح الفرد من سلوكه، ولا يفهم من صمت الإمام وعدم اكتراثه - إزاء بعض المواقف - تأييده لذلك السلوك فيما يشبه الإمضاء والتكريس ومن الأمثلة على ذلك ما روي أن رجلاً من أهل السواد كان يلزم جعفر الصادق، فافتقده فسأل عنه، فقال له رجل أن ينتقصه: إنه نبطي، فقال جعفر فوراً: «أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، وكرمه تقواه والناس في آدم مستون»^(١).

وقد وجد الإمام الفرصة هنا مناسبة، فبادر من فوره إلى تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة عند الرجل مذكراً الناس بالمعيار القرآني العام ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢).

ولم يرض الإمام أن يتفاضل الأفراد في الأمة الإسلامية الواحدة بأجناسهم وأصولهم وأحسابهم وأنسابهم، علماً بأن الإسلام قد قوّض دعائم العصبية، ولم يؤل جهداً في سبيل إزالة هذا التفاضل.

و - التنبيه إلى الجوانب الخفية للعمل :

حيث إن لسلوكيات الإنسان أبعاداً وآثاراً مختلفة، لذا سيكون سلوك الإنسان أصح وأنضج، كلما كان له رؤية أوسع وإحاطة أكبر بتلك الأبعاد والوجوه.

من الخصائص المهمة للمربي أن يستطيع التفتن إلى نتائج العمل من جوانبه المختلفة. ومن شأن هذه السمة عند المربي أن تفسح المجال أمام التلاميذ للرؤية أرحب وللموقوف على الآثار الناتجة عن سلوكهم وممارساتهم، فيتنبهون إلى كافة التفاصيل الجلية والخفية للعمل وتأثيراته اللاحقة. وهكذا تتوافر لديهم قدرات أدق وأفضل على تمييز الأفعال الحسنة والقبیحة.

لقد أولى الإمام الصادق هذه النقطة اهتماماً كبيراً في تربية طلابه أخلاقياً، فشرح لهم في حالات عديدة الأبعاد المنسية والآثار الخفية لأعمالهم وممارساتهم، وقد روي في هذا الصدد عن أحد تلاميذه أنه قال: كنا في نحو عشرين نفراً عزمنا على الحج إلى بيت الله الحرام على أساس الاشتراك في نفقات السفر، وكنت أذبح لهم شاة في كل منزل ننزل فيه، وفي يوم، ونحن في السفر، زرت الإمام الصادق فقال لي: «أتدُل المؤمنين؟» قلت: أعوذ بالله من ذلك. فقال: «بلغني أنك كنت تذبح لهم في كل منزل شاة». فقلت: يا مولاي: والله ما أردتُ بذلك غير وجه الله تعالى: فقال: «أما

(١) ابن طلحة الشافعي، مطالب السؤل، ج ٢، ص ٥٧.

(٢) سورة الحجرات، جزء من الآية ١٣.

كنت ترى أن فيهم من يُحبُّ أن يفعلَ مثلَ أفعالك فلا يبلغُ قدرتهُ ذلكَ، فتتقاصرُ إليه نفسه؟». قلت: يا ابنَ رسولِ الله، أَسْتَغْفِرُ اللهَ ولا أَعُودُ^(١).

لم يكن هذا المرء يرى من عمله سوى قَرِي رفاق سفره، دون أن ينتبه لما في ذلك من إهانة وتحقير للآخرين، فبيّن له الإمام الصادق الجانب الخفي من وراء عمله فتنبه الرجل إلى ذلك فوراً، ولم يعد لمثله.

ز - التوجيه والإرشاد من خلال قضاء الحاجات :

لم ينظر الإمام الصادق في منهاجه التربوي للحاجات الروحية والأخلاقية لدى الأفراد فحسب، إنما كان يرى أن كثيراً من التنبيهات الأخلاقية لا تؤثر في المتلقين إلا حينما يجري الاهتمام أيضاً بحاجاتهم المادية ومشكلاتهم. وقد أخذت هذه النقطة الدقيقة في سيرة الإمام بالاعتبار؛ وترى صدىً له في علم النفس الحديث، فنظرية «الحاجات الإنسانية»^(٢) في العلم المعاصر تشير إلى هذا الجانب، وهو أن لدى معظم الأفراد سلسلة من الحاجات المادية ينبغي أن تشخص وتولى الأهمية المناسبة، بحسب تراتبية أولويتها، ولا شك أن الاحتياجات المالية والمعيشية للأفراد من جملة متطلباتهم الأولية، وقد ركّز الإمام اهتمامه على هذه القضية بوصفه مربِّ حاذق متعمق حتى يمهّد الأرضية المناسبة لتأثير موعظه الأخلاقية.

روي في هذا الصدد أن المفضل بن قيس^(٣) دخل على الصادق يوماً يسأله الدعاء، يقول المفضل: «فشكوت إليه بعض حالي وسألته الدعاء فقال: يا جارية هاتي الكيس... فقال: «هذا كيس فيه أربعمئة دينار فاستعن بها». قلت: ما أردت هذا الكيس، ولكن أردت الدعاء لي. قال: «ولا أدع الدعاء لك. ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم»^(٤).

(١) سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ١٦، ص ٣٥٤.

(٢) أشهر وأنسب التقسيمات التي عملت للحاجات الإنسانية هو التقسيم الذي أتى به «أبراهام مازلو» فهو يرى أن حاجات الإنسانية الأساسية تقع في خمس فئات أو فصول أساسية، مرتبة حسب أهميتها وقوتها وتأثيرها في تحريك السلوك. فهي الحاجات الفسيولوجية، حاجة الأمن، حاجة إلى الحب والانتماء، حاجة إلى الاحترام والتقدير وحاجة إلى تحقيق الذات. فإذا أشبعت حاجات مستوى من مستويات السلم الهرمي، بدأت تظهر حاجات المستوى الذي يليه وهكذا حتى الآخر في هذا السلم. (علي محمد التومي الشيباني، علم النفس الإداري، دار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٨، ص ١١٢ - ١١٤ بتصرف).

(٣) مفضل بن قيس بن رمانة، كوفي، من أصحاب الباقر ومن خواص أصحاب الصادق (الخوئي معجم الرجال ٣٠٥/١٨).

(٤) الخوئي، معجم رجال الحديث وتفضيل طبقات الرواة، منشورات مدينة العلم للخوائي، قم، د.ت، ج ١٨، ص ٣٠٦.

هكذا تتابع منه العطاء غير المطلوب، والدعاء المطلوب، والنصح الواجب. فهو معلم في الحقيقة. أعطى فأغنى. ثم نصح، ليقبل النصح منه. والأعمال أعلى صوتاً من الأقوال.

ح - الأوامر والنواهي المباشرة:

إن حسن بعض السلوكيات أو قبحها لا يكفي لإقناع الشخص باتباع أحسنها، لذلك تبدو الحاجة ملحة للاستعانة بالمؤثرات الخارجية إلى جانب الحوافز الداخلية لحضّ الشخص على إتقان الجميل وتحاشي القبيح.

وبسبب العواقب الوخيمة لمثل هذه الأمور، لم يكن الإمام الصادق ليكتفي بإقناع المتلقي، إنما يبادر إلى الأمر والنهي بشكل جاد، مضيفاً لإشاراته المختصرة إلى أسباب أوامره ونواهيه. وهكذا فالأمر والنهي المباشران في بعض الحالات يعدان أسلوباً تربوياً من أساليب الإمام.

على سبيل المثال استخدم الإمام هذا الأسلوب فيما يتعلق بحقوق الأم، التي تعدّ طبقاً لمبادئ التربية الإسلامية ذات بركات وخيرات جمّة، بينما يؤدي التماهي فيها إلى عواقب وخيمة، فقد روي في هذا الصدد أن رجلاً وقع بينه وبين أمه كلام، فأغلظ لها، فلما دخل عليه من الغد، وكان الإمام قد علم بصنيعه مع أمّه ابتدأه قائلاً: «ما لك وأمّك، أغلظت في كلامها البارحة، أما علمت أن بطنها منزل قد سكنته، وأن حجرها مهد قد عمرته، وأن ثديها وعاء قد شربته؟ قال: بلى. قال: فلا تغلظ لها»^(١). فالإمام يوصي بالأم معدداً جهودها وفضلها على الأبناء باختصار ثم نهى مباشرة عن ترك حقوقها.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٧٦.

المبحث الثاني

البناء الاجتماعي

- تنمية روح التعلق بالمجتمع
- تنمية الشعور بالمسؤولية في المجتمع
- مبادئ التربية الاجتماعية في مدرسة الصادق

المبحث الثاني

البناء الاجتماعي

الإنسان كائن اجتماعي استخلفه الله تعالى في الأرض، وكان من سنة الله في خلقه أن جعل الإنسان محدود القدرة والإمكانات بحيث لا تستقيم حياته إلا إذا عاش مع الجماعة، فهو في حاجة دائمة إلى الأقران والرفاق والأسرة والمجتمع، وعلى هذا فإن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: «الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع»^(١).

فاختلاف قدرات الناس ومواهبهم وذكائهم وخبراتهم وسائر إمكاناتهم النفسية والجسدية من ناحية، ثم تنوع الحاجات الضرورية الملبية لرغبات البشر المختلفة من ناحية أخرى هو الذي أدى إلى ضرورة استعانة أفراد المجتمع بعضهم ببعض ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾^(٢). أي التعاون وتبادل الخدمات والأعمال والمنافع، فالكل مسخر لخدمة الكل^(٣). وقد قال الإمام الصادق: «إنه لا بد لكم من الناس، إن أحداً لا يستغني عن الناس في حياته، والناس لا بد لبعضهم من بعض»^(٤).

وبناء على ذلك، فالحياة الاجتماعية هدفها تلبية المتطلبات المادية والمعنوية لأفراد المجتمع. ولأن الإسلام دين اجتماعي و«التربية هي في أصلها مهمّة اجتماعية»^(٥)، فإن التربية الاجتماعية في الإسلام تسعى إلى إنشاء المجتمع الصالح «ولا تتوقف عند إعداد الأفراد المؤمنين، وإنما تتخذ من هذا الإعداد وسيلة لهدف آخر هو إخراج أمة المؤمنين التي يتلاحم أفرادها عبر شبكة من الروابط الاجتماعية»^(٦). وهذه التربية ترمي إلى وضع نظام تربوي اجتماعي قادر على أن يخلص المجتمع من

(١) ابن خلدون، المقدمة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٤، ج ١، ص ٤٥.

(٢) سورة الزخرف، جزء من الآية ٣٢.

(٣) فاروق أحمد الدسوقي، مقومات المجتمع المسلم، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٦١.

(٤) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب ما يجب من المعاشرة، ج ١.

(٥) جون دبوي، المبادئ الأخلاقية في التربية، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٨.

(٦) ماجد عرسان الكيلاني، الأمة المسلمة، دار الاستقامة، مكة المكرمة، ١٩٩٥، ص ٢٩.

كل عيوبه وانحرافاتِه وأن يهَيِّئَ الناس ليتعارفوا ويتفاهموا ويتآلفوا ويأتمروا فيما بينهم بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويتعاونوا على البرِّ والتقوى .

وهكذا المجتمع الذي يريد الإسلام بناءه هو خير مجتمع أو خير أمة، على حد تعبير القرآن الكريم ولهذا قال تعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ^(١) .

ومن هنا فقد كان الإمام الصادق في منهجه التربوي حريصاً على بناء العلاقات الاجتماعية السليمة بين الأفراد، على أساس قوي من الالتزام النابع من نفوسهم، والمستمد من القيم الأخلاقية في الإسلام، والتي تحدد حقوقهم وواجباتهم ومسؤولياتهم تجاه بعضهم البعض، ومما يؤكد اهتمام مدرسته بالتربية الاجتماعية، ذلك الحرص البالغ بإسناد المسؤولية إلى كل فرد في المجتمع الإسلامي نحو الآخرين .

فهو يريد بناء المجتمع الخير الذي يتميز بقوة البنيان وترابط الأطراف والاستقرار والهدوء، والذي تسود بين أفرادهِ المودة والرحمة، والتواصي بالحق ولا يكون بينهم العدا والنزاع . لذا نجده قد أولى اهتماماً بالغاً لاكتساب الأفراد الآداب الاجتماعية التي تقوي ترابطهم وتمتّن تعاطفهم وترسخ تكافلهم، فتجعل منهم أسرة واحدة يظلّلها الوئام والمودة والأمن، وترفرف عليها السعادة والطمأنينة .

(١) سورة آل عمران: جزء من الآية ١١٠ .

تنمية روح التعلق بالمجتمع

لطالما عمل الإمام الصادق في منهجه على تنمية المشاعر الجماعية وزرع الحسّ الاجتماعي في الفرد. فهو يرى ضرورة المخالطة والتوسّع في العلاقات في مقابل الانطواء والعزلة والرهبة، حيث يتجه إلى تأكيد الفطرة الإنسانية وتوجيهها نحو الكمال من جهة، وتنمية العقل بالمعاشرة مع الآخرين من جهة أخرى، فيقول ما نصّه: «مجاملة الناس ثلث العقل»^(١).

وهذا طبيعي، إذ إن الإنسان في كنف المجتمع سيحصل على خواصّه الإنسانية التي كانت تنقصه. والمجتمع يؤدي وظيفة حيويّة بالنسبة إلى الإنسان في تزايد عقله وكثرة تجاربه حيث لا تتكامل شخصية الإنسان، ولا تنمو أبعادها المختلفة بدونه، إضافة إلى أنّ روح الجماعة تجعل الإنسان مرآة صافية يرى من خلالها نقاط ضعفه، فيسعى للقضاء عليها حتى يتمكن من أداء دور المصلح لذاته.

وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا المعنى في مثاله قائلاً:

«مثال القلب المشحون بالخباثت مثال دمل ممتلئ بالصديد والمدة. وقد لا يحسّ صاحبه بألمه ما لم يتحرّك أو يمسه غيره فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن من يحركه ربما ظنّ بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه واعتقد فقده.

ولكن لو حرّكه محرّك أو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنّما تنفجر من خباثته إذا حرّك»^(٢).

فالإنسان يختبر أخلاقه وصفاته باطنه عن طريق المعاشرة؛ فهو لا يقدر على خوض هذه التجربة في العزلة.

من هنا نرى أن التربية على تماسك الجماعة ظاهرة جليّة في تعاليم الإمام في مثل قوله: «عليكم بالصلاة في المساجد وحسن الجوار للناس وإقامة الشهادة وحضور الجنائز. إنّّه لا بدّ لكم من الناس...»^(٣).

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٢٥.

(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٧، ح ١٥٤٩٩.

كما بيّن في المقابل أن النتائج السلبية للعزلة تنعكس على الفرد نفسه فقال: «من كفّ يده عن الناس فإنّما يكفّ عنهم يداً واحدة ويكفّون عنه أيدي كثيرة»^(١).

وقد حث الإمام تلاميذه على الإكثار من الأصدقاء، متابعاً عملية غرس الروح الجماعية في نفوسهم، فقال: «من لم يرغب في الاستكثار من الإخوان ابتلي بالخسران»^(٢). وتابع نصحه وإرشاده لمحبيه ومريديه، مشدداً على أهمية هذا الأمر في الدنيا والآخرة فقال ما نصّه: «أكثرُوا من الأصدقاء في الدنيا فإنّهم ينفعون في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فحوائج يقومون بها، وأما في الآخرة فإن أهل جهنم قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ»^(٣).

إنّ إشارة النص إلى أنّ ظاهرة الصداقة مرتبطة بحوائج الدنيا تعني: أنّ الصداقة مظهر من مظاهر الحاجة إلى الانتماء الاجتماعي.

وكذلك جاء حث الإمام على اندماج الأفراد في المجتمع ذلك الاندماج الإيجابي الذي ينتهي لصالح الاثنين؛ الفرد والمجتمع في آن واحد، كما حذّر في الوقت نفسه من الانسحاق السلبي مع المجتمع غير المسؤول، فقال:

«إياكم وعشرة الملوك وأبناء الدنيا ففي ذلك ذهاب دينكم ويعقبكم نفاقاً، وذلك داء رديء لا شفاء له، ويورث قساوة القلب ويسلبكم الخشوع. وعليكم بالأشكال من الناس»^(٤) والأوساط من الناس فعندهم تجدون معادن الجواهر»^(٥).

فالإمام يبيّن الخطوط الفكرية العامة التي توجّه مسيرة العلاقات الاجتماعية باتجاه التكامل الذاتي في حركة الفرد والمجتمع.

(١) الصدوق، الخصال، ص ١٧٠.

(٢) الحراني، تحف العقول، ص ٣١٩.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٠٠، ١٠١، الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٧، ح ١٥٥٢٥.

(٤) المقصود بالأشكال الأمثال أي عليكم بأمثالكم من الناس دون الأعلون.

(٥) محمد الحسين المظفر، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٥.

تنمية الشعور بالمسؤولية في المجتمع

ذكرنا بأن تعاليم الإمام الصادق تؤكد على ضرورة التماسك الاجتماعي، والابتعاد عن العوامل التي تضعف هذا التماسك. ولما كانت صفة المسؤولية الاجتماعية هي التعبير عن الاهتمام بالآخرين، وهي المظهر الخارجي للحركة الداخلية في شخصية المسلم، فقد حرص الإمام على تربية أفراد المجتمع على يقظة الشعور بالمسؤولية في مختلف مرافقه، وهذا يتوافق مع ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكانت دوائر المسؤولية الاجتماعية تتسع لتشمل المجتمع كله على النحو الذي عبّر عنه رسول الله ﷺ في قوله:

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته»^(١).

من هنا فقد اهتم الإمام الصادق بهذه الدوائر انطلاقاً من الأسرة - الخلية الأولى في المجتمع - ثم الأقارب والأرحام، ثم الجيران والأصدقاء وانتهاءً بالمجتمع كله. ونقف الآن وقفات قصيرة وسريعة لاستعراض ما قرّره الصادق للمسلم من مسؤوليات في دائرة العلاقات الخاصة والعامة وهي كما يلي:

أ - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات الخاصة :

أكد الصادق على مبدأ الأولوية في دائرة العلاقات الاجتماعية منطلقاً من القرآن الكريم؛ لأن العلاقات بين أبناء المجتمع ليست بمستوى واحد، إذ هناك أشخاص تتشابه معيشتهم ليلاً ونهاراً ويستمر تواصلهم في جميع أبعاد وشؤون الحياة، كما يوجد أشخاص لا تبلغ علاقاتهم هذا المستوى حيث يتم الاتصال بينهم أسبوعياً أو شهرياً لا أكثر.

إذن، فهذه العلاقات ذات شدة وضعف وفوارق عميقة، فتختلف مسؤولية الفرد تجاه كل فرد في المجتمع حسب درجة التباعد والتقارب والاتصال والقرابة بينهم. وهنا يطرح مبدأ الأولوية كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي

(١) يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٣٥.

كَتَبَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ^(١). مؤكداً على هذا المبدأ، ومشيراً إلى أن الأرحام والأقارب أيضاً ليسوا متكافئين، حيث يرجح بعضهم على بعض آخر، لدرجة أن الجار القريب قد منحه الإسلام حقوقاً ليست للجار البعيد.

وقد تبلور اهتمام الإمام الصادق بمبدأ الأولوية في تربيته الاجتماعية، وذلك من خلال دعوة تلاميذه إلى الشعور بالمسؤولية في دائرة العلاقات الخاصة، على الصورة التالية:

* العائلة المثالية في فكر الصادق:

أكد الإمام الصادق على فعالية دور الأسرة في ترسيخ القيم والأخلاق؛ لأن الأسرة هي قوام المجتمع وعموده الأساس الذي تركز عليه، والعلاقة بين الأسرة والمجتمع علاقة الجزء بالكل «ولا يستطيع المجتمع أن يجد بديلاً عن الأسرة ليحترم قيمه ومعاييره حتى لو كان حافلاً بالمفكرين والعلماء الذين يرسمون هذه الدعائم النظرية، وذلك لعجز هؤلاء جميعاً عن تثبيت هذه القيم في الناس أو المحافظة عليها لأن ذلك شأن الأسرة وحدها»^(٢)، فهي المجتمع الأول الذي يستقي منه الأبناء القيم والأخلاق والعادات.

وتتنوع العلاقات في إطار الأسرة، ونذكر منها: علاقة الزوج بالزوجة، وعلاقة الوالدين بالأبناء والعكس.

وعلى هذا الأساس رسم الصادق بعض الخطوط العريضة التي يجب أن تحكم العلاقات بين أفراد العائلة الواحدة كما يلي:

- العلاقة بين الزوجين:

من الثابت أن السعادة الزوجية لا تتحقق للزوجين إلا برعاية كل منهما حقوق الآخر وأداء واجباته التي جعلها الله تعالى أساساً لهذه العلاقة. وقد اعتبر الإمام أن توفير الجو العاطفي داخل البيت، وحسن العشرة بين الزوجين التي عبر عنها القرآن الكريم بالموودة والرحمة، ستؤدي حتماً إلى أن يراعي كلا الطرفين حقوق كل منهما وواجباته، فقال:

«لا غنى بالزوج عن ثلاثة، فيما بينه وبين زوجته: الموافقة ليجلب بها موافقتها وصحبته وهواها، وحسن خلقه معها واستعماله استمالة قلبها بالهيئة الحسنة، وتوسعته

(١) سورة الأنفال: جزء من الآية ٧٥.

(٢) علي عبد الحليم محمود، التربية الاجتماعية في الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامي، بور سعيد، ٢٠٠١، ص ١١١.

عليها، ولا غنى للزوجة فيما بينها وبين زوجها عن ثلاث خصال :
 صيانة نفسها من كل دنس حتى يطمئن قلبه إلى الثقة في حال المحبوب
 والمكروه، وحياطته ليكون ذلك عاطفاً عليها عند زلة تكون منها، وإظهار العشق
 بالخلابة والهيئة الحسنة لها في عينه»^(١).

وترى الإمام يركّز على ما يجب على الرجل من إحسان العشرة بالسلوك الرفيع
 والإنفاق اللازم واحترام الذات فيقول : «إن المرء يحتاج في منزله وعياله إلى ثلاث
 خصال يتكلفها، وإن لم يكن في طبعه ذلك : معاشرة جميلة، وسعة بتقدير، وغيره
 بتحسين»^(٢).

وتعبير الإمام بقوله : «وإن لم يكن في طبعه ذلك»، يدلّ على ضرورة وجود مثل
 هذه الخصال في ممارسات الزوجين خلال حياتهما المشتركة، وإن ألزم كلّ منهما نفسه
 بممارستها دون قناعة راسخة؛ لأنها ستدعم أسس هذه الحياة بين الشريكين فتنعكس
 سعادتهما وصلاحيهما على المجتمع بأكمله.

– العلاقة بين الوالدين والأبناء :

هذه العلاقة تشكل الشطر الآخر من العلاقة داخل العائلة الواحدة، وهي مهمة في
 بناء العائلة بناء سليماً. وعندما يحسن الوالدان التعامل مع أولادهما، ويحسن بالمقابل
 الأولاد التعامل مع والديهم، فإن الحياة العائلية تغدو سليمة وتؤمّن للأطفال تربية صحيحة
 ونموّاً روحياً وجسدياً سليماً، كما تزرع بين أفرادها بذور المودة والرحمة، وتقوي
 أواصر التعاون والمحبة.

ويوجّه الإمام الصادق تلاميذه لبناء علاقة سليمة في جوّ العائلة، ويدعوهم إلى
 تأدية واجباتهم تجاه والديهم، بأن يقدّروا فضلهم وعظيم إحسانهم، ويجازوهم بما
 يستحقون من الرعاية والتكريم، كما فرض في «صفات الشريف أن يقوم من مجلسه
 لأبيه»^(٣)، وقال لأحد تلاميذه في تفسير قول الله تعالى : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٤)
 «الإحسان أن تحسن صحبتتهما وأن لا تكلفهما أن يسألاك شيئاً ممّا يحتاجان إليه وإن
 كانا مستغنيين... فلا تمل عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك
 فوق أصواتهما، ولا يدك فوق أيديهما، ولا تقدّم قدّامهما»^(٥).

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٧.

(٢) الحراني، تحف العقول، ص ٣٢٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٢.

(٤) سورة الإسراء، جزء من الآية ٢٣.

(٥) الطباطبائي، الميزان، ج ١٣، ص ٩٨.

فهو يؤكد على الإحسان بالوالدين خاصة عند عجزهما وشدة احتياجهما إلى الرعاية والبر، قال أحد تلاميذ الإمام قلت لأبي عبد الله: إن أبي قد كبر جداً وضعف، فنحن نحمله إذا أراد الحاجة. فقال: «إن استطعت أن تلي ذلك منه فافعل، ولقمه بيدك، فإنه جنة^(١) لك غداً^(٢)».

وعلى صعيد آخر يرى الإمام أن حاجة الأولاد إلى المودة والرحمة من والديهم لا تقل عن حاجتهم إلى الغذاء والحركة.

وإن لهذا التعامل الرحيم من قبل الأهل تحديداً وتأثيراً كبيراً في تكامل شخصية الأبناء، كما أن فقدان هذه المودة يؤدي إلى انحراف سلوكي وأخلاقي كبيرين في هؤلاء الأبناء الذين يشكلون شريحة كبيرة وأساسية من شرائح المجتمع.

ومن ثم أكد على توافر المحبة في علاقة الوالدين مع أبنائهم بقوله: «إن الله عز وجل ليرحم الرجل لشدة حبه لولده»^(٣) كما أوصى بضرورة احترام الأبناء وتكريمهم، ولا سيما خلال فترة مرورهم بفترة المراهقة، فيقول:

«دع ابنك يلعب سبع سنين ويؤدب سبع سنين، والزمه نفسك سبع سنين»^(٤). وإن خطاب الإمام لكل أب بعبارة «الزم نفسك» تدل على أهمية احترام الفتى وتقديره والتقرب إليه ومصادقته، وقد أولى الإمام تربية الفتيات رعاية خاصة ومميزة فقال لأحد تلامذته وقد رزقه الله بابتنة فسخطها:

«بلغني أنه ولد لك ابنة فتسخطها وما عليك منها، ريحانة تشمها وقد كفيت رزقها وكان رسول الله ﷺ أبا بنات»^(٥).

ولطالما ركز الإمام على مسؤولية الوالدين تجاه تربية أولادهم في مثل قوله: «إن خير ما ورث الآباء لأبنائهم الأدب لا المال، فإن المال يذهب والأدب يبقى»^(٦).

* العلاقة الطيبة مع الأرحام والأقارب:

إن مواصلة الأهل والأقرباء والسعي لتعزيز هذه العلاقة وتدعيمها، يدخل في إطار

(١) الجنة بضم الجيم وتشديد النون: الدرر الحصينة.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب البر بالوالدين، ح ١٣.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٩٨، ح ٢٧٣٠.

(٤) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٩٢، ح ٤٧٤٣.

(٥) الكليني، فروع الكافي، ج ٦، باب فضل البنات، ح ٩.

(٦) المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٥٠، ح ١٣٢.

الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، وعلى كل فرد إعطاء الأولوية لهذه العلاقة وجعلها مميزة وعميقة. «وهذا التعامل الخاص ينطلق من بعد إنساني باعتبار الرابطة النسبية التي تعني امتداداً للإنسان في وجوده وحركته يدركها ويحس بها إحساساً فطرياً»^(١).

وقد بذل الإمام جهده في تمتين خيوط هذه الشبكة من العلاقات المحيطة بالإنسان، والتي تقوم بدور كبير في حماية الفرد وسط مشكلات الحياة ومتاعبها، كما بين أهمية صلة الرحم التي أشار إليها الخالق في كتابه العزيز: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢)، فقال الإمام: «هي أرحام الناس، إن الله أمر بصلتها وعظمها، ألا ترى أنه قرنها بنفسه»^(٣).

ولطالما أكد الصادق على أن حقّ الرحم لا يقطعه شيء فحذر من قطع هذه الوشيجة التي أقامها الله بين الناس، إذ جاء إليه رجل فشكا أقرابه، فقال: «أكظم غيظهم». فقال الرجل: إنهم يفعلون ويفعلون. فقال الإمام: «أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم!!»^(٤).

فتراه بنصيحة هذا يدفع الناس إلى فضيلة صلة الرحم عند القطيعة، وذلك حرصاً على بقاء هذه العلاقات واستمرارها. وقد آمن الإمام نفسه بهذه العقيدة وعمل بها وضرب المثل الأعلى في ذلك على نحو ورد في مرض وفاته أنه قال:

«أعطوا الحسن بن علي بن علي بن الحسين وهو الأفطس سبعين ديناراً، وأعطوا فلاناً كذا وفلاناً كذا، فقل له: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟ قال: تريدون أن لا أكون من الذين قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾»^(٥)، إن الله خلق الجنة فطيّبها وطيب ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة ألفي عام فلا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم»^(٦).

* علاقة الجيران والأصدقاء:

يحتل الجيران وطريقة التعامل فيما بينهم حيزاً كبيراً وموقعاً خاصاً في دائرة العلاقات الاجتماعية المتنوعة حيث يشكل المتجاورون جماعة مترابطة، متعاطفة، يراد

(١) محمد باقر الحكيم، دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ١٩٩٧، ج ١، ص ٤٨٩.

(٢) سورة النساء: جزء من الآية ١.

(٣) سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ١٤، ص ٢٨٣.

(٤) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ص ٢٨١.

(٥) سورة الرعد: الآية ٢١.

(٦) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٩٦.

منها تحقيق التعاون لإيجاد بنية اجتماعية سليمة وقوية من خلال الموقع الجغرافي المميز والمشارك، ما يجعلهم يستشعرون الدعة والقوة التي يحتاجونها في مواجهة ما يعترضهم من مشاكل وأحداث ومعاناة.

وقد أخذت هذه العلاقات حيّزاً لا بأس به في فكر الإمام الصادق، حيث تكرّرت توصية الإمام بالجار في مواطن كثيرة حتى إنه نعى على تاركي هذه التوصية بقوله: «أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقّه ولا يعرف حق جاره»^(١). بل إنه أخرج من دائرة تلاميذه من لم يلتزم بحسن الجوار، فقال: «وليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره»^(٢).

ومن صور العلاقات الاجتماعية المهمة، تلك التي تُعنى بعلاقة الإنسان مع من حوله من المعارف والأصدقاء. وقد ورد عن الإمام علي (كرم الله وجهه): «عليك بإخوان الصدق فأكثر من اكتسابهم فإنهم عدّة في الرخاء وجُنة في البلاء»^(٣).

والصدقة في مفهومها الإسلامي ليست هذه التي بين عامة الناس من المجاملة والصحبة القائمة على أساس المنفعة والمصلحة. فقد نرى كثيراً من الناس يشكون تنكّر الأصدقاء لهم وجفاءهم الذي قد يدفعهم إليه جهلهم بواقع الصداقة والأصدقاء وعدم التمييز، وعدم قدرة هؤلاء الذين يشكون على التمييز بين الأصدقاء الحقيقيين والأصدقاء المزيفين. فالصدقة إنما هي من الصدق في الصحبة، وتقوم على أساس التصافي والتحاب في التعامل، وإن لها الكثير من الحقوق العظيمة، على ندرتها توافرها في العلاقات السائدة بين الناس.

وقد أوضح الإمام الصادق واقع الأصدقاء وأبعاد صداقاتهم، وجعل لها شروطاً تمنى على الناس التزامها وتطبيقها، واعتبر أن الذين لا يلتزمون بهذه الشروط أو بعضها على الأقل غير أهل لأن يكونوا أصدقاء بكل ما في الكلمة من معنى، فقال:

«الصدقة محدودة ومن لم تكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلى كمال الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء من تلك الحدود فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة: أن تكون سريره وعلايته كلّ واحدة، وأن يرى زينك زينه وشينك شينه، وأن لا يغيّره عليك مال ولا ولاية ولا يمنعك شيئاً مما تصل إليه مقدرته، وأن لا يسلمك عند النكبات»^(٤).

وفي هذا دلالة واضحة على أن الإمام مؤمن تماماً بأن الصديق في وقت الضيق،

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب العشرة، ح ٣.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ١٢٩، ح ١٥٨٤٨.

(٣) الصدوق، الأمالي، ص ٣٨٠.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠، ج ١١، ص ١٢٧.

وهو الذي يتلاحم مع أخيه، بشكل لا يكون له مصلحة، ولا تؤثر عليه الأموال مهما بلغ مقدارها، ولا يكون بينه وبين صديقه سر يخافه عليه.

وهذا النوع من الصداقة هو الذي لا ينبني على أساس مادي، ينهار مع انهيار المادة، وإنما على أساس معنوي روحي، ولذلك فلا يسلمه عند النكبات والنوازل.

ب - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات العامة :

إن أكبر دائرة من دوائر العلاقات الاجتماعية تتمثل في دائرة المجتمع الإسلامي الكبير (الأمة)؛ حيث تستقر حياة الإنسان، ويتجنب الوقوع في كثير من المشكلات إذا قامت حياته على أسس صحيحة تتبلور في تصرفاته السليمة في خط علاقته بالآخرين وشعوره بالمسؤولية تجاههم بحيث يؤدي ذلك إلى سعادة الجميع.

فمن حق المسلم على المسلم أن يقف إلى جانبه ويغيثه ويضع يده في يده، وأن يشاركه مسؤولياته، أفراحه وأتراحه، وهمومه وأحزانه.

وقد اعتبر الإمام الصادق المجتمع الإسلامي أسرة كبيرة مترابطة، ولخص علاقات المسلم في هذا المجتمع بثلاث صور ليس بخارج منها، فقال لأحد تلاميذه:

«أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدًا، وأوسطهم أخًا، وكبيرهم أبًا، فارحم ولدك، وصل أخاك، وبرّ أباك»^(١).

فالمجتمع في هذا التصور يكون كلاً مترابطاً ومتماسكاً ومتضامناً، ويتحمل كل عضو فيه مسؤولية الآخرين كما يتحمل مسؤولية نفسه وأهله.

فها هو الإمام الصادق يستشهد بكلام جده رسول الله ﷺ فيقول: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»^(٢).

إن هذا الكلام يعني نفي صفة الإسلام عن الإنسان اللامبالي الذي لا يعنيه ما قد يحدث للمسلمين من مأس أو ويلات أو هزائم... إلخ، فتراه لا يجهد عقله ليفكر، ولا يراف قلبه ليتعاطف أو ليساعد، وإذا كان هذا موقفه إزاء الأحداث التي تخص المسلمين فليس من الإسلام في شيء وليس له من إسلامه سوى الاسم.

ومن يراجع النصوص الواردة عن الإمام الصادق في هذا الباب، يجد أن تربية

(١) محمد تقي الفلسفي، الشاب بين العقل والعاطفة، ج ١، مؤسسة البعثة، بيروت، ١٩٩٢، ص ٦٤.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الاهتمام بأمور المسلمين، ح ٤، قال رسول الله ﷺ «من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله في شيء ومن لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٢٤٨.

المسلمين على أداء الحقوق والمسؤوليات من أبرز جهود الإمام في البناء الاجتماعي وتقويتها، ومن هذه النصوص:

«حق المسلم على المسلم أن لا يشبع ويَجوع أخوه، ولا يروى ويعطش أخوه، ولا يكتسى ويعرى أخوه، فما أعظم حق المسلم على أخيه المسلم»^(١).

فهو يضيف إلى ذلك ضرورة العناية بحاجاته المعنوية بقوله: «أحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك، وإذا احتجت فسله، وإن سألك فأعطه، لا تملّه خيراً»^(٢) ولا يمله لك، كن له ظهراً فإنه لك ظهر، إذا غاب فاحفظه في غيبته، وإذا شهد فزره وأجله وأكرمه، فإنه منك وأنت منه»^(٣).

وهذا التعبير الدقيق «إنه منك وأنت منه»، إضافة إلى دلالته على العلاقة القوية والمتينة بين المسلمين فهو يظهر هذه اللحمة التي لا يمكن أن تنفصل وبالتالي تتعاضد معها مسؤولية المسلم تجاه أخيه المسلم حيث إن المسلمين بعضهم من بعض، كتلة واحدة متماسكة.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٤٣.

(٢) أي لا تسأم من إكثارك الخير.

(٣) المفيد، الاختصاص، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د.ت، ص ٢٧.

مبادئ التربية الاجتماعية في فكر الصادق

لقد اعتمدت مدرسة الإمام الصادق على الأسس والمبادئ التي تؤدي إلى تقوية الروابط الاجتماعية من جهة واجتثاث مشاعر الفردية والأنانية من الإنسان المسلم من جهة أخرى، ويتضح لنا تركيز هذه المدرسة على ذلك من خلال ترسيخها لعدة مبادئ في العلاقات الاجتماعية ومن أهمها:

أ- مبدأ التآخي والتعاطف:

تشكل قاعدة التآخي والتعاطف أساساً مهماً في القيم الإسلامية الاجتماعية، «وهذه القاعدة تكون بأن يحب الإنسان غيره لوجه الله، دون ابتغاء نفع أو مصلحة»^(١) وهي تقود إلى سيادة الأخلاق الخيرة وسط الجماعة، وتشجع الأفراد على التضحية وتقديم كل مساعدة ممكنة للآخرين، وفعل كل برّ يمكنهم القيام به.

وانطلاقاً من هذه القاعدة حدّد الله تعالى علاقة المؤمنين في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢).

والتعبير عن العاطفة بين المؤمنين بالأخوة يرسم عمق الصلة المتقابلة بين الناس، والتي تكون فريدة في شبكات العلاقات الاجتماعية المتنوعة، وقد اهتم الإمام الصادق بترسيخ هذه الصلة الوثيقة بين تلاميذه من خلال منهجه التعليمي التربوي بقوله: «تواصلوا وتبارّوا وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله عزّ وجلّ»^(٣).

كما ربط المجتمع برابط الحب والمودة والإخاء بقوله: «فاتقوا الله في إخوانكم المسلمين فإن لهم عليكم حقاً أن تحبّوهم...»^(٤).

(١) أسعد السحمراني، الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٠٧.

(٢) سورة الحجرات، جزء من الآية ١٠.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب التراحم والتعاطف، ح ٢.

(٤) الحراني، تحف العقول، ص ٣١٥.

وقد أتى تمثيل الرسول ﷺ^(١) لأفراد المجتمع في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كجسم واحد متماسك، يتأثر كل عضو فيه بالآخر ولا سيما في الحالات الصعبة، وفي هذا انعكاس لواقع المجتمع المتآخي والمتآلف الذي يساند أفراد بعضهم البعض.

وقد استخدم الإمام الصادق أيضاً هذا التشبيه متأسيماً بجده فقال:

«والله لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون لأخيه مثل الجسد، إذا ضرب عرق واحد تداعت له سائر عروقه»^(٢). فقد اعتبر الإمام في كلامه، الأخوة شرط الإيمان، وهي من المقومات الأساسية في تركيب بناء الأمة الإسلامية. فهو يرى أن حب الإنسان المسلم لدينه يتجسد في حبه لأخيه، فقال: «من حب الرجل دينه حبه أخاه»^(٣).

وقد كان الإمام يسعى دوماً إلى إيجاد المواقف التي توطن روح الأخوة والمحبة بين تلاميذه، فكان يرشدهم إلى ما يعزز بقاء المودة بينهم، وذلك عبر أمور عدة، منها:

* التزاور:

يقول أبو عبد الله لتلاميذه في هذا الصدد: «تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه»^(٤)؛ لأن اختلاط المؤمنين بعضهم ببعض يوقر الحب فيما بينهم ويقوي عزائمهم على فعل الخير، وتجعل كلاً منهم يذكر من نسي ذكر الله.

* التناصف:

وجه الإمام تلاميذه إلى مستلزمات الأخوة فقال: «يحتاج الإخوة فيما بينهم إلى ثلاثة أشياء، فإن استعملوها وإلا تباينوا وتباغضوا، وهي: التناصف، التراحم، ونفي الحسد»^(٥). فمفهوم الإنصاف أن لا يرضى المرء لنفسه بشيء إلا رضي لأخيه مثله.

* التهادي:

أوصى الإمام تلاميذه أن يتبادلوا الهدايا قائلاً: «تهادوا تحابوا فإن الهدية تذهب بالضغائن»^(٦)؛ لأن من شأن هذه الظاهرة الكريمة تعميق جذور المحبة والمودة بين

(١) قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والآداب، ص ١٩٩٩.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٧٤.

(٣) المفيد، الاختصاص، مرجع سابق، ص ٣١.

(٤) ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٧٩.

(٥) الحراني، تحف العقول، ص ٣٢٣.

(٦) الصدوق، الخصال، ص ٢٧.

أفراد جماعة المسلمين وتوحيدهم في نظام الجسد الواحد الذي يتشارك أعضاؤه اللذات والآلام.

* التصريح بالحب والمودة:

قال الصادق لأحد تلاميذه: «إذا أحببت رجلاً فأخبره بذلك، فإنه أثبت للمودة بينكما»^(١). لا شك أن التدريب على ممارسة مثل هذا السلوك اللفظي ليساهم بنحو فعال في تحقيق التكيف مع الآخرين، فإذا أعرب المرء عن محبته لأخيه فإنه يوثق بينهما وشائج الأخوة الإيمانية ويرعى كل منهما حقوق هذه الأخوة القائمة على الحب في الله.

* الحفاظ على الحشمة:

قال الصادق: «لا تذهب الحشمة بينك وبين أخيك وأبق منها، فإنّ ذهاب الحشمة ذهاب الحياء وبقاء الحشمة بقاء المودة»^(٢).

* ترك ما يكدر المودة:

قال أبو عبد الله لأحد تلاميذه: «إن أردت أن يصفو لك ودّ لأخيك فلا تمازحته ولا تماريته ولا تباهيته»^(٣).

إلا أن الإمام بيّن بأن مفهوم التآخي بين المسلمين ليس من قبيل العواطف والتمنيات فقط، وإنما هو عبارة عن حقوق ومسؤوليات ثقيلة تلقى على عواتقهم جميعاً. ولذا حين سئل عن حق المسلم على المسلم أجاب:

«له سبعة حقوق وواجبات، ما منهنّ حق إلا وهو عليه واجب، إن ضيّع منها شيئاً خرج عن ولاية الله في طاعته ولم يكن لله فيه نصيب»، ثم قال:

أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، الحق الثاني: أن تجتنب سخطه، وتتبع مرضاته، وتطيع أمره، الحق الثالث: أن تعينه بنفسك، ومالك ولسانك ويدك ورجلك، الحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته، الحق الخامس: أن لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى، الحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعثه فيغسل ثيابه، ويصنع طعامه، ويمهد فراشه، الحق السابع: أن تبرّ قسمه، وتجب دعوته، وتعود مرضه، وتشهد جنازته، وإذا علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب أخبار الرجل بحبه، ح ٢.

(٢) الحراني، تحف العقول، ص ٤٠٩.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٩١.

أن يسألَكم، ولكن تبادره مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايتيه وولايتيه بولايتك»^(١).

وقد حفلت هذه الحقوق منهجاً حياً للرابطة الإسلامية التي تجمع ما بين المشاعر والعواطف والمسؤوليات، وتوجب اشتراك المسلمين معاً في السراء والضراء.

وعبارة «إن ضيَّع منها [أي الحقوق] شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته» يشي بخطورة هذا الأمر، من هنا فقد بيَّن الإمام أن هذه الألفة بين المسلمين - والمبنية على دعائم الأخوة - هي من ولاية الله، وأن الإخلال ببعضها إخلال بها كلها؛ وإذا انقطعت هذه الألفة فيما بين المؤمنين فإن حبل الولاية فيما بينهم وبين الله سوف ينقطع، ولن يبقى من ولايتهم لربهم شيء.

وهكذا جهد الإمام الصادق في غرس تلك المفاهيم السامية في نفوس تلاميذه ليجعلهم جماعة مثالية في مودتهم وأخوتهم وتعاطفهم.

ب - مبدأ التعاون والتكافل :

تكتمل صورة الاهتمام بالمسؤولية الاجتماعية في مدرسة الصادق من خلال تأكيدها على مبدأ التعاون والتكافل. وهذا الأساس يقوم على الأخوة الصادقة بين المؤمنين، ومعناه «التناصر بين أفراد المجتمع ليسد بعضهم حاجات بعض، ويسند الضعفاء من قبل الأقوياء، وكذلك التناصر بينهم في القيام بأعباء العمل الصالح، فيقوِّى القادرون منهم على ذلك الضعفاء فيه بمختلف معاني القوة والضعف»^(٢).

وها هو القرآن الكريم يعبر عن هذا التعاون تعبيراً واضحاً: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٣).

وهو ما عبّر عنه الإمام الصادق بقوله مستشهداً بكلام جده رسول الله ﷺ فقال ما نصّه: «وليعن بعضكم بعضاً فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: إنَّ معاونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهرٍ واعتكافه في المسجد الحرام»^(٤).

فهو يريد بناء جماعة مؤمنة يكون التكافل بينهم مادياً ومعنوياً، ولذلك قال: «المؤمنون خدم بعضهم بعض، وعندما سئل: كيف؟ قال: يفيد بعضهم بعضاً»^(٥).

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب حق المؤمن، ح ٢.

(٢) عبد المجيد عمر النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٠٧.

(٣) سورة المائدة، جزء من الآية ٢.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١٧.

(٥) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب أخوة المؤمنين، ح ٩.

فلعلّ عناية الإمام الصادق بتنمية روح التعاون والتكافل، والتي تبلورت عبر صور وأساليب شتى، إنّما تروم أن تصنع من الإنسان الأرضي الضيق الأفق، أنموذجاً راقياً تتسع روحه ليتعايش مع بني نوعه، ويسعى دوماً لقضاء حوائجهم ويشركهم فيما يمتلك.

ومن هنا اعتبر الإمام هذه الصورة وهذا الأداء واجباً ينبغي على كل مسلم أن يلتزم بها فقال: «ويحقّ على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة»^(١).

فهذه الرابطة الأفقية بين الإنسان وأخيه رابطة محورية في الارتقاء الحضاري لأي مجتمع حيث تعمل على تذويب الأنانيات وتقوية أواصر الأخوة الإسلامية وتشيع أجواء التكافل.

فقد بيّنت مدرسة الإمام الصادق إذاً الصورة التي يريدها الإسلام للعلاقة بين أفراد مجتمعه بكل جوانبها، وقامت بتوطيد روح التكافل والتعاون الجماعي في نفوس تلاميذها، عبر مشاريع اجتماعية متعدّدة التي يمكن تلخيصها كما يلي:

* تأصيل خدمة الناس وقضاء حوائجهم:

إنها من أروع مظاهر التكافل الاجتماعي؛ فهي المساعدة الطوعية النابعة من نفس الإنسان وقناعته التامة بتلبية حاجات الآخرين. وقد جعل الله للإنسان طاقات نفسية وعقلية وجسدية، وهذه كلها من نعم الله العديدة ومنّه وكرمه على عباده.

فإن صرفها العبد في مساعدة أهل الحاجة يكون قد أدّى حق الشكر لله تعالى المؤدي إلى زيادة هذه النعم أضعافاً، وإن منعها عن أهلها يكون قد ضيّع حق الله وعرض نعمه تعالى للضياع والزوال، وهذا مصداق لقول أبي عبد الله: «ما أنعم الله على عبد نعمة فلم يحتمل مؤونة الناس إلّا عرض تلك النعمة للزوال»^(٢).

وقد أشار الإمام أنّ فوائد مساعدة الآخرين وخدمتهم لا تعود على صاحب الحاجة فقط، بل يعمّ نفعها قاضي الحوائج نفسه كما يعم المجتمع أيضاً، قائلاً: «أيما مؤمن أتى أخاه في حاجة، فإنّما ذلك رحمة من الله ساقها إليه وسببها له، فإن قضى حاجته كان قد قبل الرحمة بقبولها وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها فإنّما ردّ عن نفسه رحمة من الله جلّ وعزّ ساقها إليه وسببها له...»^(٣).

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢١٥، ح ١٦١١٩.

(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ج ٣، ص ٦٦٢.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب قضاء حاجة المؤمن، ح ٥.

وهكذا حث الإمام تلاميذه على التعاون والتكافل بلسان واضح وصريح، فقال: «إن الله خلق خلقاً من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يقضون الحوائج للناس، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن»^(١).

ولم يقتصر الصادق في دعوته على تلبية الحاجات الخاصة فقط، بل لفت أنظار تلاميذه إلى حاجات إنسانية أخرى قد لا يُنتبه إليها عادة، فقال: «إسماع الأصم من غير تضجّر صدقة هنيئة»^(٢).

إسماع الأصم من الأمور المستحيلة طبعاً، إلا أن في هذه الدعوة إشارة إلى اتباع الأسلوب المناسب الذي يستطيع من خلاله الشخص القادر إيصال ما أمكنه من أنواع المساعدة إلى الشخص المحتاج وبأية وسيلة ممكنة.

وقد نرى من خلال جهود أبي عبد الله في التربية تأكيده على بذل أقصى الجهد والسعي في قضاء حوائج الآخرين، واعتبار عدم تأديتها خيانة، حيث قال:

«أيما رجل من أصحابنا استعان به رجل من إخوانه في حاجة فلم يبالغ فيها بكل جهده فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»^(٣).

ولم يكتف الإمام بذلك، بل دعا الإنسان الذي قد لا يتمكن من قضاء حوائج الغير بنفسه أو بماله، أن يسعى في قضائها عند من يستطيع، وهذا ما ورد في وصيته بقوله: «الماشي في حاجة أخيه كالساعي بين الصفا والمروة، وقاضي حاجته كالمتشحط بدمه في سبيل الله...»^(٤).

إلا أنه ورغم اهتمام الإمام بقضاء حوائج الناس ودعوته إليها، فقد حذر من أن تؤدي هذه الخدمة إلى استغلال الفرد وتحقيره، فوضع لها حداً يقف عند كرامة المؤمن وصيانة عزّته، فقال: «أخدم أخاك فإن استخدمك ألا وهي الكرامة»^(٥).

ولطالما حدّث الصادق تلاميذه عن أخلاقيات قضاء الحوائج، فقال: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: تصغيره وستره وتعجيله»^(٦) فإن كان غير ذلك محقته ونكدته»^(٧). ثم شرح الإمام أسبابها فقال:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣، ج ١، ص ٢٣٥.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٣٤، ح ١٥٨٦٢.

(٣) أحمد بن محمد البرقي، المحاسن، ج ١، دار الكتب الإسلامية، إيران، ص ٩٨ ح ٦٥.

(٤) الحراني، تحف العقول، ص ٣٠٣.

(٥) المفيد، الاختصاص، ص ٢٤٣.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٣.

(٧) الصدوق، الخصال، ص ١٣٣.

«فإنك إذا صغرت عظمته»، فعندما يعظم الإنسان الحاجة يصغر نفسه عند طالبيها لما سيراه من ضعفه وعجزه، بينما إذا اعتبرها صغيرة يعظم وتعظم الحاجة عند طالبيها. ثم قال: «وإذا سترته تَمَّتْ»، فإن خدمة الآخرين بصمت هي من أعمال الخير التي يقوم بها المؤمن الواثق بنفسه الذي يهيمه رضا الله لا رضا الناس والذي يضع نصب عينيه ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾^(١). ثم قال: «وإذا عجلته هتأته»^(٢)، فإن الإنسان إذا أسرع في قضاء حاجة الغير فرح بها وشعر بقيمة قضائه لها، بخلاف ما إذا ماطل فيها.

لذا أكد الإمام في كلام آخر على تعجيل قضاء حوائج الآخرين خوفاً من فوات الفرصة، فقال: «إن الحاجة تعرض للرجل قبلي فأبادر بقضائها مخافة أن يستغني عنها أو تأتية وقد استبطأها فلا يكون لها عنده موقع»^(٣).

* الحث على الإقراض والإمهال:

لقد مارس الإمام الصادق هذا الأمر قولاً وفعلاً ليجسد للمسلمين الأسس المتينة لبناء المجتمع التعاوني الذي ينشط مع الجهد الجماعي. فهو يجعل المؤمن يرى نفسه في الآخرين ويرى الآخرين في نفسه، فيدفع لا محالة إلى التكافل والتناصر. فقال: «أحبوا للناس ما تحبون لأنفسكم»^(٤).

وقد احتلت الدعوة إلى التكافل الاقتصادي حيزاً كبيراً من تعاليم الإمام الموجهة إلى طلابه، فعمل على تشجيعهم لنصرة المحتاجين في مرافق الحياة، وتوفير حاجاتهم وذلك عبر إقراض المؤمنين وسد حاجاتهم بطريقة تحفظ ماء وجوههم، وهو من أرفع الأمور التي يتقرب بها المسلم إلى الله. «فإن المقرض عندما يتنازل عن بعض ما يملك ويقدمه للآخر ليقضي حاجته، تتحرك في هذه العملية نفسيته الطاهرة التي تحب الخير وتنشده»^(٥). كما يكون لهذا العمل أثر جميل في تمتين أواصر المحبة والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد.

وقد ورد عن الصادق الحث على هذا المعروف بقوله: «لئن أقرض قرضاً أحب إلي من أن أتصدق بمثله»^(٦).

(١) سورة البقرة: جزء من الآية ١٩٧.

(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ج ٣، ص ٦٧٨.

(٣) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، د.ت، ج ٣، ص ١٧٥.

(٤) الطبرسي، مشكاة الأنوار، ص ٣٣٣.

(٥) عباس علي الموسوي، العلاقات الاجتماعية في الإسلام، دار المرتضى، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٠٥.

(٦) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٨٧، ح ١.

فالقرض من وجهة نظر الإمام بمنزلة الصدقة بل ربما هو أفضل إذ إنه يحفظ المال لصاحبه، ويصون كرامة المقترض، فلا يُحوّجه إلى ذل السؤال. ولفت الإمام إلى أن من أخلاقيات المقرض وآدابه أن يُنظرَ المعسر إلى وقت الإيسار، ولا يجوز لهم مضايقته أو التشديد عليه، فقال في وصية طويلة كتبها إلى أصحابه:

«إياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين أن تعسروه بشيء يكون لكم قبله وهو معسر فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: ليس لمسلم أن يعسر مسلماً ومن انظر معسراً أظله الله يوم القيامة بظله يوم لا ظل إلا ظله»^(١).

فإذا تعسّرت أحوال ذي حاجة ولم يُوفّق إلى السداد، وأقفلت الدنيا أبوابها في وجهه، فيجب على المقرض أن ينظره حتى يفتح الله عليه بواسع رحمته وجوده. لذا عندما سئل أبو عبد الله: ما للرجل أن يبلغ من غريمه؟ استدّل الإمام بكلام الوحي وقال: «لا يبلغ به شيئاً الله انظره»^(٢) ثم تلا هذه الآية: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

وليس مثل هذا في تعاليم الإمام مجرد نظرية فحسب، بل هو يراقب تلاميذه بأن يطبقوها ويجسّدوها في واقعهم العملي كما قال أحد تلاميذه، قلت لأبي عبد الله: إن لي على رجل ديناً وقد أراد أن يبيع داره فيعطيني، فقال الصادق: «أعيزك بالله أن تخرجه من ظل رأسه، أعيزك بالله أن تخرجه من ظل رأسه»^(٤).

فالإمام هنا لم يرض أن تباع دار يسكنها المستدين ليقضي ما عليه من دين، لا بل استعاذ بالله من القيام بمثل هذا بين أتباعه ومريديه.

* الدعوة إلى المواساة والإغاثة:

يرى الصادق بأن المواساة من مقاييس القرب إلى الله، فقال لتلاميذه: «تقربوا إلى الله بمواساة إخوانكم»^(٥) وهو يعتبرها من أشد ما افترض الله على خلقه^(٦) كما اعتبرها من علامات الصدق في الأخوة، فقال:

(١) الكليني، فروع الكافي، ج ٨، ص ٩.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٦٧، ح ٢٣٨٦٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

(٤) الطوسي، الاتبصار، ج ٣، ص ٦، ح ١٣.

(٥) الصدوق، الخصال، ص ٨.

(٦) ورد عن الصادق: «أشد الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك، ذكر الله على كل حال، مواساة الأخ في المال (أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج ١، ص ٨٥).

«الإخوان ثلاثة: مواس بنفسه، وآخر مواس بماله، وهما الصادقان في الإخاء، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة، فلا تعدّه من أهل الثقة»^(١).

وتتحقق المواساة بتفريج الكرب عن المكروبين وإغاثة الملهوف، وإدخال السرور في قلب المؤمن سواء عبر الموقف أو الكلمة أو أي طريقة مناسبة، وقد انطلق الإمام من تعاليم جده رسول الله ﷺ في التناصر المعنوي النفسي بين المؤمنين، فقال: «من أغاث أخاه المؤمن اللّهفان عند جهده، فنقّس كربته وأعانته على نجاح حاجته، كتب الله عزّ وجلّ له بذلك عند الله اثنتان وسبعون رحمة من الله، ويعجلّ له منها واحدة يصلح بها معيشته ويدّخر له إحدى وسبعين رحمة لأفزع يوم القيامة وأهواله»^(٢).

ذلك «لأنّ كرب الدنيا بالنسبة إلى كرب الآخرة لا شيء، فادّخر الله جزاء تنفيس الكرب عنه لينفس به كرب الآخرة»^(٣).

وهكذا دعا الصادق المجتمع الإسلامي بجميع أفرادهِ إلى التكافل المادي والمعنوي، إلا أنّه اعتبر أن للأغنياء في هذا المعروف دوراً خاصاً ومميزاً، فحين دخل إليه رجل، سأله الإمام: كيف خلّفت إخوانك؟ فأحسن الثناء عليهم. فسأله: «كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم؟ قال الرجل: قليلة. قال الإمام: كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال: قليلة. قال الإمام: فكيف يزعم هؤلاء أنهم أتباعنا؟»^(٤).

وكأنّي بالإمام يرى في مواساة الأغنياء للفقراء ومساعدتهم شرطاً لا غناء عنه للتلمذ في مدرسته.

ومن هذا الموقف ندرك بأن استراتيجية الإمام التربوية لم تتوقع في دائرة التنظير أو تكتف برفع الشعارات وإطلاق الخطابات، بل نلاحظ أنها قد خرجت منها إلى حيّز العمل، كما أنها تركز على صيغتها الأساسية في النزول إلى واقع المجتمع، تستخبر وتحاور وتحرك وتؤثر ليصبح المجتمع بكل أفرادهِ وعلى مختلف مستوياتهم مستعدين لتقديم الخدمة للآخرين بكل محبة وفي أي وقت، معتمدين على ما منحهم الله سبحانه من قدرات وإمكانات ومواهب. فكلما ازدادت هذه النعم عليهم، ازدادت مسؤولياتهم تجاه الآخرين وتجاه المجتمع بكامله.

ولكي يرفع الإمام وتيرة السعي والجدّ في خدمة الآخرين، قام بتذكير المتعلّمين لديه بهذا الجانب المهم وهي حاجتهم الدائمة إلى توفيق الله تعالى وتسديده، حتى

(١) الحراني، تحف العقول، ص ٣٢٤.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب تفريج كرب المؤمن، ح ١.

(٣) سليم بن عبد الهلالي، إيقاظ الهمم، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤١٩، ص ٤٩٠.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ١٦٨.

يلزمهم بالدعاء والطلب فقال: «وليس كل من يحب أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه، ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والإذن، فهناك تمت السعادة للطالب والمطلوب إليه»^(١).

فهذه المواقف الكثيرة توحى لنا بمدى إيلاء الإمام لهذا المبدأ المهم في المجتمع، عنايته وتخطيطه وبذله وتركيزه في ذهنية الأمة.

ج - مبدأ الصدق والأمانة:

أساس الحياة الاجتماعية للإنسان هو العمل على المستوى الجماعي. ولا يتسنى ذلك إلا بأن يتعامل أفراد المجتمع فيما بينهم من موقع الثقة المتبادلة واعتماد البعض على البعض الآخر، وهذا المعنى لا يتحصل إلا بتوافر عنصري الصدق والأمانة بينهم.

لذلك اعتبر الصادق مبدأ الصدق والأمانة من المبادئ المهمة التي يجب الالتزام بها في دائرة العلاقات الاجتماعية. فالصدق «هو تطابق الكلام مع الواقع سواء كان الواقع الخارجي أم الباطني»^(٢). فهو يرمز إلى الطهارة في الذات والبعد عن الرذيلة، وله تأثير في جميع أعمال الإنسان وسلوكياته. كما قال الإمام الصادق: «من صدق لسانه زكى عمله»^(٣).

وإذا اتخذ الفرد هذه الفضيلة منهجاً لحياته تلاشت المشكلات التي مصدرها وأساسها الكذب والخداع و«متى انهارت في الفرد فضيلة الصدق انقطعت ما بينه وبين مجتمعه رابطة عظمى، وغدا الناس لا يصدقونه فيما يقول، ولا يثقون به فيما يحدث به أو فيما يعد فلا يكلون إليه أمراً ولا يعقدون بينهم وبينه عهداً»^(٤).

وكذلك «الأمانة هي التزام الواجبات الاجتماعية وأداؤها خير أداء»^(٥). وهي لا تحصر في أضيق معانيها وحدودها، أي في إطار قيام الإنسان بحفظ ما يودع لديه من مال، بل تكون شاملة للقيام بجميع التكاليف والالتزامات الاجتماعية والأخلاقية، كما أشار إلى ذلك أبو عبد الله قائلاً: «لا يكون الأمين أميناً حتى يؤتمن على ثلاثة فيؤديها: على الأموال والأسرار والفروج. وإن حفظ اثنين وضيع واحداً فليس بأمين»^(٦).

(١) ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة من معرفة الأئمة، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢١٦.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٨٦.

(٣) الطوسي، الأمالي، ص ٢٤٥.

(٤) عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٠.

(٥) مصطفى السباعي، أخلاقنا الاجتماعية، دار السلام، القاهرة، ١٤١٨، ص ٧٦.

(٦) الحراني، تحف العقول، ص ٣١٦.

إن «الأمانة تدعو الإنسان إلى صدق الحديث كما أن صدق الحديث يدعو الإنسان إلى الأمانة في الجهة المقابلة؛ لأن صدق الحديث نوع من الأمانة في القول والأمانة نوع من الصدق في العمل. على هذا الأساس فإن هاتين الصفتين ترتبطان بجذر مشترك وتعبّران عن وجهين لعملة واحدة»^(١).

فالصادق يحكي عن الأهمية البالغة لهذا المبدأ بأنها من الأسس المشتركة بين جميع الأديان السماوية، فقال: «إن الله عزّوجلّ لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر»^(٢).

فالمؤمن الحقيقي هو الذي يتحرّك في سلوكه من موقع الصدق ومراعاة الأمانة بصورها المختلفة، ويهتم بالحفاظ عليها من موقع المسؤولية وأداء الوظيفة؛ لهذا تكررت في كثير من وصايا الإمام هذه العبارة: «عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة»^(٣)، كما كان يوصي بهما كل من دخل عليه من أصحابه ومن فارقه.

من هنا نرى أن تربية الأفراد على انتهاج هذا الخط تحظى من الإمام بعناية خاصة من خلال عدة أمور في توجيهاته التربوية للأمة. فنشير إلى أهمها فيما يلي:

* إلزام الناس بأداء الأمانة إلى صاحبها:

يرى الصادق بأن الأمانة خلق كريم يدلّ على يقظة ضمير الإنسان وإحساسه بالمسؤولية المنوطة به، فيتولاها ويوجه تلاميذه إلى أدائها للمسلم وغير المسلم؛ لأن اختلاف الدين لا يمنع الشخصية المسلمة من أداء الحقوق إلى صاحبها، فقال: «أدوا الأمانات إلى أهلها إن كانوا مجوساً»^(٤). حتى إنه وصل إلى أبعد من ذلك، فأكد على هذه المسؤولية - عبر أنموذجه هو - بأنّه يؤدّي الأمانة ولو كان لقاتل جدّه علي بن أبي طالب، فقال: «اتقوا الله، وعليكم بأداء الأمانة إلى من ائتمنكم، فلو أنّ قاتل علي ائتمنني على أمانة لأديتها إليه»^(٥)، وهذا لا شك أنه لتعظيم أهمية الأمانة وأدائها ورفع شأنها.

* التشجيع على هذا المبدأ من خلال عرض القدوة:

فقد جاء حث الإمام علي الصدق والأمانة من خلال تجسيد هذه الفضيلة عملياً في واقع الأمة. فهو يذكر المكانة الرفيعة للإمام علي بن طالب (كرم الله وجهه) عند

(١) ناصر مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٦٢.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج باب الصدق، ح ١.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٨، باب أحكام العشرة، ح ٢ و ٧ و ٨.

(٤) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٣٣.

(٥) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٣٥١، ح ٩٩٥.

رسول الله ﷺ ثم يشير إلى سبب احتلاله هذه المكانة، ليتمكن تلاميذه من الاقتداء بأنموذج حي في حياتهم.

فقال إلى أحد تلاميذه: «انظر ما بلغ بسببه علي بن أبي طالب عند رسول الله ﷺ فالزمه، فإن علياً إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله ﷺ بصدق الحديث وأداء الأمانة»^(١).

* وضع هذا المبدأ معيار لمعرفة الأشخاص:

يعتبر الإمام الصدّيق والأمانة علامتين بارزتين في سلوك المؤمن، فيقول: «لانتظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فإن ذلك شيء اعتاده، ولو تركه استوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأمانته»^(٢).

فلا اعتبار بطول الركوع والسجود ولا اعتبار بكثرة الصيام والقيام، بل الميزان الذي يقيّم على أساسه إيمان الرجل، هو صدق حديثه ومدى التزامه بالأمانة.

* التركيز على النتائج الإيجابية لهذا المبدأ في التعامل الاجتماعي:

لم يترك الإمام التأكيد على معطيات الصدق والأمانة في الحياة الاجتماعية، وهي تقوم على المحبة في النفوس، وكثرة التعامل وثقة الناس فيما بينهم، فقال في وصيته إلى أحد تلاميذه: «عليك بصدق الحديث وأداء الأمانة تشارك الناس في أموالهم هكذا - وجمع بين أصابعه»^(٣).

وقد يكون في جمعه بين أصابعه - حين تكلم على الصدق والأمانة - إشارة إلى عملية الاندماج العملي والروحي بين أفراد المجتمع من خلال تعاملهم مع بعضهم البعض وتشاركهم في معظم أمور حياتهم.

* التحذير من الائتمان بالفاسق:

وجّه الإمام المودع للأمانة وصاحب المال لأن يكون ذكياً في اختيار الشخص المؤمن، وألا يكون ساذجاً بحيث يودع أمانته لدى أي شخص كان. وكان لو أتى إليه رجل فقال له: «إني ائتمنت رجلاً على مال وأودعته عنده فخانني وأنكر مالي، قال الإمام: «لم يخنك الأمين ولكن ائتمنت الخائن»^(٤).

فالتوجيه التربوي الذي رمى إليه الإمام من خلال هذه الحادثة يتضمن التفاته إلى جانبين مهمين:

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الصدق، ح ٥.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٨.

(٣) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب أداء الأمانة، ح ٩.

(٤) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣٠٥، ح ٤٠٩٣.

- الجانب النفسي لدى الرجل بعد الحادثة، فقد غدا منفعلاً بالشك وسوء الظن بالآخرين مع ما يتبع ذلك من نتائج وآثار أبرزها: الانفرادية والانعزال.

- الجانب الاجتماعي في المسألة، فإن سقوط الثقة بالآخرين وتكشّف القناع عن وجه الخائن المخادع، ينبغي أن يظل محصوراً في نطاق الأفراد الذين سقطت الأقنعة عن وجوههم، وانكشفت حقيقتهم المزرية، ومن الخطورة بمكان أن يمتد الشك والريب إلى الآخرين الذين لا علاقة لهم بما جرى، والذين لا يملكون الصفات أو التصرفات نفسها.

فالإمام ينطلق في كلامه من نظرة واقعية لها وجهان:

الأول: أن الأمين لا يخون، ولو كان في أمس الحاجة إلى ما تحت يده، أو إلى ما أودع لديه، فإنه يعفّ ويحافظ على حقوق الآخرين ويؤديها إليهم.

والثاني: أن الإمام لا ينفي وجود من يخون الأمانة ويترك الوفاء، فهذه حقيقة واقعية لها مصاديق بين الناس.

إذن، فهذه الحادثة ينبغي أن تضيف إلى المرء خبرة جديدة تجعل عقله أكثر تفتحاً وبقظة، حتى لا يعود مرة أخرى لائتمان الخائن، ولا ينساق إلى اتهام من جرب أمانته ووفاءه، كما يقول الإمام في مناسبة أخرى: «ليس لك أن تأمن الخائن وقد جربته، وليس لك أن تتهم من ائتمنته»^(١).

د- مبدأ الإصلاح الاجتماعي:

لا يخفى على أحد ما للإصلاح الاجتماعي من أهمية قصوى ودور فعال في توفير السلام واستتباب الأمن والشعور بالطمأنينة وسيادة العدل بين أفراد المجتمع الواحد.

ولا جرم أن له موقعاً خاصاً في التربية الاجتماعية، فهو من التغييرات الإيجابية في المجتمع التي تساعد على تحوّل نحو الأفضل كما توجّهه نحو الأصوب، وتثبت خطى أفرادها على الطريق الأقوم والنهج الأسلم.

ومن قواعد الإصلاح الاجتماعي الأساسية - وفق العقيدة الربانية - محاربة الفساد والانحراف والحفاظ على القيم الإسلامية. إلا أن الوصول إلى ذلك له مدخل أساسي وهام جداً، يتجلى بشعور كل فرد من أفراد المجتمع بمسؤوليته عن نفسه أولاً، وعن يُعيل وعن المجتمع الذي يعيش فيه ثانياً. وأن يكون على علم وثيق من أنه سوف يحاسب على تقصيره في أيّ من هذه المسؤوليات بعد ذلك.

(١) الحر العاملي، الفصول المهمة في معرفة أصول الأئمة، تحقيق: محمد القائني، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٣، ج ٢، ص ٢٩٣.

فالإسلام حمل الأفراد هذه المسؤوليات، كل حسب موقعه ومؤهلاته؛ وعلى هذا، فإن هذا المجتمع، أفراداً وأسرّاً وأمةً، وبكل من فيه من رجال ونساء، مدعوّ لانتهاج سبيل الخير والدعوة إليه، وأفراده مدعوّون لأن يتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر. وهذا التواصي من «الوظائف الاجتماعية التي تمثل في المجتمع الإسلامي قوة الدفع إلى الارتقاء في سلم الكمال، وقوة الحماية عن الانزلاق إلى دركات النقص، وقوة الصيانة التي تصون المكاسب التي يحققها المسلمون أفراداً وجماعات، من مكاسب المعارف والفضائل الخلقية والسلوكية»^(١).

ونظراً لأهمية هذا المبدأ والسعي إلى ترجمته عملياً، فإن الإمام الصادق كان ينمي لدى تلاميذه الشعور بالمسؤولية تجاه سلوك الآخرين، ومحاولة التغيير والإصلاح في المجتمع، فهو يريد أن يرقّي الفرد من عضو عادي إلى فرد رسالي يتحمل مهمة توجيه الآخرين وتقويم انحرافاتهم.

وقد أوجب الإمام على الإنسان المؤمن الوقوف في وجه الانحراف والعصيان، ومحاولة تغيير ما يجري حوله من خلاف، فإن لم يستطع هذا الإنسان أن يقوم بأدنى تغيير أو تأثير، فيرى الإمام في هذه الحال ضرورة الكفّ عن مجالستهم والتواصل معهم، حتى لا يكون سبباً في تشجيعهم على الاستمرار في ارتكاب المعاصي والمحرّمات، فيقول: «لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره»^(٢).

وعلى مستوى التخطيط للقيام بالتغيير، يعتمد الإمام فكرة التدرج في العمل الاجتماعي والتغيير الإصلاحي فيه، تبعاً لقوة الإيمان عند الناس، فيقول: «إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنتين لصاحب الواحدة لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشرة، فلا تسقط من هو دونك، فيسقطك من هو فوقك وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة، فارفعه إليك برفق، ولا تحمّلنّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره»^(٣).

يستفاد من هذا النص أنّ التدرّج أمر أساسي يدخل في صلب النظام التربوي للإمام؛ لأنه لا يمكن لأي شخص تقبّل فكرة تغيير ما اعتاد عليه من تصرّفات وأعمال أو اعتقادات دفعة واحدة، بل يتحقق ذلك تدريجياً، ومصحوباً بكثير من الرفق واللين في التعامل.

(١) عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، مرجع سابق، ص ٣٩٢.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٥٠٣.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب درجات الإيمان، ح ٢.

فليس من الحكمة تحميل صاحب الخطوة الأولى مثلاً ما يمكن لصاحب الخطوة الثانية أن يحمله، وذلك ليتم انسجام الدعوة والإصلاح مع عقلية المخاطب ومستوى إيمانه، وهكذا قام الإمام في مدرسته بتربية الإنسان المسؤول الذي يجعل هم إصلاح المجتمع وتطويره إلى الأفضل بالتدرج وإن من أهم خطوات العملية في هذا الطريق ما يلي:

المراقبة والنقد الاجتماعي .

مواجهة الخلافات والخصومات الاجتماعية .

* المراقبة والنقد الاجتماعي :

إن المراقبة الاجتماعية هي إحدى الوسائل البالغة الأهمية في عملية إصلاح المجتمع وتغييره واستقرار القيم الأخلاقية فيه، وقد جعل الدين الإسلامي كل مسلم رقيباً على نفسه، كما جعله رقيباً على غيره، وذلك ليتسنى له القيام بدور فعال في بناء المجتمع والسير به نحو الأفضل .

ويتبلور هذا الدور في تطبيق فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد تناولت الحديث عنهما جملة من الآيات القرآنية، فجعلت منهما صفتين ملازميتين لأفراد الأمة الإسلامية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١) وبما أن هذه الدعوة أتت على لسان الوحي، فلا مجال للشك أن ممارسة الأمر بالمعروف ومحاولة تغيير المنكر، من أفضل الطرق العملية المثمرة في صيانة المجتمع وتقويمه . «ولا نجد في النظم التي ابتكرها الإنسان لرعاية القوانين والدساتير وتبصير الناس بها - حتى لا يقعوا في المخالفات المتتالية - نظاماً يصل إلى فكرة هذا المبدأ باعتباره مبدأً تربوياً جاداً يتيح لأكثر قاعدة في الأمة أن تعرف ما لا بد من معرفته . . . وبطريقة مكررة تضمن التذكر الدائم وتشمل كل البيئات في المجتمع»^(٢) . لذا فإن «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ عظيم يصلح بمفرده دستوراً لجميع نواحي الإصلاح»^(٣) .

وها هو الإمام الصادق يهتم بهذه الخطوة الإصلاحية اهتماماً بالغاً، ويعتبرها ركناً أساسياً في صيانة الأمة الإسلامية، حيث يرى أنها شرط للتدين؛ لأن بهما يعبد الله ويسود الأمن وتزول أسباب الفتن، وبهما يمكن تغيير الواقع إلى الصلاح، فيقول:

(١) سورة التوبة: جزء من الآية ٧١.

(٢) أحمد بن محمد بن هارون الخلال، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق عبد القادر عطا، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٤٦.

(٣) سعيد إسماعيل علي، فلسفة التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١١١.

«ويلٌ لقوم لا يدينون لله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(١).

من هذا المنطلق فقد قرّر الإمام اعتماد أساس النصح المتبادل في المجتمع، والذي يتم من خلاله نصح كل فرد الآخر إذا رأى منه ما يندرج في إطار مخالفة السلوك الأخلاقي، فقال لأحد تلامذته: «عليك بالنصح لله في خلقه فلن تلقاه بعمل أفضل منه»^(٢).

كما كان يرى الإمام أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إضافة إلى الأبعاد الاجتماعية المتعددة، أبعاداً تربوية عميقة، وأن تكرار الأمر والنهي على أسماع الناس كلما خفي معروف أو ظهر منكر على مر الأيام يحقق دون شك تثقيف الأمة كلها. ويرى فيه كذلك إفادة للعاقل والجاهل فيقول: «إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ، أو جاهل فيتعلم»^(٣).

وهذا الأمر إنما يتحقق بأداء أهل الحق والصلاح واجبهم، وذلك بالأخذ بيد أهل الفساد والمعصية للسير بهم نحو الطريق الصحيح، ونجد الإمام يلقي التبعة الأكبر والأهم على كاهل العلماء بالدرجة الأولى فيقول: «لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم... ما يمنعكم إذا بلغكم عن رجل منكم ما تكرهونه مما يدخل علينا به الأذى والعيب عند الناس، أن تأتوه فتؤنبوه وتعظوه وتقولوا له قولاً بليغاً»^(٤).

فالإمام هنا يوجب على العالم أن لا يتخلّى عن تعليم الجاهل حتى لا يبقى يتردى في جهالته، فيرتكب ما يخالف الدين.

وقد انصبت جهود الإمام الصادق في مشواره التربوي الحافل، على أن يرسخ في عقول تلامذته أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً وآداباً يجب أخذها في اعتبار الأمر النهائي، حتى يكون له استجابة أكثر، وتأثير أقوى. كما شدّد على أن من يريد القيام بمثل هذه المهمة، لا بد أن تتوافر فيه صفات وخصال مميزة، «إنما هو (أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) على القوي المطاع العالم بالمعروف والنهي عن المنكر لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً»^(٥).

إذاً، وباستعمال الإمام كلمة (إنما) حصر تحقيق هذه الفريضة بكل مكلف تتوافر فيه خصائص ثلاث:

- (١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٧٦، ح ٣٥٣.
- (٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٣٨.
- (٣) الحراني، تحف العقول، ص ٣٥٨.
- (٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١٥.
- (٥) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح ١٦.

- أن يكون قوياً، أي أن له قدرة واستطاعة في التغيير والإصلاح فلا يضعف أمام شدة، ولا يجبن أمام قوة.

- أن يكون مطاعاً، أي أن الناس يقبلون نصائحه الرشيدة، وكلماته المفيدة.

- أن يكون عارفاً وبصيراً بمصاديق ومظاهر المعروف والمنكر.

فالصادق يحتمل المجتمع المسلم هذه المسؤولية بمستويات تتناسب مع مستويات الاستطاعة لكل فرد من أفراده؛ إلا أنه لا يعني أي شخص من الحد الأدنى لتطبيق هذه الفريضة، وإن كان عبر الإنكار بالقلب على الأقل، وقد قال في ذلك:

«حسب المؤمن عزاً إذا رأى منكراً أن يعلم الله عز وجل من قلبه إنكاره»^(١).

ذلك أن الإمام يؤمن ويشرح لتلاميذه «من شهد أمراً فكرهه، كان كمن غاب عنه ومن غاب عن أمر فرضيه، كان كمن شهد»^(٢). إضافة إلى ذلك، نجد الإمام يولي الجانب الأخلاقي في مسألة الأمر والنهي اهتماماً خاصاً، فيدعو للرفق والشفقة في تطبيق هذه الفريضة، فيقول: «كن رفيقاً في أمرك بالمعروف، وشفيقاً في نهيك عن المنكر»^(٣).

فلا بد لمن يقوم بالنصح أن يتحلى بلبين الجانب وحسن الخلق، وأن يكون كلامه حين يأمر الآخرين وينهاهم منبعثاً من حبه لهم وحده عليهم. فقد أراد الصادق أن يثبت للمجتمع بجميع أفراده أن الأمر الناهي «عادل فيما يأمر، وعادل فيما ينهي»^(٤) أي أن يراعي حدود الإنصاف والعدالة، وينهج منهج الحكمة والموعظة الحسنة في دعوته ليكون التأثير أبلغ.

وبما أن الهدف الأساسي من هذه الفريضة، هو التأثير في نفوس الناس، ورفع مستواهم نحو الأعلى والأفضل، فلا بد أن ينتبه المصلح إلى مدى الفائدة التي تحققت أو ستتحقق من نصحه هذا. وأن يمسك في حال لاحظ أو تأكد من أنه لم يعد لكلامه ولا لنصحه أثر فيمن يوجه إليه، وقد أكد الصادق هذا الأمر قائلاً:

«وليكن أحدكم بمنزلة الطبيب المداوي إن رأى موضعاً لدوائه، وإلا أمسك»^(٥).

فقد شبه الإمام هنا الإنسان المصلح بالطبيب الذي لا بد أن يكون على بينة من تأثير دوائه وطرق استخدامه.

نأتي الآن إلى ذكر أسلوب آخر في الأمر والنهي، بإمكانه أن يستمر أو يستخدم

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٧٨، ح ٣٦١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٠، ح ٣٢٧.

(٣) محمد رضا الحكيمي، الحياة، ج ١، ص ٢٣٠.

(٤) الطبرسي، مشكاة الأنوار، مرجع سابق، ص ١٠١.

(٥) الكليني، فروع الكافي، ج ٨، ص ٣٤٥.

في كل الظروف، ألا وهو الأسلوب غير المباشر، والذي ركز عليه الإمام، ولطالما أُراد من الدعاة أن يقرنوا العمل بالقول، حتى يصبحوا قدوة صالحة بأعمالهم قبل أقوالهم، فلم يزل يكرر هذه الوصية بقوله: «كونوا دعاة الناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»^(١).

وهكذا يتبدى لنا حرص الإمام الشديد على تربية فئة مؤمنة تسعى دوماً لإصلاح المجتمع والسير به نحو الأفضل والأرقى وذلك بانتهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كأحد السبل الأساسية، الذي يساعد على الطاعة ويزيد من فرصها، ويقلل من فرص المعصية ويمنع من وجودها في المجتمع.

* مواجهة الخلافات والخصومات الاجتماعية:

من أهم المشكلات التي قد تهدد الجماعات البشرية، نشوء الخلافات وأسباب الفرقة المؤدية إلى التنازع، وهو الطريق الحتمي للفشل والوهن، وينهى الله عن التنازع فيما بين المؤمنين فيقول جلّ من قائل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٢).

فالتنازع والخلاف والخصومة من أهم أسباب الفساد والانحراف بين أفراد المجتمع. كما أنها تؤدي إلى هدر الطاقات البشرية، واستنزاف القدرات الخلقة في غير أماكنها، وهدم بنيان الجماعات، وقلع أسس المودات والصدقات.

وقد أدرك الإمام الصادق خطورة هذا الأمر، فتشدد فيه وحذر من عواقبه، فقال: «إياك وكثرة الخصومات فإنها تبعدك من الله»^(٣)، كما حذر من مخاطرها على الأجواء النفسية والاجتماعية بقوله: «إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان، وينبت عليهما النفاق... ومن زرع العداوة حصد ما بذر»^(٤).

وعلى هذا، فإن من أبرز مظاهر إصلاح المجتمع المؤدية إلى صحته وسلامته، العمل على فض النزاعات وإزالة الخصومات ومعالجة الخلافات، التي تسمح للفرد أن يعيش في كنف مجتمع ناعم بالسلام والأمن والاستقرار.

والمصلح الاجتماعي الذي يترتب في مدرسة الصادق لا يتوانى عن استئصال بذور الاختلاف من تربة المجتمع. فهو المسارع دوماً نحو تقريب أفراد المجتمع، فيتحلى بأناؤه بالمحبة والإخاء، ويشبكون أيديهم متحدين في مواجهة أعدائهم ومؤازرة أصدقائهم.

(١) أحمد بن محمد البرقي، المحاسن، دار الكتب الإسلامية، إيران، د.ت، ص ١٨، ح ٥٠.

(٢) سورة الأنفال: جزء من الآية ٤٦.

(٣) الحراني، تحف العقول، ص ٣٠٩.

(٤) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب المراء والخصومة، ح ١.

ولطالما كان سلوك الإمام مرآة تعكس هذه المثل والإرشادات التربوية الإصلاحية في كل مناسبة. وقد روي أن أبا عبد الله إذا مرّ بجماعة يختصمون لا يجوزهم حتى يقول ثلاثاً: «إتقوا الله إتقوا الله ويرفع بها صوته»^(١).

ولا يختلف أحد في الانعكاسات السلبية التي تنتج عن النزاعات والخصومات، ولكن المشكلة تكمن في إيجاد الطرق المناسبة للتخلص من هذه الخلافات، والوصول إلى تغيير حال الخصومة والنزاع إلى حال الوحدة والاعتصام بحبل الله تعالى.

والإمام الصادق كمصلح تربوي يقدم لنا بعض الطرق الناجعة إلى حل هذه المشكلات ويواجه معها باعتماد أسلوبيين : **الوقاية والعلاج**.

وأسلوب الوقاية يتمثل في السعي إلى حل المشكلات قبل حدوثها؛ أي أن يتم التركيز على زرع الأصول والمبادئ الأخلاقية في نفوس المؤمنين؛ لأنها كفيلة بتمتين العلاقات السليمة وتحسينها والابتعاد عما يثير الحساسيات والعصبيات بين الأفراد.

أما **أسلوب العلاج** فيتمثل في السعي إلى حل المشكلات بعد حدوثها؛ أي أن يتم السعي إلى إزالة آثار الحقد والبغض من القلوب، وتعويد النفوس وتربيتها على ردات الفعل الصحيحة والسليمة. ومن أبرز هذه الأساليب:

١ - تجنب جذور الخلافات والخصومات:

إن معرفة الأسباب المؤدية إلى النزاع وتجنبها، تعتبر مدخلاً هاماً يوصلنا إلى تقليل فرص حصول مثل هذه النزاعات، وتدخل في أساس الإجراءات الوقائية عند الإمام الصادق، لا بل إنها تدخل في صميم منهجه التربوي الذي حذر بشدة من تباعد المسلمين واختلاف كلمتهم وتشتت شملهم، وذلك لتحسين هذا المجتمع وصيانته من التفتت والانحيار.

ولأن المجال لا يتسع للإحاطة بكل ما يمكن اعتماده من الأساليب الإصلاحية، فسنختار منها نماذج من جذور الخلاف التي يعرفها الإمام ويحذر الأمة عنها، فنذكر بعضها:

- تتبع العثرات والعيوب:

قد لا يسلم إنسان من نقاط ضعف وعيوب في شخصيته وسلوكه وأخلاقه، إلا أن الإمام حذر من التركيز والحديث الدائم عن هذه النقاط وإثارتها، كما اعتبرها ابتعاداً عن الله لما لها من أثر في تعميق حالة الكراهية والعداوة، فقال: «أبعد ما يكون العبد من

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ١٨٠، ح ٣٧٠.

اللَّهِ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ يُوَاحِي الرَّجُلَ وَهُوَ يَحْفَظُ عَلَيْهِ زَلَّاتِهِ لِيَعْبِرَهُ بِهَا يَوْمًا مَا»^(١).
 كما شَدَّدَ عَلَى عَدَمِ اعْتِبَارِ نِقَاطِ الضَّعْفِ وَالْعُيُوبِ الَّتِي تَحْدُثُنَا عَنْهَا هَدَفًا دَائِمًا،
 نَصُوبُ بِنَادِقَتِنَا نَحْوَهُ، فَنُصَيِّبُهُ بِمَا يُؤْدِي إِلَى أَذِيَّتِهِ لَا إِلَى تَصْوِيْبِهِ وَتَقْوِيمِهِ، فَقَالَ: «إِيَّاكُمْ
 وَالتَّعَرُّضَ لِعُيُوبِ النَّاسِ فَمَنْزِلَةُ الْمُتَعَرِّضِ لِعُيُوبِ النَّاسِ كَمَنْزِلَةِ الْهَدَفِ»^(٢).
 - الاستهزاء والاحتقار:

إِنَّ السَّخَرِيَّةَ مِنَ الْآخَرِينَ وَتَحْقِيرَهُمْ، تَشَكُّلُ تَهْدِيدٍ لَوْجُودِ الْمَجْتَمَعِ؛ وَأَقْلُ
 أَضْرَارِهِ تَتِمَثَّلُ فِي نَفُورِ النَّاسِ وَكِرَاهِيَّتِهِمْ لِمَنْ يَسْخَرُ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ مَبْعَثَ ذَلِكَ، الْغُرُورُ
 بِالنَّفْسِ وَاعْتِقَادُ الْمُسْتَهْزِئِ بِكَوْنِهِ أَفْضَلَ مِنْ كُلِّ مَنْ هُمَ حَوْلَهُ، وَهَذَا سَيُؤْدِي حَتْمًا إِلَى
 زَوَالِ التَّعَاطُفِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ. وَقَدْ أَشَارَ الْإِمَامُ إِلَى هَذَا فَقَالَ: «لَا يَطْمَعُنَ
 الْمُسْتَهْزِئُ بِالنَّاسِ فِي صَدَقِ الْمُودَةِ»^(٣).

- النَمِيمَةُ وَالسَّعَايَةُ:

فَقَدْ شَبَّهَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ النَّمَامَ بِالسَّاحِرِ الَّذِي يَفَرِّقُ بَيْنَ الْأَحَبَّةِ بِسَحَرِهِ، فَتَكَلَّمَ
 فِي حَدِيثٍ مُخْتَصَرٍ عَمِيقٍ الْمَغْزَى عَنْ دَوْرِ النَّمِيمَةِ التَّخْرِيبِيِّ الْهَدَامِ فِي الْمَجْتَمَعِ
 قَائِلًا: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ السَّحَرِ النَّمِيمَةُ يَفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ وَيَجْلِبُ الْعِدَاوَةَ عَلَى
 الْمُتَصَافِينَ وَيُسْفِكُ بِهَا الدَّمَاءَ وَيَهْدِمُ الدَّوْرَ وَتُكْشَفُ بِهَا السُّتُورُ وَالنَّمَامُ أَشَرُّ مَنْ وَطَأَ
 عَلَى الْأَرْضِ بِقَدَمٍ»^(٤).

وَلِطَالَمَا كَانَ يَجْتَمِعُ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ حَوْلَ الْمُلُوكِ وَالْوَلَاةِ وَالسَّلَاطِينِ،
 فَيَتَقَرَّبُونَ مِنْهُمْ كَيْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ زَرْعِ بَذْرِ الْخِلَافِ وَالْفِرْقَةِ لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمُ السَّيِّئَةِ
 الْوَضِيعَةِ، لَذَا نَجَدُ الْإِمَامَ يَحْذَرُ أَحَدَ الْوَلَاةِ (النَّجَاشِي)^(٥) الَّذِي كَانَ قَدْ طَلَبَ مِنْهُ بَعْضُ
 الْوَصَايَا، فَكُتِبَ الْإِمَامُ إِلَيْهِ: «إِيَّاكَ وَالسَّعَاةَ وَأَهْلَ النَّمَائِمِ فَلَا يَلْتَزِقَنَّ بِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ،
 وَلَا يَرَاكَ اللَّهُ يَوْمًا وَلَا لَيْلَةً وَأَنْتَ تَقْبَلُ مِنْهُمْ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا فَيَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَيَهْتِكُ
 سِتْرَكَ»^(٦).

(١) زين الدين العاملي، منية المريد، ص ٣٣١.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص ٢٦٣.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٦٠، ص ٢١.

(٥) عبد الله بن النجاشي أبو بجير الأسدي البصري، ولِّي الأهواز من أقطار فارس، من قبل أبي جعفر المنصور العباسي، ويروي عن أبي عبد الله رسالة منه إليه (معجم الرجال للخوئي ١٠/ ٣٥٩).

(٦) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٣٠٨.

- الجدل والمرء:

إنّ الجدل عبارة عن تردّد الكلام بين الخصمين، إذا أراد كلّ واحد منهما إحكام قوله، ليدفع به قول صاحبه وهو نوعان: «إن كان في تقرير الحق فهو ممدوح وإن كان في تقرير الباطل فهو مذموم»^(١) الذي يقصد به دفع الحق أو مجرد العناد أو ليلبس الحق بالباطل أو طلب السمعة والجاه. وأمّا المرء «طعن في كلام الغير لإظهار الخلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير»^(٢).

والإمام ينهى عن الجدل المذموم الذي لا يراد به وجه الله كما ينهى عن المرء بما أنّهما يمثلان آفة من أشدّ الآفات التي تسبّب الخصومة وتفرق صفوف الأمة. فقال «إياك والمرء فإنه يحبط عملك، وإياك والجدل فإنه يوبقك»^(٣).

- الغيبة:

لا ينظر الإمام إلى الغيبة كزيلة أخلاقية فحسب، بل هو يراها من العوامل الهدامة لشخصيات الأفراد في المجتمع، والتي تجعلهم يسقطون في أحوال الحقد والبغضاء والعداوة، فنجد الإمام يتمثل شدة قبح عمل المغتاب إلى درجة أن الشيطان نفسه يتبرأ من رفقته وصحبته ويستقبح قبول ولايته، فيقول: «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان»^(٤).

وقد نهى الإمام عن هذه الرذيلة (الغيبة) حتى في حالات القطيعة، اتقاء لزيادة وتيرة العداوة واتساع رقعة الخلاف وحفظاً لماء الوجه وتحسباً لعودة المودة والألفة يوماً ما، فورد على لسانه: «لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقبعة فيسدّ طريق الرجوع إليك، فلعلّ التجارب ترذه عليك»^(٥).

- التهمة:

يقول الصادق في هذا الصدد: «من اتهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما»^(٦). إن في كلام الصادق هنا إظهاراً للأثر السلبي لاتهام المؤمن أخاه، والتشكيك في نزاهته

(١) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، المطبعة الحسينية، القاهرة، ج ٧، ص ٢٨٢ (بتصرف).

(٢) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٦٦.

(٣) الحراني، تحف العقول، ص ٣٠٩.

(٤) المفيد، الاختصاص، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٥) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦٦.

(٦) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب التهمة وسوء الظن، ح ٢.

وصدقه ونواياه... إلخ؛ لأن في ذلك إسقاطاً للحرّمات وتعدّياً على الكرامات وعدم الشعور بالأمان والطمأنينة بين الأفراد.

- السبّ واللعن:

من المؤكّد أن توجيه الشتائم للآخرين وإهانتهم عن طريق السبّ أو اللعن أو غيره، سيتسبّب بمزيد من الشحناء والبغضاء، وسيبقى أثره في النفوس، وإن توصل المتنازعون إلى صلح بينهم فيما بعد، وقد نقل الإمام إلينا كلاماً في ذلك ورد على لسان جده رسول الله ﷺ فقال: «سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة»^(١). وكذلك حذر من التلاعن بين أفراد الأمة الإسلامية بقوله: «إن اللعنة إذا خرجت من صاحبها تردّدت بينه وبين الذي يلعن... فاحذروا أن تلعنوا مؤمناً فيحل لكم»^(٢).

ولا يكتفي الإمام بالتحذير وذكر نتائج ارتكاب رذيلتي السبّ واللعن، إنما نجده - وكعادته - ينصح باعتماد أساليب وقائية نحاول إبعاد المؤمن عن التلفظ بأقل ما يمكن [أن] يقال في مقام الإيذاء فيقول:

«إذا قال الرجل لأخيه المؤمن: أفّ خرج من ولايته - أي الولاية التي تربط المؤمن بالمؤمن -... ولا يقبل الله من مؤمن عملاً وهو مضمّر على أخيه سوءاً»^(٣). إنّ مجرد التعبير بلفظة أفّ، أخف كلمة صادرة عن نزعة الكراهية و«هذا القدر من التعبير العدواني يخطره الإمام، فيما يدعنا نتأمل بمزيد من الملاحظة مدى حرص الإمام على تنقية الشخصية وتدريبها على أعلى مستويات السلوك السوي»^(٤).

هذه بعض جذور الخلاف التي حدّثنا عنها الإمام وحثّنا على استئصالها، ونصح بتجاوزها، كما دلّنا على بعض أساليب الوقاية من الوقوع فيها.

ومن هنا يظهر لنا بوضوح حرص الإمام الدائم واهتمامه المتواصل - عبر نهجه القويم - بوحدة جماعة المسلمين وعدم كونهم فريسة للخلاف والفرقة، لئلا تكسر شوكتهم وتوهن قواهم، فيطمع بهم عدوّهم ويقذف بهم إلى الفشل، بينما يصيبون في تحابهم وتوادّهم وابتعادهم عن هذه الرذائل العزّة والرقّيّ والتقدّم لهم ولمجتمعهم الحضاري والإنساني.

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب السباب، ح ١.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٦١٣.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٤٦.

(٤) محمود البستاني، دراسات في علم النفس الإسلامي، دار البلاغة، بيروت، ٢٠٠٠، ج ٢، ص ١٧١.

٢ - التغافل وحسن الظن :

ثمة تدابير وقائية أولاهها الإمام الصادق اهتماماً خاصاً؛ بهدف منع حدوث الخلافات والخصومات في المجتمع، وهذه التدابير تتمثل في اعتماد التغافل وحسن الظن، «والتغافل يعني أن يكون المرء عالماً بالشيء ومطلعاً عليه ثم يتعمد بإرادته أن يظهر نفسه وكأنه لا يعرف شيئاً عنه»^(١).

فإذا كان هذا التغافل بهدف ستر العيوب الخفية للآخرين، والتغاضي عن زلاتهم التي لا ينبغي إظهارها، فهو من صفات المؤمنين الحميدة، ودليل على عظمة الفرد وكرامته، كما يعدّ من العوامل الرئيسة لإصلاح المجتمع، حيث يبعث على التحاب والتقارب بين الناس، وربما يحول دون وقوع النزاع والشجار، ومن هنا يبرز دوره المهم في تخفيف آلام الحياة ومنغصاتها.

وبعبارة أكثر إيجازاً، التغافل في وقته وموضعه المناسب يعتبر من ضرورات الحياة الاجتماعية الهادئة السلمية التي يقتضيها كل من العقل والمصلحة. وقد تناول الصادق في نهجه التربوي هذا الموضوع قائلاً: «صلاح حال التعايش التعاشر ملء مكيال، ثلثاه فطنة، وثلثه تغافل»^(٢).

فليست الدنيا شيء وراء التعايش والتعاشر فيما بين البشر، ولا بدّ من أن يعيش الناس عيشة ترضي الله، لا نزاع فيها ولا خصام. والميزان الذي كال به الإمام ليوازن بين كفتي التعايش والتعاشر، يمثل الانتباه والفطنة ثلثيه، بينما يمثل التغافل عن بعض الأمور الثلث الباقي، وهي نسبة لا يستهان بها.

فكما أن على المؤمن العاقل أن يتعامل مع مسائل الحياة بالتحقق والتدقيق واليقظة كي يتمكن من إحراز خيره وصلاحه، وأن لا يغفل عن حيل أعدائه ومكرهم وسوء سعيهم، بل عليه أن يكون دائماً يقظاً وعلى حذر، ولكن في المقابل يجب أن لا تخلو حياته ومعاشرته من التسامح والتساهل، حتى تصفو له وللآخرين أجواء المعاشرة والعلاقة.

وهذا التساهل يقتضي في بعض الأحيان أن يجعل الإنسان كثيراً من الأمور الجزئية في علاقته مع الآخرين في زاوية النسيان والإهمال؛ لأن الدقة الشديدة في متابعة كلمات الآخرين ومواقفهم ووضعها تحت المجهر قد يؤدي إلى مضاعفة المشكلات وخلق الحساسيات في أجواء المجتمع المسلم.

فالصادق يحرص كل الحرص على أن يعيش الناس مع بعضهم البعض في أمن ووثام، وفي جوّ من الثقة المتبادلة، وعدم الإسراع إلى تصديق ما يسمعه عن أصدقاء أو

(١) محمد تقي فلسفي، الأخلاق من منظور التعايش والقيم الإنسانية، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٢) الحرّاني، تحف العقول، ص ٣٥٩.

إخوان لهم. فروي أنّ أحد تلاميذ الإمام قال له: يبلغني عن الرجل من إخواني ما أكرهه، فأسأله فينكر ذلك وقد أخبرني عنه الثقات أجاب الإمام في ذلك: «إذا بلغك عن أخيك شيء وشهد أربعون أنّهم سمعوه منه فقال: لم أقل، فاقبل منه»^(١).

وفي كلام الصادق تشديد واضح على أهمية الثقة في الحياة الاجتماعية؛ لأنها تشكل أساساً متيناً للتعامل المشترك بين أفرادها، فهو يشجع المسلم على أن يمر على زلات الآخرين مرور الكرام من موقع سعة الصدر، وحفظاً لماء وجههم، واتقاء لانتشار الحقد والبغضاء فيما بينهم.

وعلى هذا، فقد أوصى الإمام أفراد المجتمع الإسلامي بحسن الظن، وأن يلتزم كل فردٍ منه عذراً لأخيه، أو محملاً يحمله عليه فيما قد يشك فيه، فقال: «إذا بلغكم عن مسلم كلمة فاحملوها على أحسن ما تجدون، فإن لم تجدوا فلوموا أنفسكم»^(٢). ثم عاد فأكد ما نصح به قائلاً: «فإن لم تجد له عذراً فقل لنفسك: لعل له عذراً لا تعرفه»^(٣).

والإمام انطلاقاً من القرآن الكريم والسنة الشريفة يعلمنا كيف نربي أنفسنا على أن لا نظن بأحد سوءاً إلا أن يردنا عليه إثبات قطعي أو بينة؛ لأن تحول الثقة بين الناس إلى الشك وسوء الظن سيوجه علاقة الأفراد في المجتمع نحو الحذر والريبة، وربما إلى التآمر عليهم والنيل من مواقعهم الاجتماعية، وبالتالي سيجرهم ذلك إلى خوض صراعات، ونشوب خلافات قد لا تنتهي...

٣ - إصلاح ذات البين:

إن من أهم الوسائل التي اعتمدها الإمام الصادق في علاج النزاعات والخصومات بين أفراد المجتمع، هي إصلاح ذات البين.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن المجتمع الإسلامي لا بد أن يبنّي على قاعدة التآخي والتآلف، إلا أن الشيطان قد يفسد فيما بين الأخوين، فيثير أحدهما على الآخر، رغم الحذر واتخاذ التدابير الوقائية. فيجب على طرفي النزاع، كما يجب على الآخرين أن يتداركوا فوراً ما أفسد الشيطان من العلاقة بينهما، التزاماً بقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(٥).

(١) سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ١٥، ص ٢٣٠.

(٢) محمد بن أبي بكر باعلوي الخضرمي، المشروع الروي، ج ١، ص ٣٥.

(٣) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٤) سورة الأنفال، جزء من الآية ١.

(٥) سورة الحجرات، جزء من الآية ١٠.

فإذا ما اشتدّ أمر الخصام وجب على كل مسلم أن يسارع إلى الإصلاح بين المتخاصمين بمختلف الوسائل. ومعروف ما لهذا العمل من أهمية وفضل، وما له من آثار إيجابية في توطيد العلاقات الاجتماعية العامة. ولذا فقد بذل الصادق أقصى جهده في حث المؤمنين وترغيبهم بإصلاح ذات البين حتى اعتبره أفضل الصدقة فقال: «صدقة يحبّها الله إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا»^(١).

وفي المقابل، اعتبر الإمام أن أقبح الأعمال عنده، هو أن يبادر أحد الطرفين المتنازعين إلى الصلح مع الآخر، فيمدّ يده إليه فيقبض الآخر عنه يده ولا يستجيب لمبادرته، فقال في ذلك: «ملعون رجل يمدّ يده أخوه بالصلح فلم يصالحه»^(٢).

والتأمل في نصوص الإمام الواردة في إصلاح ذات البين، يبصّرنا بالدور الرائد الذي أعطاه للمصلحين، لما له من أثر في سدّ أبواب الفتن وإطفاء نار النزاعات المحرقة، وقد ربّى الإمام في طلابه روح الإصلاح ووجههم إلى كيفية التعامل مع المتنازعين في مثل هذه الحالات، فورد عنه ما نصّه:

«الكلام ثلاثة: صدق، كذب وإصلاح بين الناس، قيل له: الإصلاح بين الناس؟ قال: تسمع من الرجل كلاماً يبلغه فتخبث نفسه فتقول: سمعت من فلان. قال فيك من الخير: كذا وكذا خلاف ما سمعته منه»^(٣).

ولا شك أنّ الكلام يحتمل وجهين، فإمّا أن يكون مطابقاً للواقع أو مخالفاً له، فالأول يدعى صدقاً، والثاني كذباً، ولكن بما أن الكلام المخالف للواقع بدوره على قسمين: فإمّا أن يكون موجباً للفساد أو موجباً للإصلاح، فإنّ الإمام قد فصل بين هذين القسمين وقرّر بأنّ القسم الموجب للإصلاح هو قسم ثالث من أقسام الكلام.

والإصلاح ليس بالأمر السهل كما يظنه البعض، إنما هو عملية صعبة ومعقدة، تحتاج إلى فطنة ودراية ومزيد من الوعي والإدراك.

ولا عجب إذا رأينا الإمام الصادق نفسه في طليعة الساعين إلى إصلاح ذات البين ورأب الصدع بين الناس، إلا أنه استطاع أن يبتكر أسلوباً مميزاً لم يسبقه إليه أحد في علاج الكثير من المشكلات والمواقف الحرجة، فقد عيّن مبلغاً من المال دراهم ودنانير للإصلاح وفصل الخصومة بين أصحابه إذا حصل بينهم خلاف أو نزاع في القضايا المالية، تأليفاً لقلوبهم، ودفعاً لموجبات العدا والتفرقة بينهم.

(١) الطبرسي، مشكاة الأنوار، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٣٦.

(٣) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الكذب، ح ١٦.

كما ورد عن أبي حنيفة سائق الحاج^(١) قال: مرّ بنا المفضل وأنا وختني نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة، ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل. فأتيناه، فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق كلّ واحدٍ منا من صاحبه قال: «أما إنها ليست من مالي، ولكن أبو عبد الله أمرني: «إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء، أن أصلح بينهما، وأفتديهما من ماله» فهذا من مال أبي عبد الله»^(٢).

وهكذا نلاحظ كيف يكلف الإمام بعضاً من تلاميذه لحلّ الخلافات بين الناس بما يودع لديهم من ماله؛ لأنه يشعر ويدرك أثر تعطيل دور الإصلاح في تنافر القلوب وضعف المودة الاجتماعية إلى أبعد الحدود.

٤ - العفو ومقابلة الإساءة بالإحسان:

فالمشاكل الاجتماعية بين الأفراد إنما تبدأ بخطأ من طرف أو شخص، فإذا قوبل الخطأ بتصرف من جنسه كردّ فعل عليه، ترسّخت المشكلة وتعمّدت، لذلك نجد أبا عبد الله يدعو في تربيته الاجتماعية إلى العفو والصفح عن المسيئين، ويعتبر أن مقابلة الإساءة بالإحسان من أهم الأساليب المتبعة لعلاج الخصومات وإطفاء ثورة النزاعات.

فرغم أن من حقّ المظلوم أن يعاقب على السيئة بمثلها - وفق مقتضى العدل - إلا أنّ الأخلاق الإسلامية توصي بالعفو والمغفرة، من غير تشجيع على الظلم والتمادي فيه؛ لأن مرتبة الإحسان أعلى وأرفع، وبها يصل الفرد إلى مستوى لا تمنعه معه الإساءة الشخصية من فعل الخير إلى المسيء؛ لأنه إنما يفعله ابتغاء مرضاة الله.

وعلى هذا الأساس يستنكر الإمام الصادق وجود الحقد في قلب المؤمن بقوله: «حقد المؤمن مقامه، ثم يفارق أخاه فلا يجد عليه شيئاً»^(٣).

فعندما يصل المرء إلى مرحلة دفن الحقد مباشرة وعدم ترك أي أثر منه في النفس على الشخص المسيء، فإن العفو سوف يسهل عليه وستكون خطواته الأولى في مسيرته الحصول على مكارم الأخلاق؛ لأن مقابلة السيئة بالحسنة، هو أقصى ما يصل إليه من صفاء في النفس ينعكس على تصرفاته ومواقفه، وقد تبلور هذا في وصية الصادق إلى عبد الله بن جندب بن جنادة^(٤) حيث قال له:

(١) سعيد بن بيان أبو حنيفة الكوفي سمي سائق الحاج لأنه يسوق الحاج من الكوفة، حدث عن الإمام الصادق، توفي سنة ١٤٨ (محسن الأمين، أعيان الشيعة ٢٣٤/٧).

(٢) الكاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢١١.

(٤) عبد الله بن جندب البجلي: عربي، كان من أصحاب الإمام الصادق والإمام موسى بن جعفر - رضي الله عنهما (الخوئي، معجم الرجال، ١٠/١٤٩).

«يا ابن جندب، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأحسن إلى من أساء إليك، وسلم على من سبك، وانصف من خاصمك، واعفُ عمن ظلمك كما أنك تحب أن يعفى عنك، فاعتبر بعفو الله عنك، ألا ترى أن شمسهُ أشرقت على الأبرار والفجار، وأن مطره ينزل على الصالحين، والخاطئين»^(١).

فالإمام في قوله هذا يتمثل بالآية الكريمة: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢) بمصاديقها في واقع الحياة، ويركز على محور الإحسان الذي يغرس المحبة ويزيل آثار الإساءة من القلوب، فأداء الإحسان لا يدفع الخصومة فحسب، بل يحول المسيء إلى محب، كما أشار الإمام إلى هذه الجبلة في الإنسان بقوله: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»^(٣).

وهكذا نتقن أن الإمام عمل في رسالته التربوية على مستويين في وقت واحد؛ فهو في حين عمل على إزالة التناقضات الاجتماعية من الساحة، فقد عمل في الوقت نفسه على القضاء على منبع تلك التناقضات من النفس الإنسانية التي يتقاسمها الهوى والإيمان.

كذلك هذه المشاريع كلها هي نماذج من الوعي الاجتماعي الذي سعى الإمام الصادق إلى ترويجه في المجتمع والتي تربّي الفرد وتعدّه روحياً وأخلاقياً وثقافياً لبيني مجتمعاً صالحاً يسوده الخير والحبّ والوئام.

(١) باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٢) سورة فصلت، جزء من الآية ٣٤.

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤١٩، ح ٥٩١٧.

الفصل الخامس

التربية الاقتصادية والمهنية في مدرسة الصادق

المبحث الأول : البناء الاقتصادي

المبحث الثاني : البناء المهني

تمهيد

تعتبر التربية الاقتصادية والمهنية جزءاً من منظومة التربية الإسلامية، لا ينفصم عنها طبقاً للفهم الصحيح للإسلام، الذي يشمل كل نواحي الحياة. فقد عنيت هذه التربية بالنشاط الاقتصادي النافع وجعلت الكسب الطيب جزءاً لا يتجزأ من الإيمان والتقوى، ونهت الإنسان عن الاستكانة إلى الفقر ما دام في مقدوره أن يتخلص منه ويرتقي إلى مراتب الاكتفاء والغنى، ذلك لأن الله تبارك وتعالى خلق كل الخيرات في الكون وجعلها في خدمة الإنسان:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾^(١).

كما يحث كل فرد مسلم على العمل واستصلاح الموارد الطبيعية لتحسين أسباب العيش وتحقيق التقدم ونشره في المجتمع.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(٢)

فالإسلام لا يعارض الدافع المادي للعمل والكسب وتأمين المعيشة، بل إنه يتمشى مع ذلك ويمتاز عن غيره من الأنظمة الفكرية والمجتمعية في أنه جعل الاحتراف شعييرة من الشعائر التعبدية، مما شكل حافزاً للمسلمين للاشتغال بالمهن المختلفة.

على هذا الأساس، فإن التربية الاقتصادية في الإسلام تعلم الإنسان كيف يتصرف شؤونه الاقتصادية جاعلاً نصب عينيه علاقته بالله. فالإنتاج والتوزيع والاستهلاك لا بد أن يبنى على المعرفة الصحيحة والتطبيق السليم للتعاليم الإلهية.

ومن هنا هذه التربية تمثل المجال الحيوي الذي يتجلى فيه اهتمام الإسلام بالجانبين الروحي والمادي معاً، كما إن التربية المهنية تمثل المجال الذي يخلق الحضارة الإسلامية من خلال عديد من المهن والحرف، وكسب الخبرات والمهارات اللازمة فيها مع مراعاة احترام المبادئ الأخلاقية.

إن الإمام الصادق كمفكر تربوي كان يمارس هذا اللون من التربية، المؤسسة على تنمية الوعي الاقتصادي والمهني للفرد المسلم فهو لم يغفل قيمة الجانب المعيشي

(١) سورة لقمان جزء من الآية ٢٠.

(٢) سورة الملك، الآية ١٥.

باقتصادياته وضروراته في حياة الفرد وحياة الجماعة . بل كرس جانباً كبيراً من خطابه للدعوة إلى مكافحة التخلف وتنمية الإنتاج وتوظيف الطاقات ومكافحة البطالة وتشجيع الفرد نحو الحرف والمهن الطيبة واعتبار ذلك عملاً عبادياً وجهاداً مقدساً، هذا إلى جانب اهتمامه بتربية المستهلك الواعي الذي يدرك دور المال في حياته ووظيفته الاجتماعية، بوصفها وسيلة إلى أهداف أسمى، أبرزها ابتغاء مرضاة الله جلّ شأنه فيتحقق بذلك سعادة البشر في الدارين الدنيا والآخرة .

وستتناول في هذا الفصل تعاليمه ومناهجه التربوية في هذا الصدد إن شاء الله .

المبحث الأول

البناء الاقتصادي

- مفهوم الاقتصاد وأهميته
- الجانب الاقتصادي في فكر الإمام التربوي
- تربية المسلم الاقتصادية في المجال المعرفي
- تربية المسلم الاقتصادية في المجال السلوكي

المبحث الأول

البناء الاقتصادي

مفهوم الاقتصاد وأهميته :

أصل «الاقتصاد» مأخوذ من كلمة «قصد»، والقصد في الشيء هو الاعتدال والتوسط فيه، وهو مرحلة بين الإفراط والتفريط، يقال: «فلان مقتصد في المعيشة» أي متوسط فيها^(١)، وعلم الاقتصاد هو «العلم الذي يدرس النشاط الإنساني في سعيه لإشباع حاجاته المتعددة بواسطة الوسائل النادرة ذات الاستعمالات المختلفة»^(٢).

وعلى هذا الأساس، قام علماء معاصرون بدراسة هذا العلم، نظراً لأهميته المباشرة وتأثيره العميق في جوانب حياة الفرد والمجتمع، ولما يقدمه من حلول تجاه ما يواجهه الإنسان من مشكلات وما يمرّ به من أزمات. كما إن الحاجات الاقتصادية تحتل المرتبة الأهم في سلّم حاجات البشر على الأرض.

وبما أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بدون غذاء ولا كساء ولا سكن، فنجد أنها حاجات دائمة يجب أن نسعى إلى تحقيقها وتوفيرها؛ لأنها تغطي قسماً كبيراً من نشاطات الفرد والمجتمع، وتشكل في حياة الإنسان علاقات متنوعة ومعقدة.

إنّ الإسلام دين شامل ومنهج متكامل يعالج جميع جوانب حياة الإنسان، ولقد اهتمّ هذا الدين – منذ ظهوره – بالنواحي الاقتصادية، وتراه من خلال الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، يقرّر الأصول الهامة التي تنظم العلاقات الاقتصادية بين الناس، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(٣)، كما

(١) محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس وجواهر القاموس، المكتبة الحية، بيروت، ١٩٩٤، ج ٢، ص ٤٦٦.

(٢) محمد محروس إسماعيل وآخرون، مقدمة في علم الاقتصاد، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ١٥.

(٣) سورة البقرة جزء من الآية: ٢٧٥.

قال تعالى: ﴿كَي لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(١)، وقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢).

وها هو الرسول الأكرم ﷺ يتناول بعض جوانب التربية الاقتصادية الإسلامية فيقول: «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون»^(٣) ويقول ﷺ أيضاً: «من غشنا ليس منا»^(٤).

وورد غير ذلك الكثير من الآيات والأحاديث التي تنظم الحياة الاقتصادية بين أفراد المجتمع.

وعليه، نستطيع أن نعرّف علم الاقتصاد الإسلامي بأنه: «العلم الذي ينظم علاقة الأشخاص بالمال في كسبه وفي إنفاقه وفق مقاصد الشريعة وأحكامها»^(٥). فهو يبحث في كيفية تنظيم النشاط الاقتصادي للأمة الإسلامية أفراداً وجماعات، مما يؤدي إلى اكتساب الحلال وإنفاقه فيما يرضي الله.

من هنا يختلف الاقتصاد الإسلامي في أسسه وفروضه مع الاقتصاد الوضعي تماماً.

فالاقتصاد الوضعي يعتبر أن أساس الأزمات الاقتصادية يعود إلى مشكلة الندرة، وهي عبارة عن ندرة وسائل إشباع الحاجات الإنسانية التي تنشأ عن محدودية الثروات الطبيعية من جهة، وتنامي الحاجات البشرية المرتبطة بازدياد عدد السكان والتقدم الحضاري من جهة أخرى^(٦).

هذا يعني ضالة الثروات المتوافرة بالمقارنة مع حاجات الإنسان، ومن هنا فإن كل نظرية اقتصادية تحاول إيجاد الحل الملائم لهذه المشكلة، كنظرية الرأسمالية أو الاشتراكية مثلاً.

(١) سورة الحشر جزء من الآية ٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٦٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب الحكرة والجلب، ح ٢١٥٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ح ١٠١.

(٥) عبد الحميد محمود البعلي، أصول الاقتصاد الإسلامي، دار الداوي، الرياض، ٢٠٠٠، ص ٢٨.

(٦) تنشأ هذه النظرية من الآراء الاقتصادية لتوماس روبرت مالتس، بأن الزيادة في عدد سكان العالم، تتم كمتتالية هندسية مثل ٢، ٤، ٨، ١٦، أما الموارد الغذائية فإنها تزداد كمتتالية حسابية، مثل ١، ٢، ٣، وقد استنتج أن عدد البشر يتزايد بسرعة أكبر من تزايد الانتاج الغذائي، وأن هذا الوضع سيؤدي لا محالة، إلى تكاثر البشر مما سيفضي إلى المجاعة (محسن كاظم، تاريخ الفكر الاقتصادي، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٩، ص ١٧٢، بتصرف).

أما بالنسبة للنظرية الاقتصادية الإسلامية فإن المشكلة الحقيقية لم تنشأ عن بخل الطبيعة أو عجزها عن تلبية حاجات الإنسان، ولا بسبب ندرة الموارد، لأن الله تعالى خلق الأرزاق كلها لجميع مخلوقاته، فقدّر لها حق قدرها، وبارك فيها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِينَ﴾^(١).

ولو أمعنا النظر في مضمون الآيات السابقة نستنتج أن الله تعالى قد حشد للإنسان في هذا الكون الفسيح كل ما له فيه مصلحة ومنفعة. وقد أشار الإمام الصادق إلى هذا المعنى انطلاقاً من فهمه للقرآن الكريم، فقال مؤكداً: «أن الله عز وجل خلق الخلق وخلق معهم أرزاقهم حلالاً طيباً»^(٢)، فتراه من خلال كلامه يرفض الإقرار بمشكلة الندرة المذكورة، ويصرّح بأن الله تعالى وقرّ للإنسان في هذا الكون الموارد الكافية التي تساعده على استمرار حياته من خلال تلبية احتياجاته المادية.

إذاً، المشكلة قبل كل شيء، هي مشكلة الإنسان نفسه، فأنايته وحبّه المفرط للمال، وغلوّه في هذا الحب أحياناً، يقوده إلى سوء استخدام الثروات، وسوء تنظيمه الاقتصادي في توزيعها، وحرمان الآخرين، مما يؤدي إلى اضطراب أنظمة الحياة المعاشية للبشر في كل زمان ومكان مهما تغيرت الظروف؛ وهذا هو السبب الأكثر أهمية لكثير من مشكلات الإنسان الحياتية بصورة عامة، والاقتصادية بصورة خاصة وهذا الأمر بالذات هو ما أشار الصادق في كلامه:

«... فالأمطار هي التي تطبق الأرض... وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤونة سياق الماء من موضع إلى موضع، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم، حتى يستأثر بالماء ذوو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء»^(٣). «فظلم الإنسان في حياته العملية وكفرانه بالنعمة الإلهية هما السببان الأساسيان للمشكلة الاقتصادية في حياة الإنسان»^(٤)

ولا يمكن إيجاد ما يسمى بالحلول الاقتصادية إلا بإصلاح نفوس الناس وعقائدهم. فبمجرد تفسير المشكلة على أساس إنساني يمكن التغلب عليها بإعادة تربية

(١) سورة فصلت، الآية ٩ - ١٠.

(٢) الكليني، فروع الكافي، ج ٥ باب الإجمال في الطلب، ص ٤.

(٣) كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٤) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٠٧.

الإنسان وصياغة مفاهيمه ونظرته إلى المال والمنفعة، وتصحيح سلوكه في الكسب والإنفاق ليتناسب مع النهج الإلهي.

ولذا فإن «المدخل إلى علم الاقتصاد الإسلامي هو مدخل تربوي سلوكي يضع قواعد السلوك الصحيح ويشارك في التربية عليها»^(١).

ومن هنا تظهر ضرورة التربية الاقتصادية للمسلم، فهي جزء من التربية الإسلامية الشاملة لتحقيق الحياة الكريمة التي تعينه على عمارة الأرض وعبادة الله عز وجل.

(١) محمد قطب، حول التأصيل للعلوم الاجتماعية، دار الشروق، بيروت ١٤١٨، ص ١٤٧.

الجانب الاقتصادي في فكر الإمام التربوي

إن القضايا الاقتصادية تعتبر عصب الحياة في المجتمع الإنساني، والتربية في هذا الصدد ينبغي أن تصبح أحد العناصر الأساسية في التوعية وفي نشر الثقافة بين الجمهور.

وعلى هذا فإن التربية الاقتصادية تهدف إلى «تشكيل السلوك الاقتصادي للمسلم المنبثق من تكوينه الشخصي إيماناً وخلقياً وثقافياً، من خلال تزويده بالثقافة الفكرية وبالخبرات العملية والاقتصادية، بما يتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية»^(١).

فهذه التربية واجبة في كل مراحل الحياة، منذ الطفولة حتى الشيخوخة، وفق مقررات معينة تناسب كل مرحلة، إذ إنه لا يمكن الفصل بينها وبين التربية الإسلامية.

وقد اهتم الإمام الصادق كعالم تربوي بهذا الجانب اهتماماً كبيراً، فكانت له كلمات مضيئة ذات طابع اقتصادي يضيف على منهجه التربوي مزيداً من المصداقية والفعالية، ومما قاله في ذلك: «ثلاثة أشياء يحتاج الناس طرّاً إليها: الأمن، والعدل، والخصب»^(٢).

فالتأمل في كلامه يجد أن الإمام يعتبر تأمين الحاجات والمتطلبات المادية والمعيشية هي من المستلزمات الأولية لحياة كل مجتمع واستمرار بقائه.

فهو يرى أن الخصب واتساع الرزق يقترن بتحقيق الأمن والعدل من ناحية، بكثرة الموارد وتوفرها وبالعمل الذي يستثمر تلك الموارد استثماراً طيباً من ناحية أخرى.

وهذا التعليم مقتضاه أن الناس إذا لم ينالوا ما يحتاجون إليه، فإن أيّ إصلاح أو وعظ أو تثقيف لن يؤتي أكله في حملهم على تعديل سلوكهم. فإقامة العدل الاجتماعي والاقتصادي من أهم الأمور المؤثرة في الحركات البناء. وهذا واضح لدى كل من له إلمام بواقع حياة الناس وطبيعة المجتمع.

(١) حسين شحاتة، أصول منهج التربية الاقتصادية في الإسلام، مجلة الاقتصاد الإسلامي، دبي، ١٤٢٦ عدد ٢٩٥، ص ٣١.

(٢) الحراني، تحف العقول، ص ٣٢٠.

إضافة إلى ذلك، فإن الإمام يرى العلاقة الجدلية واضحة بين الأزمات الاقتصادية والأخلاق وسلوك الأفراد، فيؤكد ما يراه قائلاً: «غلاء السعر يسيء الخلق ويذهب الأمانة ويضجر المرء المسلم»^(١).

فلا يستطيع عاقل أن ينكر تأثير القضايا الأخلاقية إلى حد كبير بالعوامل الاقتصادية، ولا يمكن تجاهل مثل هذه العلاقة على ضوء هذه الحقيقة التجريبية الحسية و«من الصعوبة بمكان المحافظة على القيم الأخلاقية كالشهامه والصراحة والصدق والأمانة واستقلال الشخصية بالنسبة للفرد الجائع».

فليس بالضرورة أن يلجأ الجائع إلى الكذب والغش والخداع، غير أنه يكون أكثر استعداداً من غيره للوقوع في حبال هذه الأمراض الاجتماعية، والتعرض للانحرافات الخلقية وفقدان الإيمان^(٢).

من هنا يعتبر الصادق أن الفقر الاقتصادي قد يكون باعثاً على ارتكاب الذنب، كما أن الغنى المادي قد يصبح عاملاً مساعداً على التقوى والصلاح، فيقول: «غنى يحجزك عن الظلم خير من فقر يحملك على الإثم»^(٣).

وعلى صعيد آخر، يرى الإمام الصادق علاقة وثيقة بين قيام المجتمع الإسلامي ودوامه، وبين النظام الاقتصادي السائد فيه، فيتمثل ذلك قائلاً:

«إن من بقاء المسلمين وبقاء الإسلام، أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف. وإن من فناء الإسلام وفناء المسلمين، أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق ولا يصنع فيها المعروف»^(٤).

وهو يؤكد بأن ثروات الأمة إن كانت بيد الذين يعرفون الحق في الأموال ولا يسيئون استخدامها، وينفقونها في وجوه البر بما يعود بالخير على كل الناس وعلى جوانب حياتهم المختلفة، سواء المادية والروحية والفردية والاجتماعية، ووفقاً لمنهج الله تعالى، فهذا يؤدي إلى حياة المجتمع وعزته وبقائه.

أما إن كان المال بيد أناس لا يعرفون حق الله تعالى في إدارة المال ويعتبرونه غاية، ويسعون وراء الحرية في الاستغلال والملكية، ويسوغون لأنفسهم التكاثر والاحتياز، فإن هذا سوف يؤدي إلى فساد المجتمع وسقوطه وهلاكه.

(١) الكليني، فروع الكافي، باب الأسعار، ج ٥، ح ٦.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي، الخطوط الأساسية للاقتصاد الإسلامي، دار الصفوة، بيروت، ١٩٩٤، ص ٢٩، (بتصرف).

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ١٦٦، ح ٣٦١٤.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٥٢١.

وفي إطار هذا التعليم ثمة إرشادات موجهة لا ينبغي أن نمرّ عليها غير مدرّكين لأهميتها، ومنها:

١ - ليس مقدار المال من حيث القلة والكثرة هو المعيار الباتّ للمصالح والمفاسد الاجتماعية، ولتركيز العدالة وإقامة القسط، بل المعيار هو كيفية جريان المال في الأيدي وتداوله بين الأفراد، فبقاء المجتمع وفناؤه يرتبط بأصحاب الثروات، وكيفية إدارتهم لها، ومن هنا يأتي التركيز على العامل الإنساني في القضايا الاقتصادية.

٢ - عبارة «يعرف فيها الحق»، توحى بضرورة المعرفة والاختصاص في المسائل الاقتصادية، والخبرة بالأمور المتعلقة بالأموال، والاطلاع على نظرة الإسلام إلى المال وحقوقه، والعلم بأشكال تداوله بين الناس.

٣ - عبارة «يصنع المعروف»، يتوقف فيها على وضع الأموال في مواضعها الإلهية ورعاية العدالة والحق فيها، أي السلوك الاقتصادي الرشيد الذي يرضى عنه الله، وإنما قدّم في الحديث قوله: «يعرف فيها الحق» على قوله: «يصنع المعروف» للتدليل على أن الأساس الأهم في الأمور الاقتصادية - كسائر الأمور - هو تقديم الخبرة والمعرفة على السلوك والتطبيق، إذ إن التجاوز عن صنيع المعروف في كثير من الأحيان يعود إلى عدم العلم والمعرفة الواعية.

ومن ثم فإن الإمام في منهجه التربوي يرى في التغيير الفكري والنفسي والسلوكي في الأفراد، تمهيداً لبناء المجتمع الإنساني الذي يقوم على القسط والعدل الاقتصادي.

فهو يرسم خطة تربيته الاقتصادية على أساس خطوتين:

* الخطوة الأولى: تتجه إلى مجال النظرة والتصور.

* الخطوة الثانية: تتجه إلى مجال التطبيق والسلوك.

وفيما يلي عرض لأهم تعاليم الإمام الصادق الاقتصادية، نستخلصها في البحوث التالية إن شاء الله.

تربية المسلم الاقتصادية في المجال المعرفي

ينطلق الإمام الصادق في منهجه التربوي إلى تكوين معرفة صحيحة لدى الفرد؛ لأن هذه المعرفة هي مادة الحركة الإنسانية ووقودها، ولا شك بأن سلوك الإنسان ونشاطه نابع من النظام الفكري القابع في عقله وباطنه، وبالتالي فإن المحتوى الفكري لدى الإنسان إذا لم يبن على أسس سليمة فإنه سينعكس سلباً على تصرفاته، ولن يكون صالحاً أو مؤهلاً لأن يصبح إنساناً سوياً ناجحاً في مسيرة حياته.

ومن هنا فإن الإمام يعتمد في منهجه التربوي الاقتصادي على تصحيح نظرة أفراد المجتمع إلى المال وكل ما يتعلق به، على أساس معطيات الكتاب والسنة.

ويبدو أن معظم النشاطات الاقتصادية والمعيشية للفرد تنشأ من نظراته إلى الثروة. وتقويم هذا التصور سوف يؤدي بلا شك إلى محاولة إنشاء السلوك السليم، أو بمعنى آخر، فإن تنظيم الحياة الاقتصادية للفرد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنظراته الشاملة والمتكاملة إلى المال.

فالمال هو عصب الحياة الاقتصادية، إذ إن الإنسان يستطيع من خلاله تحقيق الخير والرفاهية له ولأسرته ولأفراد المجتمع الذي يعيش فيه. «وهو بالنسبة للفرد وسيلة لإشباع الحاجيات وبالنسبة للمجتمع وسيلة التنمية ومصدر القوة»^(١).

انطلاقاً من هذا المفهوم، فقد عنيت مدرسة الإمام الصادق بهذا الأمر في المجتمع، وأولته اهتماماً بالغاً، وذلك من خلال التركيز على نواح عدة تبيين كل منها بعداً خاصاً لهذا التصور، منها:

أ - تعميق مفهوم المال والملكية :

* حقيقة المال :

إنّ المال في الأصل: «ما يملك من الذهب والفضة ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان»^(٢) وسمي المال مالاً لميل النفس إليه.

(١) أمين زغلول، المال واستثماره في ميزان الشريعة، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٩.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار المعرفة، بيروت، ج ٢، ص ٦٨٩.

أما المفهوم الاقتصادي للمال فإنه يعدّ كل ما ينتفع به على أي وجه من وجوه النفع مالاً، كما أنه يعد «كل ما يقوّم بثمن مالاً، أيّاً كان نوعه، وأيّاً كانت قيمته»^(١). وقد بيّن الإسلام أنّ الله جل ثناؤه هو المالك الحقيقي لكلّ ما في السموات والأرض، كما يتضح من قوله عزّ وجلّ:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

لذا، فإن كل ما يسمى المال هو مال الله وما يؤتاه الإنسان في حياته إنّما هو جزء من مال الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾^(٣).

ومن ثم فإن ملكية الإنسان للمال ليست ملكية أصلية وحقيقية، بل هو مستخلف من الله في تملك المال كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾^(٤)، فقد اقترنت الدعوة القرآنية إلى الإنفاق بالتذكير بمعنى الاستخلاف على المال لئلا يظنّ المالك أن حقه في المال حق ثابت دائم مطلق.

وعلى هذا الأساس فقد ركّز الإمام الصادق على هذا المبدأ الأساس في منهجه التربوي لكي تستقيم نظرة تلاميذه إلى المال، فهو يعبر عنها تارة بالوديعة في قوله:

«إن المال مال الله جعله ودائع عند خلقه»^(٥)

وتارة بالعارية كقوله: «إجعل مالك كعارية تردّها»^(٦).

ويظهر لنا مدى تركيز الإمام على ترسيخ هذا التصور في نفوس الناس، عندما اعتبره جزءاً من حقيقة العبودية، في قوله:

«حقيقة العبودية ثلاثة أشياء، الأول أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكاً لأن العبيد لا يكون لهم ملك يرون المال مال الله، يضعونه حيث أمرهم الله به...»^(٧)

من خلال هذا المفهوم الرائع يربّي الإمام الفرد المسلم على أصل هام، وهو أن الإنسان ليس مستقلاً في امتلاكه ولا حرّاً بتصرفه في المال بغير إذن صاحبه الحقيقي، أو بخلاف مراده ومقصوده ومشيّته ومطلوبه، لأنه عبد لله ومستخلف في مال الله.

(١) عبد الكريم الخطيب، السياسة المالية في الإسلام، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت، ص ٢٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨٩.

(٣) سورة النور، جزء من الآية ٣٣.

(٤) سورة الحديد، جزء من الآية ٧.

(٥) محمد بن مسعود السمرقندي، التفسير العياشي، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣.

(٦) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤١٠، ح ٥٨٩٢.

(٧) زين الدين بن علي العاملي، منية المرید في آداب المفيد والمستفيد، مرجع سابق، ص ١٤٩.

و «هذا التصور الإسلامي الخاص لجوهر الملكية متى تركز وسيطر على ذهنية المالك المسلم، أصبح قوة موجهة في مجال السلوك وقيداً صارماً يفرض على المالك التزام التعليمات والحدود المرسومة من قبل الله عز وجل، كما يلتزم الوكيل والخليفة دائماً بإرادة الموكل والمستخلف»^(١).

ويؤكد الإمام هذه النظرة الاستخلافية في طريقة امتلاك الأموال وكيفية إنفاقها بقوله:

«لو أنّ الناس أخذوا ما أمرهم الله عز وجلّ به فأنفقوه في ما نهاهم الله عنه ما قبله منهم، ولو أخذوا ما نهاهم الله عنه فأنفقوه في ما أمرهم الله به ما قبله منهم حتى يأخذوه من حقّ وينفقوه في حقّ»^(٢).

ويقصد الصادق من هذا التوجيه أن تصرّف الإنسان الاقتصادي كسباً وإنتاجاً وإنفاقاً - محكوم بإرادة المالك الحقيقي، وهو الله، أي أنه مقيد بأوامره ونواهيه، وأن حسابه على هذا التصرف واقع لا محالة، كما أن الإيمان بهذا الأمر «يقلل من تكالب الإنسان المسلم على المال ويهذب نفسه ويجعله يراقب الله أثناء كسب المال وحين إنفاقه له، فيصبح المال بذلك نعمة ووسيلة لإسعاد الإنسان»^(٣). وليس نقمة ووسيلة إلى شقائه في دنياه وأخراه وهذا ما يهدف إليه الدين الحقّ.

* حقيقة الملكية:

إن ملكية الله لكل شيء، لا تعني حرمان الإنسان من جهده أو منعه من التصرف في ما يحصل عليه نتيجة جهده وعمله، بل إن الملكية الفردية حق أساس ثابت وواضح في الإسلام، كما أن الاستخلاف يجيز التملك والانتفاع، منعاً من الاعتداء والظلم وبغى الناس بعضهم على بعض.

ورغم أن المال لله تعالى والناس خلفاؤه فيه، إلا أن الشارع الكريم يسمي الإنسان مالكا ويعده صاحبا له باعتبار أنه المتسبب في تحصيل المال وجمعه، ولم يغفل الحق - تبارك وتعالى - مجهود الفرد وحق الانتفاع به في هذا الصدد، فنسب القرآن الأموال إلى الناس فقال جلّ من قائل: ﴿لِيَأْكُلُوا مِمَّا كَسَبُوا بِأَيْدِيهِمْ وَلَا يَكُونُوا رِجَالًا أَمْشِيَ بِالنَّاصِيَةِ﴾^(٤)، وأقر بملكية الإنسان استجابة لغريزة حب المال في فطرته: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾^(٥).

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، مرجع سابق، ص ٥٦٤.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٧.

(٣) عبد النعيم حسنين، الإنسان والمال، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٦، ص ١٦١.

(٤) سورة التوبة، جزء من الآية ٣٤. (٥) سورة الفجر، الآية ٢٠.

ثم إن حماية الملكية تنمي في المسلم شعوراً داخلياً بالأمان وهو يرى الجميع يتجافى عن الظلم والغصب والعدوان^(١).

ولقد أعطى الإسلام الفرد حقوقاً كاملة من ملكيته تقابل بها المسؤولية عن كل تصرف فيه؛ «لأن المال في نظر الإسلام له وظيفة اجتماعية والتصرف به، كسباً وإنفاقاً، مرهون بتحقيق تلك الوظيفة للفرد والأمة على حد سواء»^(٢).

فلا يجوز للمالك أن يحول دون أداء الأموال لدورها الاجتماعي عن طريق الاكتناز أو الإشراف أو منع المجتمع من حقه فيها، وعلى هذا فكلما ازدادت دائرة الامتلاك ازدادت حدود المسؤولية، وقد سعى الإمام الصادق إلى لفت أنظار تلاميذه إلى هذه الصلة الوثيقة حتى يبين لهم حقيقة الملكية ومفهومها في الإسلام، فقال: «ما كثر مال الرجل قط إلا عظمت الحجة لله تعالى عليه، فإن قدرتم أن تدفعوها عن أنفسكم فافعلوا»، وعندما سئل بماذا؟ قال: «قضاء حوائج إخوانكم من أموالكم»^(٣).

وهكذا يركز أبو عبد الله في نفوس أبناء المجتمع أن المالك يجب أن يصرف جزءاً من ماله على المجتمع ومرافقه؛ لأن سعة المال تفضي بالمالك إلى مزيد من التبعات والمسؤوليات، وقد لا يتم أداء هذه التكاليف إلا باتباع أوامر الله فيها، ومن أهمها: قضاء حوائج الناس.

* دور المال في حياة الإنسان:

ورد ذكر المال في القرآن الكريم ستاً وثمانين مرة^(٤)، مفرداً وجمعاً، ومعرفاً ومنكراً، ومضافاً وغير مضاف... ولا ريب أن تكرار لفظ المال على هذا النحو في القرآن دليل على اهتمام القرآن به، وتقديراً لآثاره في الحياة.

ومن البديهي أن الإنسان لن يتمكن من تحقيق العيش الهادئ المطمئن في الحياة والتوصل إلى الأهداف المنشودة من خلق العالم وأداء رسالته وتعميره الكون وارتقائه في سلم الرقي والتحضّر إلا بالمال^(٥).

(١) مصطفى رجب، حماية الملكية في النظام الإسلامي وأبعادها التربوية، مجلة الاقتصاد الإسلامي، دبي، عدد ٢٩٠، ١٤٢٦، ص ٤٩.

(٢) رفعت السيد العوضي، في الاقتصاد الإسلامي، سلسلة الكتاب الأمة، مؤسسة الخليج، قطر، ١٤١٠، عدد ٢٤، ص ١١.

(٣) الطوسي، الأمالي، ص ٣٠٩.

(٤) فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس للقرآن الكريم، مادة مال ومشتقاتها.

(٥) وهبة الزحيلي، مفهوم المال والاقتصاد في الإسلام، مجلة نهج الإسلام، دمشق، ١٩٩٢ عدد ٤٩، ص ٢٤، (بتصرف).

وعندما يدرك الفرد وظيفة المال والغرض المنشود منه في الحياة، ينظم نشاطاته الاقتصادية وفقاً له.

ولذا فقد أكد الإمام الصادق في تربيته الاقتصادية بوجه عام، وفي مجال تصحيح النظرة المعرفية بوجه خاص على دور المال في حياة الإنسان. وقد تناولت التعابير التي أوردها الإمام الجانبيين السلبي والإيجابي للمال، ليتمكن الإنسان من الاطلاع على مضاره وفوائده، فيمكنه أن يحترز من شره ويستدرّ من خيره... فقد عرّف المال بما يلي:

أولاً

المال قوام الدين والعون على الآخرة

لقد عبر الإمام الصادق عن المال بقوام الدين، ونهى عن تضييعه وإهماله، كما أوصى واحداً من تلاميذه: «احتفظ بمالك فإنه قوام دينك»^(١) ثم يستدل بالآية الشريفة:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾^(٢).

ولأنه يؤمن بصلة وثيقة بين الدنيا والآخرة، فإنه يرى أن إنفاق المال في الاستعانة على العبادة وفي سبيل النفس والعيال يعدّ طلباً للآخرة.

«قال له رجل: إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها. قال الإمام: ماذا تحب أن تصنع بها؟ فقال الرجل: أوسع بها على نفسي وعيالي، وأصل بها قرابتي، وأتصدق وأحج وأعتمر. فقال: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»^(٣).

فبهذا الفهم السديد يوجّه الإمام الأمة إلى تعميق الفهم لوظيفة المال كونه عوناً لطلب الآخرة ووسيلة يستقوي بها على غرائزه ونزواته، كما يتقوى بها على طاعة ربه وعبادته، ويفسح المجال أمام كل مواهبه وطاقاته للنمو والتكامل.

ثانياً

المال قوام الدنيا وتحقيق السعادة فيه

يرى الإمام أن المال قوام الدنيا، وبه يحقق الخير والعدل، ولذا فسّر قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾^(٤)، ويظفر برضوان الله والجنة في

(١) الطوسي، الأمالي، ج ٢، ص ٢٩٢.

(٢) الطوسي، الأمالي، ص ٦٦٢.

(٣) سورة النساء، جزء من الآية ٥.

(٤) سورة البقرة: جزء من الآية ٢٠١.

الآخرة، والسعة في الرزق والمعاش وحسن الخلق في الدنيا^(١).

فمنظرة الإمام إلى المال نظرة واقعية، لا ينكر فيها أثره في توفير كفايته المعاشية والمكاسب المادية وكل ما يحتاجه الإنسان في حياته، فتراه يقول في شأن الدنانير والدراهم وما على الناس فيها: «هي خواتيم الله من أرضه جعلها مصحة لخلقه وبها تستقيم شؤونهم ومطالبهم»^(٢).

فهو لا يجعل الثروة هدف الحياة وغايتها، بل إنه ينظر إليها على أنها ذريعة للحياة ومصحة للناس، كما يشير إلى أن فقدان المال يؤثر تأثيراً سلبياً على العيش والعقل والقلب، وذلك من خلال قوله: «خمس خصال من فقد واحدة منهم لم يزل ناقص العيش، زائل العقل، مشغول القلب...» وذكر منها «الغنى والسعة في الرزق»^(٣).

ثالثاً

في المال اطمئنان النفس وراحتها

يرى الإمام «أن النفس قد تلتاث^(٤) على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما يعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت»^(٥).

وقد عبّر الإمام عن المال بما يُعتمد عليه، لأن الناس يعتمدون عليه في قضاء حوائجهم في الحضر والسفر، فلذا يؤكد على ضرورة صيانتها، قال له رجل:

«يكون معي الدراهم فيها تماثيل وأنا محرم فأجعلها في همياني^(٦) وأشدّه في وسطي؟ فقال: لا بأس، أوليس هي نفقتك وعليها اعتمادك بعد الله عزّ وجلّ^(٧)؟».

وهذا يظهر أن الاعتماد على الله في كل الأمور أمر مسلّم به، إلا أن هناك وسائل تسهم في تحقيق هذه الحاجات والحصول عليها، والمال هو إحدى هذه الوسائل التي سخرها الله لنا ودعانا للحفاظ عليها وعدم إهمالها حتى في وقت الإحرام في الحج،

(١) الصدوق، معاني الأخبار، ص ١٧٥.

(٢) الطوسي، الأمالي، ج ٢، ص ٥٢٠.

(٣) الصدوق، الخصال، ص ٢٨٤.

(٤) أي: تبطئ، وقال ابن الأثير: هو من اللوثة: الاسترخاء والبطء، (النهاية في غريب الحديث، مرجع سابق، ٦١٨/٢).

(٥) هذه مقولة لسلمان الفارسي التي احتجّ بها الإمام الصادق على الصوفية، الحراني، تحف العقول، ص ٣٥١.

(٦) هميان أي كيس النفقة، جمعه هماين.

(٧) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٨٠، ح ٢٤٤٩.

فبيّن الحكم الشرعي فيها وجواز حملها والاهتمام بها نظراً لأهميتها.

رابعاً

المنافع الاجتماعية للمال

المال في رأي الإمام سبب للشرف والعلو في المجتمع، يستغني به صاحبه عن الآخرين، فقال: «عليك بإصلاح المال، فإن فيه منبهة»^(١) للكريم واستغناء عن اللئيم»^(٢).

ويؤكد الإمام على طلب المال والسعي إلى زيادته لما فيه من الخير للفرد والمجتمع، فيقول: «لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال، يكفّ به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه»^(٣).

فكفّ الوجه وقضاء الدين يعني سدّ الحاجة من خلال الاعتماد على الجهد الشخصي وعدم اللجوء إلى مساعدة الآخرين، وصلة الرحم هي إعطاء ذوي الحاجة من رحم الإنسان في المجتمع مما توفر لديه من الثروة، وتحقيق التكافل الاجتماعي الذي يسعى الإسلام إلى تحقيقه.

والأمر الذي يجب إمعان النظر فيه هو أن الصادق لم يكنف في مسيرته التربوية بإبراز الدور الإيجابي للمال فحسب، بل إنه حين كشف عن الوجه الجميل للمال، وأظهر لتلاميذه جوانب الحسن منه، كشف أيضاً عن الوجه البغيض له، ذلك الوجه الذي يزين للناس الشرّ ويوقعهم في الفتنة والفساد، كقوله: «إن مع كثرة المال تكثر الذنوب لواجب الحقوق»^(٤).

لذا فقد حذّر الإمام تلاميذه من فتنة المال والإخلاق إلى حبه حباً طاعياً وبيّن لهم آثاره السلبية كي لا يصبحوا عبيداً بل أرباباً له؛ لأن الإنسان إذا لم يكن متيقظاً باستمرار من هذه الفتنة، فسيؤول به الأمر حتماً إلى الهلاك.

هذا ما أراد الإمام غرسه في المسلم - منطلقاً من تعاليم الدين الإسلامي، لتكون لديه نظرة واسعة متكاملة تشمل الوجوه الإيجابية والسلبية للمال معاً، وها هو يعلم تلاميذه ترديد دعاء جدّه الإمام علي بن الحسين زين العابدين الحافل بإبراز هذه الوجوه:

(١) أي: مشعر بقدره ومعل له، لسان العرب، ج ١٣ ص ٥٦٤.

(٢) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب إصلاح المال، ح ٦.

(٣) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٧، ص ٤.

(٤) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، ح ٢١.

«اللهم إني أسألك حسن المعيشة، معيشة أتقوى بها على جميع حوائجي وأتوصل بها في الحياة إلى آخرتي، من غير أن تترفني فيها فأطغى، أو تقتّر بها عليّ فأشقى، أوسع عليّ من حلال رزقك... ثم لا تشغلني عن شكر نعمتك بإكثار منها تلهيني بهجته وتفتّني زهرات زهوته، ولا بإقلال عليّ منها يقصر عملي كده ويملاً صدري بهمه...»^(١).

ب - تصحيح المفاهيم الخاطئة في طلب المعاش :

* الرزق بين التقدير والطلب :

من أهم ما أولاه الصادق اهتمامه في المجال المعرفي هو ترسيخ النظرة الصحيحة في طلب الرزق وكسب المعيشة؛ لأنه يشكل نسبة كبيرة من النشاطات الاقتصادية للفرد.

ونظراً للأهمية المادية لهذا الأمر، توهم بعض المسلمين من بدء الرسالة بأنّ السعي في طلب الرزق يتعارض مع الاهتمام بالعبادات والحياة المعنوية للمسلم، وتبعاً لهذه النظرة الخاطئة، أهملوا السعي في طلب الرزق وأقبلوا على العبادة والعزلة.

وكذلك جرى هذا الأمر في عصر الإمام الصادق أيضاً، فقام الإمام بإزالة هذا التصور الخاطئ وبيّن أنّه لا يجوز ترك العمل بحجة الانقطاع إلى العبادة مثل الصلاة والصوم، فلمّا أخبروه عن رجل قال: «لأقعدن ولأصلين، ولأصومن ولأعبدن الله، فأما رزقي فيأتيني». قال الإمام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم»^(٢).

فلا يجوز الإعراض عن العمل بدعوى التوكل على الله، وانتظار الفرج والرزق منه سبحانه، بل لا بد من السعي إليه، وإلا اعتبر هذا تواكلاً، لا توكلاً، فشتان بينهما، والتوكل لا ينافي العمل والأخذ بالأسباب؛ لأنّ «الإسلام لا يريد من المسلم العزوف عن الحياة الدنيا وطيباتها فهو يأمر بعمارة الأرض واستخراج خيراتها ليكون المسلمون أهل العزّة والسيادة والقيادة»^(٣).

وفي نصوص أخرى نجد الإمام يعمل على تغيير وجهة نظر الناس الخاطئة في هذا الصدد، ليدركوا أنّ العمل عبادة يثاب عليها المرء وعندما سأل عن رجل، فقيل له: أصابته الحاجة. قال: «فما يصنع اليوم؟» قيل: في البيت يعبد ربّه. قال: «فمن أين

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الدعاء للرزق، ح ١٣.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١١٦.

(٣) محمد الدسوقي، دعائم العقيدة في الإسلام، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ١٩٩٠، ص ١٨٢.

قوته؟». قيل: من عند بعض إخوانه. فقال أبو عبد الله: «والله للذي يقوته أشد عبادةً منه»^(١).

فأصبح في ضوء هذا الكلام، العامل الذي يسعى في سبيل رزقه أفضل عند الله من المتعبد الذي لا يعمل إنما يعيش عالة على المجتمع الإنساني.

انطلاقاً من هذا المفهوم، فقد حث الإمام تلاميذه على طلب الرزق عن طريق السعي فيه حتى لا يكونوا عالة على غيرهم، في مثل قوله: «لا تدعن طلب الرزق وإن استطعت أن لا تكون كلاً فافعل»^(٢).

وندرج مدى أهمية هذا الأمر عند الإمام إذ ينهي تلاميذه عن تركه، حتى في الظروف الصعبة بقوله لأحد تلاميذه: «يا هشام إن رأيت الصفتين قد التقيا، فلا تدع طلب الرزق في ذلك اليوم»^(٣).

ويوصي الناس بالضرب في الأرض لطلب الرزق فيقول: «إن الله تبارك وتعالى ليحبّ الاغتراب في طلب الرزق»^(٤).

وفي التطبيق العملي لهذا الشعار النظري نرى بأنه كان يسعى بنفسه لتوفير حاجته من أسباب المعاش؛ وعندما خرج في يوم صائف شديد الحرّ وقيل له: يا ابن رسول الله؟ حالك عند الله عزّ وجلّ وقرابتك من رسول الله ﷺ وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!! فقال لمن أنكر عليه ذلك: خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك»^(٥).

ومما ينبغي أن ننظر فيه بإمعان، أنّ الصادق رغم ترغيبه الشديد بالسعي في طلب الرزق، يتحدث عن تكفل الله بالرزق للناس كقوله: «لو كان العبد في حجر لأتاه الله برزقه فأجملوا في الطلب»^(٦) حيث يشير إلى الرزق المقسوم عند الله قائلاً:

«إن كان الله تبارك وتعالى قد تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا؟... وإن كان الرزق مقسوماً فالحرص لماذا؟. وإن كان الحساب حقاً فالجمع لماذا؟...»^(٧)

غير أنّ الملاحظ لهذا المفهوم في ضوء نصوص الإمام، - للوهلة الأولى - يجد

(١) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب الحث على طلب الرزق، ح ٤.

(٢) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

(٤) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ١٥٦، ح ٣٥٧١.

(٥) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٥٥.

(٦) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب الاجمال في الطلب، ح ٤.

(٧) الصدوق، الأمالي، ص ٥٦.

تناقضاً بين معطياته الفكرية المتعلقة بطلب المال وبين الرزق المقدّر من الله تبارك وتعالى، ولكن الإمام نفسه يبيّن هذا التفاوت ويجمع بين الأمرين فيقول ما نصه ليزيل هذا الإشكال:

«الرزق مقسوم، على ضربين: أحدهما واصل إلى صاحبه وإن لم يطلبه، والآخر معلّق بطلبه، فالذي قُسم للعبد على كل حال آتية وإن لم يسع له، والذي قُسم له بالسعي فينبغي أن يلتزمه من وجوهه، وهو ما أحله الله له دون غيره، فإن طلبه من جهة الحرام فوجده حُسِبَ عليه برزقه وحوسب به»^(١).

إذا فالنوع الأول من أنواع الرزق المقسوم هو ما قدّر من جانب الله تبارك وتعالى، وهو ما يأتي الفرد دون سعيه وطلبه، ورغم وجود الموانع يصل إلى صاحبه. وفي ضوء هذه النظرة، يركّز الإمام في ذهنية تلاميذه بأنهم ليسوا مستقلين في كسب معيشتهم بل الرزق من الله ويتعلق بإرادته، حيث يشير إلى أن الرزق قد يجري بغير حيلة، كقوله: «إن الله تعالى وسّع في أرزاق الحمقاء ليعتبر العقلاء، ويعلموا أن الدنيا ليس ينال ما فيها بعمل ولا حيلة»^(٢).

فقد تجد امرأة كَيِّساً فطناً من أكثر الناس فهماً يفني عمره في طلب قليل من الرزق ولا يتيسّر له ذلك، كما قد نرى أقلّ الخلق عقلاً تنفتح عليه أبواب الرزق، «ولو كان السبب جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أفضل في هذه الأحوال، فلما رأينا أن الأعقل أقل نصيباً وأن الأجهل الأخس أوفر نصيباً، علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى:

﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣).

أما النوع الثاني من أنواع الرزق فمرهون بالسعي والطلب، وهو مضمون لطلبه والذي يجب أن يسعى للحصول عليه عبر مختلف الوسائل المشروعة، وهذا ما بدا واضحاً حينما قال رجل لأبي عبد الله: «ادعُ الله أن يرزقني في دعةٍ فقال: لا أدعو لك، أطلب كما أمرك الله عزّ وجلّ»^(٤).

لقد طلب هذا الرجل من الإمام الدعاء بالرزق مع العافية عن طلبه، والراحة في

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢ ص ٢٩.

(٢) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٣٢٣.

(٣) سورة الزخرف، جزء من الآية ٣٢، فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠، ج ٢٠، ص ٢٤٣.

(٤) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب الحث على الطلب، ح ٣.

حصوله، فأجابه بأنه لا يدعو له بذلك، بل عليه أن يأخذ بالأسباب، فيكدّ ويسعى لكسب لقمة العيش، ولا يكفي الاعتماد على الدعاء.

من هنا نفهم بأن الإمام يرغّب تلاميذه في طلب الرزق، ويشجعهم على السعي لتأمين معيشتهم، توجه بكلامه من خلال الأسباب الطبيعية لكسب الرزق في حين أنه لما نهى عن الحرص والطمع فيه توجه بكلامه إلى الوجه المقدر من الرزق، أي ما قد يحصل عليه الإنسان دون سعي منه إليه.

وهكذا، ومن خلال هذه النظرة الشاملة، يربّي الإمام تلاميذه على اعتماد التوازن بأن لا يفرطوا في الطلب بالحرص والطمع، مقابل عدم ترك السعي والطلب بحجة التقدير الإلهي في الرزق.

من هنا يصبح لازماً على المرء أن يكدّ ويجهّد لكسب معيشته، وألا يترك أي سعي فيها، على رغم اطمئنانه بتكفل الله عزّ وجلّ والتوكل عليه، ويتبلور هذا في تعاليم الصادق حين قال: «لا تدع طلب الرزق من حلّه... واعقل راحلتك وتوكل»^(١).

كما أن الضوابط التي غني بها الصادق ذات العلاقة بسعي الإنسان لجلب الرزق وتحصيل المعاش قد تصل بالفرد إلى حد الاعتدال والاعتزان، فيقول في ذلك:

«وليكن طلبك المعيشة فوق كسب المضيق، دون طلب الحريص الراضي بالدنيا المطمئن إليها، ولكن انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعقّف ترفع نفسك عن منزلة الواهي الضعيف تكتسب ما لا بد للمؤمن منه»^(٢).

* ضرورة الوعي بمؤثرات الرزق:

كما ذكرنا سابقاً، فقد قام الإمام الصادق بتوضيح نظرة الإسلام الشاملة في طلب الرزق، وبذل جهداً كبيراً في تربية الأمة وتنشئتها على الاعتدال والتوازن في هذا الصدد. ولم يقتصر الإمام في نشاطه على هذا الأمر فحسب، بل إنه اهتم بتعليمهم وتذكيرهم بعض السنن الكونية المؤثرة في زيادة الرزق وتقليصه، منطلقاً دوماً من كتاب الله والسنة النبوية الشريفة.

ولو تأملنا في النصوص الواردة عن أبي عبد الله نجد بأنه يؤمن بعلاقة وثيقة بين سلوك الإنسان ومُستوى معيشته، فأطلق في خطاباتاته الكثير مما يشير إلى هذا التأثير للمبادئ الأخلاقية والعبادية والاجتماعية على سعة الرزق أو الحرمان منه. وفيما يلي نشير إلى نماذج مما ورد عنه في هذا المجال:

(١) المفيد، الأمالي، ص ١٧٢.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٣٣.

- في المبادئ الأخلاقية :

ترسم تعاليم الإمام شبكة مترابطة من العلاقة بين السلوك الأخلاقي والرزق المقدر للإنسان، ومنها تأثير الشكر والقناعة وحسن النية على بسط الرزق كقوله :
«من حسنت نيّته زيد في رزقه»^(١)، وقوله : «الشكر زيادة في النعم وأمان من الفقر»^(٢).

كما أشار كذلك إلى تأثير القناعة في سعة الرزق حينما قال مخاطباً أحد تلاميذه :
«يا حمران انظر من هو دونك في المقدرة، ولا تنظر إلى من هو فوقك في المقدرة، فإن ذلك أقنع لك بما قسم لك، وأحرى أن تستوجب الزيادة من ربك»^(٣).
وهكذا أراد الإمام أن يرسخ في ذهنية المسلم بأن الالتزام بالأخلاق الفاضلة له أثر مباشر في تحقيق البركة في الأرزاق وتحقيق الأمن النفسي.
وعلى صعيد آخر فقد اعتبر الإمام ارتكاب الذنوب واستقلال الرزق من موانع الرزق، فقال : «إن المؤمن لينوي الذنب فيحرم رزقه»^(٤). كما قال : «من استقلّ قليل الرزق حرم الكثير»^(٥).

فالذنوب سبب لانقطاع الرزق وحرمان الإنسان من الموارد الطبيعية، فتشتد الفاقة ويعمّ الفقر، فتشلّ الحياة الاقتصادية، كما أن استقلال الرزق قد يؤدي إلى حرمان المسلم من الرزق الذي كان قد هبى له.

كذلك يبين الإمام العلاقة بين ذل السؤال والفقر العاجل فيقول : «إياكم وسؤال الناس فإنه ذل في الدنيا وفقر تعجلونه»^(٦).

- في المبادئ الاجتماعية :

لم يغفل الإمام عن تأثير المبادئ الاجتماعية المتمثلة في أداء حقوق الآخرين في المجتمع، من أداء الأمانة، وحسن الجوار، وإقراء الضيف والصدقة... إلى ما هنالك من قيم ومُثل جعلها الله تبارك وتعالى مفتاح الرزق.
وممّا ورد على لسانه في ذلك، عندما قال له تلميذه: إني لا أتغدى أو أتعشى إلا

(١) الطوسي، الأمالي، ص ٢٤٥.

(٢) الحراني، تحف العقول، ص ٣٥٩.

(٣) الصدوق، علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٥٩.

(٤) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١، ص ٥٨.

(٥) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٧، ص ٢٢٧.

(٦) الكليني، أصول الكافي، ج ٤، باب كراهية المسألة، ح ١.

ومعي اثنان أو ثلاثة، أو أكثر. قال: «فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم. إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير»^(١).

ومن المؤكد أن الصادق لم ينسَ إلزام نفسه وأهل بيته تأدية الحقوق الاجتماعية ويرى في هذا الأمر تأثيراً بارزاً على سعة الرزق كما قال لابنه: «أما علمت أن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الرزق الصدقة»^(٢).

وهو نفسه يستفيد من هذا المفتاح في حال الضيق ويعبر عنها بالتجارة المربحة مع الله، كما قال: «إني لأملق أحياناً فأنا أتاخر مع الله بالصدقة فيربحني وأتسع»^(٣). فهو ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر لأنه يرى العلاج أن يتعامل مع الله بعطائه للفقراء. - في المبادئ العبادية:

إن الله تبارك وتعالى جعل العلاقة بين العبادات وسعة الرزق من سننه الكونية، وانطلاقاً من هذا المفهوم فقد لفت الصادق أنظار تلاميذه إلى هذا الارتباط، كي لا يغفلوه لحظة في سعيهم وجهدهم لطلب المعيشة.

ومما قاله: «لا تتركوا ركعتين بعد العشاء الآخرة، فإنها مجلبة للرزق»^(٤).

وقد يعلم الإمام تلاميذه بعض الأذكار التي تؤثر في صيانة المال، كقوله:

«من أعجب بشيء من أمواله وأراد بقاءه، فليقل: ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٥).

وقد أظهر الإمام تأثير الحج في سعة الرزق عندما قال له أحد تلامذته: إني وُطئت نفسي على لزوم الحج كل عام بنفسي أو برجل من أهل بيتي بمالي، قال: «إن عزمت عليه وفعلت ذلك فأبشر بكثرة المال»^(٦).

نستخلص مما تقدم أن الإنسان حين يشكل إطاره الفكري على هذا الأساس، فإنه ينظر إلى مفاتيح الرزق بنظرة واسعة، شاملة، فلا يكتفي بأخذ الأسباب المادية في حياته الاقتصادية فقط، بل يأخذ بالأسباب المادية والمعنوية معاً، وفي كل نشاطاته، فيجتنب بذلك وقوعه في دائرة الحاجة والحرمان.

(١) الطوسي، الأمالي، ص ٢٣٧.

(٢) الكاظم القرويني، موسوعة الإمام الصادق، ج ٢، ص ٢١٥.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٠٦.

(٤) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ١٠٧.

(٥) نور الدين المرعشي التستري، إحقاق الحق وإزهاق الباطل، مكتبة المرعشي، قم، ١٤٠٦، ج ١٩، ص ٥٣٢.

(٦) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢١٨، ح ٢٢١٥.

ج - تقويم النظرة إلى الربح والكسب :

* التوازن بين الربح المادي والمعنوي :

تهدف كافة الاقتصاديات الوضعية - من رأسمالية واشتراكية - إلى تحقيق النفع المادي وحده لأتباعها، «فغاية النشاط الاقتصادي الرأسمالي هو أن يحقق كل فرد أكبر قدر من الربح والكسب المادي، وغاية النشاط الاقتصادي الاشتراكي هو أن يحقق كل مجتمع أكبر قدر من الرفاهية والرخاء المادي، فالمادة هي الأساس والغاية لذاتها من كافة المذاهب الاقتصادية الوضعية»^(١).

أما النشاط الاقتصادي في الإسلام لا يهدف إلى تحقيق النفع المادي فحسب، بل لتحقيق المنافع المعنوية والروحية التي تحقق السعادة الدائمة للإنسان في الدنيا والآخرة.

من هنا يختلف مفهوم الربح^(٢) في الاقتصاد الإسلامي مع الاقتصاد الوضعي «فقد اتسع مفهومه في الإسلام فيشمل المفهوم الروحي والمادي معاً، ولا ينفصل كل منهما عن الآخر»^(٣).

فإن الإمام الصادق يعترف بأهمية الربح بالنسبة للعمل الاقتصادي ويشجع تلاميذه عليه بما أنه هو الدافع الحقيقي وراء المعاملات التي أقرتها الشريعة الإسلامية على اختلاف أنواع هذه المعاملات وأغراضها على نحو ما ذكره أتباعه فقال: «قلت لأبي عبد الله: إن الناس يزعمون أن الربح على المضطر حرام وهو من الربا فقال: «وهل رأيت أحداً اشترى - غنياً أو فقيراً - إلا من ضرورة؟! قد أحل الله البيع وحرّم الربا واربح لا ترب»^(٤).

هكذا يقوم الإمام نظرة بعض أفراد المجتمع إلى الربح ويذكّرهم بالآية القرآنية التي تفصل بين البيع والربا ويصرّح بأن الربح والسعي وراء حصوله، مشروع، بيد أنه يجب ألا يخرج عن قواعد الشرع الحنيف بما يحقق مصالح الفرد والجماعة معاً.

(١) محمد شوقي الفنجرى، المذهب الاقتصادي في الإسلام، دار عكاظ، الرياض، ١٤٠١، ص ٨٣.

(٢) الربح في علم الاقتصاد هو الفرق بين مجموع نفقات إنتاج سلعة ما، أو مجموع النفقات الضرورية للحصول عليها وبين ثمن بيع هذه السلعة (سميح مسعود، الموسوعة الاقتصادية، شركة المطبوعات للتوزيع، بيروت، ١٩٩٧، ط ٢، ص ٧٩).

(٣) عوف محمد الكفراوي، تكاليف الإنتاج والتسعير في الإسلام، مركز الإسكندرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٤٦.

(٤) الطوسي، استبصار، ج ٣، ص ٧٢، ح ٢٣٨.

ولا نرى جهود الإمام في التشجيع على الربح فحسب، بل نرى اهتمام هذا المفكر التربوي بخلق التوازن القويم بين الاتجاه المادي والروحي من النشاط الاقتصادي والربح الحاصل عنه.

فهو يريد أن يوجّه نظره تلاميذه إلى أن الربح المادي يجب ألا يكون هو الأساس الوحيد في المعاملات وإنما يجب أيضاً مراعاة القيم الأخلاقية مع التراحم والتعاطف ومراعاة الحقوق في المجتمع الإسلامي وهنا يتحقق التلازم والترابط بين الربح المادي والربح المعنوي.

ولتسليط الضوء على تعاليمه البناءة، نقدّم إحدى التطبيقات التي عمل بها الإمام نفسه حتى يرسخ هذه النظرة السليمة في أفكار الناس وعقولهم؛

حيث روي أن أبا عبد الله دعا مولى له، يقال له مصادف فأعطاه ألف دينار، وقال له: تجهّز حتى تخرج إلى مصر، فإنّ عيالي قد كثروا. فتجهّز بمتاع وخرج مع التجار إلى مصر، فلما دنوا من مصر استقبلتهم قافلة خارجة من مصر، فسألوهم عن المتاع الذي معهم: ما حاله في المدينة - وكان متاع العامة -؟ فأخبروهم أنه ليس بمصر منه شيء، فتحالفوا وتعاهدوا على أن لا ينقصوا متاعهم من ربح الدينار ديناراً.

فلما قبضوا أموالهم وانصرفوا إلى المدينة دخل مصادف على أبي عبد الله ومعه كيسان في كل واحد ألف دينار فقال: هذا رأس المال، وهذا الآخر ربح، فقال: «إنّ هذا الربح كثير ولكن ما صنعت في المتاع؟» فحدّثه كيف صنعوا وكيف تحالفوا فقال: «سبحان الله! تحلفون على قوم مسلمين أن لا تبيعوهم إلا ربح الدينار ديناراً! ثم أخذ أحد الكيسين فقال: هذا رأس مالي ولا حاجة لنا في هذا الربح ثم قال: يا مصادف مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال»^(١).

فالإمام لا يسمح لوكلائه بتحقيق الأرباح غير العادية ويمقتهم ويذكّرهم بأن قيمة العمل في هذا السفر لم تكن في نظره كافية لأن يعودوا بالربح الذي ليس من حقه، وهذا في الحقيقة غبن للمشتري.

والواقع أنّ كلام الإمام متفرع من المبدأ الإسلامي العام الذي يحرم الضرر والظلم للبائع والمبتاع سواء بسواء.

ومن البديهي أنّ عرض السلعة عندما يكون منحصراً في فئة معينة أو مجموعة خاصة، ولا يوجد أي منافس له في السوق، فإنه يمهد الأرضية للبائع للسيطرة على الأسعار وبيع سلعته بأكثر حدّ من الربح^(٢).

(١) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب الحلف في الشراء والبيع، ح ١.

(٢) هذا ما يسمى في المصطلح الاقتصادي إحتكار البائع monopoly seller (معجم مصطلحات اقتصادية، ص ١١٠).

ولكن الإمام يعتبر الربح الفاحش في هذه الحالة والذي يتحقق عن طريق دفع الثمن إجحافاً بحق المشتري و«هو لم يفرض عقوبة للمغالين بالأسعار؛ لأنه لم يكن على رأس الدولة بل يكفيه أنه رفض ربحاً كبيراً جاءه به وكلاؤه... فلم يعالج أمر الأسعار في عنف ولكنه عالجه من طريق تهذيب الأخلاق ليكون أنجح وأدوم»^(١).

وهكذا علم الصادق برّد فعله مراعاة حق المشتري وعدم غبنه، مع الالتفات بمفهوم الربح المعنوي الذي يحصل عليه المسلم عن طريق اهتمامه بهذه الحدود الشرعية والقيم الأخلاقية.

* العلاقة بين الكسب والعمل

إنّ النشاط الاقتصادي للفرد المسلم يرمي إلى الخروج من الفقر وتأمين المعاش على حد الكفاية^(٢)، ولم يتحقق هذا الهدف إلا عن طريق الاهتمام بالكسب وهو «ما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ككسب المال»^(٣) ولكن الاقتصاد الإسلامي جعل في طرق الكسب بعض الضوابط التي تكفل سلامة الفرد والمجتمع وعدم انحرافهما.

فالكسب و«التملك مباح من حيث المبدأ ولكنه مقيد بأن يكون حلالاً من مأخذه، حلالاً في استخدامه، وحلالاً في إنفاقه، فلا يكون من غصب أو سرقة أو غش أو احتكار أو ربا...»^(٤).

كما أن النبي ﷺ حذّر من أقوام لا يهتمون بكسب الحلال فقال: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن الحلال أم من الحرام؟»^(٥).

ومن أهم الضوابط التي عيّنها الإسلام في هذا الصدد مبدأ تنظيم الكسب من خلال جهد الإنسان وعمله، ولم يسمح بتحصيل المال بدون عمل، فالجهد البشري هو سبب الملكية والإنتاج سواء في حالات التفاعل المباشر مع الطبيعة، أم بالتفاعل مع الأشياء في مرحلتها الثانية مرحلة التكييف والتصنيع.

وبالتأمل في النصوص الواردة عن الإمام المربّي، نجد بأنّه يريد أن يرسّخ في ذهنية تلاميذه هذا الترابط وذلك من خلال تأكيد على عدم جواز إحالة العامل للعمل

(١) عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٢) أي المستوى اللائق للمعيشة التي تختلف مع مفهوم «الكفاف» أي المستوى الأدنى للمعيشة لكل فرد.

(٣) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة كسب، ص ٤٦٨.

(٤) محمد قطب، تأصيل العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، ح ٢٠٥٩.

إلى عامل آخر، دون أن يكون قد عمل فيه شيئاً. فعندما سئل عن الرجل يتقبل العمل فلا يعمل فيه ويدفعه إلى آخر فيربح فيه، قال الإمام: «لا، إلا أن يكون قد عمل فيه شيئاً»^(١).

وفي مجال آخر روى أحد تلاميذه فقال: سألته عن الرجل الخياط يتقبل العمل فيقطعه ويعطيه من يخطه ويستفضل قال: «لا بأس قد عمل فيه».

فقد أشار الإمام إلى القاعدة التي تقرّر «أن الكسب لا يقوم إلا على أساس إنفاق عمل خلال مشروع، فالعمل المنفق هو المبرّر الأساس الوحيد لحصول صاحبه على مكافأة»^(٢) وهذا من أهم التصورات التي يجب أن تكون في النشاطات المعيشية للفرد المسلم.

وقد يعمّق الإمام في بعض الأحيان المفهوم ذاته بأسلوب آخر فيقول: «إني لأكره أن أستأجر الرحى وحدها، ثم أؤجرها بأكثر ممّا استأجرتها، إلا أن أحدث فيها حدثاً»^(٣).

فالصادق يربّي ضمائر الناس ويجعل تفكيرهم يتّجه إلى أنّ الكسب لا بدّ أن يكون بمقدار ما يبذله الإنسان من سعي وكدح في الحياة، فلن يحصل المال الطيب إلاّ بجهدٍ وعناءٍ ومخاطرة، ولذلك عندما قيل له:

ما بال المؤمن قد يكون أشحّ شيء؟ قال: «لأنه يكسب الرزق من حله، ومطلب الحلال عزيز، فلا يحبّ أن يفارقه شيئاً لما يعلم من عزّ مطلبه»^(٤).

ومن هنا فقد عني الإمام عناية كبيرة بمحاربة الربا الذي يمثل استغلالاً فاحشاً لحاجة الإنسان، ويؤدي إلى كسب - عائد - مضمون يستأثر به المرابي دون أدنى مشاركة في العمل الجادّ وبناء اقتصاد الأمة.

ف «الربا يجعل المحتاج عبداً للغني ويجعل الغني عبداً للمال، وذلك انحطاط بالمستوى البشري يتردى فيه الفقير والغني على السواء»^(٥).

وهذا ما أكّده الصادق بالإشارة إلى سلبيات الربا الخلقيّة والاجتماعية والاقتصادية

(١) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب الرجل يتقبّل بالعمل، ح ١.

(٢) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، مرجع سابق، ص ٦١٨.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٢٦٣، ح ٥.

(٤) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٥٦٠، ح ٤٩٢٤.

(٥) أحمد شلبي، الاقتصاد في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٠، ط ٨، ص ٧٢.

ليردّ الناس إلى الرشد والصواب فقال: «إنّما حرّم الله عزّ وجلّ الربا لكي لا يمتنع الناس من اصطناع المعروف»^(١)، ولو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه، فحرّم الله الربا لتفرّ الناس عن الحرام إلى التجارات وإلى البيع والشراء فيفصل ذلك بينهم في القرض»^(٢).

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٢.

(٢) الصدوق، علل الشرائع، ج ٢، باب علة تحريم الربا، ح ١.

تربية المسلم الاقتصادية في المجال السلوكي

بيّنا فيما سبق أن التربية الاقتصادية في مدرسة الإمام الصادق ارتكزت على محورين أساسيين: أولهما: تصحيح الجوانب الفكرية وثانيهما: تعليم الجوانب السلوكية . وبعد أن تناولنا في حديثنا المحور الأول مركّزين على كيفية توجيه النظرة الصحيحة إلى المال وكسب الرزق وتصويبها وإظهار مقوماتها، فإننا سنشير فيما يلي إلى الجانب السلوكي الذي يمثل الوجه الثاني في هذا المجال .

ويبدو أن السلوك الاقتصادي للإنسان - وإن تعدّدت شعبه وتنوعت مجالاته - فإنه ينضوي تحت عنوانين كبيرين، وهما: الكسب والإنفاق أو الإنتاج والاستهلاك^(١)، فالإنسان يكتسب الأموال ثم ينفقها ويعود ثانية لاكتسابها وإنفاقها من جديد، وهكذا في دورة ممتدة بامتداد الحياة .

(١) لم يرد في القرآن الكريم المصطلحات المعهودة في علم الاقتصاد ولقد استخدم القرآن مصطلحات اقتصادية أحسن وأمثل وأفضل بكثير من تلك المصطلحات الاقتصادية الشائعة وكأنّه أعرض قصداً عن استخدامها . على سبيل المثال: استخدم القرآن الكريم مصطلح «التعم» بدلاً من مصطلح «الموارد» عند الاقتصاديين؛ لأنّ هذه الكلمة لا تحمل أية مضامين ذات قيمة ولا تنبئ بشيء عن مصدرها وأهميتها، ولكن مصطلح «النعم» يحمل دلالات ذات معنى، بأنّ هذه الأشياء مصدر للنعم للإنسان ورفاهيته، وهي مخلوقة لذلك، وهي منحة من الخالق وإنعام منه على الإنسان، وكل ذلك يقتضي حسن استخدامها والانتفاع بها . وكذلك نرى أن القرآن الكريم رغم اهتمامه الكبير بالإنتاج والتنمية إلا أنه لم يستخدم هذه الكلمة بل استعاض عنها بكلمة «العمران أو العمارة» حيث يندرج تحتها معنى الإنتاج وتحسين مستويات المعيشة ولها دلالات أخرى أيضاً .

وكذلك مصطلح الإنفاق بدلاً من «الاستهلاك»، لأن فيه دلالة بارزة على التدمير والإفناء، والهلاك للسلع والموارد بينما يدل مصطلح الإنفاق على معاني النفع والإفادة، وبناء الإنسان وزيادة الموارد والسلع، على عكس مصطلح «الاستهلاك» .

فرغم أننا لا نرى أنفسنا محتاجين إلى الاستفادة من المصطلحات الحديثة بعدما جاءت في القرآن الكريم كلمات حيّة وغنية، كما أننا لم نجد هذه المصطلحات في مدرسة الإمام الصادق التربوية، ولكن نستخدم في هذا الفصل بعض هذه المصطلحات لاستئناس الأذهان بها وتداولها بين الناس، نجى بها بشكل توضيحي لا تأسيسي .

والمعروف ان أياً منهما (الكسب والإنفاق) لا غنى لأحدهما عن الآخر، كما لا تستقيم حياة الإنسان إلّا بصلاحيهما معاً. ومن ثم فقد أولى الصادق هذين الأمرين اهتماماً بالغاً في منهجه التربوي، فحاول تكوين الشخصية ذات السلوك القويم فيهما. ولعلنا نستطيع تلخيص مشاريع الإمام في هذا الصدد والتي سعى إلى ترويجها في المجتمع بما يلي:

أ- تربية المسلم على الإنتاج في مدرسة الصادق:

* أهمية الإنتاج ووجوهه:

يحتل الإنتاج أهمية كبرى في علم الاقتصاد، حيث عرّف بعض العلماء هذا العلم بأنه «علم قوانين الإنتاج»^(١).

فأصبح الاقتصاديون المعاصرون يأخذون بتعريف شامل للإنتاج، يدخل تحته إنتاج السلع والخدمات أياً كان نوعها، أو مصدرها، طالما أنها نافعة تشبع رغبة لدى المستهلك. لذلك عرّفوا الإنتاج «بأنه خلق المنافع أو زيادتها»^(٢).

أما تعريف الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي فهو: «بذل الجهد الدائب في تجميع موارد الثروة، ومضاعفة الغلة من أجل رخاء المجتمع، ودعم وجوده وقيمه العليا»^(٣).

ويبدو واضحاً من التعريف إن الإنتاج في الإسلام يهدف إلى إشباع حاجات الإنسان المادية والمعنوية، أي إيجاد المنفعة في شكل سلعة اقتصادية، وجعلها صالحة لإشباع الحاجات الإنسانية.

ونرى في هذا الصدد أن الإمام الصادق قد لفت إلى تنوع الطرق والأساليب التي يمكن أن يعتمد عليها الإنسان في سبيل الكسب وزيادة المنفعة، كما عرّف لتلاميذه الأشكال المتنوعة للنشاطات الإنتاجية المتوافرة، فقال:

«وكذلك أعطى (الإنسان) علم ما فيه صلاح دنياه كالزراعة والغراس واستخراج الأرضين واقتناء الأغنام والأنعام واستنباط المياه ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الأسقام، والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر وركوب السفن والغوص في البحر وضروب الحيل في صيد الوحش والطير والحيتان والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب وغير ذلك مما يطول شرحه ويكثر تعداده مما فيه صلاح أمره في هذه الدار»^(٤).

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، مرجع سابق، ص ٣٧٩.

(٢) محمد محروس، إسماعيل وآخرون، مقدمة في علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٣) فهد العصيمي، خطة الإسلام في موارد الإنتاج، دار النشر الدولي، الرياض، ١٩٩٤، ص ١٥.

(٤) كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص ٤١.

فكل الأمور التي ذكرها الإمام في كلامه تنطبق على تعريف العمل المنتج في الفكر الاقتصادي و«هو الذي يهدف إلى إنتاج سلع وخدمات تشبع حاجات الإنسان»^(١)، فالإمام يريد أن يبين لتلاميذه بأن الله عز وجل لم يخلق الموارد في هذا الكون جاهزة للإشباع، إنما جعلها تحتاج لكسب وإنتاج، كي تصبح جاهزة للانتفاع. ولذلك فرض الله على الإنسان السعي المتواصل لإشباع حاجاته، ولفهم أسرار الكون، والكشف عن موارد الطبيعة واستغلالها الاستغلال الأمثل الذي يحقق الخير والرفاهية للمجتمع في مجموعه.

* أهداف الإنتاج وضوابطه

إن الإنتاج في الإسلام، وسيلة لغاية سامية، تتمثل في عمارة الكون وتحقيق عبادة الله في الأرض، فالمسلم ينتج ليحقق الغاية من وجوده، وليقوّي جماعة المسلمين، وليحقّق مقام الخيرية والشاهدة على أمم الأرض جميعاً.

على هذا، فإن هناك فرقاً جوهرياً بين الإنتاج في الإسلام والإنتاج في النظم الاقتصادية الأخرى، لأن هذه النظم الوضعية «تقوم على أساس من الفلسفة المادية التي تسعى إلى إشباع رغبات المستهلك والمنتج على السواء بغض النظر عن كون هذه الرغبة أو السلعة أو الخدمة نافعة أو ضارة بالصحة وباعثة على الانحلال والفساد كالخمور والأفلام الهابطة»^(٢).

وهذا ما يتعارض مع النشاط الاقتصادي في الإسلام الذي يعتمد على الأصول العقدية والأخلاقية.

«فالإنتاج في الإسلام لا يهدف إلى السيطرة على السوق والاحتكار والاستئثار بخيرات الدنيا، إنما يهدف لتحقيق الخير والرفاهية والنفع العام للمجتمع كلّ، طلباً لمرضاة الله والتي هب الغاية التي يتوخاها المسلم بكل نشاطه الاقتصادي»^(٣).

ومن ثمّ فلا بدّ أن تتم عملية الإنتاج على أساس ضوابط تنظيمية وفقاً لهذه الأهداف، والإمام الصادق - منذ اثني عشر قرناً - يعلم تلاميذه أهم المقاييس والضوابط للإنتاج ويحثّ مراعاتها في أيّ نشاط اقتصادي، تلك القواعد التي ينبغي أن نستفيد منها في التربية الاقتصادية في المجتمع، فقال ما نصّه:

(١) عبد العزيز فهمي هيك، مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص ٨٣.

(٢) عمر بن فيحان المرزوقي، النشاط الاقتصادي من المنظور الإسلامي، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية عدد ٤٥، ص ٢٨١.

(٣) صالح حميد العلي، عناصر الإنتاج، مرجع سابق، ص ١٠٢.

«وأنواع صنوف الآلات التي يحتاج إليها العباد التي منها منافعهم وبها قوامهم وفيها بلغة جميع حوائجهم فحلال فعله وتعليمه والعمل به، وفيه، لنفسه أو غيره... وما يكون منه وفيه الفساد محضاً، ولا يكون فيه ولا منه شيء من وجوه الصلاح، فحرام تعليمه وتعلمه والعمل به وأخذ الأجر عليه وجميع التقلب فيه من جميع الحركات كلها إلا أن تكون صناعة قد تنصرف إلى بعض وجوه المنافع»^(١).

فيشير الإمام بهذا الكلام إلى أن الإنتاج في المجتمع الإسلامي لا بد أن يستند إلى أصول وهي:

- ١ - أصل الحاجة (التي يحتاج إليها)
- ٢ - أصل النفع (التي منها منافعهم)
- ٣ - أصل العمومية (يحتاج إليها العباد...)
- ٤ - أصل الاكتفاء الذاتي (فيها بلغة جميع حوائجهم).

يرى أبو عبد الله أن الإنتاج يجب أن يكون بحسب الكم والكيف مقيداً بالحدود التي تؤثرها هذه الأصول، فهو يعتبر الحاجة إلى شيء، هي السبب الأعمق في إيجادها، كما يعتبر أن الانتفاع به، المبرر الرئيس لإنتاجه، ولولا الحاجة إلى شيء والنفع منه، لكان إنتاجه عبثاً، والسعي من أجله تضييعاً للجهد والمال والوقت الإنساني الثمين.

وحينما يشير الإمام إلى القاعدة الأولى وهي الحاجة، تخرج منها المنتجات غير الضرورية والتي قد يستغنى عنها، كالبضائع الترفيهية والتجميلية الأرستقراطية، والتي لا تقتصر آثارها السلبية على الحقل الاقتصادي فحسب، بل تتعداها إلى القوام الأخلاقي والتربوي في المجتمع.

وعندما يؤكد على القاعدة الثانية وهي النفع الإنساني، يخرج عن دائرتها كل الأشياء التي تضر الحياة البشرية التي يسميها القرآن بالخبائث، إضافة إلى السلع غير النافعة والحاجات غير الضرورية التي اصطنعها الإعلام في المجتمع، والذي يزين للناس سبل اقتنائها بكل الطرق الخبيثة، فيكبر عندهم الميل للاستهلاك، ويصبحون مستهلكين من الطراز الأول.

أما القاعدة الثالثة وهي: العمومية، فتؤكد على استجابة حاجات الجماهير وعامة الناس الذين عبر الإمام عنهم بالعباد دون أي تخصيص حتى لا يقتصر الإنتاج على الأشياء الخاصة التي يتمتع بها المترفون، وتصير سبباً لرخاء فئة خاصة من الأغنياء؛ لأنها تؤدي إلى نفي تقريب مستويات المعاش للجميع.

(١) الحراني، تحف العقول، ص ٣٣٥.

والقاعدة الرابعة تؤكد على أن الهدف من الإنتاج في المجتمع الإسلامي لا بدّ أن يتوخّى إلى حدّ الاكتفاء الذاتي، ووصول المجتمع إلى المستوى الذي لا يحتاج معه إلى غيره على صعيد الحاجات الضرورية، الأمر الذي يؤدي إلى قوام وقوة للمسلمين ويغنيهم عن استيراد منتجات الآخرين، والتدللّ لهم تحت ذريعة الحصول على الضروريات.

وهكذا يظهر اهتمام الصادق بماهية الشيء، المنتج وقصد المنتج من إنتاجه على أساس نظرة الإسلام إلى الإنسان وحياته وغايته، ويسعى إلى تربية المسلم على السلوك الإنتاجي الذي يؤدي إلى إنتاج جميع الضروريات والطيبات في الحياة من جهة ونزع الدوافع الاقتصادية المادية البحتة من جهة أخرى.

* عناصر الإنتاج وحسن استغلالها:

إنّ الإنتاج لا يتمّ إلا بتضافر مجموعة من القوى والعوامل والعناصر المرتبط بعضها ببعض، والتي تسمّى بعناصر الإنتاج «فالشيء يعدّ عنصر إنتاج، إذا أسهم في العملية الإنتاجية ولا يمكن أن يتم الإنتاج بدونه مهما بلغت درجة هذه الإسهامات»^(١). وعلى هذا فإن عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي ثلاثة هي: الأرض أو الطبيعة، والعمل، ورأس المال.

لقد بيّن علماء الاقتصاد المعاصر مفهوم الإنتاج وعناصره وجعلوهما في نظرية سموها بنظرية الإنتاج، على أنها نظرية جديدة كان لهم الفضل في ابتداعها، والحق أن علماء المسلمين سبقوا غيرهم في هذا المجال ولم يتكلموا عن الإنتاج فحسب، بل بيّنوا عناصره وطرق استثمار المال فيه، كما تحدّثوا عن العمل وأنواعه والأحكام المتعلقة بها.

ومن أجلّ هؤلاء العلماء جعفر بن محمد الصادق الذي تجلّت في كتاباته ورسائله ووصاياه كثير من التحليلات الاقتصادية التي تحثّ الإنسان على أن يكون عضواً نافعاً، فهو يحرص أشدّ الحرص على أن يكون جميع أتباعه عاملين منتجين، فيوجّههم إلى هذا الهدف بأساليب متعدّدة حتّى يتحوّلوا إلى طاقة إنتاجية تتحقّق بها عمارة الأرض، وفيما يلي نتحدث عن بعض جهوده في تبين عناصر الإنتاج وحسن الاستغلال منها:

١ - الطبيعة والانتفاع بها:

يقصد بالطبيعة «ما خلقه الله عزّ وجلّ في هذا الكون من موارد ولم يتدخّل أحد من إيجادها»^(٢).

(١) إسماعيل إبراهيم البدوي، عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعي، مجلس النشر العلمي، الكويت، ٢٠٠٢، ص ٨٨.

(٢) صالح حميد العلي، عناصر الإنتاج، مرجع سابق، ص ١٣١.

والواقع أنّ الطبيعة هي المصدر المادي الأول للإنتاج وفيها موارد متاحة للإنسان، تكون نافعة له وصالحة لإشباع حاجاته، سواء بطريق مباشر أم غير مباشر، فعناية الفكر الإسلامي بالطبيعة ليس لكونها إحدى أهم وأعظم نعم الله عزّ وجلّ على عباده فحسب، بل باعتبارها الركن الأساس للنشاط الاقتصادي للإنسان والتي تدخل في تنظيم معاشه. «فالتوظيف الكامل والفعال للموارد المادية المستمدة من الطبيعة، هدف من أهم أهداف النظام الاقتصادي في الإسلام، لأنّه لا يساعد فقط في توفير الحياة الاقتصادية الطيبة فحسب، بل يمنح الإنسان العزّة والكرامة»^(١).

وينقسم عنصر الطبيعة إلى فروع عديدة من النعم الإلهية التي تسمّى في علم الاقتصاد بالموارد الطبيعية.

ومن أهمها الأرض التي لا يكاد الإنسان يتصور قيام نشاط إنتاجي بدونها؛ لأنّ الله تعالى وزّع موارد الطبيعة الأخرى على ظهر الأرض وفي جوفها ومن حولها.

فالإمام الصادق وجه الأنظار إلى أنّ الأرض مستودع الثروة ومصدرها الرئيس الذي جعل فيها كل ما يحتاج إليه البشر من المواد الأولية للإنتاج ووسائل العيش قائلاً:

«فكر في هذه الأشياء التي تراها موجودة معدّة في العالم من مآربهم فالتراب للبناء والحديد للصناعات والخشب للسفن وغيرها والحجارة للأرحاء وغيرها والنحاس للأواني والذهب والفضة للمعاملة والذخيرة والحطب للتوقد والرماد للكلس...»^(٢).

هذه النعم الطبيعية منها ما يكون جاهزاً للانتفاع المباشر ومنها ما يكون غير جاهز، إلّا أنّه من الممكن تحويل هذه الموارد غير الصالحة للانتفاع إلى موارد مؤهلة يمكن الانتفاع بها.

فالإمام عندما يتحدث أمام تلاميذه عن الأرض والنبات والمياه والمعادن وخيرات الطبيعة الأخرى لا يريد أن يتكلم عن الأسرار الكونية فحسب، بل يريد أن يدفع أتباعه دفعاً إلى استغلال النعم والمنافع الاقتصادية فيها واستصلاح الموارد الطبيعية لتحسين أسباب العيش وتحقيق التقدم ونشره في المجتمع، كما نرى في كلامه عن المعادن حين قال:

«فكر في هذه المعادن وما يخرج منها من الجواهر المختلفة مثل الجص والكلس والمرتك (أكسيد الرصاص) والتوتيا (أو أكسيد الزنك) والنحاس والرصاص والفضة والذهب والزربرد والياقوت والزمرد وضروب الحجارة وكذلك ما يخرج بها من القار

(١) أحمد صبحي العيادي، السياسة النقدية والمالية في الإسلام، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، عدد ٥٤، ص ٣٠٥ (بتصرف).

(٢) كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص ٤٤.

والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم، فهل يخفى على ذي عقل أنّ هذه كلها ذخائر ذخرت للإنسان في هذه الأرض ليستخرجها فيستعملها عند الحاجة إليها^(١).

فهو في مجال التربية يدعو إلى عدم استصغار واستحقار أية مادة خام من مواد الطبيعة وأي عنصر من عناصرها، إذ ربما تنتهي هذه المادة بعد التحليل العلمي والتجارب الطبيعية في المختبرات إلى مادة غالية الثمن بالغة الأهمية في ميدان العلم فقال:

«اعلم أنه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين وربما كان الخسيس في سوق المكتسب نفيساً في سوق العلم، فلا تستصغر العبرة في الشيء لصغر قيمته لو فطن طالبو الكيمياء لما في العذرة، لاشتروها بأنفس الأثمان، وغالبوا بها (غالوا بها)»^(٢).

هكذا يشجع الإمام تلاميذه على البحث عن كنوز الطبيعة وخيراتها، واستخدام هذه الكنوز والخيرات في إنتاج حاجات البشر وتنمية هذا الإنتاج لإسعادهم حتى تتحقق بذلك رفاهة اجتماعية عامة.

٢ - رأس المال وتكوينه :

إن رأس المال يعتبر عنصراً من عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي، ويلاحظ أن لفظ المال أعْمَ وأشمل من لفظ رأس المال، إذ المال ما يملك ويُقتنى، أما رأس المال فهو أصل المال بلا ربح ولا زيادة حينما يستثمر في عمل ما. قال تعالى: ﴿وإن تُبْتَمُ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾^(٣).

وعلى هذا الأساس يمكن تعريفه بأنه «كل ما يستخدم في العملية الإنتاجية من أعيان أو نقود»^(٤).

ويفهم من هذا التعريف أن كل ما يساهم في الإنتاج بصورة مباشرة كالمباني والآلات، وبصورة غير مباشرة كالنقود، فإنه يطلق عليه اسم رأس المال.

فالنقود استخدمت في عمل إنتاجي عندما خُصّصت لشراء المواد الأولية أو لرأس المال العيني أو لدفع أجور العمال، وأما إذا دُفعت لأغراض استهلاكية فلا يطلق عليها اسم رأس المال.

والإمام الصادق في منهجه التربوي الاقتصادي يحث أتباعه على الإنفاق الإنتاجي

(١) كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٣٦.

(٣) سورة البقرة، جزء من الآية: ٢٧٩.

(٤) صالح حميد العلي، عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٧١.

ويفضّله على الإنفاق الاستهلاكي حرصاً منه على تكوين وزيادة رأس المال، كما جاء في كلامه: «مشتري العقدة مرزوق وبائعها ممحوق»^(١). والعقدة من الأرض: البقعة الكثيرة الشجر^(٢).

تعبير الإمام بقوله: «مرزوق» يرمي إلى إمكانية تنمية الثروة من العقدة، كما أنه ينهى عن بيع رأس المال المنتج، من غير سبب وضرورة المحافظة عليه، فيرشد تلاميذه إلى أنه من الواجب في حال البيع أن يوجّه ثمنه النقديّ إلى شراء أصل إنتاجي آخر، كما روى أحدهم قائلاً: «قلت لأبي عبد الله: إنّ لي أرضاً تطلب منّي ويرغبونني، فقال لي: «أما علمت أنّ من باع الماء والطّين ذهب ماله هباءً؟!» قلت: إنّني أبيع بالثمن الكثير، وأشتري ما هو أوسع رقعة ممّا بعت، قال: «فلا بأس»^(٣).

فالإمام يعتبر بيع العقار وتبديد ثمنه في الاستهلاك إضاعةً للمال، وذلك من أجل توسيع قاعدة رأس المال العيني.

ويبرز اهتمام الإمام بالتنمية واستثمار المال في سيرته العملية عندما يأمر بإضافة ربح العمل إلى رأس ماله بدلاً من استغلاله في مجالات أخرى، كما روى عن رجل قال: «ربحت في مال أبي عبد الله، الذي كان في يدي، مائة دينار، ثم لقيته، فقلت له: قد ربحت لك هذا المبلغ، ففرح أبو عبد الله بذلك فرحاً شديداً فقال لي: «أثبتها في رأس مالي»^(٤).

ويستحسن هنا أن نشير إلى أنّ الإمام قد علّم تلاميذه بعض الأساليب لحفظ رأس المال لتقليص عنصر المخاطرة في الاستثمار^(٥)، على سبيل المثال:

روي أنّ رجلاً أتى الإمام بصورة المستنصح له، فقال له: يا أبا عبد الله كيف صرت اتخذت الأموال قطعاً متفرقة، ولو كانت في موضوع واحد كانت أيسر لمؤنّتها وأعظم لمنفعتيها؟ فقال أبو عبد الله: «اتخذتها متفرقة فإن أصاب هذا المال شيء سلم هذا المال، والصرة تُجمع بهذا كلّ»^(٦).

(١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٣٨٨، ح ١١٥٦.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج ٣، ص ٢٧١.

(٣) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب شراء العقارات وبيعها، ح ٨.

(٤) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٣٢٦، ح ٨٩٨.

(٥) هذا ما يسمى في علم الاقتصاد محفظة استثمارية (Portfolio) وهي ما يملكه شخص أو مؤسسة من أوراق مالية كالأسهم الممتازة والعادية والسندات ومن استثمارات عقارية وبيع، الغرض منها تخفيض المخاطر من خلال تنويع الاستثمارات (التاجي الفاروق، قاموس مصطلحات المصارف والمال والاستثمار، مكتبة لبنان د.ت، ص ٥٠٥).

(٦) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب شراء العقارات، ح ١.

رغم أنّ الإمام يدعو إلى ادّخار^(١) الثروة وتكوين رأس المال إلا أنّه في الوقت نفسه ينهى عن الاكتناز وهو حبس المال عن الإنتاج ووضعه بعيداً عن متناول الناس واستفادتهم؛ لأنّ «الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال، حتى تقدّر الأموال بهما... ومن كنزهما فقط ظلمهما وأبطل الحكمة منهما»^(٢)

فالإمام يرفض إمساك النقود؛ لأنّه يُخرج المال عن مدار الحركة الاقتصادية فقال ما نصّه: «ما يخلف الرجل بعده شيئاً أشدّ عليه من المال الصّامت»^(٣) قيل له: كيف يصنع به؟ قال: يجعله في الحائط والبستان والدّار»^(٤).

فهو بهذا التعبير يلزم أتباعه باستثمار المال بشكل تام، وذلك من خلال تأثيم المكتنزين، وبما أنّ الناس قد يدّخرون النقود التي لا تدّر عليهم أيّ فائدة إلا بدافع الاحتياط من أخطار المستقبل - لحماية أنفسهم أو ورثتهم - ينصح الإمام تلاميذه لتلافي أخطار هذه الحالة بتوفير المال من شراء السلع المنتجة كضمانة لهم عند الحاجة كقوله: «اتّخذ عقدة أو ضيعة فإنّ الرجل إذا نزلت به النازلة أو المصيبة فذكر أنّ وراء ظهره ما يقيم عياله كان أسخى لنفسه»^(٥).

وهكذا حاول أبو عبد الله تعميق الفهم لدور رأس المال ويعلم - في الوقت نفسه - كيفية تكوينه والمحافظة عليه ومصادرة الثروة في المجتمع.

٣ - العمل والحث عليه:

إنّ العمل هو العنصر الهام والفعال في كلّ طرق الإنتاج، وهو العنصر الإنساني الذي يمثل النشاط الدائب والحركة المستمرة في سبيل التقدّم ورفع مستوى المعيشة. ويعرّف الاقتصاديون العمل بأنّه «كل جهد بدني أو ذهني مقصود ومنظم يبذله الإنسان لإيجاد زيادة مادية أو منفعة»^(٦).

أما مفهوم العمل في الاقتصاد الإسلامي، فيمكن تعريفه بأنّه «كل جهد مشروع،

(١) الادّخار اصطلاحاً هو كل مال يقرر صاحبه عدم استغلاله لأغراض كثيرة، إن استخدم هذه المدّخرات بوسيلة تدّر عليها دخلاً زائداً يسمّى الاستثمار، وإن يحبس بشكل نقود أو ذهب أو فضة يسمّى الاكتناز. فالادّخار أعمّ من الاكتناز والاستثمار. (صالح حميد العلي، عناصر الانتاج، ص ٢٨٧ بتصرف)

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٩١.

(٣) المال الصامت أي الذهب والفضة (الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج ١، ص ١٥٢).

(٤) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣ ص ١٧٠، ح ٣٦٤٢.

(٥) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٧٠، ح ٢٢٠١١.

(٦) محمد رواس قلعه جي، مباحث في الاقتصاد الإسلامي، دار النفائس، بيروت، ١٤١٢، ص ٦٧.

مقصود ومنظم، بدنياً كان أو ذهنياً، أو خليطاً منهما يبذله الإنسان لإيجاد منفعة اقتصادية مادية أو معنوية»^(١).

ولأهمية العمل وخطورة أبعاده في عملية الإنتاج لم يجعله الإسلام مع عناصر الإنتاج الأخرى على درجة واحدة، وإنما جعلها على درجات متفاوتة فجعل العمل في أعلى هذه الدرجات.

ذلك لأن الإنسان العامل هو الذي يجري على الموارد الطبيعية التغيير والتبديل الذي يؤدي إلى الإنتاج، وهكذا شأن الطاقة الإنسانية بالنسبة لرأس المال - العنصر الثاني للإنتاج - هي التي تقوم بتشغيل الثروة واستثمارها «فالمال ليس المصدر لفعالية الإنسان ولكن الإنسان الفعال هو الذي يجعل المال فعالاً»^(٢). «ولهذا علّق رسول الله ﷺ فعالية المال بفعالية الرجل حيث قال: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»^(٣).

فنرى ضرورة العمل للإنسان بحسب النظام التكويني، لقد اقتضت سنة الله في خلق العالم، أن الأرزاق التي ضمنها والأقوات التي قدرها والمعاش التي يسرها، لا تنال إلا بجهد يبذل وعمل يؤدي، بحيث يضطر الإنسان لتلبية حاجاته المختلفة بالسعي والكدح، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمُلْقِيهِ﴾^(٤) «فحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان»^(٥).

فقد أشار الصادق إلى هذه الحقيقة بقوله:

«فانظر كيف كفي الخلقة التي لم يكن عنده - الانسان - فيها حيلة، وتُترك عليه في كل شيء من الأشياء موضع عمل وحركة لما له في ذلك من الصلاح»^(٦).

ثم يذكر بعض الأمثلة في كلامه:

«فإنه خُلِقَ له الحب لطعامه، وكُلِّفَ طحنه وعجنه وخبزّه، وخلق له الوبر لكسوته فكُلِّفَ ندفه وغزله ونسجه، وخلق له الشجر فكُلِّفَ غرسها وسقيها والقيام عليها، وخلقت له العقاقير لأدويته فكُلِّفَ لقطها وخلطها وصنعها، وكذلك تجد سائر الأشياء على هذا المثل»^(٧).

(١) صالح حميد العلي، عناصر الإنتاج، مرجع سابق، ص ١٩٨.

(٢) جودت سعيد، الإنسان كلاً وعدلاً، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٩.

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، ح ١٧٦٩٢.

(٤) سورة الانشقاق، الآية ٦.

(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج ٦ ص ٣٨٦٦.

(٦) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨٦.

(٧) المصدر نفسه، والمكان نفسه

وكذلك الإمام يشرح الحكمة البالغة الموجودة في العمل وآثارها الإيجابية للإنسان بقوله:

«لولا يكون له - الإنسان - في الأشياء موضع شغل وعمل، لما حملته الأرض أشراً وبطراً وبلغ به كذلك إلى أن يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه. ولو كفي الناس كل ما يحتاجون إليه، لما تهنأوا بالعيش، ولا وجدوا له لذة، ألا ترى لو أن أمراً نزل بقوم فأقام حيناً بلغ جميع ما يحتاج إليه من مطعم ومشرب وخدمة، لتبرّم بالفراغ، ونازعته نفسه إلى التشاغل بشيء، فكيف لو كان طول عمره مكفياً لا يحتاج إلى شيء؟ وكان من صواب التدبير في هذه الأشياء التي خلقت للإنسان أن جعل له فيها موضع شغل لكيلا تبرمه البطالة، ولتكفّه عن تعاطي ما لا يناله، ولا خير فيه إن ناله»^(١).

وانطلاقاً من هذا المفهوم فقد كان الإمام جعفر حريصاً على أن تعمل كل الطاقات القادرة في المجتمع الإسلامي حتى لا تصبح كالأعالة على غيرها، كما كتب إلى رجل من أتباعه: «لا تكسل عن معيشتك فتكون كالأعلى غيرك»^(٢).

والمكانة التي لها اعتبار خاص للسعي والعمل في مدرسة الصادق تتضح بصورة أكبر من خلال اهتمامه بعرض القدوة الصالحة لتلاميذه، فهو يدعو المسلمين إلى التأسي بسيرة الأنبياء الصالحين في الجهد والسعي ويسرد قصصاً من حياة الرسول الأكرم - القدوة العليا - لتلاميذه تشجيعاً للعمل والإنتاج، فيتحدث عن رجل قد ترك التجارة قائلاً: «أما علم، أن رسول الله ﷺ اشترى عيراً أتت من الشام، فاستفضل فيها ما قضى دينه، وقسم في قرابته»^(٣).

كما يؤكد على سيرة آبائه الصالحين من أهل البيت في هذا الصدد فيقول: «لا تكسلوا في طلب معاشكم فإنّ آبائنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها»^(٤).

والصادق نفسه يقتدي بهذه السيرة ويحرص على أن يشارك بنفسه في العمل والإنتاج، وهذه نماذج من سيرته العملية في السعي والجهد وقد روى أحد أتباعه ما نصّه:

«رأيت أبا عبد الله وبیده مسحاة وعليه إزار غليظ يعمل في حائط له، والعرق يتصبّ عن ظهره، فقلت: أعطني أكفك، فقال لي: «إني أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة»^(٥).

(١) كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص ٤٥.

(٢) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب كراهية الكسل، ح ٩.

(٣) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٢٢٦، ح ٨٩٧.

(٤) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٩٥، ح ٣٥٧٦.

(٥) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٧، ح ٢١٩٢٤.

وفي مجال آخر قال: «دعوني فإنني أشتهي أن يراني الله أعمل بيدي وأطلب الحلال في أذى نفسي»^(١).

وهكذا يريد الإمام أن يكون قوة فاعلة في الحياة بأمر ربه كما يحاول أن يغرس نبتة السعي والجهد في نفوس أبناء المجتمع، ويغذيها لتكبر وتنمو فتتحول إلى قوة فاعلة و طاقة إنتاجية تغني المجتمع وتقويه.

ب - تربية المسلم على الاستهلاك في مدرسة الصادق:

* أهمية الاستهلاك وترشيده:

ما يقصد بالاستهلاك «هو كمية السلع والخدمات التي تستخدم لإشباع الحاجات الجارية»^(٢).

يعتبر الاستهلاك الهدف النهائي من الاقتصاد، لأن إشباع الحاجات الإنسانية بواسطة الموارد المتاحة - موضوع علم الاقتصاد - يتم من خلال الاستهلاك للسلع والخدمات، وفي ضوء هذا، تتم باقي الوظائف الاقتصادية الرئيسة من إنتاج وتمويل واستثمار وتبادل.

أما الاستهلاك في الاقتصاد الإسلامي فهو: «الاستخدام المشروع للسلع والخدمات في إشباع الحاجات والرغبات المباحة شرعاً»^(٣).

حيث إن كل فرد في المجتمع يعتبر مستهلكاً، وإذا كانت فئة من أفراد المجتمع غير منتجة، فلا يوجد بين الأفراد غير مستهلك ولذا لقي موضوع الاستهلاك عناية كبيرة من النظام الاقتصادي، فلم يهمل الإسلام هذا الجانب المهم من حياة الناس إذ إن زيادة الإنتاج وحدها لا تكفي لتوفير الحياة الطيبة.

فلا قيمة لتحسين الإنتاج إذا لم يحسن الناس استهلاك ما ينتجون. لهذا يعتبر الإنفاق أخطر مرحلة من مراحل التعامل مع الثروة والانتفاع بها.

ويرى الإسلام أن سوء استهلاك أو سوء استخدام الثروة وعدم الانتفاع بها انتفاعاً دقيقاً متوازناً، يساعد على نشر الفقر وتبديد الأموال، وما يناله المسلم نتيجة سعيه وإنتاجه، عطاء من الله ومئة، ولذلك وجب الحمد على هذا الفضل والإحسان، ومن مقتضيات الحمد حسن التصرف في المال وجودة توظيف ما رزقه

(١) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣ ص ١٦٣، ح ٣٥٩٥.

(٢) سميح مسعود، الاقتصادية، مرجع سابق، ص ١٧.

(٣) محمود عبد الكريم إرشيد، دور القيم والأخلاق في ضبط الاستهلاك، مجلة الاقتصاد الإسلامي، عدد ٢٩٣.

اللَّهِ، كما أرشد الإمام الصادق أتباعه إلى هذا الأمر بقوله: «تلقوا النعم بحسن مجاورتها»^(١).

فالمسلم في إطار هذه النظرة يأكل ويشرب ويتمتع بطيبات الحياة ليقوى على عبادة الله وينظم استهلاكه وفقاً لأهداف العاجل والآجل في الدنيا والآخرة، والمنفعة هي الخير الذي يحققه الفرد من جراء استهلاكه، فيُشبع رغائبه المادية والروحية.

أما غير المسلم في النظام الاقتصادي الوضعي فإنه يستهلك لحصول الملذات المادية وإشباع الشهوات الجسدية فقط، ويقتصر اهتمامه على تحسين وزيادة مستوى معيشته الحاضرة؛ لأن الاستهلاك نفسه قيمة اجتماعية، فهو يريد تعظيم إشباع حاجاته من عاجل لا بديل له في الآخرة.

والمنفعة هنا، المنفعة الذاتية أي مقدار ما يحصل عليه الفرد من سدّ الحاجة، «بمقدار الإشباع من السلعة أو الخدمة المعينة تتحقق المنفعة بغض النظر عن الطريقة التي يحصل بها أو الأسلوب الذي يستعين به للوصول إلى المنفعة»^(٢).

هكذا يتميز السلوك الاقتصادي للمسلم من غيره؛ لأن النظام الاقتصادي الإسلامي يهتم بإشباع حاجات الإنسان مع حصول السمو الروحي والاطمئنان القلبي، وألزم كل فرد بحتمية تحقيق التوازن في الاستهلاك بين متطلبات جسده وبين متطلبات روحه، بشكل يمكنه من أداء رسالته على الوجه الأكمل.

من هنا اهتم الإسلام بتنظيم الاستهلاك تنظيمًا اقتصاديًا مخططاً، ورسم للإنسان منهاج الانتفاع واستخدام الثروة بشكل مبرمج ومحسوب، لكي لا ينحرف الفرد في تصرفاته، ولكي تتم استفادته من الخيرات والنعم التي أنعم الله بها على الإنسان.

فيمكن القول بأن مفهوم ترشيد الاستهلاك الفردي في الإسلام يعني «اتخاذ جميع الإجراءات والتدابير التي من شأنها تنظيم استهلاك الفرد وتوجيهه مما يحقق له السعادة الدنيوية والأخروية بالتزامه بمبادئ الشريعة الإسلامية»^(٣).

وهذا ما يعبر عنه الإمام الصادق بالتدبير في المعيشة. فإنّ اهتمامه بقضية الاستهلاك والتربية عليه لا تقلّ عن اهتمامه بقضية الإنتاج والتربية عليه، وأنه ربط القضيتين معاً بمنظوره إلى العقيدة الإسلامية.

(١) الطوسي، الأمالي، ج ١، ص ٣٠٣.

(٢) محمد علي سميران، مبدأ الإيثار في المنهج الإسلامي ونظرية تكبير المنفعة في الاقتصاد الوضعي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية - الكويت، عدد ٥٣، ص ٢٩٩.

(٣) منظور أحمد الأزهرى، ترشيد الاستهلاك الفردي في الاقتصاد الإسلامي دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٣.

فالمسلم في رأيه مأمور بتدبير معيشته أحسن تدبير، حتى يكون لديه من المال ما ينفقه في وجوه البرّ عليه وعلى من يعول، وبذا يحقق المال الغرض منه بدوره في تنمية المجتمع الإنساني.

على هذا اعتبر الإمام التدبير نصف العيش كما اعتبره جزءاً من الدين بقوله: «التدبير نصف العيش»^(١) و: «من الدين التدبير في المعيشة»^(٢).

والقصد من التدبير في المعيشة هو التخطيط لما رزق الله الإنسان في حياته من المال والنعم، حيث إن مهمة الإنسان في الحياة في هذا الصدد تتمثل في إدارة النعم التي وهب الله إياها، حتى يستخدم طاقته وفتّه في التصرف فيه ويُنظم عيشه تحت ظله. والحق أن عملية إنفاق المال لا تقلّ - عند العقلاء - مشقةً واحتياجاً إلى الحكمة والعقل عن القدر الذي يبذله الإنسان في الحصول عليه وفي تمييزه، حيث إنّ ترشيد الاستهلاك هو الكسب تماماً على حدّ تعبير الإمام الصادق.

كما روي أنّ رجلاً قال لأبي عبد الله: «بلغني أنّ الاقتصاد والتدبير في المعيشة نصف الكسب فقال الإمام: لا، بل هو الكسب كلّ»^(٣).

فإنّ الإنسان إذا استهلك جميع ما كسب دون حدّ وقيود، أو أنفق ماله فيما لا يفيد، إنما يعدّ ذلك تضييعاً للمال وبعثرةً له فيما لا طائل من ورائه ولن يجني صاحبه وكذلك المجتمع من جراء هذا التصرف إلا الخسارة والضرر، وهذا المقصد بالذات هو ما أكده الإمام في كلامه بأنّ ترشيد الاستهلاك كلّ الكسب لأنه يضمن عدم ضياع الأموال ويحفظها.

وفي هذا السياق أثر عنه قوله: «لا يصلح المرء المسلم إلا ثلاثة: التفقه في الدين، الصبر على النائة، وحسن التقدير في المعيشة»^(٤).

فالصادق يعتبر أساس الحياة الطيبة للمسلم على ثلاثة أركان فأحدها حسن التدبير في العيش ومما ينبغي بإمعان النظر أنّ جعل هذا الركن إلى جانب الآخر، والمهم من الحياة فهو التفقه في الدين ففي رأيه لا يمكن للإنسان أن يحلّ الإيمان محلّ التدبير ولا يستغني عنه أيّ مؤمن لذلك يربّي الصادق تلاميذه عليها إلى جانب الوعي والمعرفة بالدين.

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٢.

(٢) الطوسي، أمالي، ص ٦٧٠.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٤٩.

(٤) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب إصلاح المال، ح ٤.

* تبين وجوه الإنفاق والحضّ عليه :

إنّ التربية الاقتصادية الإسلامية تهتم بالإنفاق وتحثّ عليه، ذلك «لأنّه يؤدي إلى الرواج وانتعاش الأحوال، أما الإمساك فيؤدي إلى الكساد والبطالة وركود الحالة الاقتصادية»^(١).

وفي إباحة الاستهلاك والحض على الإنفاق يأتي قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(٢).

أما الإسلام فقد اشترط في إنفاق المال والتصرف فيه، أن يكون في وجوه نافعة ومشروعة، بعيدة عن كل ما حرّم الله تعالى.

فإذا التمس المرء كسبه من طرق سليمة، واجتمع له المال من وجوه المشروعة، غير مختلط بظلم أحد، أو جائر على حق أحد، كان من المحتم عليه أن ينفقه في وجوه سليمة.

تنفع ولا تضر، فإن فعل غير هذا كان مستأهلاً لأن تذهب من يده هذه النعمة وأن تزول، ثم كان له حسابه عند الله فيما ضيع من حقوق.

من هنا وجّه الإمام الصادق تلاميذه في تربيته السلوكية إلى القاعدة الرئيسة في جميع النفقات بقوله: «إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله، ولم يعطكموها لتكنزوها»^(٣).

ثم رسم الخطوط الأولى لإنفاق المال في سبل مشروعة مستقيمة يؤدي فيها المال مطالب الحياة الطيبة الكريمة لأصحابه فيسعدهم ويسعد من حولهم. فعندما سأله رجل عن وجوه النفقات، بيّن كل وجوه استهلاك المال في حياة المسلم مما هو في سبيل الوجوب والندب في جدولٍ منظم؛ فقال:

«أما الوجوه التي فيها إخراج الأموال في جميع وجوه الحلال المفترض عليهم ووجوه النوافل كلّها، فأربعة وعشرون وجهاً، منها سبعة وجوه على خاصة نفسه، وخمسة وجوه على من تلزمه نفسه. وثلاثة وجوه مما تلزمه فيها من وجوه الدين. وخمسة وجوه مما تلزمه فيها من وجوه الصلوات. وأربعة أوجه مما تلزمه فيها النفقة من وجوه اصطناع المعروف»^(٤).

(١) سعيد أبو الفتوح بسيوني، الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٨، ص ٤٦٥.

(٢) سورة البقرة، جزء من الآية ٢٥٤.

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٧، ح ١٦٩٣.

(٤) الحراني، تحف العقول، ص ٣٣١.

فتأتي توجيهاته على مصاديقها من الإنفاق على النفس والأهل، وما يستحق أن ينفق الإنسان في العبادات والحقوق الاجتماعية ممّا يؤدي إلى الارتقاء النفسي والروحي، وهذا ما ينصه:

«فأما الوجوه التي تلزمه فيها: النفقة على خاصة نفسه فهي مطعمه ومشربه وملبسه ومنكحه ومخدمه وعطاؤه فيما يحتاج إليه من الأجراء على ترميم متاعه أو حمله أو حفظه، وشيء يحتاج إليه من نحو منزله أو آلة من الآلات يستعين بها على حوائجه. وأما الوجوه الخمسة التي تجب عليه النفقة لمن تلزمه نفسه فعلى ولده ووالديه وامراته ومملوكه لازم له ذلك في حال العسر واليسر.

وأما الوجوه الثلاثة المفروضة من وجوه الدين فالزكاة المفروضة الواجبة في كل عام والحج المفروض والجهاد في إبانته وزمانه.

وأما الوجوه الخمسة من وجوه الصلوات النوافل فصلة من فوقه وصلة القرابة وصلة المؤمنين والتنفل في وجوه الصدقة والبر والعتق.

وأما الوجوه الأربعة فقضاء الدين والعارية والقرض وإقراء الضيف واجبات في السنة»^(١).

ومن الجدير بالذكر أنّ الصادق في ذكر مجموع النفقات التي فرضها الإسلام على الفرد، يلفت نظر السائل والآخرين إلى إشباع الرغبات المعنوية إضافة إلى إشباع الرغبات المادية.

وذلك على النقيض من الاقتصاديات الوضعية التي قصرت عنايتها على الجانب المادي دون مراعاة أو التفات إلى الجوانب الأخرى كالقيم والمبادئ الأخلاقية والروحية في الاستهلاك.

فقد أدخل الإمام في السلة الاستهلاكية للمسلم ما يسميه حق الله في المال وما يذكر في باب التكافل والتضامن في المجتمع الذي «يشير الشعور بالأخوة والمحبة بين الأفراد من جهة ويؤدي إلى الفرح الداخلي العظيم في المنفق من جهة أخرى؛ لأنّه قد أدى حق الله في المال الذي استخلفه فيه وطهر نفسه بالصدقات المندوبة كما طهر ماله بالصدقات المفروضة»^(٢).

وهكذا يرى الإمام المعلم أداء هذه الحقوق من أسباب السعادة للفرد والمجتمع

(١) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٢) فوزي عطوي، الاقتصاد والمال في التشريع الإسلامي والنظم الوضعية، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٦ و ٢٧ بتصرف.

كما ورد على لسانه: «لو أنّ الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير»^(١).
ويحذّر الأمة من منع هذه الحقوق بقوله: «من منع حقاً لله عزّ وجلّ أنفق في باطل مثليه»^(٢).

بناءً على هذا يركّز الصادق منهجه التربوي أولاً على إلزام الناس بأداء ما فرض الله عليهم من الزكاة كضريبة اجتماعية وبما أنّ الإنسان قد يتصور أحياناً أن ماله سيفنى بأداء الزكاة وسيزداد بمنعه، هو يؤكد أنّ الله تبارك وتعالى يثيب فاعل الزكاة بالبركة ونماء الأموال، فيقول:

«ما من رجل أدى الزكاة فنقصت من ماله، ولا منعها أحد فرادت في ماله»^(٣).
ثانياً: يشجع الإمام أتباعه على دائرة أوسع من الواجبات بالتأكيد على الوجوه الخيرة من الصدقة والبرّ والإيثار حتى لا يغيب عن بالهم، الفقير المحتاج لحظة فيما يمارس من نشاطه الاقتصادي كقوله:
«أترون أئماً في المال (مال) الزكاة وحدها؟ ما فرض الله في المال من غير الزكاة أكثر، تعطي منه القرابة، والمعترض لك ممن يسألك»^(٤).

هكذا يوضّح الإمام أنّ في المال حقاً غير الزكاة ممّا يجني ثمراته المجتمع الإسلامي، «وهو خلق نوع من الترابط والتماسك والإحساس الجماعي المشترك مادياً ومعنوياً بين أفراد الجماعة الإسلامية»^(٥) فهو يراقب تلاميذه بأداء هذه الحقوق ومواساتهم الفقراء وتخفيف العبء عنهم، كما روي أنه خاطب أحد أتباعه بقوله:
«إنك رب مال كثير فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة؟» قال: نعم. قال الإمام: «فتخرج الحق المعلوم من مالك؟» قال: نعم.
قال: «فتصل قرابتك؟ وتصل إخوانك؟» قال: نعم. قال: يا فلان إن المال يفنى، والبدن يبلى، والعمل يبقى والديان حي لا يموت. ما قدمت فلم يسبقك، وما أخرت فلن يلحقك»^(٦).

فبهذا الترغيب والترهيب يريد الإمام أن يحرّر تلميذه من عبودية المال.

-
- (١) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٤، ص ٤٩، ح ١٢٨.
 - (٢) الحر العاملي، وسائل الشيعه، ج ٦، ص ٢٥، ح ٢.
 - (٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ١١، ح ١٥٩٠.
 - (٤) الكليني، فروع الكافي، ج ٣، باب تفضيل القرابة في الزكاة، ح ٥٥١.
 - (٥) رفعت السيد العوضي، في الاقتصاد الإسلامي، سلسلة كتاب الأمة، مؤسسة الخليج، قطر، ١٤١٠، عدد ٢٤.
 - (٦) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٧، ح ١٥٧٨.

وهكذا كانت توجهات الصادق تحوّل اتجاه الاستهلاك في المسلم ومسار إنفاقه للمال من التسابق على إشباع الرغبات والاستجابة للنزعات والتفنّن في أساليب الحياة وألوان البذخ، إلى تحمل الهموم الكبيرة والإحساس بالمسؤولية إزاء الآخرين. ولا يكتفي النظام التربوي الاقتصادي في فكر الإمام بمجرد الكلام وطرح النظريات في سبيل تحقيق أهدافه وإنّما يعتمد إلى التطبيق العملي لهذه الأمور؛ فكان الإمام يقوم بنفسه بتقديم مساعدات مالية لأهل الحاجة وتوزيع ماله عليهم والعمل على إغناء الناس وإزاحة كابوس الفقر عن كواهلهم.

كما روى أحد تلاميذه قال: قلت للإمام: «بلغني أنك كنت تفعل في غلة «عين زياد» شيئاً، وأنا أحب أن أسمع منك». قال: فقال لي: نعم كنت أمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم، ليدخل الناس ويأكلوا؛ وكنت أمر في كل يوم أن يوضع عشر ثناتٍ، يقعد على كل ثنة عشرة، كلما أكل عشرة جاء عشرة أخرى، يلقي لكل نفس منه مد من رطب. وكنت أمر لجيران الضيعة كلهم - الشيخ والعجوز والصبي والمريض والمرأة ومن لا يقدر أن يجيء - فيأكل منها، لكل إنسان منهم مدّاً؛ فإذا كان الجذاذ، أوفيت القوّم والوكلاء والرجال أجرتهم، وأحمل الباقي إلى المدينة، ففرقت في أهل البيوتات والمستحقين الراحلتين والثلاث والأقل والأكثر، على قدر استحقاقهم، وحصل لي بعد ذلك أربعمئة دينار. وكانت غلتها أربعة آلاف دينار»^(١).

* تحديد الإنفاق والإلزام به:

يقصد من الاستهلاك في الاقتصاد الوضعي، الاستهلاك نفسه أي إشباع رغبات المستهلك، وما دامت هذه الحاجات مدعمة بالقدرة على الشراء يُعنى بها، ويوضع لها حدود، لذلك «لا تتجّه السياسات الاقتصادية الوضعية نحو ترشيد الاستهلاك الفردي للسلع، والخدمات، إلا انبعاثاً من وجود ندرة في عرض بعض السلع، والخدمات، وعدم قدرة المعروض منها، على مواجهة المطلوب»^(٢).

أما الاستهلاك في الإسلام فإنه ليس غاية للوجود الإنساني بحد ذاته، وإن كان غاية للنشاط الاقتصادي فالمجتمع المسلم يستهلك ليعيش ولا يعيش ليستهلك، ويهدف الاستهلاك فيه إلى تحقيق غايات أخلاقية وعقدية وإنسانية.

على هذا ركّز تنظيم الإنفاق للمستهلك المسلم وتوجيه اختياراته في الاستهلاك وفقاً لهذه الأهداف.

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٤٠.

(٢) بيلي إبراهيم أحمد العليمي، السياسة الاقتصادية الإسلامية لترشيد الاستهلاك الفردي، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١.

فالإسلام وإن كان يبيح الإنفاق بل يأمر به إلا أنه قد جعل له قيوداً حتى مع وجود وفرة في المعروض من السلع والخدمات، فلا يجوز للمسلم أن يتخطى هذه الحدود.

وقد أكد الإمام الصادق في مدرسته التربوية على هذا المنهج الاقتصادي الإسلامي لترشيد الإنفاق الفردي وأرشد تلاميذه إلى أسلوب التحديد الكمي والنوعي للاستهلاك ممّا يعرفنا أنّ المسلم لا بدّ أن يتعلّم ويحسن عن طريق الوعي والتربية: ماذا يستهلك؟ وكم يستهلك؟ ولم يستهلك؟ وفي هذا البحث سوف نتناول أهمّ إرشاداته في هذا المجال:

١ - التحديد الكيفي:

لقد امتازت البرامج الترشيدية في مدرسة الصادق، بأنّها تنظم حياة الفرد اليومية على استهلاك الطيبات واجتناب الخبائث عبر تفصيل الضوابط الشرعية للاستهلاك.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(١)

لأنّ الإسلام لا يسمح لأي فرد بأن يصرف ماله على نزواته وفيما حرم الله أو يستهلكه في غير موضعه، ولكنه يوجه الفرد لاستهلاكه فيما ينفع، ليحقق الغرض منه. من هنا تختلف السلع والخدمات التي يستهلكها المسلم من غيره.

فالإمام الصادق عندما يوجّه تلاميذه إلى أحكام الحلال والحرام في إشباع الحاجات الضرورية كالأكل والشرب يسوق ذهنية الأمة إلى قضية النفع والضرر أو الصلاح والفساد للإنسان حتى يربّيهما على أنماط الاستهلاك السليمة والواعية وهذا ما ينصّه:

«فأما ما يحل ويجوز للإنسان أكله مما أخرجت الأرض فثلاثة صنوف من الأغذية: صنف منها جميع الحب كله من الحنطة والشعير والأرز والحمص وغير ذلك من صنوف الحب وصنوف السماسم وغيرها.

كل شيء من الحب مما يكون فيه غذاء الإنسان في بدنه وقوته فحلال أكله وكل شيء تكون فيه المضرة على الإنسان في بدنه فحرام أكله إلا في حال الضرورة وكذلك من جميع صنوف الثمار وجميع صنوف البقول والنبات»^(٢).

وبما أنّ المنفعة والمضرة ليست مقتصرة على جسد الإنسان فحسب بل تشعل كل النواحي الصحية والنفسية والاجتماعية.

فإن الإمام يلفت أنظار تلاميذه إلى تأثير بعض السلع على النواحي العقلية التي تؤدي إلى حرمة، كقوله:

(٢) الحراني، تحف العقول، ص ٣٣٧.

(١) سورة الأنعام، جزء من الآية ١١٩.

«وما يجوز من الأشربة من جميع صنوفها، فما لا يغيّر العقل كثيرة فلا بأس بشربه وكل شيء منها يغيّر العقل كثيرة فالقليل منه حرام»^(١).

فممّا ينجّم عن هذا التوجيه أنّ الاستهلاك لا بد أن يتوجه إلى الطيبات التي بها قوام طاقات الإنسان وقدراته الجسدية والعقلية والروحية.

والمستهلك عندما يتخذ قرار إشباع حاجاته لا بدّ له من «تجنب جميع السلع والخدمات التي يثبت قطعاً أنها ضارة بالصحة أو بالأخلاق، أو تلك التي يتضمن استهلاكه لها انغماساً واضحاً في ترف الحياة الدنيا وتبذيراً لا يستحسنه إلا الشيطان»^(٢).

على صعيد آخر يحاول الإمام في مسيرته التربوية تغيير النمط الاستهلاكي في المجتمع، والذي يتمثل في إرشاداته إلى عدم اقتصار الإنفاق، على شراء السلع الاستهلاكية البحتة، حتى يدّخر الفرد شيئاً من ثمن السلعة، عن طريق مساهمته في العملية الإنتاجية، وهو يعتبر هذا الأمر من الطرق الأساسية للقضاء على الفقر، كما ورد عنه قوله في هذا الصدد: «شراء الحنطة ينفي الفقر، وشراء الدقيق ينشئ الفقر، وشراء الخبز محق»^(٣).

هذا التوجيه التربوي تضمن إشارة لطيفة إلى مراحل متتالية في تحويل المواد الأولية إلى إنتاج السلعة النهائية، ثم يبيّن بأنّه كلما ازدادت المساهمة في الإنتاج، كلما ابتعد الفرد والمجتمع عن الفقر وهذا بادّخار القيمة المضافة^(٤) التي حصل عليها الفرد عن طريق مساهمته نفسه.

هكذا نرى بأنّ الإمام في مسيرته التربوية قد اهتمّ بتوجيه الطلب الاستهلاكي إلى الطلب الإنتاجي من جهةٍ والالتفات إلى قاعدة المصلحة والنفع البشري - بدناً وعقلاً وروحاً - في نوعية السلع الاستهلاكية من جهةٍ أخرى، حتى لا يذهب تلاميذه فيما لا فائدة من ورائه أو فيه ضرر.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣٨.

(٢) أحمد عبد الرحمن يسري، دراسات في علم الاقتصاد الإسلامي، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، ١٩٨٨، ص ٣٥.

(٣) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٧، ص ١٦٢.

(٤) القيمة المضافة (Vallu added) عبارة عن الفرق بين تكاليف استخدام عناصر الإنتاج في مرحلة ما والثمن الذي تباع به السلعة عند نهاية هذه المرحلة... وتبيّن الأهمية الكسبية لكل صناعة أو مرحلة على حدة منها. (زكي بدوي، المعجم الاقتصادي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ص ٣٠٠).

٢ - التحديد الكمي:

من أهم الأساليب الحاسمة التي اعتمد عليها الإمام الصادق لترشيد الاستهلاك الفردي هو التأكيد على التحديد الكمي للإنفاق. فهو لم يكتف في تربيته بضبط سلوك المستهلك نوعياً، إنما يضبط درجة الكمية التي يسمح للفرد المسلم باستهلاكه من السلع.

فالإسلام أمر أتباعه بالتمتع في هذه الدنيا بالطيبات الحلال، مع ضرورة المحافظة على خط الاعتدال في هذا التمتع.

لأن «قضية الاستهلاك في الإسلام ليست كما هي في الفكر المادي المعاصر، قضية إنفاق يتناسب مع الإنتاج، أو مع ما رزقه الإنسان من رزق، بل هي قضية اعتدال في الإنفاق، مهما وسع الله سبحانه على الإنسان في الرزق»^(١)، أو على حد التعبير القرآني المحكم، في وصف عباد الرحمن المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢).

وهذا المقصد بالذات هو ما اهتم به الإمام في تعاليمه، فأوضح بأن المسلم ليس حراً طليقاً في إنفاق ماله، يبذله يمنة ويسرة من غير رقيب، وإنما هو مقيد ومسؤول عن النفقة فيما أحله الله، ولذلك يقول الإمام لأحد تلاميذه:

«أترى الله ائتمن رجلاً على مالٍ خول له، أن يشتري فرساً بعشرة آلاف درهم، ويجزئه فرس بعشرين درهماً؟»...^(٣)

وهذه المطالبة الصريحة من الإمام بوجوب ترشيد الاستهلاك وتحديد كميته حتى في حالات الغنى والرخاء ووفرة الإنتاج فهو لا ينهى عن التوفير لكل فرد، ذلك المستوى اللائق والكرام من المعيشة الذي يتناسب مع ظروفه وأوضاعه، بل كما برز في تعبيره «يجزئه»، يدعو إلى الاعتدال في الأنماط الاستهلاكية والحفاظ على النعمة مهما كانت إمكانات الفرد كبيرة.

ولذلك وجدنا من أبرز إرشاداته لتلاميذه التوكيد على وسطية الاستهلاك، أي بالقدر الذي يحقق القصد منه في كل جوانب الحياة. وهذا فيما روى عنه أبان بن تغلب:

«المال مال الله، يضعه عند الرجل ودائع، وجوز لهم أن يأكلوا قصداً، ويشربوا

(١) عبد الغني عبود، التربية الاقتصادية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٥٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٦٧.

(٣) محمد بن مسعود، تفسير العياشي، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣.

قصدًا، ويلبسوا قصدًا، وينكحوا قصدًا، ويركبوا قصدًا؛ ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلمّوا به شعثهم. فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً، ويشرب حلالاً، ويركب حلالاً، وينكح حلالاً؛ ومن عدا ذلك كان عليه حراماً^(١).

في هذا الكلام نرى تأكيداً على استخلافية المال، ثم الاقتصاد والاعتدال في وجوه الاستهلاك، إضافة إلى أداء الحقوق الاجتماعية للمسلم فهو يعتبر التجاوز عن هذا الحد، خروجاً عن دائرة طاعة الله وهو حرام.

ونجد في كثير من التوجيهات التربوية للإمام ما يرسم لنا الطريق في تطبيق الاعتدال ومنها:

- الحث على التقدير:

تأسيساً على ما سبق، أكدت مدرسة الصادق على ضرورة التدبير في المعيشة للمسلم، وربما نستطيع أن نقول: إن من معالم حسن التدبير، الالتزام بالتقدير والرفق في العيش، كما يقول الإمام:

«الرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال، والرفق لا يعجز عنه شيء والتبذير لا يبقى معه شيء»^(٢).

وفي هذا الكلام ترغيب في اكتساب «الرفق في تقدير المعيشة أي التوسط بين التقتير والتبذير، وعبارة «لا يعجز عن شيء» يعني لا يضعف ولا يقصر عن شيء من المال لأن القليل من المال يكفي مع التقدير»^(٣).

ومما ينبغي أن نتأمل فيه، أن الإمام قد يوصي بقضية التقدير في الأسرة، كأنه يرى من الضروري أن تبدأ التربية الاستهلاكية من البيوت.

وقال بصدد أهمية الكيل: «ويقوتهنّ (أي الرجل عياله) بالمدّ، فإنني أقوت به نفسي وعيالي. وليقدّر لكل إنسان منهم قوته، فإن شاء أكله، وإن شاء وهبه، وإن شاء تصدّق به»^(٤).

والتقدير أكثر فضلاً عندما يلزم الإنسان نفسه بها في حال الغنى، ويرمي بها إلى مواساة الناس وتطابق الاستهلاك الفردي مع مستوى الجماهير، كما يقول الصادق: «إنا نستكره أن نأكل جيداً ويأكل الناس رديئاً»^(٥).

(١) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب الرفق، ح ٩.

(٣) محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، مرجع سابق، ج ٨، ص ٣٥١.

(٤) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب حق المرأة على الزوج، ح ٥.

(٥) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٧، ص ١٦١.

فهو في سيرته العملية يعمل هكذا حينما يريد أن يعرض القدوة للآخرين، فروي في هذا الصدد أنه عندما أصاب أهل المدينة قحط وزادت أسعار السلع فيها، قال الإمام لمولاه:

«كم عندنا من طعام؟ قال: عندنا ما يكفيننا شهراً كثيراً. قال: أخرجه وبعه! قال: وليس بالمدينة طعام. قال: بعه! أشتري مع الناس يوماً بيوم. ثم قال: يا فلان! اجعل قوت عيالي نصفاً شعيراً ونصفاً حنطة، فإن الله يعلم أنني واجد أن أطعمهم الحنطة على وجهها، ولكنني أحببت أن يراني الله قد أحسنت تقدير المعيشة»^(١).

- التحذير من الإسراف والإفراط:

من معالم التربية الاقتصادية في مدرسة الصادق التحذير من الإسراف أي «مجازاة القصد»^(٢) وهو: «صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ما ينبغي، بخلاف التبذير، فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي»^(٣).

فالنهي عن الإسراف يمثل تحديداً كمياً لنفقات المعيشة كما أنّ المنع من التبذير يمثل تحديداً كيفياً للتصرف في المال، لأن «التبذير، الجهل بمواقع الحقوق والسرف الجهل بمقادير الحقوق»^(٤).

فالإمام الصادق يريد أن يكون الرقابة الذاتية لدى الفرد بحيث يراقب نفسه بنفسه في كل شيء وعن طريق تقوى الله، لذلك يرشد تلاميذه بقوله:

«إنّ القصد أمر يحبه الله والسرف أمر يبغضه الله... «اتق الله ولا تسرف ولا تقترب من ذلك قواماً وإن التبذير من الإسراف»^(٥).

وقد سعى إلى تحويل هذه المبادئ العامة إلى إجراءات سلوكية في تربية تلاميذه، عبر تبين مظاهر الاستهلاك الخارجة عن الوسطية، في الحياة اليومية كقوله:

«إنما السرف أن تجعل ثوب صنوك^(٦) ثوب بذلتك»^(٧).

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٦٠.

(٢) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٥١.

(٣) الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، ١٩٦٩، ص ٢٤.

(٤) أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨، ص ١٨٧.

(٥) الكليني، فروع الكافي، ج ٤، باب فضل القصد، ح ٢ وباب فضل الزكاة، ح ١٤.

(٦) ثياب الصون: التي تلبس للتجمل والبذلة: الثوب الرث الخلق وثوب الخدمة وما يلبس كل يوم.

(٧) الطبرسي، مكارم الأخلاق، مرجع سابق، ص ١٥٦.

وقال: «أدنى الإسراف هراقة فضل الإناء، وابتذال ثوب الصون، وإلقاء النوى»^(١).

ومن أهم هذه الإجراءات، توجيهه إلى المحافظة الشديدة على الموارد، وعدم السماح بهدرها في الاستهلاك، وقد روي «أنه نظر إلى فاكهة قد رميت من داره لم يستقص أكلها، فغضب الإمام وقال: ما هذا؟ إن كنتم شبعتم فإن كثيراً من الناس لم يشبعوا، فأطعموه من يحتاج إليه»^(٢).

يمقت الإمام هذا السلوك الاستهلاكي لما له من تأثير سيئ على الأفراد والمجتمعات؛ لأن فيها ظلماً للفقير والمسكين. وعليه، تجيء توجيهاته بأن يعرف معياراً لمصاديق الإسراف حتى لا يخطئ الناس فيها بقوله:

«ليس فيما أصلح البدن إسراف إنما الإسراف فيما أتلّف المال وأضر بالبدن»^(٣).

- غرس روح القناعة:

إنّ حالة الحرص والطمع هي العامل لشقاء الإنسان وغرقه في الملذّات المادية والدنيوية، فالحريص يطلب الغنى من خارج ذاته ووجوده في حين أن أصل الغنى وحقيقته يجب أن يحصل عليها الإنسان من داخله.

وهذا ما يقصد إليه الصادق في تربيته عندما يتحدّث عن واقع الإنسان في الحياة بقوله:

«مطلوبات الناس في الدنيا الفانية: الغنى، والدّعة، وقلة الاهتمام، والعزّ، فأما الغنى فموجود في القناعة، فمن طلبه في كثرة المال لم يجده...»^(٤).

وذلك لأنّ القناعة هي التي تورث الإنسان الطمأنينة والهدوء النفسي في الحياة، والإنسان عندما تصاب روحه بالحرص، فإنّه لو ملك الدنيا بما فيها فإنه يعيش فقيراً كذلك، ولكّنه إذا عاشت روحه الغنى الذاتي ولم يجد في نفسه طمعاً، فلو سلب من جميع ما في الدنيا فإنه يعيش الغنى كذلك.

وهذا ما أشار إليه الإمام في معالجة المشكلة التي شكا فيها رجل إليه: «أنه يطلب فيصيب ولا يقنع وتنازع نفسه إلى ما هو أكثر منه، وقال: علمني شيئاً أنتفع به، فقال أبو عبد الله:

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٦٣، ص ٤٣٢.

(٣) الكليني، فروع الكافي، ج ٦، باب فضل القصد، ح ١٠.

(٤) الصدوق، معاني الأخبار، ص ٢٣.

«إن كان ما يكفيك يغنيك، فأدني ما فيها يغنيك، وإن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا يغنيك»^(١).

فالإمام يلفت نظر الرجل إلى النظام الحكيم الحاكم على هوية الإنسان وفطرته ويرشده إلى الحد المناسب لواقع الوجود الإنساني وهو حد القصد والاعتدال، فيدعوه إليه ويعلمه اكتساب الغنى النفسي بجوهره البناء وهو الاستغناء بالكفاف.

- النهي عن التقتير والتفريط:

يُعرّف التقتير بأنه «إنفاق أقل مما ينبغي فيما ينبغي وهو عكس الإسراف إذ إن - التقتير - إنفاق أقل من حد الاعتدال»^(٢).

فالإمام جعفر عندما يحذّر من الإسراف والترف وتبديد الموارد الاقتصادية، فإنه ينهى في الوقت نفسه عن الشح والبخل والتقتير وفقاً لمنهج الاعتدال في الاستهلاك.

فهو يذمّ حرمان النفس من التمتع بالمباحات المتاحة والطيبات من الرزق مؤكداً على الآية الشريفة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٣).

ويحث تلاميذه على الانتفاع بزيينة الله التي خلقها لعباده في مثل قوله:

«اتخذوا الدابة فإنها زين . . . ومن سعادة المرء دابة يركبها في حوائجه ويقضي عليها حقوق إخوانه»^(٤).

ويؤكد المعنى نفسه في حديث آخر فيقول: «ما أنفقت من الطيب فليس بسرف»^(٥).

وعند التأمل في النصوص الواردة عنه قولاً وفعلاً يتضح لنا مدى اهتمامه بالتربية الجمالية لتلاميذه.

وقد يتحدّث عن الله بأنه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، مؤكداً بأنها طريق إلى شكر الله تعالى حيث يقول:

«إظهار النعمة أحب إلى الله من صيانتها فإياك أن تتزيّن إلا في أحسن زيّ قومك»^(٦).

(١) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، باب القناعة، ح ١٠.

(٢) أمين منتصر، نظرية سلوك المستهلك في الاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، د.ت. ص ٦٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

(٤) الطبرسي، مكارم الأخلاق، مرجع سابق، ص ٢٦٢.

(٥) الكليني، فروع الكافي، ج ٦، باب الطيب، ح ١٦.

(٦) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٣٤٢.

فهو على صعيد سلوكه الشخصي كان هكذا، وهو بصفته أحد المربين الكبار يظهر في المجتمع بشكل رائع وجميل حيث ورد عن سفيان الثوري أنه قال: دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خزّ دكناء وكساء خزّ، فجعلت انظر إليه تعجباً، فقال لي: «يا ثوري، ما لك تنظر إلينا؟ لعلك تعجب ممّا ترى» فقلت له: يا ابن رسول الله؟، ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك!

فقال: «يا ثوري، كان ذلك زمان افتقار، وكانوا يعملون على قدر إقتاره وافتقاره، وهذا زمان قد أسبل كل شيء عزاليه. ثم حسر رذن جبته، فإذا تحتها جبة صوف بيضاء يقصر الذيل عن الذيل والرذن عن الرذن، وقال: يا ثوري، لبسنا هذا لله وهذا لكم، فما كان لله أخفيناه، وما كان لكم أبديناه»^(١).

فقد أشار الإمام في كلامه إلى تغيير الأحوال والشرائط مع مضي الزمن، وأكد تأثير هذا الأمر على المستوى المعيشي مبيناً بأنّ الزهد في نعم الله ليس فضيلة، إنّما الفضيلة هي في تمتع الإنسان بها في حدود القيم التي رسمها الدين لإثراء سعادته، ومنها عدم إغراق الفرد في اللذات الدنيوية إضافة إلى تعويد نفسه على تحمل الظروف الصعبة قبل وقوعها كالعود على خشونة الطعام والملبس.

وقام الإمام بهذه التربية على أكمل وجه عندما يعرف الزهد تعريفاً دقيقاً يتضمن تحذيراً من التباس هذه المرتبة الإيمانية بالتقتير والتقشف، وهذا ما ينص عليه قائلاً:

«ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا بتحريم الحلال بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عزّ وجلّ»^(٢).

فالصادق بهذا التوجيه التربوي، يلفت الأنظار إلى أن الزهد حالة نفسانية، تتحقّق باطمئنان الإنسان إلى قدرة الله وعطائه، وليس هو تحريم الحلال ومنع الجود والعطاء على نفسه وعلى الآخرين. وهكذا يربّي الإمام تلاميذه بحدود الاستهلاك السليم: لا إسراف ولا تقتير بل إنفاق بالتقدير والقناعة وهذه هي الرسالة التي تقوم على منهج الاعتدال في تربية الخلق ليصبحوا أنموذجاً يحتذى في المجتمع.

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٩٣/ الشافعي، مطالب السؤول، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٦.

(٢) الصدوق، معاني الأخبار، مرجع سابق، ص ٢٥١.

المبحث الثاني

البناء المهني

- مفهوم المهنة وأهميتها
- الجانب المهني في فكر الإمام التربوي
- تصنيف المهن والحرف في مدرسة الصادق
- أخلاقيات المهن والحرف في مدرسة الصادق

المبحث الثاني

البناء المهني

إن التربية الإسلامية تهدف إلى بناء إنسان مسلم عارف بدينه ويتصرف وفق قواعده ومبادئه، وفي الوقت ذاته ترمي إلى تخريج إنسان قادر على أن يعيش حياة كريمة في المجتمع، يقدر أن يعطيه ويسهم في حركة بنائه ودفعه وتطوير الحياة فيه من خلال عمل معين يتقنه ويجيده.

لذلك فإن التربية المهنية جزء من التربية الشاملة في الإسلام، وهي العملية التي تجمع كل القيم العلمية والاجتماعية والخلقية حول مهنة معينة وتقدمها للفرد لإعداده للقيام بتلك المهنة.

ومن البديهي أن من عوامل تخلف المجتمع افتقاره إلى الكوادر الفنية والمهنية. فتوافر مثل هذه الكوادر يوفر للمجتمع الجانب المادي في نموه وقوته واستمراره؛ وهنا تبرز ضرورة التوجيه التربوي للقدرات والمهّن والتكنولوجيا في أي مجتمع يسعى إلى التغيير والتطور.

إذ «إن العمل والتنمية صنوان لا يفترقان، فلا تنمية بغير عمل، ولا يمكن أن نتصور التنمية الحقيقية بغير عمل»^(١). فإذا أراد المجتمع أن ينمي نفسه فلا بد أن يأخذ بالاتجاه العملي.

من هنا نجد أن الإمام الصادق قد اهتم بهذا الجانب من التربية في مدرسته؛ لأنها من العوامل التي تدفع الأمم إلى الرقي، وتحافظ على كيانها، بل إنها من الركائز التي يركز عليها الاقتصاد في كل بلد من البلدان. فشجع تلاميذه على دراسة كل مهنة أو فن أو صناعة مما يحتاج إليه المجتمع واكتساب المهارات فيها وتعلم ضوابطها وآدابها وأخلاقياتها، لكي يعدّهم إعداداً مهنيّاً لأداء وظيفتهم في الحياة.

ستحاول هذه الدراسة من خلال النصوص الواردة في تعاليم الإمام أن نتناول مدى اهتمام الإمام بالحرف والمهّن ومدى ما وصل إليه الاتجاه الحرفي والمهني في تربيته وما يمكن أن نستفيد من ذلك عند التخطيط التربوي لنهضتنا الحضارية والعمرانية الآتية والمستقبلية.

(١) عبد العزيز الخياط، نظرة الإسلام للعمل وأثره في التنمية، دار السلام للطباعة، القاهرة،

مفهوم المهنة وأهميتها

المهنة لغة: الحذق بالخدمة والعمل والماهر: الخادم وقد مهن القوم أي خدمهم^(١).

وفي الاصطلاح: «مجموعة من الأعمال المتشابهة التي تنتمي إلى عائلة مهنية واحدة بحيث يستطيع الشخص أن يمارسها بعد تدريب طفيف لتواجد الارتباط بين تلك الأعمال»^(٢). فلكل مهنة أسسها العلمية، «ومن الضروري أن يكون لدى صاحب المهنة معلومات ومهارات متخصصة في المجال الذي يقوم بالعمل فيه، ثم عليه أن يستخدم هذه المعلومات والمهارات في تعلم أو توجيه أو تقديم خدمات لأعضاء المجتمع الذي يعيش فيه»^(٣).

إن المسلم مطالب بأن يعمل في إطار الدنيا مبتغياً وجه الله سبحانه وتعالى، وفي هذا الإطار نادى الإسلام بضرورة تدريب الفرد المسلم على الاشتغال بمهنة وتزويده بمهارات مناسبة يكسب منها عيشه. حتى يعتبر أن «بعض المهن والحرف حسب تدرج أهميتها في حياة البشر إنما هي فروض كفاية لا يجوز أن يخلو منها المجتمع؛ لأنه يعرض أفرادها إلى المشقة الحياتية»^(٤).

ومن هنا كان للإسلام دور عظيم في نشر الحرف والمهن والصناعات بين المسلمين، ويتضح ذلك مما نراه في كثير من مظاهر الحياة الإسلامية.

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة مهن، ص ٤٢٤.

(٢) سيد عبد الحميد مرسي، الشخصية المنتجة، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ١٣ (بتصرف).

(٣) محمد منير سعد الدين، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، مرجع سابق، ص ١٠١.

(٤) عبد الرحمن النقيب، مدخل لدراسة الاتجاه الحرفي والمهني في التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، المنصورة، د.ت، ص ١٢١.

الجانب المهني في فكر الإمام التربوي

إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَوَّضَ إِلَى الْإِنْسَانِ عِمَارَةَ الْأَرْضِ وَجَعَلَهُ يَعْمَلُ وَيَسْعَى فِيهَا وَيَسِيرُ فِي أَرْجَائِهَا لِيَعْمَرَهَا وَيَسْتَخْرِجَ مِنْهَا أَرْزَاقَهُ. ثُمَّ أَعْطَى الْبَشَرَ مِنَ الطَّاقَاتِ وَالْإِمْكَانَاتِ مَا يَنْتَاسِبُ مَعَ الْعَمَلِ عَلَى الْأَرْضِ وَأَدَاءِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ.

على ضوء هذا الأمر جاء في تعاليم الصادق ما يدلّ على هذا التناسق بين خلقه الإنسان ومهمته في الكون فقال: «فأما الإنسان فإنه ذو حيلة وكفّ مهيةً للعمل فهو ينسج ويغزل و...»^(١).

فالإمام يبين بأن الله تعالى أمدّ الإنسان بما يحتاج إليه في العمل وهما أمران: قوة الفكر (فإنة ذو حيلة) وطاقه العمل (كفّ مهية)، ويريد سبحانه وتعالى أن يكون الإنسان كادحاً عاملاً مؤدياً دوره في الحياة. وبما أنّ المهن والحرف وسيلة للإنسان في طلب معاشه، فلا بدّ له من الاشتغال بمهنة أو حرفة حتى يستطيع أن يشبع حاجاته.

وهذا ما أشار إليه الصادق في كلامه، فقال ما نصّه:

«وجعل سبحانه أسباب أرزاقهم - الناس - في ضروب الأعمال، وأنواع الصناعات، وذلك أدوم في البقاء، وأصح في التدبير.»^(٢)

والواقع أنّ «الاشتغال وتحمل المسؤولية هو من ضروريات الحياة الحرة الكريمة في المجتمعات البشرية ومن يطمح لينال نصيباً من مزايا المدنية ويأكل لقمته بعز وكرامة عليه أن يكون عضواً نافعاً في المجتمع ويأخذ على عاتقه عملاً في حدود كفاءته وقدرته لينتفع من نتاج عمله هذا الآخرون مثلما ينتفع هو من نتاج عمل الغير.»^(٣)

على هذا الأساس يرى الصادق خلق المناخ الثقافي المربّي الذي يوجّه نحو العمل والمهنة أساساً هاماً في أي عملية تغيير وبناء، فهو يرمي إلى هذا الهدف التربوي، وانطلاقاً منه قد يعبر عن العمل بالعزة فقال لمولى له: «يا عبد الله احتفظ بعزّك، فقال: وما عزّي؟ قال: غدوك إلى سوقك وإكرامك نفسك»^(٤).

(١) كاظم مظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص ٦١.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٧١.

(٣) محمد تقي فلسفي، الشاب بين العقل والعاطفة، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٤) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٧، ص ٤، ح ١٢.

كما قد يشير إلى دور العمل في احتفاظ الإنسان بموقعه ومكانته بين الناس، فحين قال له أحد تلاميذه: «إني هممت أن أدع السوق، وفي يدي شيء». فقال: «إذاً يسقط رأيك، ولا يستعان بك على شيء»^(١).

وبما أن البطالة تعتبر آفة اقتصادية تفتك بالمجتمع، فهو يرفع صوته عالياً ليهرّ أعماق المجتمع ويحرك نواة وعيه وذلك بهدف التحذير من الوقوع في شبك البطالة والكسل فيقول:

«من كسل عما يصلح به أمر معيشتة، فليس فيه خير لأمر دنياه»^(٢).

فهو يعتبر السعي في تدبير أمر المعيشة معيار الخير لدى الإنسان في دنياه، فمن كسل عن هذا الأمر فلا خير فيه، ولا يصلح لأمر الدنيا.

وبينما نرى القوانين الوضعية للبطالة ينبثق من خارج الإنسان، فإننا نرى الصادق يعمل على معالجة هذه الظاهرة من ذاتية الإنسان حتى يكون دافع الإنسان للعمل نابعاً من داخله لا من الخارج.

وللتغلب على هذه الظاهرة الهدامة وتوجيه ثقافة الناس إلى السعي والجهد، فإنه ينفي فكرة احتقار بعض الناس لبعض الأعمال ويعلم أصحابه أن لكل حرفة قيمة اجتماعية، مهما كان نوعها، وأن الهوان والضعف في الاعتماد على معونة الناس.

قد روي في هذا الصدد أن رجلاً أتى أبا عبد الله فقال: «إني لا أحسن أن أعمل عملاً بيدي، ولا أحسن أن أتجر وأنا محارف محتاج، فقال: اعمل فاحمل على رأسك واستغن عن الناس»^(٣).

فالإمام يعالج هذه المشكلة بالعمل في حمل المتاع ونقل البضائع وهذا ما لا يحتاج إلى رأس مال كالتجارة ولا إلى الخبرة والممارسة كما في الصناعات، فهو ينقل ما يريد الآخرون نقله ويأخذ بدله أجره وبذلك يغنيه عن سؤال الناس؛ لأن الحرفة مهما كانت بسيطة ومتواضعة، ترفع قدر الإنسان وتحفظ عليه كرامته من ذل المسألة.

والأمر الذي يجب إمعان النظر فيه، أن لكل مهنة أخلاقيات خاصة تؤثر على نفس الإنسان وشخصيته، ذلك لأن مهنة الشخص وإجراءاته، هو تكرار أعمال معينة ومميزة تتبدل إلى عادات الشخص وسلوكه وتترك أثراً عميقاً على ذات الإنسان.

إن الصادق كعالم تربوي لم يغفل عن هذا، فقد ذكر لأتباعه بعض التأثيرات

(١) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب فضل التجارة، ح ١٠.

(٢) الحويزي، تفسير نور الثقلين، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٦٧.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ٢٢، ح ٢١٩٢٢.

السلبية لبعض المهن على شخصية الفرد محذراً من تلك الانعكاسات السلبية على نفسية الإنسان وعلى سلوكه. فقال لأحد تلاميذه عندما سأله في أي الأعمال أضع ولدي؟ فقال:

«إذا عدلته عن خمسة أشياء فضعه حيث شئت، لا تسلمه صيرفياً فإن الصيرفي لا يسلم من الربا، لا تسلمه يباع الأكفان فإن صاحب الأكفان يسره الوبا إذا كان ولا تسلمه يباع الطعام فإنه لا يسلم من الاحتكار، ولا تسلمه جزّاراً فإن الجزار تسلب منه الرحمة، ولا تسلمه نخاساً، لأن رسول الله ﷺ قال: شر الناس من باع الناس»^(١).

وهذا التوجيه التربوي يتضمن كيفية تأثير بيئة عمل أي فرد في بناء شخصيته الاجتماعية وصفاته الأخلاقية، ومدى اهتمام الإمام بهذا الأمر في تربيته المهنية، مذكراً بمسؤولية الآباء في إرشاد أولادهم عند اختيارهم المهن والحرف.

(١) الطوسي، الاستبصار، ج ٣، ص ٦٢، ح ٢٠٨ وورد حديث الرسول ﷺ بهذا اللفظ: «شر الناس الذين يبيعون عن ناس» (كنز العمال، ج ٤، ص ٣٨، ح ٩٣٩١).

تصنيف المهن والحرف في مدرسة الصادق

إن المهن والحرف بصفة عامة متعددة وشاملة بتنوع وجوه المعاش وقدرات الناس، وقد ذكر الإمام الصادق في إرشاداته التربوية بعض هذه المهن والحرف في مواضيع عديدة وبأساليب مختلفة؛ من خلال أطلاعنا على النصوص الواردة عنه يمكن القول بأنه أشار إلى ثمانية عشر نوعاً من المهن على أساس نوعية العمل التي تختلف باختلاف مجال العمل.

وهذه الأنواع هي: الزراعة والرعي والتجارة والصناعة والإمارة والإجارة والتعليم والكتابة والحساب والصبغة والسراجة والبناء والحياسة والقسارة والجزارة والصرافة والخياطة وصناعة صنوف التصاوير.

كما يصنف وجوه المعاملات فيما بين العباد مما يكون لهم فيه المكاسب، بأربع جهات وأوضح بأن: «أول هذه الجهات الأربع الولاية وتوليه بعضهم على بعض، فالأول ولاية الولاية وولاية الولاية إلى أدناهم باباً من أبواب الولاية على من هو والٍ عليه. ثم التجارة في جميع البيع والشراء بعضهم من بعض، ثم الصناعات في جميع صفوفها. ثم الإجازات في كل ما يحتاج إليه من الإجازات...»^(١).

ومن أهم الخطوات التي خطاها الإمام في تربيته المهنية هي ربط هذه المهن والحرف جميعاً بالشرع وتحقيق غاياته. فهو يلفت أنظار تلاميذه بأن المسلم لا يقوم على حرفة أو مهنة إلا إذا عرف مواقف الشريعة من تلك الحرفة أو المهنة وما يجب عليه شرعاً في أدائه ذلك العمل ومن ثم يظل سلوكه الوظيفي أو المهني في إطار الشريعة وأخلاقياتها السامية.

وهذا ما ورد على لسانه فقال ما نصّه: «كل هذه الصنوف تكون حلالاً من جهةٍ وحراماً من جهةٍ أخرى، والفرض من الله على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال منها والعمل بذلك الحلال واجتناب الحرام منها»^(٢).

(١) الحراني، تحف العقول، ص ٣٣١.

(٢) المصدر نفسه، المكان نفسه.

وفي المباحث القادمة سوف نتعرض لبعض هذه المجالات التي شجعت الصادق تلاميذه عليها.

أ - الزراعة:

إن الزرع هو عطاء الأرض الذي تقدمه للإنسان من أجل أن يحيا ويعيش ويقوى على السير قدماً نحو الكمال المطلوب.

«وقد ذكرت هذه المهنة في القرآن الكريم مرات عديدة، فلم تذكر مهنة أو حرفة أو مكوناتها مثلما ذكرت الزراعة في القرآن، وهذا دليل على أهميتها للفرد والمجتمع»^(١) ونرى القرآن الكريم يوجهنا إلى حرفة الزراعة ممتناً على الإنسان بتسييرها له فيقول تعالى:

﴿يُنَبِّئُكُمْ بِهِ الْزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمَنْ كَلَّ الثَّمَرَثَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

انطلاقاً من هذا المفهوم فقد اعتبر الصادق حرفة الزراعة أطيب المهن وأحلها كسباً فقال:

«إزرعوا واغرسوا فلا والله ما عمل الناس عملاً أحلّ ولا أطيب منه»^(٣).

وتدعيماً لأهمية التقدم الزراعي ودوره في قدرة الشعوب وقوتها واستقلالها، يصف الإمام الزراعة بأنها «الكيمياء الأكبر»^(٤).

ويبحث الأمة عليها بالتأكيد على استمرار الانتفاع بها للإنسان حتى بعد الموت كصدقة مستمرة، وباعثاً به الحافز الديني في العامل المسلم فقال: «ست خصال ينتفع بها المؤمن من بعد موته... وذكر منها: غرس يغرسه...»^(٥).

هكذا يتحدث الإمام عن الثواب المستمر لهذا العمل ما دام الغرس أو الزرع مأكولاً منه. ورفع الإمام من شأن الفلاحين والمزارعين فاعتبرهم «كنوز الله في أرضه، وما في الأعمال شيء أحب إلى الله من الزراعة»^(٦).

ولم يكتف الصادق بإطلاق التأكيدات اللفظية في هذا المجال، بل زاول الزراعة

(١) جمال محمد الهندي، التربية المهنية والحرفية في الإسلام، دار الوفاء، المنصورة، ٢٠٠٠ ص ١٦٩

(٢) سورة النحل الآية ١١

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٢٥٠، ح ٣٩٠٧.

(٤) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب فضل الزراعة، ح ٦.

(٥) الصدوق، الخصال، ص ٣٢٣

(٦) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٣٨٤، ح ١١٣٨.

بنفسه فتجشم عناءها للتدليل العملي على أهمية هذا الأمر الحيوي وعندما يتسارع الناس لمعاونته يقول:

«إني لأعمل في بعض ضياعي حتى أعرق وإن لي من يكفيني ليعلم الله عز وجل أني أطلب الرزق الحلال»^(١).

ب - الرعي :

تعتبر الثروة الحيوانية البرية منها والبحرية والجوية ركناً أساسياً في قائمة الموارد الغذائية التي يحتاج إليها الإنسان وتقوم عليها حياته، ولهذا اعتنى الإمام جعفر بهذه الثروة باعتبارها نعمة كبرى وهبها الله للناس عليهم أن يشكروه عليها ويستفيدوا منها غاية الاستفادة.

ومن هذا المفهوم فقد حث الإمام على تربية المواشي والأنعام وخاصة أن بعض الناس كانوا ينظرون إليها نظرة فيها كثير من الازدراء والتحقير فقال:

«إذا اتخذ أهل بيت شاةً أتاهم الله برزقها، وزاد في أرزاقهم، وارتحل الفقر عنهم مرحلة، فإن اتخذوا شاتين أتاهم الله بأرزاقهما، وزاد في أرزاقهم، وارتحل الفقر عنهم مرحلتين، فإن اتخذوا ثلاثة أتاهم الله بأرزاقهم، وارتحل الفقر عنهم رأساً»^(٢). فالإمام يحث تلاميذه على هذا العمل، بذكر تأثيره في محو الفقر وازدياد الرزق.

ج - الصناعة :

إذا كان الإمام الصادق قد رغب في الزراعة والرعي وأشاد بفضلها، فإنه لم يحصر نشاط الأمة وجهدها فيهما وأبى على أتباعه أن يكتفوا بالزراعة أو الرعي وحده، بل شجعهم على أن يعملوا بمختلف الصناعات؛ والصناعة هي «أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية، إما في مواد بعينها وتسمى الصنائع: من كتابة وتجارة وخياطة وحياسة وفروسية وأمثال ذلك، أو في مواد غير معينة: وهي جميع الامتهانات والتصرفات كالعليم لأي علم»^(٣).

والإمام يذكر بعض أنواعها إذ سألوه عن وجوه اكتساب العباد بقوله:

«كل ما يتعلم العباد أو يعلمون غيرهم من صنوف الصناعات، مثل الكتابة والحساب والصياغة والسراجة والبناء والحياسة والقصارة والخياطة وأصناف صنوف التصاوير...»^(٤).

(١) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، ح ١٥.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٥٠٩.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص ٦٨٢ز.

(٤) الحراني، تحف العقول، ص ٣٣٥.

كما نرى من الإمام إشارة لطيفة لأحد تلاميذه، إلى أن التدبر في ظرائف الخلق الإلهي في الطبيعة والاستلham منها، أصبحت منشأ لظهور الصناعات عند البشر فقال: «فانظر إلى حكمة الخلقة كيف سبقت حكمة الصناعة»^(١).

ثم ضرب الإمام مثلاً في هذا المجال: «ألا ترى إلى عمد الفساطيط والخيم كيف تمدّ بالأطناب من كل جانب لتثبت منتصبه فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه . . . فصارت الحيلة التي يستعملها الصانع في تثبيت الخيم متقدمة في خلق الشجر . . . فالصناعة مأخوذة من الخلقة»^(٢).

فنستطيع أن نعدّ أمثلة كثيرة كهذه في الصناعات والتقنيات التي أخذت فكرتها من الطبيعة عبر العصور.

وبما أن الصناعة تعتبر الدعامة الأساسية للإنتاج لأي شعب، على اعتبار أنها من مقومات المجتمع المتحضر، فإن الصادق يدفع تلاميذه إلى العمل في الصناعة بتحويل المواد الخام إلى سلع متنوعة يحتاج إليها الناس حتى ينتفعوا بها.

هذا ما ورد في كلامه عندما روى عنه أبو حمزة الثمالي بأنه مرّ معه في سوق النحاس فسأل عن أصل النحاس فأجاب الإمام: «أصله فضة إلا أن الأرض أفسدتها فمن قدر على أن يخرج الفساد منها انتفع بها»^(٣). هكذا يشير الإمام إلى إمكانية استخراج الموارد الثمينة من المواد المعدنية في الأرض والانتفاع بها إضافة إلى التعليم والتشجيع على ممارسة مثل هذه العمليات المنتجة والصناعية في آن.

د - التجارة:

خلق الله سبحانه وتعالى الناس على حالة يحتاج فيها بعضهم إلى بعض، فليس الفرد يملك كل ما يحتاج إليه، بل يملك هذا ما يستغني عنه ذاك والعكس، ويحتاج إلى بعض ما يستغني عنه الآخرون، ومن ثم «ألهم الله الخلق أن يتبادلوا السلع والمنافع بالبيع والشراء وسائر المعاملات حتى تستقيم الحياة»^(٤).

وعندما جاء الصادق من يرقوه أن يدعوا الله له ألا يكون رزقه علي أيدي العباد، أجابه: «أبى الله عليك ذلك، أبى الله ألا يجعل رزق العباد بعضهم من بعض، ولكن

(١) كاظم مظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص ١٠١.

(٢) المصدر نفسه والمكان نفسه.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٧٣.

(٤) زياد عبد الباقي، العمل والعمال والمهن في الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٣٨.

ادع الله أن يجعل رزقك على يد خيار خلقه، فإنه من السعادة، ولا يجعله على أيدي شرار خلقه، فإنه من الشقاوة»^(١).

عليه، فإن الناس أسباب الرزق بعضهم بعضاً وتعتبر التجارة من أهم مظاهر هذه العلاقة بينهم. والتجارة «الكسب من البضائع وإعدادها لأعواض إما بالتقلب بها في البلاد أو احتكارها وارتقاب حوالة الأسواق فيها»^(٢).

وقد حث الإمام جعفر تلاميذه على التجارة مرغباً فيها، وكان لا يألو جهداً ولا يدخر نصحاً في دفعهم للعمل بالتجارة حتى إنه يذكرهم أن أكثر أسباب الرزق متعلقة بمهنة التجارة قائلاً: «إن تسعة أعشار الرزق في التجارة»^(٣).

وبما أن الإمام في مسيرته التربوية يريد أن يبعث الدافع الداخلي القوي في أتباعه لممارسة التجارة فإنه يتحدث في إرشاداته عن أثر هذه المهنة في الخبرة العقلية فعلاً وتركاً، فقال:

«التجارة تزيد في العقل»^(٤) ويؤكد المعنى ذاته في حديث آخر حيث يقول ما نصّه -: «إن من ترك التجارة ذهب ثلثا عقله»^(٥).

ولم ينس هذا المفكر التربوي أن يوجّه تلاميذه بحدود التجارة وضوابطها في الإسلام، فيظهر لنا مدى اهتمامه بهذا الأمر في تربيته المهنية عندما يعتبر التفقه في الدين أساس التجارة بقوله:

«من أراد التجارة فليتفقه في دينه ليعلم بذلك ما يحل له مما يحرم عليه ومن لم يتفقه في دينه ثم اتجر تورط في الشبهات»^(٦).

إذاً على التاجر أن يعرف ما عيّنه الله وشرعه في البيع والشراء ولا يجوز له أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه.

فالصادق يشرح هذه الحدود بالتفصيل لتلاميذه حتى يفرّق لهم بين التجارة المشروعة وغيرها وسيطول الحديث لو ذهبنا ننقل من أحاديثه ما ورد في هذا الصدد من هنا فإننا سنكتفي بالإشارة هنا إلى القليل منها فقال:

«كل بيع ملهوّ به وكل منهّي عنه، مما يتقرب به لغير الله، أو يقوى به الكفر

(١) الحراني، تحف العقول، ص ٣٦٢.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص ٦٨٢.

(٣) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٢٣٣، ح ٣٨٥٨.

(٤) الكيني، فروع الكافي، ج ٥، باب فضل التجارة والمواظبة عليها، ح ٢.

(٥) الطوسي، التهذيب، ج ٧، ص ٤.

(٦) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٨٣، ح ٤.

والشرك من جميع وجوه المعاصي أو باب من الأبواب يقوى به باب من أبواب الضلالة، أو باب من أبواب الباطل، أو باب يوهن به الحق، فهو حرام محرم، حرام بيعه وشراؤه . . . إلا في حال تدعو الضرورة فيه إلى ذلك»^(١).

ذلك لأن الإسلام فرض على المسلم أن يعمل بحرف ومهن طيبة لا تؤدي إلى الفساد والضلال، والإمام في منهجه يريد أن ينمي تقوى الله في القلوب لأن خشية المؤمن من عقاب الله هي حجر الزاوية في الاشتغال بالحرف والمهن الطيبة.

(١) الحراني، تحف العقول، ص ٣٣٣.

أخلاقيات المهن والحرف في مدرسة الصادق

تحتل الأخلاق بصفة عامة مكانة مهمة في تكوين شخصية المسلم مهما كانت مهنته أو حرفته، وقد تحدثنا في البحوث السابقة عن موقع الأخلاق في مدرسة الصادق، بيد أنها قد ركزت بجوار الدعوة الأخلاقية العامة، على بعض الآداب والأخلاقيات المهمة في حياة الحرفي اليومية. ذلك لأن العمل في الإسلام يعتمد على الناحية الخلقية والتقوى، وعلى خشية الله أكثر مما يعتمد على الالتزام والسيطرة التي توفرها القوانين الوضعية.

فسلطان الخلق والتقوى أقوى من سلطان القانون وخشية الله تعالى حارس لا يغفل، وسلطان القانون كثير الغفلة والنسيان، ومن جهة أخرى فإن «التنمية الاقتصادية عملية معقدة متعددة الجوانب وتحتاج إلى معالجة شاملة غير أن أحد جوانبها الأساسية هي القيم الأخلاقية التي تسود المجتمع»^(١).

مدرسة الصادق بما حوت تعاليمها من أخلاقيات وقيم تدفع تلاميذها إلى هذا الاتجاه في كل الحرف والمهن، وحين تدعو المسلم إلى الامتحان فإنها تدعوه أيضاً إلى تكوين مهارات فنية في مهنته والتزام الأمانة والصدق وإيفاء الكيل وعدم الغش والكذب وغير ذلك من الأخلاقيات التي سنتناول أهمها واحدة بعد أخرى فيما يلي:

أ- الخبرة والمهارة:

إن المهن والحرف لا بد أن تقوم على العلم حتى يتمكن الإنسان من السيطرة عليها ويتفهم قوانينها ويشرع في نمائها. لذلك ينبغي أن يستزيد الفرد المسلم من العلم بالقدر الذي يعينه على أداء عمله على الوجه الأكمل.

ومعنى هذا «أن الإعداد المهني للفرد يجب أن يكون مسلحاً له بالخبرات والمهارات اللازمة لأداء وظيفته في المجتمع»^(٢).

(١) جمال محمد الهندي، التربية المهنية والحرفية في الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

(٢) إبراهيم مطاوع، قراءات في التربية وعلم النفس، مكتبة الطابع الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦، ص ٢٨٩.

من هنا أرشد الإمام الصادق تلاميذه إلى أن رجل الحرفة أو المهنة مطالب بالحدق في صنعه فقال:

«كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خصال يجتلب بها المكسب: أولها هو أن يكون حاذقاً بعمله...» وتأكيداً على تزويد المحترفين بالمهارات لينجحوا في عملهم يقول: «ما أبالي إلى من ائتمنت خائناً أو مضيعاً»^(١).

فالإمام في هذا التعليم يعتبر تضييع العمل عدلاً للخيانة فيه ومن المعلوم أن التضييع قد ينشأ من فقدان المعارف والفنون اللازمة في أداء العمل. فلا يجوز لمن لا يجيد العمل لعدم الاختصاص والمهارة فيه أن يقبله وإن طلب منه.

ب - الإتيان:

الإتيان هو المعيار الذي نزن به قيمة العمل من حيث السمو والوضعة ويقصد به أداء العمل بإتيان تام بحيث يكون مستوفياً للمواصفات المطلوبة، وتتضاءل درجة الإتيان كلما قلّت هذه المواصفات.

لم يكتف الإمام الصادق بضرورة المهارة والحدق في العمل بل يؤكد على أدائه على الوجه الأكمل؛ ومما يؤدي إلى الإتيان: الجدية في العمل والتنبه لقيمة الوقت، فهو يحث رجل المهنة على استغلال الفرص والمبادرة إلى السعي الجاد في البكور، إذ بعث برسالة إلى أتباعه كتب إليهم فيها:

«فعلیکم بالجد والاجتهاد، وإذا صلیتم الصبح وانصرفتم، فبکروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال، فإن الله سيرزقكم ويعينکم علیه»^(٢) في هذا الكلام التفات إلى الجدية والمحافظة على مواعيد العمل التي تعتبر من أسباب إتيان العمل.

كما أن الإمام جعفرأ ينصح العامل ببعض الآداب التي تؤدي إلى تجويد العمل وتحسينه ومنها: الاعتدال في العمل أي ترك الإفراط والإهمال، وذلك أن «الإفراط في العمل يمتد إلى الإهمال في التنفيذ وترك يقظة الواجبة لسلامة العمل»^(٣).

وهذا ما أشار إليه الصادق في تعاليمه فقال ما نصّه: «إياك وخصلتين: الضجر والكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق وإن كسلت لم تؤد حقاً»^(٤).

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٩، ح ٢٤٢٢٠.

(٢) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب الحث على الطب، ح ٨.

(٣) قطب إبراهيم محمد، الإطار الأخلاقي لمالية المسلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣، ص ٥٠.

(٤) الصدوق، الأمالي، ص ٦٣٦.

فالضجر يُفقد الإنسان همته وصبره، فلا يطيق انتظار تحصيل حق، كما أن الكسل يضعف عزيمته ويخفف نشاطه فلا يقوى على تأدية واجب مما يؤدي إلى نفور الناس منه وابتعادهم عنه.

وفي هذه المسيرة يلفت الأنظار إلى نوعية السلع والخدمات التي تعرض للناس بما أنه مظهر من مظاهر الإتقان في العمل، فعندما سأل عن شغل أحد تلاميذه، أجابه بقوله: أبيع الطعام، فقد أرشده الإمام قائلاً:

«اشتر الجيد، وبع الجيد، فإن الجيد إذا بعته قيل له: بارك الله فيك وفيمن باعك»^(١) ومن الواضح أن الاهتمام بجودة البضاعة يؤدي إلى رضى المشتري ورضى الله تعالى، كما أن عدمه يفضي إلى زعزعة الثقة في عمله وانصراف المتعاملين معه عن خدماته أو إنتاجه وإلحاق الضرر به.

ج - الصدق وتجنب الغش :

على صاحب الحرفة أو المهنة أن يتحرى الصدق فإنه رأس ماله، والإمام يبين لتلاميذه فضل المهنة التي تقوم على الصدق ويوصي تلاميذه بالالتزام به مذكراً بالمرتبة التي تصل العامل بها يوم القيامة، كما روي عنه في جواب من سألته عن التجارة: «عليك بصدق اللسان في حديثك، ولا تكتم عيباً يكون في تجارتك، ولا تغبن المشتري المسترسل فإن غبنه لا يحل، ولا ترض للناس إلا ما ترضاه لنفسك، وأعط الحق وخذه... فإن التاجر الصدوق مع السفرة الكرام البررة يوم القيامة»^(٢)

كما حرص الإمام على التزام تلاميذه بعدم التضليل والخداع في البيع والشراء فنهى عن كل ما يؤدي إلى الغش والتدليس، فلا يجوز للبائع أن يكتم شيئاً يكرهه المشتري إذا علم به. كما روي أنه سئل عن الطعام يخلط بعضه ببعض، وبعضه أجود من بعض؟ قال: «إذا رُئيا جميعاً فلا بأس ما لم يَغْطِ الجيد الرديء»^(٣).

فالصدق يستوجب من صاحب الحرفة أو المهنة أن يظهر ما في سلعته من عيوب ولا يخفيها لمن يشتريها. والإمام يوصي العامل بأن يخبر المشتري بحقيقة السلع حتى بباطنها الذي لم يظهر له، كما روي عن أحد أتباعه «قلت لأبي عبد الله: إننا نعمل القلانس فنجعل فيها القطن العتيق فنبيعها، ولا نبين لهم ما فيها؟ فقال: «إني أحب لك أن تبين لهم ما فيها»^(٤).

(١) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب فضل الشيء الجيد الذي يباع، ح ٢.

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٣٨٥، ح ٢٢٨٠٤.

(٣) الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٧، ص ٣٤.

(٤) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ١٠٥، ح ٣٦٥١.

هكذا يلزم الإمام المسلم بالصدق في كافة معاملاته، في صناعته وفي بيعه وأن لا يتبع من الأساليب والأعمال السيئة ما يظهر سلعته أو خدمته على غير حقيقتها.

د - الالتزام بالأمانة:

من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها رجل الحرفة أو المهنة هي الالتزام بالأمانة في شغله، والإمام جعفر يؤكد أن العامل لا بدّ «أن يكون مؤدياً للأمانة في صناعته حتى يجلب بها المكسب»^(١).

ذلك أنّ صاحب كل مهنة يأتّمه الناس في معاملتهم معه فهم يأمنونه في جودة السلع وكيلها ووزنها كما يأمنونه في سعرها، فعليه أن يكون مراعيّاً لتلك القيم. ومن أهم مظاهرها إيفاء الكيل وإتمامه والمسلم إذا كال أو وزن لا يأخذ أكثر من حقه ولا يعطي الناس أقل من استحقاقهم فإنه إذا طفف في كيله أو وزنه بأن زاد على ما أخذ أو نقص مما أعطى تضعف ثقة الناس به وينصرفون عن معاملته وينفضون من حوله ويكسد حرفته أو تجارته ويكسر سوقه، هذا إلى جانب عذاب الله الأليم الذي أعدّه له في الآخرة حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ *﴾.

ونظراً لخطورة هذا الأمر نرى إيلاء الإمام كبير الاهتمام بترسيخ هذه الأخلاق في نفوس أتباعه في نياتهم وتصرفاتهم حيث يقول في هذا الصدد ما نصه:

«إنو الوفاء، فإن أتى على يدك - وقد نويت الوفاء - نقصان، كنت من أهل الوفاء، وإن نويت النقصان ثم أوفيت كنت من أهل النقصان»^(٢).

فالإمام يؤكد على صلاح النية وإخلاص القلب لرب العالمين، فلينبو المسلم بحرفته أو مهنته الالتزام بحدود الله وإن عجز أو أخطأ في أداء عمله على الوجه الأكمل فإن الله هو المطلع على خبايا النفوس فيغفر له ويقبل عمله؛ لأن بعد نيته أرجح لديه من عجز وسائله.

هـ - حسن المعاملة:

إن كل حرفة أو مهنة تقضي حاجة من حاجات الناس، وتقدم خدمات خاصة لهم. وعلى هذا الأساس فإن التعامل بالحسنى والمودة مع الناس تعتبر من أهم عوامل النجاح لصاحب الحرفة، فهي تنبع من الأخوة الإسلامية التي تؤدي إلى التعاطف والتراحم في العلاقات بين المسلمين. فقد روي عن رسول الله ﷺ:

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٦.

(٢) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب الوفاء والبخس، ح ٣.

«رحم الله عبداً، سمحاً إذا باع، سمحاً إذا إشتري، سمحاً إذا قضى»^(١).

والسماحة تنبع من الأخوة الإسلامية التي تؤدي إلى التعاطف والتراحم في العلاقات بين المسلمين، ومما يدخل في سماحة البيع حسن معاملة المشتري وإرضاء أذواقهم والإسراع في تلبية طلباتهم التي يؤكد الصادق عليها في وصاياه التربوية للتاجر والصانع، وهذا ما ينص عليه قائلاً:

«كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يجتلب بها المكسب وهي: «أن يكون حاذقاً بعمله، مؤدياً للأمانة فيه، مستميلاً لمن استعمله»^(٢).

فالإمام يرى بأن التعامل بالحسنى إلى جانب التخصص والالتزام بالتقوى واجب على كل عامل لما له من الأثر النافع فيه، فربما يكون العامل ذا مهارة دون الالتزام؛ فهو لا يوفق في كسبه، وربما يكون العامل ملتزماً بالتقوى دون خبرة، فهو كذلك أيضاً، فصاحب المهنة لو كان ذا مهارة والملتزم بالأمانة يحتاج إلى أن يكون قادراً على الدعوة لصناعته وعمله واستمالة الناس إليها، حتى تروج صناعته ويكثر ربحه، وهذا لا يتحقق إلا بحسن المعاملة.

هذا هو ما يُعنى به في العصر الحديث المتخصصون في التوجيه المهني ويعتبرونه من طرق التسويق.

نستنتج من هذه التعاليم أنّ مدرسة الصادق قد ركّزت تربيتها المهنية على تزويد المحترفين بالمهارات المعرفية والسلوكية التي تمكنهم من السيطرة على الحرفة أو المهنة، وبالتالي من زيادة دخلهم وتحسين مستوى معيشتهم.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، ح ٢٢٠٣.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٦.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة الفكر التربوي عند الإمام الصادق وحاولت قدر الإمكان أن أوضح المعالم العامة للنسق الفكري لديه، والذي يبرز فيه سمات مدرسته ومميزات منهجه التربوي.

ان الشخصية الإسلامية المتميزة التي سعى الإمام جعفر لايجادها لم تكن مثالية غير واقعية، حيث إنّ التاريخ الإسلامي شهد تربية مثل هذه الشخصية في مدرسته، والأمر الذي يجب أن لا نغفل عنه تلك الخاصة التي تميّز هذه الشخصية وهي تعود في الأصل إلى تميّز التربية الإسلامية عما سواها من النظريات التربوية بدوافعها وأهدافها.

وقد عبّر الإمام في خطبه ووصاياه ورسائله وحكمه وكل ما فعله عن صورة الإسلام الحقيقية ورسم المنهج الفكري والأخلاقي والاجتماعي للأمة من خلال الإسلام.

ممّا لا شك فيه أن التربية الإسلامية، تربية شاملة، متكاملة، متّزنة، معتدلة والفكر التربوي عند الصادق يتّصف بهذه السمات نفسها، فهو يهتم - كما بيّنا في ما سبق - بالإنسان وليداً وناشئاً وشاباً وكهلاً وشيخاً في موازنة عادلة بين جميع جوانب شخصيته جسمياً وروحياً وعقلياً، ولم يغفل الصادق أي جزء من تصوّره عن الإنسان، فخطب العقل وسعى لتغذيته ودعا لتنميته، ثم عمل على تغذية الروح وإشباع تطلعاتها إلى جانب دعوته نحو الأخلاق الفاضلة وتحذيره عن الرذائل، وهكذا نظم علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبأفراد مجتمعه.

ونرى في تربية الإمام توازناً عجبياً بين العمل للدنيا والعمل للآخرة وتوازناً بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية وتوازناً بين الضرب في مناكب الأرض سعيّاً وراء الرزق وبين الترفع على متاع الأرض رجاء الفوز برضوان الله في الآخرة....

فإذا أردنا أن نصف المنهج الذي سلكه الإمام في التربية، يمكن القول بأنه المنهج الوسط بين الإفراط والتفريط. كما ذكرنا في تعاليمه من اقتصاد في العبادة والسماحة في المعاملات.

وعلى الرغم من أن النظام التربوي عند الإمام الصادق فرع من نظام تربوي إسلامي عام، فإن له ميزاته التي تميّزه عن غيره من فروع التربية الإسلامية الأخرى.

ومن هذه الميزات التي توصل إليها البحث والتي تعكس المعالم التربوية الخاصة للصادق، مايلي:

* التربية على الصعيدين العام والخاص:

في الوقت الذي كان فيه الإمام الصادق داعياً إلى الحق ومربياً لكافة افراد المجتمع، إلا أنه لم يغفل عن تربية جماعة خاصة وكفوءة تكون بحد ذاتها قادرة على تولي هذه الرسالة والنهوض بها.

لذلك كان له خطان تربويان على الصعيد العام وعلى الصعيد الخاص. عمل بهما الصادق من أجل بناء الأمة وتنمية وعيها العام حتى تمتلك الخصائص التي ذكرها القرآن الكريم والسنة الشريفة، فحاول الصادق توعية كافة الأمة بجميع مستوياتها إذ سجل له التاريخ، مجموعة ضخمة من الأحاديث تمثل ثروة من الإرشادات والتوجيهات وقد انتشرت هذه الأحاديث بين أبناء الأمة ولها أثر كبير في ايجاد نهضة أخلاقية في المجتمع آنذاك.

وعلى الصعيد الخاص سعى الإمام إلى تربية الفئة الواعية عقدياً وعاطفياً وسلوكياً، حتى تنتشر بين الأمة كنماذج حية للشخصية الإسلامية.

ومما لا ريب فيه أن هذه العملية لا تقل أهمية عن عملية بناء الأمة الواعية نظراً لحاجة الأمة المستمرة إلى الكوادر الرسالية والمتحملة بكل جدارة المهام الصعبة التي يلقيها الإمام على عاتقها.

* التربية المتعددة الأبعاد:

إنّ البحوث التربوية الحديثة باتت متفقة على أنّ لشخصية الإنسان وحده تركيبة تستقطب أبعاداً ثلاثة هي: أ - البعد المعرفي. ب - البعد الوجداني. ج - البعد السلوكي.

والبعدان الأولان يشكلان البناء التحتي للسلوك ومظاهره، فكل سلوك نتاج تفاعل عناصر المضمون العقائدي الفكري والمحتوى العاطفي الروحي. وليس السلوك ظواهر منعزلة تدرس بمنأى عن البعدين الأول والثاني، لأن مواقف الفرد وتصرفاته تتكيف وفق المفاهيم المنبثقة عن القاعدة الفكرية للشخص وحسب طبيعة المشاعر والأحاسيس التي تتماهى بدورها مع تلك القاعدة الفكرية.

يظهر من هذه الدراسة أنّ منهج الإمام الصادق، في تربية الفرد والمجتمعات قد انطلق من تجذير الوعي العقديّ قبل كل شيء الذي يقوم على جملة من التصورات عن الكون والإنسان والحياة ويشكل الخلفية والعمق الفكري للفرد، من هنا فقد غني الإمام

جعفر بهذا البعد في شخصية الإنسان من خلال توجيهاته التربوية في المجالات العقدية ، والعلمية والعقلية .

ثم سعى لتنمية الحس العاطفي الوجداني بجملة من المفاهيم التي غذاها بايحاءات معنوية روحية . لأنّ المفاهيم العقلية ، مهما أوتيت من عمق ودقة ، لا تملك أن تبعث في الإنسان الطاقة الكافية ليندفع في اتجاه تمثّل تلك المفاهيم . من هنا كانت قاعدة المعرفة بحاجة إلى إطار معنوي من الأحاسيس والعواطف الوجدانية يشكّل ضمانة التنفيذ لتلك القيم .

ومن بعد ذلك وجّه الإمام الفرد إلى مجموعة من القيم السلوكية العملية من خلال إرشاداته في المجالات الخلقية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك .

فترى معالم هذا المنهج ضمن مستوياته الثلاثة تنطوي على مشروع تغيير شامل وعميق يستوعب كل مناحي الوجود البشري .

* تربية الصالح المصلح :

لم يكتف الإمام الصادق في مدرسته الفكرية بتربية الإنسان الصالح ، إنما كان يطمح دوماً إلى هدف أرقى يتمثل في تربية الإنسان الذي يمارس دور المصلح فضلاً عن أن يكون صالحاً .

فالمصلح مَنْ يصدر الصلاح وينقله لغيره بينما الصالح هو الذي يصلح في نفسه ولا يساهم في تغير الواقع نحو الأفضل . فالأول له قوّة ايمانية والثاني إيمانه أقل قوة وتأثيراً .

وقد اعتمد الإمام في ترسيم برنامجه التربوي على إعداد الشخصية المصلحة الرسالية التي تتحمل المسؤولية في المجتمع ، وتؤدي دوراً مطلوباً في عملية التغيير الاجتماعي ، هذا الفرد يقوم بإصلاح ذاته من النقائص وتكميل الفضائل واكتسابها ، كما يقوم في الوقت نفسه باصلاح المجتمع من أمراضه الويلة .

فالمنهج التربوي للصادق هو عملية تنشئة الفرد من عضو عادي في المجتمع إلى فرد مسؤول وقيادي ، وهذا يعني اقتران عملية التغيير الفردي والتغيير الاجتماعي في آن واحد .

* التربية التدريجية

يمتاز منهج الإمام الصادق في بناء الإنسان الرسالي بأنه منهج ذو عدة مراحل ، فهو لا يقفز بالإنسان من القاعدة إلى القمة دون الصعود على سلم متدرج ، بل يتناول حالة الإنسان في كل مرحلة ، فيعالج هذه الحالة بشكل موضوعي يطابق الواقع . ذلك لأنّه «لا يصلح

دعوة الناس إلى ما يثقل عليهم تركه باديء ذي بدء، لاعتيادهم على ممارسته أو حاجتهم إليه، بل ينبغي دعوتهم إلى ما يسهل عليهم امتثاله، لخفته على طباعهم وقربه إلى حياتهم لأن امتثال التكليف الشديد يتطلب قوة لا يملكها الإنسان في البداية»^(١).

فالمنهج الجيد هو القادر على استيعاب مدى نمو الإنسان باتجاه التكامل المطلوب ومن الصعب جداً تحديد المراحل التي يجتازها الإنسان في طريقه للصعود إلى القمة، لأنه تحديد لا يقاس بالزمن ولا بالعمر ولا بأي شيء محسوس آخر، إنه يقاس بمقدار استجابة الإنسان للموجه وللقيم التي يزرعها في نفسه.

ولذلك نرى بأن الإمام يستعمل في عرض إرشاداته، أسلوب التدرج حسب مستويات الناس، ولا يحمل على صاحب الخطوة الأولى ما يحمله على صاحب الخطوة الثانية تقديراً لعقلية المخاطبين ومستواهم ودرجة إيمانهم.

* سيادة الروح الأخلاقية :

من خصائص المنهج التربوي عند الإمام اهتمامه للقيم الأخلاقية، وهيمنة هذه الأخلاق على كافة المجالات التربوية، ذلك أن تطور الإنسان في الميادين العلمية، والعقلية، والاقتصادية، والتقنية... الخ من دون سيادة روح الأخلاق عليه، سيفضي إلى طغيان الفرد وانحرافه وتمرده، وإلى إصابة المجتمع أيضاً بأضرار جسيمة.

من جهة أخرى، رغم أن التربية الأخلاقية كانت موضع اهتمام الكثير من رواد التربية وعلمائها الذين يشتركون في هذا الجانب مع تربية الإمام الصادق، بيد أن السمة البارزة للمنهج التربوي عند الإمام هي أن الأخلاق تمثل ركناً أساسياً في مدرسته الفكرية، ولها الهيمنة على سائر المجالات التربوية، أي أنها لا تقع بموازاتها.

وقد ذكرنا في الفصول السابقة نماذج من تأكيدات الإمام بشأن الاهتمام بالقيم الأخلاقية في المجالات العلمية والاقتصادية والمهنية وغيرها من المجالات.

ولهذا تتميز تربية الإمام بأنها تعمد إلى بناء الإنسان من داخله بناء خلقياً سليماً لا يقوم على التظاهر بالأدب، أو على التكيف السلبي من أجل التعايش الاجتماعي، وإنما هي تجعل المسلم يعود إلى ذات نفسه، وإلى المبادئ الخلقية التي يلتزم بها في جميع أنماط سلوكه مثل الصدق، والأمانة، والعدل، والرحمة، والحلم، والحرية وغير ذلك من أمهات الفضائل الإسلامية، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحقيقة الإيمان.

ولذلك نستطيع أن نقول بأن تربية الإمام الصادق تمتاز بأنها تنطلق من الداخل إلى

(١) محمد حسين فضل الله، خطوات على طريق الإسلام، دار التعارف، بيروت، ط ٥، ١٩٨٦م، ص ٢٤.

الخارج، وتؤكد مدرسته أن تحرّر النفس من قيود الهوى وسيطرتها على الشهوات والغرائز يمثل الخطوة الأولى في بناء الشخصية الرسالية التي تعيش حال السعادة الحقيقية.

* التربية التطبيقية:

كان التطبيق العملي أحد المقومات الأساسية لتربية الإمام الصادق، فلم تكن تعتمد على مبادئ مجردة ونظريات محضّة حتى تبقى حبراً على ورق، بل كانت العملية التربوية والتعليمية عنده تتحول من الناحية النظرية إلى سلوك عملي، فكان التطبيق مقترناً مع الفكرة والقول مرافقاً للعمل.

إنّ هذا المنهج المطروح على بساطته ووضوحه ينطلق من الواقع والحياة فيلبي الحاجات الواقعية للإنسان، حتى تلك التي تنادي بها البحوث الحديثة في علم النفس، كحاجة الانتماء، والحاجة إلى الحب والتقدير الاجتماعي ومن هنا يحاول الإمام معالجة هذه الحاجات في إطار الإيمان بالله وداخل منظومة الاعتقاد الديني لا خارجها.

فلم يفصل الإمام موضوعات العقيدة عن جوانبها العملية لا في مجال العلم ولا الأخلاق ولا الاقتصاد... وكان منهجه قد تخطى مرحلة وجود النظرية أصلاً وتجاوزها مباشرة إلى التنفيذ.

على هذا لا يكفي أن تصفه بأنه منهج قابل للتطبيق بل نقول: إنه منهج قد طبّق بالفعل على مدى سنوات طويلة وتربّت في ظلّه شخصيات إسلامية مميّزة.

* تقديم التكليف على الحق:

من أهم خصائص المنهج التربوي عند الإمام الصادق تربية الأفراد على روح الشعور بالمسؤولية وترجيح التكليف على تحصيل الحقوق.

إن ملاحظة الأسس التربوية للإمام في بعدها الاجتماعي، وفي تنظيم العلاقات مع الآخرين تدلّنا بوضوح على أن هذا المربي الكبير كان يؤمن بأن صاحب الشخصية الإسلامية المتكاملة ينبغي أن يفكر في أداء وظائفه وواجباته حيال الآخرين قبل أن يفكر في استيفاء حقوقه من الآخرين، والتشديد على واجباتهم (سواء كانوا أفراداً أو مجتمعاً) إزاءه، وبعبارة أخرى فإنه يهتم بحقوق المجتمع والأفراد عليه قبل اهتمامه بتوقعاته منهم.

وما يعارض هذا المنحى تأكيدات الإمام على الإرشادات التربوية الخاصة بنظام العائلة والعلاقة مع الجيران والأصدقاء وتوصياته بأصول التكافل والتعاون الاجتماعي، وتجنّب أسباب الاختلاف والخصام.

ومن الجلي أن مثل هذا التوجه التربوي يتباين عن الاتجاهات التربوية الغربية القائمة على اكتساب الحقوق وأصالة منافع الفرد. ولا مرأ أن تربية الفرد والمجتمع

على أساس اكتساب الحقوق والمصالح، لن تثمر سوى المزيد من المشكلات للمجتمع وتوسيع رقعة الخلافات والأحقاد والفوضى، بينما النظام التربوي الذي يخصص الأولوية لأداء التكليف، ويشدد على النهوض بالواجبات قبل المطالبة بالحقوق، يمكنه تربية إنسان يفكر بمسؤولياته قبل أي شيء، وهذا ما يفضي طبعاً إلى انتشار روح المحبة والأخوة والإيثار بين أفراد المجتمع.

* البدء بالنفس

يمتاز المنهج التربوي للإمام الصادق بأنه يقوم على مبدأ تربوي أصيل يتمثل في البدء بالنفس، ذلك أنّ الفكر يظل معلقاً في الفضاء ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره مبادئ المنهج ومعانيه.

من هنا فقد كانت حياة الإمام ترجمة عملية لإرشاداته، وتجسيدا كاملاً لتعاليمه، ليكون عمله النموذج الصحيح الدقيق لمبادئه النظرية، فهو يبدأ بتطبيق المنهج على نفسه ثم يأمر بها أتباعه ويدعو الناس إلى الالتزام به، كمال قال: «إني والله ما أمركم إلا بما نأمر به أنفسنا»^(١).

وكان الصادق على مرأى من الناس وتحت نظر تلاميذه في جميع مجالات الحياة من البيت والطريق والمسجد والمجتمع.

وهكذا كان مربياً وهادياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به حتى يربي الأمة عن طريق القدوة، فيعتبر نفسه أول الناس وأولاهم بتنفيذ ما يدعو إليه. ومن هنا كانت تربيته ذات أثر فعال وعميق.

* * *

نستنتج من هذا كله أنّ المنهج التربوي لمدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق، يختزن داخله كل المقومات الضرورية لصنع الإنسان النموذجي، الذي يتوفر على كل الكمالات والذي يعيش التوازن النفسي في أجلى مظاهره، ويقدر على الفعل الإيجابي داخل ساحات البناء الحضاري والتغيير الاجتماعي.

وهذه الذخيرة التراثية التربوية - والتي تستمد أهدافها ووسائلها ومحتواها من كتاب الله وسنة رسوله الكريم - هي صورة أخرى من تجليات عظمة التربية الإسلامية التي تطرح للبشرية خطّ الحياة والسعادة الأبدية.

أسأل الله تعالى أخيراً أن يجعل ثواب هذه الدراسة في ميزان حسناتي وحسنات من أحبّ يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) الكليني، فروع الكافي، ج ٥، باب الحث على طلب الرزق، ح ٨.

الفهارس العامة

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث النبوية
- فهرس الأعلام
- المصادر والمراجع
- فهرس المحتويات

فهرس الآيات الشريفة

السورة	رقمها	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيَ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا...﴾	٢٦	٤٢
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾	٤٣	١٨٥
﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾	٩٧	١٥٢
﴿وَوَضَّيْ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾	١٣٢	١٤٠
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾	١٤٣	٣١
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا﴾	١٥٩	٢١٠
﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾	١٧٧	٣٢
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾	١٨٥	١٩١
﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾	١٩٧	٣١١
﴿رَبَّنَا ءَانِثَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾	٢٠١	٣٥٠
﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾	٢٣٨	٤٤
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾	٢٥٤	٣٧٨
﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٢٦١	٤٣
﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾	٩٦٢	٢٠٠
﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾	٢٧٥	٣٣٩
﴿وَإِنْ تَبَتُّمُ فَلَكُمْ رُءُوسُ﴾	٢٧٩	٣٧٠
﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾	٢٨٠	٣١٢

السورة	رقمها	رقم الصفحة
﴿ءَاْمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا اُنْزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾	٢٨٥	١٥٢
﴿لَا يَكْلِفُ اللهُ نَفْسًا اِلَّا وُسْعَهَا﴾	٢٨٦	٢١٦

سورة آل عمران

﴿اِنَّ الدِّيْنََ عِنْدَ اللهِ الْاِسْلَامُ﴾	١٩	٣٦
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْاِسْلَامِ دِيْنًا﴾	٨٥	٣٦
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ اُمَّةٍ اُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾	١١٠	٣٧
﴿وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾	١٨٩	٣٤٧

سورة النساء

﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي سَأَلُوْنَ﴾	١	٣٠١
﴿فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾	٣	٨٨
﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ اَمْوَالَكُمُ﴾	٥	٣٥٠
﴿يُرِيْدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِيْنَ﴾	٢٦	٢٤٩
﴿وَالَّذِيْنَ ءَاْمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحٰتِ﴾	٥٧	٤١
﴿۞ اِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ اَنْ تُؤَدُّوا الْاَمٰنٰتِ﴾	٥٨	٣٩
﴿اِنَّ الَّذِيْنَ تَوَفَّيْتُمْ اَلْمَلٰٓئِكَةُ﴾	٩٧	١٥٢
﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوْا اَنْ تَعْدِلُوْا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾	١٢٩	٨٨
﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَاْمَنُوْا ءَاْمِنُوْا بِاللّٰهِ﴾	١٣٦	١٥٣

سورة المائدة

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلٰى الْبِرِّ وَالتَّقْوٰى﴾	٢	٣٠٨
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا اِلٰى مَا اَنْزَلَ اللهُ﴾	١٤٠	٢٤٤

سورة الأنعام

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾	١١٩	٣٨٢

السورة	رقمها	رقم الصفحة

سورة الأعراف

٣٨٨	٣٢	﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾
٣٥	١٥٨	﴿قُلْ يَتَّيْنُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾
١١٢	١٧٢	﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾
٨٢	١٩٩	﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾

سورة الأنفال

٣٢٨	١	﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾
٢٣٥	٢٢	﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾
٣٢٢	٤٦	﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُوتُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾
٢٩٨ ، ٢٩٧	٧٥	﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾

سورة التوبة

٢٤٤	٣١	﴿اتَّخِذُوا أَحِبَّارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾
٣٤٨	٣٤	﴿لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾
١٦٢	٥١	﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾
٣١٩	٧١	﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾
١٨٥	١٠٣	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾

سورة يونس

٣٨	٥٧	﴿يَتَّيْنُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ﴾
٨٩	١٠١	﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

سورة هود

٨٢	٦٩	﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾

السورة	رقمها	رقم الصفحة

سورة يوسف

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾	٣	٤٠
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾	١٠٦	١٠٧
﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ﴾	١١١	٤٠

سورة الرعد

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾	٢١	٣٠١

سورة إبراهيم

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾	١٨	٤٢

سورة النحل

﴿يُنَبِّئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾	١١	٣٩٩
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾	٤٤	٢٨
﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾	٤٥	٤١
﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ يَجْعَرُونَ﴾	٥٣	١٤٥
﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾	٧٨	١١٠
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾	٩٧	١٧٨
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ﴾	١٢٥	٣٨

سورة الإسراء

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي﴾	٩	١٥٤
﴿وَالْأُولَئِينَ إِحْسَنَّا﴾	٢٣	٢٩٩
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾	٢٩	٣١

السورة	رقمها	رقم الصفحة
﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ﴾	٨٤	٢٧٤

سورة الكهف

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ﴾	٢٣ ، ٢٤	٢١٣

سورة مريم

﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾	٣١	١٨٣

سورة النور

﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾	٣٣	٣٤٧

سورة الفرقان

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾	٦٧	٣٨٤ ، ٣٤٠

سورة الشعراء

﴿فَمَا لَنَا مِن شَفَاعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾	١٠٠ ، ١٠١	٢٩٦

سورة القصص

﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾	٧٧	٣١

سورة العنكبوت

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾	٤١	٤٢
﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾	٣٤	٤٢
﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾	٤٥	١٨٣

السورة	رقمها	رقم الصفحة

سورة الروم

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٢٢	٢١٦
﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾	٣٠	١٤٤
﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّا لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾	٣٩	١٩

سورة لقمان

﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾	١٨	٢١٥
﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمُ﴾	٢٠	٣٣٥
﴿وَلِذَٰ قَالَ لِقَمْنُ لَأَنبِيَهُ وَهُوَ يَعْظُهُ﴾	١٣	٣٨

سورة الأحزاب

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ﴾	٢١	٣٩

سور سبأ

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾	٢٨	٣٥

سورة فاطر

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	٢٨	٨١
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾	٣٦	٤١

سورة الزمر

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾	٩	١٩٩
﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾	٢٧	٢٢٦

السورة	رقمها	رقم الصفحة
سورة فصلت		
﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ﴾	٩	٣٤١
﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	٣٤	٣٣١
﴿سَرُّهُمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾	٥٣	١٤٦
سورة الشورى		
﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾	١٣	١٥٦
سورة الزخرف		
﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُحْرِيًّا﴾	٣٢	٢٩٣
سورة الحجرات		
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَحْوِيكُمْ﴾	١٠	٣٢٨ ، ٣٠٥
﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾	١٣	٢٨٨ ، ٢٢٥
سورة ق		
﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾	١٨	١٥٢
سورة الذاريات		
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	٥٦	٣٦ ، ٢٦
سورة النجم		
﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾	٤ ، ٣	٢٨

السورة	رقمها	رقم الصفحة
سورة الحديد		
﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾	٧	٣٤٧
سورة الحشر		
﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾	٧	٣٣٩ ، ٢٨
سورة الصف		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ﴾	٣ ، ٢	٣٢
سورة الطلاق		
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾	٣ ، ٢	٢٨٢ ، ٤١
سورة التحريم		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾	٦	١٢٠
سورة الملك		
﴿لَيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾	٢	٢٧٤
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾	١٤	٢٧
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾	١٥	٣٣٥
سورة القلم		
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	٤	٢٥٧
سورة القيامة		
﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾	٢	٣٤

السورة	رقمها	رقم الصفحة
﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ بَصِيرَةٌ ۚ﴾	١٤	٣٤
سورة الإنشقاق		
﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا ۚ﴾	٦	٣٧٣
سورة الطارق		
﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۚ﴾	٤	١٥٢
سورة الفجر		
﴿وَتَحِبُّونَ أَمَْالَ حُبًّا جَمًّا ۚ﴾	٢٠	٣٤٨
سورة الشمس		
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۚ﴾	٧	١١٢
﴿فَالْهَمَّهَا هُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ﴾	٨	٢٧٦
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۚ﴾	١ - ٥	٢٧

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الحديث
١٧٩	- أحب الأعمال إلى الله
١٥٥	- إذا التبست عليكم الفتن
٢٧٦	- استفتت نفسك
٢٨٠	- أفضل الجهاد من جاهد
٢٥٨ ، ٢٥٧	- إن أحبكم إليّ وأقربكم مني
١٥٩	- إن شفاعتي يوم القيامة
٣٠	- إن لبدنك عليك حقاً
١٩٩	- إن الملائكة لتضع أجنحتها
٢٥٧	- إنما بعثت لأتمم
١٤٣	- الإيمان أن تؤمن بالله
١٧٥	- بني الإسلام على خمس
٣٤٠	- الجالب مرزوق والمحتكر
٢٥٥	- الحياء خير كله
١٩١	- خذوا من العمل ما تطيقون
٤٠٨	- رحم الله عبداً سمحاً
٣٩٧	- شر الناس الذين يبيعون
١٩٩	- طلب العلم فريضة على
٢٤٦	- عودوا قلوبكم الترقب
٢١٣	- كل كلام أو أمر ذي بال
٢٩٧	- كلكم راع وكلكم مسؤول

الصفحة	الحديث
١٤٥	- كل مولود يولد على الفطرة
٢٢٢	- قيدو العلم بالكتابة
٢٢٠	- ما جمع شيء أفضل من حلم
١٧٧	- ما ملأ آدمي وعاء أشد
٣٠٦	- مثل المؤمنين في توادهم
٣٠٣	- من أصبح وهمه الدنيا
٢٨١	- من سره أن يكون
١٩٥	- من سلك طريقاً إلى الجنة
٣٤٠	- من غشنا ليس
٢٠٠	- من يرد الله به خيراً
٣٧٣	- نعم المال الصالح
٢١٤	- وقرّوا من تعلمونه
٣٦١	- يأتي على الناس زمان

فهرس الأعلام

- أبان بن تغلب: ٨٦، ٩٨، ٩٩، ١٥٩، ٢٠٥، ٢١٥، ٣٨٤.
إبراهيم بن الوليد: ٥١.
إبراهيم بن رجاء الشيباني: ٩٢.
إبراهيم بن محمد: ٥٥.
ابن أبي العوجاء: ٨٤، ٨٥، ٨٨، ١٦٥.
ابن الغضائري: ٨٦.
ابن المثنى: ٩٨.
ابن الواضح: ٩٣.
ابن جريج: ٧٨.
ابن حبان: ٧٩.
ابن حجر العسقلاني: ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٦٦، ٢١٦.
ابن حجر الهيتمي: ٩٥.
ابن خلكان: ٧٥، ٧٦، ٩٢، ٩٤، ١٠٠.
ابن شهاب الزهري: ٧٨.
ابن عدي: ٩٤.
ابن عقدة: ٨٦.
ابن ماجه: ٢٢، ٩٩، ١٥٩، ١٩٩، ٣٤٠.
أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري: ٩٠.
أبو الخطاب: ٦٢.
أبو الربيع الزهراني: ٩٨.
أبو بصير الأسدي: ٩٨.
- أبو جعفر المنصور: ٥٥، ٦٧، ١٢٥.
أبو حاتم الرازي: ٩٣.
أبو حنيفة: ٧٨، ٨٦، ٨٧، ٩٣، ٣٥، ٩٦.
أبو داود الطيالسي: ٩٧.
أبو زهرة: ٤٨، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٤، ٨٦، ٨٨، ٩١، ٩٦، ١٠٠، ١٠٩، ١٦٤، ٢١٧، ٢٢٢.
أبو سلمة الخلال: ٥٦.
أبو شاعر الديصاني: ٨٨.
أبو عاصم: ٩٧.
أبو عامر العقدي: ٩٧.
أبو عمرو بن العلاء: ٨٦.
أبو مسلم الخراساني: ٥٤.
أبو معمر الهذلي: ٩٨.
أبو نعيم الأصفهاني: ٧٨، ٩٤، ٩٨، ١٥٩، ٢٦٢، ٣١٢.
أبو بكر بن عيَّاش: ٧٩.
أبو جعفر محمد بن النعمان: ٩١.
أبي حمزه الثمالي: ٢١٥.
أبو داود: ٢٥.
إسحاق بن راهويه: ٩٣.
إسحاق بن عمار: ٢٨٧.
أسماء بنت عبد الرحمن: ٧٦.

- إسماعيل بن جابر : ٨٠ .
 إسماعيل بن جعفر : ٩٨ .
 الأصبحي : ٩٢ .
 الأعرج : ٧٨ .
 الأعمش : ٧٨ .
 الأوزاعي : ٦١ .
 الباقر : ٥١ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ١٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .
 الترمذي : ٢٤ ، ٩٧ .
 الشمالي : ٨٣ ، ٩٨ ، ٤٠١ .
 الجاحظ : ٦٥ ، ٦٧ ، ٩٣ .
 الجعد بن درهم : ٦٠ ، ١٦٥ .
 الجهم بن صفوان : ٦٠ ، ٦١ .
 الحاكم النيسابوري : ٩٤ .
 الحسن البصري : ٥٩ .
 الحسن بن علي : ٥٥ ، ٥٦ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ٣٠١ .
 الحسن بن علي الوشاء : ٨٧ .
 الحكم بن عتبة : ٧٢ .
 الذهبي : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، ٢٤٨ ، ٣١٠ ، ٣٧٧ .
 السبيعي : ٧٨ .
 السفاح : ٥٤ .
 الشهرستاني : ٦٠ ، ٦١ ، ٩٤ ، ١٧١ .
 الغزالي : ٤٤ ، ١٢٢ ، ١٨٦ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٥ ، ٣٧٢ .
 الفضيل بن عياض : ٩٢ .
- القاسم بن محمد : ٧٦ ، ٧٩ .
 النسائي : ٩٩ .
 النفس الزكية : ٥٥ ، ٥٧ .
 الوليد بن مسلم : ٩٧ .
 الوليد بن يزيد : ٥١ .
 أم فروة : ٧٦ .
 أيوب السختياني : ١٨٦ .
 بريد بن معاوية العجلي : ٩٨ .
 جابر بن حيان : ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ٢٠٦ .
 جابر بن عبد الله الخرجي الأنصاري : ١٥٩ .
 جابر بن يزيد الجعفي : ٩٨ .
 جورجي زيدان : ١٠٠ .
 حاتم بن إسماعيل : ٩٧ .
 حسين بن علي : ٥٢ .
 حماد البشير : ٢٨٣ .
 حمران بن أعين : ١٢٨ ، ٢٠٦ ، ٢٣١ .
 خالد بن يزيد : ٦٩ .
 خير الدين الزركلي : ٩٥ .
 روح بن عبادة : ٩٧ .
 زرارة بن أعين : ١٦٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
 زهير بن محمد التميمي : ٩٧ .
 زيد بن أحزم : ٩٨ .
 زيد بن علي : ٥٦ ، ٨٣ .
 سفيان الثوري : ٦٥ ، ٨٩ ، ١٢٩ ، ١٨٧ ، ٢١٤ .
 سفيان بن عيينة : ٩٨ .
 شعبة بن الحجاج : ٩٧ .
 عبد الرحمن بن مهدي : ٩٧ .

- عبد الله المحض : ٥٦ .
عبد الله بن أبي أويس : ٩٢ .
عبد الله بن المبارك : ٦٥ .
عبد الله بن النجاشي : ٩١ .
عبد الملك بن مروان : ٥١ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٦ .
عبد الله بن جندب : ٣٣١ .
عبيد الله بن أبي شعبة : ٢٠٨ .
عثمان الدارمي : ٩٧ .
عثمان بن فرقد : ٩٨ .
عطاء : ٥٩ ، ١٥٠ ، ٣٧٥ ، ٣٩٩ .
عفان بن مسلم : ٩٨ .
علي بن الحسين : ٥٦ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٣٠ ، ١٥٩ ، ٢٣١ ، ٢٨٤ ، ٣٠١ ، ٣٥٢ .
علي بن المديني : ٩٨ .
عمر الأشرف : ٥٦ .
عمر بن عبد العزيز : ٥٣ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ١٥٥ .
عمر بن دينار : ٧٨ .
عمر بن سعيد : ٥٣ .
عمر بن عبيد : ٦٠ ، ٢٣٢ .
عيسى بن موسى : ٥٥ .
غيلان الدمشقي : ٦١ .
فريد وجدي : ١٠٠ .
قيس الماصر : ٢٣١ .
ماسرجوية البصري : ٦٩ .
مالك بن أنس : ٨١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٢١٤ .
محمد بن إدريس الشافعي : ٩٣ .
محمد بن جهضم : ٩٨ .
محمد بن مسلم : ٩٨ .
محمد بن ميمون الزعفراني : ٩٢ .
مروان بن الحكم : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .
مروان بن محمد : ٥١ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ١٦٦ .
مسلم بن الحجاج : ٩٤ .
مسلم بن عقبة : ٥٢ .
معاوية بن أبي سفيان : ٥١ .
معاوية بن عمار الدهني : ٩٧ .
معبد الجهني : ٦١ .
مفضل بن عمرو : ٨٩ ، ١٢٩ ، ١٦٧ ، ٢٤٧ .
مفضل بن قيس : ٢٨٩ .
موسى بن جعفر : ٩٠ ، ٣٣٠ .
موسى بن عقبة الأسدي : ٩٩ .
هشام بن الحكم : ٨٨ ، ٢٠٦ ، ٢٢٥ .
هشام بن عبد الملك : ٥١ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ١٦٥ .
واصل بن عطاء : ٥٩ .
حفص بن غياث : ٩٨ .
ياقوت الحموي : ٩٩ .
يحيى بن بكير : ٩٧ .
يحيى بن سعيد الأنصاري : ٨٦ ، ٩٧ .
يحيى بن سعيد بن فروخ : ٩٨ .
يحيى بن معين : ٦٠ .
يحيى بن يحيى النيسابوري : ٩٨ .
يزيد بن الوليد : ٥١ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- ١ - الإبراشي، محمد عطية: التربية الإسلامية وفلسفتها، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- ٢ - ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن إدريس: الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ٣ - ابن أبي الحديد، عبد الحميد: شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧ م.
- ٤ - ابن الأثير، أبو الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق شيخ خليل مأمون شيخا، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- ٥ - المختار، دمشق، د.ن، د.ت.
- ٦ - ابن بابويه القمي (الصدوق)، محمد بن علي بن الحسين: الأمالي، مؤسسة البعثة، قم، ١٤١٧ هـ.
- ٧ - التوحيد، تحقيق سيد هاشم الحسيني الطهراني، جماعة المدرسين، قم، ١٣٨٧ هـ.
- ٨ - الخصال: تحقيق علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د.ت.
- ٩ - علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٦ م.
- ١٠ - معاني الأخبار، مؤسسة النشر الإسلامي، تحقيق علي أكبر غفاري، إيران، ١٤٠٣ هـ.
- ١١ - من لا يحضره الفقيه، تحقيق علي أكبر غفاري، جامعة المدرسين، قم، ط ٢، ١٤٠٤ هـ.
- ١٢ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، الهيئة المصرية، القاهرة، د.ت.
- ١٣ - ابن تيمية، تقي الدين أحمد: قاعدة جلية في التوسل والوسيلة، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.

- ١٤ - : **حقيقة الصوم**، دار الاعتصام، القاهرة، د.ت.
- ١٥ - : **الفتاوى**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- ١٦ - ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني : **المسند**، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ١٧ - ابن خلدون، عبد الرحمن محمد : **المقدمة**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٤هـ.
- ١٨ - ابن خلكان، شمس الدين أحمد : **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ١٩ - ابن سعد، محمد : **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٢٠ - ابن شهر آشوب : **مناقب آل أبي طالب**، منشورات العلمية، قم، د.ت.
- ٢١ - ابن عاشور، محمد الطاهر : **تفسير التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
- ٢٢ - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي : **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢م.
- ٢٣ - : **البداية والنهاية**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٣م.
- ٢٤ - ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني : **سنن ابن ماجه**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥م.
- ٢٥ - ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي : **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ن، د.ت.
- ٢٦ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي : **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ٢٧ - ابن النديم، محمد بن إسحاق : **الفهرست**، د.ن، د.ت.
- ٢٨ - أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي : **سنن أبي داود**، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- ٢٩ - أبو زهرة، محمد : **الإمام الصادق حياته وعصره آراءه وفقهه**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣م.
- ٣٠ - : **تاريخ المذاهب الإسلامية**، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٩
- ٣١ - أبو الفوارس الأشتري، أبو الحسين : **تنبيه الخواطر ونزهة النواظر** (المعروف بمجموعة ورام)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٦٩م.

- ٣٢ - أبو العينين، علي خليل: الاهتمامات التربوية في فكر الإمام جعفر الصادق، من أعلام التربية العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة، دول الخليج، ١٩٩٨م.
- ٣٣ - : فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مكتبة إبراهيم حليبي، المدينة المنورة، ١٩٨٠م.
- ٣٤ - أبو لاوي، أمين: أصول التربية الإسلامية، دار ابن الجوزي، الرياض، السعودية، ١٩٩١م.
- ٣٥ - الأديب، علي محمد الحسين: منهج التربية عند الإمام علي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- ٣٦ - الأزهرى، منظور احمد: ترشيد الاستهلاك الفردي في الاقتصاد الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ٣٧ - إسماعيل، محمد محروس: مقدمة في علم الاقتصاد، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- ٣٨ - الإصفهاني، أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٣م.
- ٣٩ - أمين، أحمد: الأخلاق، مكتبة الخانجي، مصر، ط ٨، ١٩٥٨م.
- ٤٠ - : ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٧م.
- ٤١ - : فجر الإسلام، مطبعة اعتماد، القاهرة، د.ت.
- ٤٢ - الأمين، حسن: دائرة المعارف الشيعية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤١٨هـ.
- ٤٣ - الأمين، محسن: أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٦هـ.
- الأميني، محمد أمين: الإمام الصادق رمز الحضارة الإسلامية، مطبعة أمين، قم، ١٤٢٣هـ.
- ٤٤ - الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه: العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
- ٤٥ - الأهواني، أحمد فؤاد: التربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.
- ٤٦ - الآصفي، محمد مهدي: الكلمة الطيبة في القرآن، المشرق، طهران، ٢٠٠٤م.
- ٤٧ - الآلوسي البغدادي، أبو الفضل شهاب الدين: روح المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

- ٤٨ - الأمدي، عبد الواحد: **غرر الحكم ودرر الكلم**، د.ن، طهران، ١٣٧٦هـ.
- ٤٩ - باعلوي الخضرمي، محمد بن أبي بكر: **المشروع الروي**، دار الكتب، طهران، ١٩٦٧.
- ٥٠ - الباقر، محسن: **مقومات الشخصية الإسلامية**، دار البيان العربي، بيروت، ١٩٩٠م.
- ٥١ - الباني، عبد الرحمن: **مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام**، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٠هـ.
- ٥٢ - البخاري، محمد بن إسماعيل: **الأدب المفرد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- ٥٣ -: **صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ٥٤ - بدري، مالك: **التفكير من المشاهدة إلى الشهود**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨١م.
- ٥٥ - البدوي، إسماعيل إبراهيم: **عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعي**، مجلس النشر العلمي، الكويت، ٢٠٠٢م.
- ٥٦ - بدوي، زكي: **المعجم الاقتصادي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.
- ٥٧ - البرقي، أحمد بن محمد: **المحاسن**، دار الكتب الإسلامية، إيران، د.ت.
- ٥٨ - البستاني، محمود: **دراسات في علم النفس الإسلامي**، دار البلاغة، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ٥٩ - بسيوني، سعيد أبو الفتوح: **الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية**، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٨م.
- ٦٠ - البعلي، عبد الحميد محمود: **أصول الاقتصاد الإسلامي**، دار الداوي، الرياض، ٢٠٠٠م.
- ٦١ - البغدادي، الإسفرايني، عبد القاهر بن طاهر: **الفرق بين الفرق**، المكتبة العصرية، بيروت، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٩٩٠.
- ٦٢ - البلاذري، أحمد بن يحيى: **أنساب الأشراف**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٧م.
- ٦٣ -: **فتوح البلدان**، دار الكتب العلمية، قم، ١٤٠٤.
- ٦٤ - البوطي، محمد سعيد: **تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث**، مكتبة الفارابي، دمشق، ١٤١٠هـ.

- ٦٥ - البيضاوي، ناصر الدين عبد الله: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٦٨م.
- ٦٦ - البيهقي، أحمد بن الحسين: شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣١ هـ.
- ٦٧ - التستري، نور الدين المرعشي: إحقاق الحق وإزهاق الباطل، مكتبة المرعشي، قم، ١٤٠٦ هـ.
- ٦٨ - توفيق، محمد: دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، دار السلام، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ٦٩ - التومي الشيباني، عمر محمد: من أسس التربية الإسلامية، المنشأة الشعبية للنشر، طرابلس، ١٩٧٩م.
- ٧٠ - : علم النفس الإداري، دار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٨م.
- ٧١ - الجرجاني، علي بن محمد: التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٧٢ - الجمالي، محمد فاضل: تربية الإنسان الجديد، الدار التونسية، تونس، ١٩٦٧م.
- ٧٣ - : نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٢م.
- ٧٤ - الجميلي، رشيد حميد حسن: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، دار الكتاب، طرابلس، ١٩٨٢م.
- ٧٥ - الجندي، عبد الحليم: الإمام جعفر الصادق، مؤسسة أنصاريان، قم، ١٤١٥ هـ.
- ٧٦ - جوزي، بندلي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع، بيروت، د.ت.
- ٧٧ - الجهشياري، : تاريخ الوزراء والكتاب، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.
- ٧٨ - حبنكة الميداني، عبد الرحمن: الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ١٩٧٩م.
- ٧٩ - : العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨م.
- ٨٠ - حجازي، عبد الرحمن عثمان: المذهب التربوي عند ابن سحنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.
- ٨١ - الحرّاني، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة: تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر لجماعة المدرسين، ط ٢، ١٤٠٤ هـ.

- ٨٢ - الحر العاملي، محمد بن الحسين: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق عبد الرحيم الرباني الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٨٣ - : الفصول المهمة في معرفة أصول الأئمة، تحقيق: محمد القائني، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٣ م.
- ٨٤ - حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٧، ١٩٦٤ م.
- ٨٥ - حسن، أمينة أحمد: النظرية التربوية في القرآن وتطبيقاتها في عصر الرسول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥ م.
- ٨٦ - حسنين، عبد النعيم: الإنسان والمال، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٦ م.
- ٨٧ - الحسن، هاشم معروف: سيرة الأئمة الإثني عشر، دار القلم، بيروت، ١٩٨١ م.
- ٨٨ - الحسيني الحائري، كاظم: تزكية النفس، دار الحوراء، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- ٨٩ - حسيني زاده، علي: النظرة إلى التعليم الديني، مركز البحوث للحوزة والجامعة، قم ١٤٢٤ هـ.
- ٩٠ - الحكيم، محمد باقر: دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ١٩٩٧ م.
- ٩١ - الحكيمي، محمد رضا: الحياة، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، طهران، ١٤١٣ هـ.
- ٩٢ - الحلّي، تقي الدين داود: كتاب رجال، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، د. ت.
- ٩٣ - الحموي، ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٩٤ - الحميري، نشوان: الحور العين، دار آزال، بيروت، ١٩٨٥ م.
- ٩٥ - الحنفاوي، أحمد: الحضارة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية، دار الكتب طهران، ١٩٩٩ م.
- ٩٦ - الحويزي، عبد علي: تفسير نور الثقلين، مؤسسة إسماعيليان، قم، ط ٤، ١٤١١ هـ.
- ٩٧ - حيدر، أسد: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠١ م.
- ٩٨ - حيدر، أسد: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠١ م.
- ٩٩ - الخربوطلي، علي حسن: المهدي العباسي، الدار المصرية، ١٩٨٤ م.

- ١٠٠ - الخطيب، عبد الكريم: السياسة المالية في الإسلام، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت.
- ١٠١ - الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
- ١٠٢ - الخطيب الرازي، فخر الدين: شرح أسماء الله الحسنى، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ١٩٧٦م.
- ١٠٣ - الخلال، أحمد بن محمد بن هارون: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق عبد القادر عطا، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٤م.
- ١٠٤ - الخليل، محمد: أمالي الصادق، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٥م.
- ١٠٥ - خليل، عماد الدين: تحليل التاريخ الإسلامي، دار الثقافة، قطر، ١٩٩٠م.
- ١٠٦ - خماش، نجدة: خلافة بني أمية في الميزان، ريع الدار السورية، ٢٠٠١م.
- ١٠٧ - الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط ٦، ١٩٩٨م.
- ١٠٨ - الخوئي، أبو القاسم: معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، ط ٥، ١٤١٢هـ.
- ١٠٩ - الخولي، أمين: مالك بن أنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ١١٠ - الخياط، عبد العزيز: نظرة الإسلام للعمل وأثره في التنمية، دار السلام للطباعة، القاهرة، ١٩٨٩م.
- ١١١ - الخيل، سليمان عبد الرحيم: التربية الإسلامية، مطابع الشريف، الرياض، السعودية، ١٤١٢هـ.
- ١١٢ - الدائم، عبد الله: التربية عبر التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣م.
- ١١٣ - داود، جرجس: الزندقة والزنادقة في الأدب العربي من الجاهلية وحتى القرن الثالث، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ٢٠٠٤م.
- ١١٤ - دراز، محمد عبد الله: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، دار القلم، الكويت، ط ٢، ١٩٧٤م.
- ١١٥ - الدسوقي، فاروق أحمد: مقومات المجتمع المسلم، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.
- ١١٦ - الدسوقي، محمد: دعائم العقيدة في الإسلام، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٩٩٠م.

- ١١٧ - الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: **عيون الأخبار**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، د.ت.
- ١١٨ - ديوي، جون: **تجديد في الفلسفة**، ترجمة مرسى قنديل، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.
- ١١٩ - : **المبادئ الأخلاقية في التربية**، ترجمة عبد الفتاح جلال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ١٢٠ - الذهبي، شمس الدين محمد أحمد بن عثمان: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م.
- ١٢١ - : **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م.
- ١٢٢ - : **تذكرة الحفاظ**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٢٣ - : **ميزان الاعتدال**، دار الفكر، بيروت، د.ت، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- ١٢٤ - الرازي، فخر الدين محمد: **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ١٢٥ - الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل: **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٢م.
- ١٢٦ - رستم، سعد: **الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات**، الاوائل للنشر، دمشق، ٢٠٠٤م.
- ١٢٧ - رضا، محمد رشيد: **تفسير المنار**، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- ١٢٨ - الزبيدي، محمد مرتضى: **تاج العروس وجواهر القاموس**، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٤م.
- ١٢٩ - الزحيلي، وهبة: **أخلاق المسلم علاقته بالخالق**، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٣هـ.
- ١٣٠ - الزركلي، خير الدين: **الأعلام** (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م.
- ١٣١ - الزغلول، أمين: **المال واستثماره في ميزان الشريعة**، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ١٣٢ - الزمخشري، محمود بن عمر: **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، مطبعة العاني، بغداد، د.ت.
- ١٣٣ - الزنتاني، عبد الحميد: **أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية**، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ٢، ١٩٩٣م.

- ١٣٤ - : فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة، الدار العربية للكتاب، الجماهير العربية الليبية، ١٩٩٣م.
- ١٣٥ - الزهراني، عبد الله: الوسطية في التربية الإسلامية، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ٢٠٠٣م.
- ١٣٦ - زيدان، عبد الكريم: الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في سلوك الإنسان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م.
- ١٣٧ - سابق، سيد: التربية العقلية في الإسلام، جامعة الدول العربية، ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ.
- ١٣٨ - : العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٦٨م.
- ١٣٩ - السباعي، مصطفى: أخلاقنا الاجتماعية، دار السلام، القاهرة، ١٤١٨هـ.
- ١٤٠ - سبحاني، جعفر: الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٨٩م.
- ١٤١ - السحيمراني، أسعد: الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٨م.
- ١٤٢ - سرحان، منير المرسي: في اجتماعيات التربية، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٩١م.
- ١٤٣ - سعد الدين، محمد منير: دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، دار المحروسة، بيروت، ١٩٩٢م.
- ١٤٤ - سعيد، جودت: الإنسان كلاً وعدلاً، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- ١٤٥ - السمعاني، أبو سعد عبد الكريم: الأنساب، دار الجنان، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- ١٤٦ - السندوبي، حسن: رسائل الجاحظ، المطبعة الرحمانية، مصر، د.ت.
- ١٤٧ - السنيدي، سلمان بن عمر: تدبر القرآن، البيان، الرياض، ١٤٢٣هـ.
- ١٤٨ - سويد، محمد نور الدين: منهج التربية النبوية للطفل، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٤م.
- ١٤٩ - السيد، مجدي فتحي: تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي، دار الصحابة، طنطا، ١٩٩٨
- ١٥٠ - سيد الأهل، عبد العزيز: جعفر بن محمد، دار الشرق الجديد، بيروت، ١٩٥٤م.

- ١٥١ - سيري، أحمد عبد الرحمن: دراسات في علم الاقتصاد الإسلامي، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ١٩٨٨م.
- ١٥٢ - السيوطي، جلال الدين: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
- ١٥٣ - : تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٢م.
- ١٥٤ - : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق محمد عمر هاشم، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥.
- ١٥٥ - : الدر المنثور، الفتح، جدة، ١٣٦٥هـ.
- ١٥٦ - الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم: الموافقات في أصول الشريعة، شرح وتعليق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ١٥٧ - الشافعي، ابن طلحة: مطالب السؤول، دار الكتاب، طهران، ١٩٩٩م.
- ١٥٨ - الشافعي النيشابوري، عبد الكريم هوزان: الرسائل القشيرية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ١٥٩ - الشاكري، حسين: نشوء المذاهب والفرق، دار الكتاب، طهران، ١٩٩٩م.
- ١٦٠ - الشلبي، أحمد: التربية الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ١٦١ - : موسوعة التاريخ الإسلامي، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- ١٦٢ - : الاقتصاد في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ١٦٣ - شرقاوي، عبد الرحمن: شخصيات إسلامية، أخبار اليوم، القاهرة، د.ت.
- ١٦٤ - الشريف الرضي: نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- ١٦٥ - شريف القرشي، باقر: موسوعة الإمام الصادق، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٢م.
- ١٦٦ - : النظام التربوي في الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٨م.
- ١٦٧ - شلتوت، محمود: الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٠م.
- ١٦٨ - الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

- ١٦٩ - الصابوني، محمد علي: النبوة والأنبياء، د.ن، مكة المكرمة، د.ت.
- ١٧٠ - الصالح، صبحي: منهل الواردين شرح رياض الصالحين للإمام النووي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣
- ١٧١ - صبحي، أحمد محمود: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٢م.
- ١٧٢ - : نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثني عشرية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
- ١٧٣ - الصدر، محمد باقر: اقتصادنا، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩م.
- ١٧٤ - : دور الأئمة في الحياة الإسلامية، تعليق محمد اليعقوبي، دار المحجة البيضاء، بيروت، ٢٠٠٥م.
- ١٧٥ - : المدرسة الإسلامية، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
- ١٧٦ - : موجز في أصول الدين، مطبعة شريعة، ٢٠٠١م.
- ١٧٧ - الصفدي، صلاح الدين حنبل: الوافي بالوفيات، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م.
- ١٧٨ - ضميرية، عثمان جمعة: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة، ١٩٩٦م.
- ١٧٩ - ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- ١٨٠ - طبارة، غفيف عبد الفتاح: روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م.
- ١٨١ - : روح الصلاة في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م.
- ١٨٢ - الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم،
- ١٨٣ - : سنن النبي، المكتبة الإسلامية، قم، ١٣٦٩هـ.
- ١٨٤ - الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط، تحقيق إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، د.ت.
- ١٨٥ - الطبرسي، فضل بن حسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
- ١٨٦ - : مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٥هـ.

- ١٨٧ - الطبرسي، فضل بن حسن: مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضي، ط ٦، ١٩٧٢م.
- ١٨٨ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعارف، مصر، د.ت.
- ١٨٩ -: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- ١٩٠ - طقوش، محمد سهيل: تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٦
- ١٩١ - الطوسي، محمد بن الحسن: الاستبصار، دار الكتب الإسلامية، قم، ط ٤، ١٤٠٦هـ.
- ١٩٢ -: الأمالي، دار الثقافة، قم، ط ٢، ١٤١٤هـ.
- ١٩٣ -: تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ٤، ١٤٠٦هـ.
- ١٩٤ - الطهراني، آغا بزرك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣م.
- ١٩٥ - العاملي، عبد الصاحب الحسيني: الأخلاق عند الرسول وأصحابه، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٦٩هـ.
- ١٩٦ - العاملي الشامي، زين الدين: منية المريد من آداب المفيد والمستفيد، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٥هـ.
- ١٩٧ - عباس، إحسان: التربية العربية الإسلامية، المجتمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، ١٩٩٠م.
- ١٩٨ - عبد الباقي، زيدان: العمل والعمال والمهن في الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ١٩٩ - عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٨هـ.
- ٢٠٠ - عبد السلام، فاروق: مدخل إلى القياس التربوي والنفسي، دار البشائر، بيروت، ١٩٩١م.
- ٢٠١ - عبد العال، حسن إبراهيم: مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٥هـ.
- ٢٠٢ - عبد العزيز، عمر: الفكر السياسي للإمام الصادق، دار المحجة، بيروت، ١٩٩٧م.

- ٢٠٣ - عبد اللطيف، نبيل: الإنسان كما فطره الله، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠ م.
- ٢٠٤ - عبد الله، محمد: دراسات إسلامية من العلاقات الاجتماعية والدولية، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤ م.
- ٢٠٥ - عبد الهاللي، سليم: إيقاظ الهمم، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٤، ١٤١٩ هـ.
- ٢٠٦ - عبود، عبد الغني: التربية الاقتصادية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٢ م.
- ٢٠٧ - : التربية الإسلامية وتحديات العصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠ م.
- ٢٠٨ - : الفكر التربوي عند الغزالي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢ م.
- ٢٠٩ - : دراسة مقارنة لتاريخ التربية، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٧٨ م.
- ٢١٠ - عبيدات، سليمان أحمد: الطفولة في الإسلام، جمعية المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨٩ م.
- ٢١١ - عتر، نور الدين: منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٢ م.
- ٢١٢ - غرام، محفوظ علي: الأساس العقائدي للتربية، المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية، جمعيات الشبان، القاهرة، ١٩٨٧ م.
- ٢١٣ - العسقلاني، ابن حجر: لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٦ م.
- ٢١٤ - : تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤ م.
- ٢١٥ - العصيمي، فهد: خطة الإسلام في موارد الإنتاج، دار النشر الدولي، الرياض، ١٩٩٤ م.
- ٢١٦ - عطوي، فوزي: الاقتصاد والمال في التشريع الإسلامي والنظم الوضعية، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٨ م.
- ٢١٧ - عفيفي، محمد عبد الله: النظرية الخلقية عند ابن تيمية، مركز ملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٨ م.
- ٢١٨ - عمر، أحمد عمر: فلسفة التربية في القرآن الكريم، دار المكتبي، دمشق، ١٤٢٠ هـ.

- ٢١٩ - العوضي، رفعت السيد: في الاقتصاد الإسلامي، سلسلة كتاب الأمة، مؤسسة الخليج، قطر، ١٤١٠هـ.
- ٢٢٠ - علي، سعيد إسماعيل: اتجاهات الفكر التربوي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩١م.
- ٢٢١ -: فلسفة التربية الإسلامية، دار الكتاب، طهران، ١٤٠٠هـ.
- ٢٢٢ -: مكانة العمل في الفكر التربوي، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ٢٢٣ - العلي، صالح حميد: عناصر الإنتاج من الاقتصاد الإسلامي والنظم الاقتصادية المعاصرة، الإمامة للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٠م.
- ٢٢٤ - العلي، محمد تيسير: الصلة بالله وأثرها في تربية النفس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٢٢٥ - العليمي، بيلي إبراهيم أحمد: السياسة الاقتصادية الإسلامية لترشيد الاستهلاك الفردي، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م.
- ٢٢٦ - عياش السلمي السمرقندي، محمد بن مسعود: التفسير العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، د.ت.
- ٢٢٧ - الغامدي، علي خميس: الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، دار الطيبة، مكة المكرمة، ٢٠٠٣م.
- ٢٢٨ - الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، دار صادر، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٠م.
- ٢٢٩ - الغزالي، محمد: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨م.
- ٢٣٠ -: خلق المسلم، دار القلم، دمشق، ١٩٨٩م.
- ٢٣١ - الفاروق، التاجي: قاموس مصطلحات المصارف والمال والاستثمار، مكتبة لبنان، د.ت.
- ٢٣٢ - فرحان، إسحاق أحمد: نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٣٩٩هـ.
- ٢٣٣ -: التربية بين الأصالة والمعاصرة، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٩٨٣م.
- ٢٣٤ - فروخ، عمر: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣م.
- ٢٣٥ - فروغي، محمد: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م.

- ٢٣٦ - فروغي، محمد: سير الحكمة في أوروبا، نشر زوّار، طهران، ١٤٠٠هـ.
- ٢٣٧ - فضل الله، محمد حسين: الحوار في القرآن، مطبعة الصدر، بيروت، ١٤١٨هـ.
- ٢٣٨ -: خطوات على طريق الإسلام، دار التعارف، بيروت، ١٩٨٦م.
- ٢٣٩ - الفضلي، عبد الهادي: التربية الدينية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، د.ت.
- ٢٤٠ - فلسفي، محمد تقي: الأخلاق من منظور التعايش والقيم الإنسانية، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٢٤١ -: الطفل بين الوراثة والتربية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٢٤٢ -: الشاب بين العقل والعاطفة، مؤسسة البعثة، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٢٤٣ -: المعاد بين الروح والجسد، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٣م.
- ٢٤٤ - الفنجري، محمد شوقي: المذهب الاقتصادي في الإسلام، دار عكاظ، الرياض، ١٤٠١هـ.
- ٢٤٥ - الفياض، عبد الله: تاريخ التربية عند الإمامية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٨٣م.
- ٢٤٦ - الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٢٤٧ - فينكس، فيليب: فلسفة التربية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٢٤٨ - فهمي، سيف الدين: مبادئ التربية الصناعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ٢٤٩ - القرضاوي، يوسف: التربية الإسلامية ومدرسة حسن البناء، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٤٠٠هـ.
- ٢٥٠ - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: بهجة المجالس، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت.
- ٢٥١ - القزاز، محمد سعد: الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٥م.
- ٢٥٢ - القزويني، محمد كاظم: موسوعة الإمام الصادق، مطبعة سيد الشهداء، قم، ١٤١٥هـ.

- ٢٥٣ - القزويني، أمير علاء الدين: الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، مكتبة الفقيه، الكويت، ١٩٨٦م.
- ٢٥٤ - قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٦٧م.
- ٢٥٥ - : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٢٥٦ - قطب، محمد: حول التأصيل للعلوم الاجتماعية، دار الشروق، بيروت، ١٤١٨هـ.
- ٢٥٧ - : ركائز الإيمان، دار الشروق، بيروت، ٢٠٠١م.
- ٢٥٨ - : لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٥م.
- ٢٥٩ - : منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٠هـ.
- ٢٦٠ - قلعه جي، محمد رواس: مباحث في الاقتصاد الإسلامي، دار النفائس، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ٢٦١ - القندوزي، سليمان بن إبراهيم: ينابيع المودة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٢٦٢ - القوصي، عبد العزيز: أسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م.
- ٢٦٣ - الكاظم، محسن: تاريخ الفكر الاقتصادي، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٩م.
- ٢٦٤ - الكفراوي، عوف محمد: تكاليف الإنتاج والتسعير في الإسلام، مركز إسكندرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- ٢٦٥ - كلشني، مهدي: القرآن ومعرفة الطبيعة، دار الأضواء، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران.
- ٢٦٦ - الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب: الكافي (أصول وفروع)، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ٣، ١٣٨٨هـ.
- ٢٦٧ - الكيلاني، ماجد عرسان: الأمة المسلمة، دار الاستقامة، مكة المكرمة، ١٩٩٥م.
- ٢٦٨ - : فلسفة التربية الإسلامية، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، ١٩٨٧م.
- ٢٦٩ - المازندراني، محمد صالح: شرح أصول الكافي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

- ٢٧٠ - المالكي، ابن الصباغ: **الفصول المهمة من معرفة الأئمة**، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٢٧١ - الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري: **أدب الدنيا والدين**، تحقيق مصطفى السقاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨م.
- ٢٧٢ - متز، آدم: **الحضارة الإسلامية من القرن الرابع الهجري**، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ٢٧٣ - المتقي الهندي، علاء الدين علي: **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٠م.
- ٢٧٤ - المجلسي، محمد باقر: **بحار الأنوار**، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣م.
- ٢٧٥ - مجموعة من الباحثين الغربيين: **الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب**، دار الذخائر للمطبوعات، نقله إلى العربية آل علي، قم، ١٩٨٨م.
- ٢٧٦ - محمد، قطب إبراهيم: **الإطار الأخلاقي لمالية المسلم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.
- ٢٧٧ - اختيار معرفة الرجال، تحقيق محمد باقر الحسيني، مؤسسة آل البيت، قم. د. ت.
- ٢٧٨ - محمود، عبد القادر: **الإمام الصادق رائد السنة والشيعة**، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ٢٧٩ - محمود، علي عبد الحليم: **التربية الاجتماعية في الإسلام**، دار التوزيع والنشر الإسلامي، بور سعيد، ٢٠٠١م.
- ٢٨٠ -: **التربية الروحية**، دار التوزيع والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.
- ٢٨١ -: **التربية العقلية**، دار التوزيع والنشر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م.
- ٢٨٢ -: **تربية الناشئ المسلم**، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٢م.
- ٢٨٣ - مدكور، علي احمد: **منهج التربية في التصور الإسلامي**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٠م.
- ٢٨٤ - مرسي، سيد عبد الحميد: **الشخصية المنتجة**، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٥م.
- ٢٨٥ - مرسي، محمد منير: **التربية الإسلامية أصولها ونظورها في البلاد**، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٣م.

- ٢٨٦ - المزي، أبو الحجاج يوسف: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.
- ٢٨٧ - مسعود، سميح: الموسوعة الاقتصادية، شركة المطبوعات للتوزيع، بيروت، ١٩٩٧م.
- ٢٨٨ - المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجواهر، دار الفكر، بيروت، ط ٥، ١٩٧٣م.
- ٢٨٩ - مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٠م.
- ٢٩٠ - مصباح، محمد تقي: الأخلاق في القرآن الكريم، دار المعارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ٢٩١ - مطاوع، إبراهيم عصمت: أصول التربية، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٣م.
- ٢٩٢ - : قراءات في التربية وعلم النفس، مكتبة الطابع الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦م.
- ٢٩٣ - مطر، سيف الدين علي: التغيير الاجتماعي دراسة تحليلية من منظور التربية الإسلامية، دار الوفاء، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ٢٩٤ - مطهري، مرتضى: التربية والتعليم في الإسلام، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ٢٩٥ - المظفر، كاظم: توحيد المفضل، مؤسسة الوفاء، ط ٢، ١٤٠٤م.
- ٢٩٦ - المظفر، محمد حسين: الإمام الصادق، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤٠٩م.
- ٢٩٧ - معروف، نايف: الخوارج في العصر الأموي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٤م.
- ٢٩٨ - : الإنسان والعقل، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٥م.
- ٢٩٩ - مغنيه، محمد جواد: فقه الإمام جعفر الصادق، نشر قدس، قم، د.ت.
- ٣٠٠ - المفيد، محمد بن نعمان: الاختصاص، تحقيق علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د.ت.
- ٣٠١ - : الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، المجمع العالمي لأهل البيت، طهران، ١٤٢٣هـ.
- ٣٠٢ - : الآمال، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د.ت.

- ٣٠٣ - المقريري، تقي الدين أحمد بن علي: الخطط المقريرية، إحياء العلوم، لبنان، د.ت.
- ٣٠٤ -: النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٧هـ:.
- ٣٠٥ - مكارم شيرازي، ناصر: الخطوط الأساسية للاقتصاد الإسلامي، دار الصفوة، بيروت، ١٩٩٤م.
- ٣٠٦ -: الأخلاق في القرآن، نشر الجيل الشاب، قم، ٢٠٠١م.
- ٣٠٧ -: مثالهاي زيباي قرآن (أمثال القرآن)، نسل جوان، قم، ١٤٢٠هـ: (باللغة الفارسية).
- ٣٠٨ - مكرم، عبد العال سالم: أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م.
- ٣٠٩ - المكي الحارثي، أبو طالب: قوت القلوب في معاملة المحبوب، القاهرة، د.ت.
- ٣١٠ - مكّي، محمد كاظم: المدخل إلى حضارة العصر العباسي، دار الزهراء، بيروت، ١٩٩٩م.
- ٣١١ - منتصر، أمين: نظرية السلوك المستهلك في الاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، د.ت.
- ٣١٢ - الموسوي، عباس علي: العلاقات الاجتماعية في الإسلام، دار المرتضى، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٣١٣ - الموسوي، عبد الرحيم: المنهج الإصلاحي عند الإمام الصادق، دراسات وبحوث مؤتمر الإمام الصادق، المجمع العالمي لأهل البيت، إيران ١٤٢٣هـ.
- ٣١٤ - موسى، كامل: أحكام العبادات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٤، د.ت.
- ٣١٥ - ناصر، محمد: قراءات في الفكر التربوي، وكالة المطبوعات للنشر، ١٩٧٧م.
- ٣١٦ - الناطور، شحادة علي: دور الموال في المجتمع الأموي، دار الكندي للنشر، عمان، ١٩٩٧م..
- ٣١٧ - نجاتي، محمد عثمان: الحديث النبوي وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ٣١٨ -: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ٢٠٠١م.

- ٣١٩ - النجار، عبد المجيد عمر: الإيمان بالله وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٧م.
- ٣٢٠ - النجاشي الكوفي، أحمد بن علي: رجال النجاشي، تحقيق محمد جواد الناشئ، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- ٣٢١ - النجيجي، محمد ليبب: الأسس الاجتماعية للتربية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨م.
- ٣٢٢ - النحلاوي، عبد الرحمن: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- ٣٢٣ - النراقي، محمد مهدي: جامع السعادات، دار التفسير، قم، ١٤٢٣هـ.
- ٣٢٤ - النشمي، عجيل جاسم: الانفصام بين النظرية والتطبيق ودور الفكر الغربي، اللجنة الاستشارية العليا، الكويت، ١٩٩٥م.
- ٣٢٥ - نشوان، يعقوب حسين: المنهج التربوي من منظور إسلامي، دار الفرقان، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٣٢٦ - النقيب، عبد الرحمن: مدخل لدراسة الاتجاه الحرفي والمهني في التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، المنصورة، د.ت.
- ٣٢٧ - النووي، أبي زكريا يحيى بن شرف: رياض الصالحين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣م.
- ٣٢٨ - النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأداب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د.ت.
- ٣٢٩ - نويهض، عادل: معجم المفسرين، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٣٣٠ - وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧١م.
- ٣٣١ - الوزير، إبراهيم بن علي: دراسة السنن الإلهية والمسلم المعاصر، دار الشروق، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ.
- ٣٣٢ - الهيثمي، علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٣٣٣ - الهيثمي، أحمد بن محمد بن حجر: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

- ٣٣٤ - الهندي، السيد مير علي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، القاهرة، ١٩٣٨م.
- ٣٣٥ - الهندي، جمال محمد: التربية المهنية والحرفية في الإسلام، دار الوفاء، المنصورة، ٢٠٠٠م.
- ٣٣٦ - الهيكل، عبد العزيز فهمي: مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
- ٣٣٧ - يالجن، مقداد: دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣م.
- ٣٣٨ - : جوانب التربية الإسلامية، مطابع القصيم، الرياض، ١٩٨٥م.
- ٣٣٩ - : علم النفس التربوي في الإسلام، دار عالم الكتب، رياض، ١٩٩٧م، دار المريخ ١٩٨١م.
- ٣٤٠ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

المجلات:

- ٣٤١ - مجلة الاقتصاد الإسلامي، رجب مصطفى: حماية الملكية في النظام الإسلامي وأبعادها التربوية، عدد ٢٩٠، دبي، الإمارات، ١٤٢٦هـ.
- ٣٤٢ - : شحاته، حسين: أصول منهج التربية الاقتصادية في الإسلام، العدد ٢٩٥، دبي، الإمارات، ١٤٢٦هـ.
- ٣٤٣ - : إرشيد، محمود عبد الكريم: دور القيم والأخلاق في ضبط الاستهلاك، العدد ٢٩٣، دبي، ١٤٢٦هـ.
- ٣٤٤ - مجلة نهج الإسلام: الزحيلي، وهبة: مفهوم المال والاقتصاد في الإسلام، العدد ٤٩، دمشق، ١٩٩٢م.
- ٣٤٥ - مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، سميران، محمد علي: مبدأ الإيثار في المنهج الإسلامي ونظرية تكبير المنفعة في الاقتصاد الوضعي، العدد ٥٣، الكويت.
- ٣٤٦ - : العيادي، أحمد صبحي: السياسة النقدية والمالية في الإسلام، العدد ٥٣، الكويت.
- ٣٤٧ - : المرزوقي، عمر بن فيحان: النشاط الاقتصادي من المنظور الإسلامي، العدد ٤٥، الكويت.
- ٣٤٨ - مجلة إسلامية المعرفة، علي، سعيد اسماعيل: مركزية القضية التربوية في فهم واقع الأمة وأسباب تخلفها، العدد ٢٩، السنة الثامنة، ٢٠٠٢م.

فهرس المحتويات

الإهداء	أ
تقديم	٥
شكر وتقدير	٧
الإطار العام للدراسة: المقدمة	٩
أسباب اختيار الدراسة	١٠
إشكالية الدراسة	١٠
صعوبات الدراسة	١١
منهج الدراسة وحدودها	١١
الدراسات السابقة	١٢
خطوات الدراسة	١٢
فصل تمهيدي: التربية من المنظور الإسلامي	١٥
مفهوم التربية الإسلامية وأهميتها	١٨
العوامل المؤثرة في التربية	٢١
مصادر التربية الإسلامية وسماتها	٢٦
أ - مصادر التربية الإسلامية	٢٦
القرآن الكريم	٢٧
السنة النبوية المطهرة	٢٧
ب - سمات التربية الإسلامية	٢٩
ربانية	٢٩
تكاملية شاملة	٢٩
متوازنة	٣٠
وسطية	٣١
سلوكية عملية	٣٢
مستمرة	٣٣
سهلة ومرنة	٣٤

٣٥	عالمية وخالدة
٣٦	أهداف التربية الإسلامية وأساليبها
٣٦	أ - أهداف التربية الإسلامية
٣٧	ب - أساليب التربية الإسلامية
٣٨	التربية بالوعظ والنصح
٣٩	التربية بالقدوة
٤٠	التربية بالقصة
٤٠	التربية بالترغيب والترهيب
٤١	التربية بالتشبيه وضرب الأمثال
٤٣	التربية بالعمل والعادة

الفصل الأول

دراسة شخصية الإمام الصادق

٤٧	تمهيد
٤٩	المبحث الأول: المعالم البارزة في عصر الصادق
٥١	الجانب السياسي
٥٨	الجانب الديني
٥٨	أ - الخوارج
٥٩	ب - المعتزلة
٦٠	ج - الجهمية أو الجبرية
٦١	د - القدريّة
٦١	هـ - المرجئة
٦٢	و - الغالية (من الشيعة)
٦٤	الجانب الاجتماعي
٦٩	الجانب العلمي والثقافي
٧٣	المبحث الثاني: المعالم البارزة من حياة الإمام الصادق
٧٥	المعالم البارزة من حياة الإمام الصادق
٧٥	ولادته وتسميته
٧٦	نشأته
٧٨	روافد علمه وفكره
٨٠	لمحات من صفاته وأخلاقه

٨٠	أ - الإخلاص
٨١	ب - عبادته
٨١	ج - سخاؤه
٨٢	هـ - إكرامه للضيوف
٨٣	و - تواضعه ومواساته للضعفاء
٨٤	ز - حضور بديهته
٨٤	ح - هيئته
٨٦	مكانته العلمية وآثاره
٩١	مؤلفات الإمام جعفر بن محمد الصادق
٩٣	أقوال العلماء في شخصيته
٩٦	رواته وكبار المتخرجين من تلاميذه
٩٩	أبان بن تغلب
١٠٠	جابر بن حيان
١٠٥	المبحث الثالث: إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق
١٠٥	أساسيات التربية عند الإمام
١٠٥	أ - الله
١٠٧	ب - الكون
١٠٩	ج - الإنسان
١١٠	طبيعة الإنسان وفطرته
١١٢	حرية الإنسان وإرادته
١١٤	اهتمامات الصادق التربوية بالبعدين الروحي والجسدي
١١٨	العوامل المؤثرة في التربية عند الإمام
١٢٠	تربية الطفل ورعايته في فكر الصادق
١٢٤	طرائق التربية والتعليم في مدرسة الصادق
١٢٤	أ - طريقة الوعظ
١٢٥	ب - طريقة الرسائل
١٢٧	ج - طريقة المناظرة والحوار
١٢٨	د - طريقة الإملاء
١٢٩	هـ - طريقة الوصايا
١٣٠	و - طريقة الدعاء

الفصل الثاني

التربية العقدية والعبادية في مدرسة الإمام الصادق

١٣٥	تمهيد
١٣٧	المبحث الأول: البناء العقدي
١٣٩	العقيدة وأهميتها
١٤١	موقع العقيدة الإسلامية في فكر الإمام التربوي
١٤٣	تكوين العقيدة الصحيحة في منهج الإمام التربوي
١٤٤	أ - معرفة الله وتوحيده
١٤٤	دلالة فطرية
١٤٦	دلالة حسية
١٤٨	دلالة عقلية
١٥٠	تعريف الله بأسمائه وصفاته
١٥٢	ب - الإيمان بالملائكة
١٥٣	ج - الإيمان بالكتب السماوية
١٥٤	التربية على التمسك بالقرآن الكريم
١٥٥	د - معرفة أنبياء الله ورسله
١٥٧	التربية على اتخاذ الرسول ﷺ قدوة واتباع سنته
١٦٠	هـ - المعرفة باليوم الآخر
١٦١	و - المعرفة والإيمان بالقدر
١٦٤	تحصين الأمة من التيارات المنحرفة والخاطئة
١٦٤	أ - مواجهة الإلحاد والزندقة
١٦٧	ب - تحذير الأمة من الأفكار المنحرفة
١٦٩	ج - صيانة الناس عن التصورات الخاطئة
١٧٣	المبحث الثاني: البناء العبادي
١٧٦	مفهوم العبادة وأهميتها
١٧٨	الالتزام بالنظرية والتطبيق في فكر الإمام
١٨٠	تعليم فقه العبادات في مدرسة الصادق
١٨٢	تربية الروح بمظاهر العبادة
١٨٢	أ - تقوية الصلة بالله عن طريق الصلاة
١٨٥	ب - تطهير النفس والمال بالزكاة

- ج - كمال الانقياد والعبودية بالحج ١٨٦
- د - ضبط الأهواء والشهوات بالصيام ١٨٧
- هـ - التعليم الذاتي لتلاوة القرآن الكريم ١٨٨
- و - إظهار الافتقار إلى الله بالدعاء ١٩٠
- التركيز على الاعتدال في العبادة ١٩١

الفصل الثالث

التربية العلمية والعقلية في مدرسة الإمام الصادق

- تمهيد ١٩٥
- المبحث الأول: البناء العلمي ١٩٧
- أهمية العلم وحث الإمام على طلبه ١٩٩
- مدرسته العلمية وخصائصها ٢٠٢
- مركزها ٢٠٣
- طلابها ٢٠٣
- أنواع علومها ٢٠٤
- مراعاة التخصص في العلوم ٢٠٥
- التأليف والتدوين ٢٠٦
- الإفادات التربوية حول العالم والمتعلم ٢٠٨
- أ - شخصية العالم المعلم في فكر الصادق ٢٠٨
- المقومات الشخصية للعالم المعلم ٢٠٩
- المقومات المهنية للعالم المعلم ٢١٢
- ب - شخصية المتعلم في فكر الصادق ٢١٧
- الأساليب التعليمية عند الصادق ٢٢٤
- أ - استخدام الوسائل التعليمية ٢٢٤
- ب - تشجيع الطالب والثناء عليه ٢٢٥
- ج - التضاد أو المقارنة ٢٢٦
- د - التمثيل والتشبيه ٢٢٦
- هـ - تنظيم المعلومات وتقسيمها ٢٢٧
- و - الترقيم والأعداد ٢٢٨
- ز - أسلوب الاستجواب ٢٢٨
- ح - التعليم العملي ٢٢٩

٢٣٠	ط - التدريب والتقييم
٢٣٣	المبحث الثاني: البناء العقلي
٢٣٧	مكانة العقل في مدرسة الصادق
٢٤٠	العلاقة بين العقل والدين
٢٤٢	العلاقة بين العقل والسلوك الأخلاقي
٢٤٤	سبل تنمية العقل عند الصادق
٢٤٤	أ - تدريب العقل على حرية التفكير والابتعاد عن الجمود والتقليد
٢٤٦	ب - حث العقل على التفكير والنظر والتدبر
٢٤٧	النظر في حكمة الكون ومخلوقاته
٢٤٨	النظر في حكمة التشريع
٢٤٩	النظر في السنن الإلهية
٢٤٩	ج - تعويد العقل التفكير العلمي
	الخطوة الأولى الدعوة إلى استخدام الحواس للوصول إلى المعرفة
٢٥٠	(مرحلة الملاحظة والاستبطان)
٢٥١	الخطوة الثانية: إدراك العلاقة بين الظاهرة ومسبباتها (مرحلة الاستدلال العقلي)
٢٥٢	الخطوة الثالثة: استخدام التفكير المنطقي (مرحلة الاستنتاج)

الفصل الرابع

التربية الخلقية والاجتماعية في مدرسة الإمام الصادق

٢٥٧	تمهيد
٢٥٩	المبحث الأول: البناء الخلقى
٢٦١	ماهية الخلق وأقسامه
٢٦٤	موقع الأخلاق في صرح الإمام الصادق التربوي
٢٦٨	أهداف التربية الخلقية في مدرسة الصادق
٢٧١	مبادئ التربية الخلقية في مدرسة الصادق
٢٧١	أ - تكوين بصيرة أخلاقية
٢٧٢	تعريف السلوك الأخلاقي بظواهره
٢٧٣	تحديد السلوك الأخلاقي وتمييزه عن غيره
٢٧٤	تبين آثار السلوك الأخلاقي ونتائجه
٢٧٦	ب - تكوين عاطفة أخلاقية
٢٧٦	التذكير بالوازع الداخلي أو الحس الأخلاقي

- ٢٧٧ تحريك عنصري الطمع والخوف
- ٢٧٨ تشجيع الناس على محاسبة النفس (المراقبة الذاتية)
- ٢٧٩ ج - تكوين قوة الإرادة
- ٢٨٠ الدعوة إلى مخالفة الهوى وجهاد النفس
- ٢٨١ الالتزام بالورع والتقوى
- ٢٨١ تقوية الثقة بالله والتوكل عليه
- ٢٨٣ أساليب التربية الخلقية عند الإمام الصادق
- ٢٨٣ أ - الأسلوب العملي المباشر
- ٢٨٤ ب - الاستفادة من الاهتمامات الفكرية والعاطفية لدى المتلقي
- ٢٨٥ ج - أسلوب التعريض أو التلميح
- ٢٨٦ د - ردود الفعل السلوكية
- ٢٨٧ هـ - انتهاز الفرص والظروف المناسبة
- ٢٨٨ و - التنبيه إلى الجوانب الخفية من العمل
- ٢٨٩ ز - التوجيه والإرشاد من خلال قضاء الحاجات
- ٢٩٠ ح - الأوامر والنواهي المباشرة
- ٢٩١ **المبحث الثاني : البناء الاجتماعي**
- ٢٩٥ تنمية روح التعلق بالمجتمع
- ٢٩٧ تنمية الشعور بالمسؤولية في المجتمع
- ٢٩٧ أ - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات الخاصة
- ٢٩٨ العائلة المثالية في فكر الصادق
- ٢٩٨ - العلاقة بين الزوجين
- ٢٩٩ - العلاقة بين الوالدين والأبناء
- ٣٠٠ العلاقة الطيبة مع الأرحام والأقارب
- ٣٠١ علاقة الجيران والأصدقاء
- ٣٠٣ ب - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات العامة
- ٣٠٥ مبادئ التربية الاجتماعية في فكر الصادق
- ٣٠٥ أ - مبدأ التأخي والتعاطف
- ٣٠٦ التزاور
- ٣٠٦ التناضف
- ٣٠٦ التهادي

٣٠٧	التصريح بالحب والمودة
٣٠٧	الحفاظ على الحشمة
٣٠٧	ترك ما يكدر المودة
٣٠٨	ب - مبدأ التعاون والتكافل
٣٠٩	تأصيل خدمة الناس وقضاء حوائجهم
٣١١	الحث على الإقراض والإمهال
٣١٢	الدعوة إلى المواساة والإغاثة
٣١٤	ج - مبدأ الصدق والأمانة
٣١٥	إلزام الناس بأداء الأمانة إلى صاحبها
٣١٥	التشجيع على هذا المبدأ من خلال عرض القدوة
٣١٦	وضع هذا المبدأ معيار لمعرفة الأشخاص
٣١٦	التركيز على النتائج الإيجابية لهذا المبدأ في التعامل الاجتماعي
٣١٦	التحذير من الائتمان بالفسق
٣١٧	د - مبدأ الإصلاح الاجتماعي
٣١٩	المراقبة والنقد الاجتماعي
٣٢٢	مواجهة الخلافات والخصومات الاجتماعية
٣٢٣	١ - تجنب جذور الخلافات والخصومات
٣٢٧	٢ - التغافل وحسن الظن
٣٢٨	٣ - إصلاح ذات البين
٣٣٠	٤ - العفو ومقابلة الإساءة بالإحسان

الفصل الخامس

التربية الاقتصادية والمهنية في مدرسة الصادق

٣٣٥	تمهيد
٣٣٧	المبحث الأول: البناء الاقتصادي
٣٣٩	مفهوم الاقتصاد وأهميته
٣٤٣	الجانب الاقتصادي في فكر الإمام التربوي
٣٤٦	تربية المسلم الاقتصادية في المجال المعرفي
٣٤٦	أ - تعميق مفهوم المال والمالية
٣٤٦	حقيقة المال
٣٤٨	حقيقة الملكية

٣٤٩	 دور المال في حياة الإنسان
٣٥٣	ب - تصحيح المفاهيم الخاطئة في طلب المعاش
٣٥٣	 الرزق بين التقدير والطلب
٣٥٦	 ضرورة الوعي بمؤثرات الرزق
٣٥٩	ج - تقويم النظرة إلى الربح والكسب
٣٥٩	 التوازن بين الربح المادي والمعنوي
٣٦١	 العلاقة بين الكسب والعمل
٣٦٤	 تربية المسلم الاقتصادية في المجال السلوكي
٣٦٥	أ - تربية المسلم على الإنتاج في مدرسة الصادق
٣٦٥	 أهمية الإنتاج ووجوهه
٣٦٦	 أهداف الإنتاج وضوابطه
٣٦٨	 عناصر الإنتاج وحسن استغلالها
٣٧٥	ب - تربية المسلم على الاستهلاك في مدرسة الصادق
٣٧٥	 أهمية الاستهلاك وترشيده
٣٧٨	 تبين وجوه الإنفاق والحضّ عليه
٣٨١	 تحديد الإنفاق والإلزام به
٣٩١	 المبحث الثاني: البناء المهني
٣٩٤	 مفهوم المهنة وأهميتها
٣٩٥	 الجانب المهني في فكر الإمام التربوي
٣٩٨	 تصنيف المهن والحرف في مدرسة الصادق
٣٩٩	أ - الزراعة
٤٠٠	ب - الرعي
٤٠٠	ج - الصناعة
٤٠١	د - التجارة
٤٠٤	 أخلاقيات المهن والحرف في مدرسة الصادق
٤٠٤	أ - الخبرة والمهارة
٤٠٥	ب - الاتقان
٤٠٦	ج - الصدق وتجنب الغش
٤٠٧	د - الالتزام بالأمانة
٤٠٧	هـ - حسن المعاملة

٤٠٩	 الخاتمه (وفيها ميزات التربية للإمام الصادق)
	الفهارس العامة
٤١٧	 فهرس الآيات الشريفة
٤٢٦	 فهرس الأحاديث النبوية
٤٢٨	 فهرس الأعلام
٤٣٣	 المصادر والمراجع
٤٥٤	 فهرس المحتويات